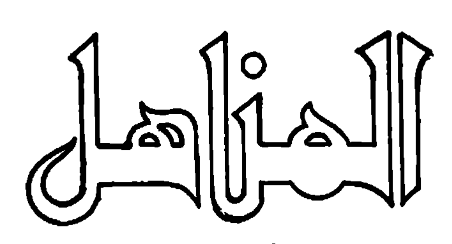
المناهل



11

المناهل



تصدرها
وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

العدد الحادي عشر
السنة الخامسة

ربيع الأول 1398
مارس 1978

تهنئة "المناهل"
بعيد العرش السعيد

يشرف أسرة "المناهل" ويسعدها أن ترفع بمناسبة عيد العرش السعيد أسمى آيات التهاني والتبريك إلى رائد نهضة البلاد، وراعي الأدب والأدباء، ومفخرة العلم والعرفان والبيان، حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني نصره الله صانع المغرب الجديد.

و"المناهل" إذ ترفع عواطفها الجياشة الزاخرة بالمحبة إلى مقام حضرة صاحب الجلالة مقرونة بولائها وإخلاصها تضرع إلى الله العلي القدير، أن يسعده بهذا العيد الميمون، هو وأسرته الصغيرة والكبيرة، وأن يقر عينه الكريمة بولي عهده سيدي محمد، وبصنوه مولاي الرشيد، الأميرين العزيزين المحبوبين، وبأخواتهما الأميرات الجليلات، كما تضرع إليه سبحانه أن يمتعه بدوام العافية والسعادة وأن يحقق على يده الكريمة ما يطمح إليه شعبه من تقدم ورفاهية وازدهار.

المناهل

الفهــــرس

صفـحـــة

تهنئة « المناهل » بعيد العرش السعيد

فيلوبوليس (شعــر)
عبــد اللــه كــنــون 9

الشفق والحناء وريش الطاووس
محمــد العربــى الخطــابى ...... 12......

معجم مصطلحات الملحون الفنيــة
د. عبـــاس الجـــراري 16

ادريس الاكبر فاتح المغرب
د. عـــبـــد الهـــادي التازي 105

الفكر العلمى ومنهجية البحث عند علماء المغرب
عبد العزيز بنعبد الله 121

مسكينـــة (قصـــة)
عبد المجيـــد ابـــن جلون 160

قضية روديسيـــا ، تطورها التاريخى
د. شوقـــى عطا الله الجمل 167

الاسلام والتطور فى ضوء فلسفة محمد اقبال
محمد الكتانى 217
قبلة للمغرب المسلم الحبيب (شعر)
عمر بهاء الدين الاميري 235
المغرب فى كتاب صبح الاعشى (4)
محمد ابن تاويت 237
مأساة الحسين فى الادب الاندلسى
د. عبد السلام الهراس 261
لا تنبش القبور (قصة)
أحمد عبد السلام البقالى 275
صفحات من تاريخ الصويرة
الصديق بن العربى 303
الوضع المالى لولاة مصر من 1517 الى 1798 م
د. فؤاد محمد الماوي 325
حول رباط عبد الله بن يسن
عصمت دندش 354
المرابطون بالاندلس من خلال ديوان الاعمى التطيلى
حسن الطريبق 366
الاعلام الثقافى
المناهل 390

فيلوبوليس

عبد الله كنون

زرت هذه المدينة الاثرية الرومانية سنة 1947 فأوحـــت الـــي بالقصيـــدة التاليـــة :

قـــف علـــى أطلالهـــا واعتبـــر كيـــف دالت دولة المستمعـــر
وسل الآثـــار عمـــا أثـــــرت تنبـــك الآثـــار عـــن مستأثـــر
وقس الشاهد بالغائب مـــن نـــزوات الظالـــم المستهتـــر
واحتكم فيه على الدهـــر بمـــا شاهدت عيناك من معتبـــر (1)
لا تقـــل طـــال عليـــه أمـــد انما الأمـــر بوفـــق القـــدر
فكأن قـــد عصف الدهر بـــه وطواه ثـــم لمـــا ينشـــر
هو سطـــر رقمـــت أحرفـــه بنضـــار فى جميـــع الزبـــر :

---

(1) مصـــدر ميمـــي بمعنـــى عبـــرة

انــه ما دام طغيــــان ولا كانت العقبــى لباغ مجتــري

***

ايه روما ، والليالــى غـــدر هل بصرت الحق أم لم تبصــر
كان ما شيدتــه عــن ثقـــة بدوام الفتح أم عن بطـــــر
هذه القــوس لنصــر رفعــت ولذكرى قنصل أو قيصــر (2)
فغدت ذكرى لدحــر ساحــق ولتمجيــد رجــال غيـــــر
وغدا المسرح (3) عرضا دائما لمصير الدخــلاء الختـــــر
هى ذي أشباحهـــم ماثلـــة بــين أيــدي حجــر أو مــدر
انني أسمعهــا تصــرخ مــن خلل الصمت العميق المــزدري
وكلاب من نحــاس مثلـــت قد عوت فى اثرهم من سعر (4)
وخــراب ودمار كــونـــــا بيئــة مجبــولة مــن كـــدر
تلــك نــار حسبــوهــا جنــة غرمتهــم بــرجوم الشـــرر

***

أيها الواغــل فينــا اننـــــا لــم نطأطىء رأسنا فى عصــر

---

(2) اشارة الى القاب حكام الرومان والمراد بها قوس النصر التي مـــا تزال قائمـــة وســـط المدينـــة .
(3) المسرح الروماني من آثار فيلوبوليس .
(4) من الآثار التي وجدت فى فيلوبوليس ، تمثال كلب من نحاس .

ان هذي مثلاث قد خلــــت فاحترز مــن مثــلاث أخـــر
لا يغرنك ضعف مــا ، بنـــا ضعفنـــا البركان لم ينفجـــر
هل يثور الشعب الا من ونــى أو يمـــد البحر ان لم يجــزر

***

ايـــه يا نشء البلاد المرتجـى يا رجالات الغد المنتظــر (*)
من لهــذا الشعب فى نكبتـــه مــن لهذا الوطــن المحتضـر
مــن له ينشله مــن هــــوة زل فيهــا قــدم المستبصـر
أدركـــوه يـــا بنيــه وبــــه رمــق قبــل وقــوع الخطـر
أسرعوا لا تخلفوا الظــن بكــم بمـــلافــاة انتشـــار الضــرر
طالما استصرخكم مستنهضـــا عزمـــات لم تلـــن مـــن خــور
انكـــم عدتـــه يـــوم اللقـــا فادفعــوا عنـــه جيوش الغير

طنجـــة عبد الله كنـــون

(*) انهى الشاعر القصيدة بهذه الابيات التي أملتها عليه غيرته الوطنية فى تلك الظروف العصيبة إيام الحماية . وفيها ذكرى وموعظة .
(المناهـــل)

الشفق والحنّاء وريش الطّاووس

محمد العربي الخطابي

مـــراكش الحمـــراء ،

مدينة مبسوطة فى حقول الريحان ،

منازلها وأسوارها وأبوابها مضمخة بالحناء مشمولة بأردية الشمـــس .

الشفق فيها يعبق برائحة الزيتون ، والنخيل العتيق يتحـــدث الى السماء بلغة الاهلة ، وأشجار البرتقال تزهر فى أربعة مواسم.

ثراها ظل الاصيل ، والورد فى بساتينها عطر أحمر وبه سميت حمـــراء .

والعصافير ــ آلاف العصافير ــ تشقشق فى أفنائها ، تسمعها ولا تراها ، وأنت لا تدري أهى وسنانة أم أنها تتأهب للمرح قبل أن تنام كى تحلم بمسك الليل وبقطرات الطل تتلألأ فى غصـون الغسق وبحبات الخرطال تتناثر فوق العشب النـدي .

*****

مدينة يطالعك ، وأنت داخل اليها ، رداء « ابن يوسف » يلف « الكتبية » الفرهاء الجليلة فلا تحس بابن تاشفين «ودار الحجر» الا حينما تطويك أسوار المدينة وتظلك فى دروبها عرائش الكروم والياسمـين .

و « أبو العباس » أحد رجالها السبعة ــ يخاطبك حينما تنطلق أصوات المؤذنين منفوق الصوامع فيحدثك عن السبحة الخضراء.. عن «عياض» .. وأزهار رياضه..عن «العود الملقى فىالبحر على بطنـه » .. فتتنيه فى مفاوز الزمن وفى عينيك لؤلؤتان باردتان .

*****

وحينما تدغدغ همسات النسيم أذنيك تشعر وكأنك فى مضارب « المرابطين » تلتقى برجالهم ملثمين فى الازقة والدروب يحملون الشموع فى أيديهم اليمنى والكتب فى اليسرى ، وسرعان ما تتذكر خلوة « أغمات » وهى على مرمى الظل منك ، وتذكر « الخير الدا » ومياه النهـر الكبير تخطر فى أعطاف « اشبيلية » هادئة خفيفة

خضراء .. وتذكر « البديع » وفرائد الشعر معلقة فى أبهائـــه وسراديبـــه وقبابـــه .

ويشغلك المساء فتجد نفسك فى زقاق طويل منعرج والناس فى دكاكينهم قاعدون وكأنهم لم يبرحوها منذ الزمن السحيق ... حركات الايدي قديمة وتعابير الوجوه ثابتة لاتريم ، والسواعــد تتحدى الايام والليالى ...

***

وبغتة تمر عليك سمراء معطرة بماء الزهر وبخور النـــد ، سمراء فى لون الشهدة مفتونة بصباها .. عيناها خلاصة العيون ، وشفتاها رحيق الزبيب والبلح .. تراها وتتنهد فلا يفيدك التنهد، وتهم بالسير وراءها فيمنعك الوقار .. وقارهـــا .

وتطل عليك أخرى من كوة فى الحائط فيمتلىء بك المكـــان وتتثاقل خطاك ، دهشة ، ويخيل اليك أنك تلامس شعرها الممزوج بخصلات الظلال فتبتسم أنت ، وتبتسم هى .. وينتهى الحوار فى الهواء ليبدأ الهمس فى الجوارح .



وفى بستان « المسرة » ، بعد لأي ، تنسى العيون والقدود والشفاه ، وتغيب نظراتك فى مياه الصهريج فتختلط بأشباح النخيل

وأطياف السماء وعيون النيلوفر ، وكل شىء يبدو فى لون خضرة غامقة متموجة دافئة .

وتسمع الطبول والدفوف والمزامير – أو يخيل اليك أنـــك تسمعها – فيبدأ الرقص والسمر ، ويمتزج المرح بالوحشة ، والقرب بالهجران ، وبنات الأطلس ، فى أرديتهــن البيضـــاء ومجاديلهن الملونة ، يملأن المكان ترنيما وحركة وبهجة .

**

فى مراكش .. يتعانق النخيل والبرتقال والزيتون فى الليل .. وينتهى العناق مع الفجر احتفالا ببهاء الشمس . ويبدو كل شىء فى لون الضوء شفافا نافذا مشوبا بسمرة الحنطة .

حتى الوجوه والقباب والجدران ومشارف المدينة تتشـــرب هذا الضوء الطروب فتتضمخ به وتتطهــر .

مراكش الحمراء .. حقولها موشاة بريـــش الطـــاووس ، وحواشيها منمنمة بأوراق الكروم وأزهار المشمش والجلنار .

الزلال فى مائها زلال ، والنسيم فى أكنافها شفاء ، والعطر فى رياضها عشق وصبابة . نهارها رجاء ، وليلها دعاء ، وفجرهــا صـــلاة واستجابـــة .

الربـــاط **محمد العربى الخطابى**

معجم
مصطلحات الملحون الفنية

د. عباس الجراري

تعتبر قصيدة الزجل التى اشتهرت بقصيدة الملحون ، اهم الوان الادب الشعبى المغربــى ، لغزارة مضامينها وتنوع أشكالها وتعدد ظواهرهــا الفنية ، فضلا عن وضوح كثير من ملامح مسيرتها التاريخية واقبال الشعراء عليها وكذلك الجمهور .

ومن ثم اتسمت بخصب فى مجال الابداع ، تبلورت مظاهره فى محتوى غنى واطار متجدد ، نتج عنهما غنى وتجدد فى اللغة التى توسل بها الشعراء فى التعبير ، سواء ما كان منه يمس الاغراض المختلفة التى تناولوا ، أو ما كان ينصب على المصطلح الفنى والنقدي الذي حددوا به مقاييس النظــم وميزوا معايير الانشاد ، فى ابداع حر تارة ، واقتباس مرن تارة اخرى من اللغة المعربة الفنى أدبها نقدا وعروضا وبيانا وبديعا .

وقد لفت انتباهــى هذا الجانب الاخير أثناء انجازي للاطروحة التى قدمت عن الملحون (1) ، وظل يشدنــى اليه ويغري بضرورة ابرازه ليفيد

---

1) طبعت بعنوان : الزجل فى المغرب ـ القصيدة (الرباط ـ مارس 1970)

منه الادباء النقاد والباحثون اللغويون والمهتمون بادب الشعب وفنه وتراثه عامة ، وليطرح في نطاق عربي مختص على بساط الرصد والتنسيق والتوحيد . وهو هدف لا شك فى أن العرب يسعون جميعا الى تحقيقه فى شتى مجالات المصطلح ، ومنذ امد غير يسير ، وان كانوا دون ذلك يصادفون مشاكل ومصاعب وتعثرات .

واعتقد ان مؤتمرا عربيا للموسيقى يلتقى فيه الباحثون لدراسة الاغنية الشعبية ، جدير بأن يهتم بالمصطلحات المتعلقة بهذه الاغنية ، بل هو مدعو الى تناول موضوع تلك المصطلحات للتعرف اليها ورصدها فى كل اشكال الاغنية الشعبية للنظر فى امكان التنسيق بينها والتوحيد .

واني اذ اقدم (2) مجموعة من مصطلحات الملحون الفنية فى شكل معجم يضم أزيد من ثلاثمائة مصطلح ، أرجو أن يكون هذا العمل منى خير تحية للمؤتمر الخامس للمجمع العربى للموسيقى ، وهو ينعقد فى المغرب الفنى بما ابدع ابناؤه من انتاج ، وما قدموا من عطاء رفدوا به التراث العربى الاسلامى الزاخر ، ولا يزالون .

فلعلى ان اكون فتحت الباب لموضوع فى غاية الاهمية والالحاح ، وعسى المؤتمر ان يوليه ما يستحق من عناية .

---

2) قدم الكاتب هذا المعجم للمؤتمر الخامس للمجمع العربي للموسيقى الذي عقد بالرباط فى الفترة ما بين 18 و 27 اكتوبر 1977 .

تـنـبـيـه

الفت نظر القاريء الكريم الى هذه الملاحظات :

1 ــ أني كتبت المصطلحات وغيرها من الكلمات الملحونة كما ينطق بها.

2 ــ أني كتبت القاف التى تنطق جيما مفلقة كافا بثلاث نقط : كـ

3 ــ آني بدأت بحرف ألف كل الكلمات التى يستهل نطقها بسكون .

4 ــ انى سايرت النطق العامى فى اعتبار بعض الحروف المعجمة مهملة ، كالذال مثلا فانه لا يلفظ الا دالا . ومن ثم ادخلت تحت بابه حتى الكلمات التى تبدأ فى اللغة المعربة بالذال .

5 ــ انى اثناء شرح مصطلح ما قد أتوسل بمصطلح آخر اتبعه بكلمة (انظره) ، اعنى بذلك انى آحيل القاريء اليه .

* **الـــــودبـــــا :**

الشعراء ، وهو تحريف ادباء .

* **الادريـــســيـــات :**

قصائد مدح المولى ادريس ، كهاته التى يقـــول الفقيـــه العميري فى حـــربتهـــا :

عز ربى الماجد الصفا ولوغا الدريسى مولاي ادريس بن الوافى

* **الاصـــبـــهـــان :**

نوبة موسيقية (انظر : نوبة)

* **اهــــل :**

يقال : هل لقوا فى ــ اهـل النظام ــ اهل اللغا ــ اهل السجية ــ هل لمعانـــى ، يقصد بهم الشعراء .

* **الايــوبــيــة :**

قصائد تحكى قصص الانبياء والاولياء وتحاول ابراز ما فيها من خوارق وكرامات ، كما تحكى جوانب من السيرة النبويـــة المتصلـــة بحروبه عليه السلام مع الكفار ، ويطلق عليها كذلك : الغزوات . ولعل المغراوي كان اكثر الشعراء نظما فى هذا الموضـــوع ، وقـــد اشتهرت من قصائده فيه : الموءودة والشدادية وجرير بن جرير . ومن الذين عالجوه كذلك الجيلالى امتيرد فى قصيدته : النباش ، والكبير بن عطية فى العيواجية ، وغانم القصري فى الكهفية ، واحمد الغرابلى فى النمرودية ، والمكـــى ابن القرشـــى فى البغدادية .

❋ بـــدل :

نوع النغمات فى القصيدة الواحدة (انظر : فجج) : مثال ذلك قصيدة المزيان للعلمى ، وحربتها :

حن واشفق واعطف برضاك يالمزيـــان

لا اسمـــحـــا ميعاد اللـــه يالهاجـــر

فان بعض المنشدين البارعين يبدأونها على ميزان الاستهلال ، ثم ينتقلون الى رمل الماية فالحجاز فالصيكة . ويطلق على هذا التنويع : لــبـــدال .

❋ الـــبـــرص :

1 ــ استعمال الاعراب والكلمات المعربة فى الملحون

2 ــ اتخاذ حرف الهمزة قافية ، وهو نادر ومن عيوب القافية فى الملحـــون .

❋ لـــبـــســـاط :

ادوار تمثيلية كانت تستعمل فيها قصائد المحاورات (انظـــره) .

❋ البســتـــان :

عنوان لبعض قصائد وصف الطبيعة، كهاته التى يقول ابن على المسفيوي فى حربتها :

يا مس يالعشير ريت افلبستان شلا انعيد لك بلسان بيـــن لغصان مرجا وامراجا وتعت للكلان وام لحسن

* الــبــســيــط :

ميزان موسيقى (انظر : ميزان)

* الــبــطــايــحــى :

ميزان موسيقـــى (انظر : ميزان) .

* بـــالـــغ :

يقال كلام بالغ بمعنى بليغ .

* الــبــوغـــاز :

عنوان لبعض قصائد الهجاء كهاته التى يقول أحمد الغرابلى فى حربتها :

هكذا قل للداعى ايدير بوغاز امزبرج

كل من حك اعلى منهاجو

مـــالـــو منجـــا

* الــمــبــيــت :

بحر تقوم الوحدة فيه على البيت حيث تتكون القصيدة من اقسام فى كل قسم عدد من الابيات ، وفى كل بيت عدد معين من الاشطار . وهو الغالب فى استعمال الشعراء ، وربما كان اقرب من غيره الى

بحور الشعر المعرب . ويتفرع الى اربعة أشكال من حيث عدد الاشطار التى تكون البيت ، وهى :

1 ــ المثنى
2 ــ الثلاثى
3 ــ الرباعى او المربوع
4 ــ الخماسى او خامس لشطار .
(انظر هذه المصطلحات) .

*** ابيض :**

يقال : كلام ابيض اي بسيط واضح المعانى لا غموض فيه :

ــ ت ــ

*** التراجم :**

قصائد ترجمها الخيال اي انشأها وحبكها دون أن يكون لها حدوث فى الواقع، مثل : الحجام والقصادة والحراز والقاضى والضيف والخلخال والدمليج والخاتم (أنظرها) .

*** التوبة :**

عنوان لبعض قصائد الوعظ والزهد والحكمة كهاته التى يقول محمد بن سليمان فى حربتها :

يا راسى لا تشقى
التاعب لا بد من لفراق
لا تامن فالدنيا
ابناسها غرارا

* التويزه :

تدخل فى نطاق موضوع التوسل ، ولكنه توسل جماعى يشترك فى انشائه اكثر من شاعر . وهو عبارة عن مساجلة يقصد منها الى طلب شفاء صديق مريض او انتقام من طاغية ، يتطارح الشعراء فيها عروبيات (انظره) أو أقساما من شأنها أن تكون قصيدة فى النهاية. ويطلق عليه كذلك : الراحة والشفاء (انظره) . ومن أشهر ما قيل فى التويزة المساجلة التى اشترك فيها أشياخ مراكش محمد بن الكبير ومحمد بن عمر الملحونى ومحمد بوستة ، داعين لاحد اصدقائهم بالشفاء من مرض ، وقد أداروها حول قولهم :

وادرك هاد لمريض باللطف الخافي

— ث —

* الثلاثى :

وزن المبيت (انظره) الذي يتكون البيت فيه من ثلاثة اشطار . وله عدة قياسات (انظره) منها ما تكون أشطاره متساوية كقصيدة عبلة لبوعمرو ، وحربتها :

ايلا تعذبت اعذابى امن انواجلى   ويلايانا اهنيت واسعدنى فالى

اسبابى افلهنا اغزالى عبلا

ومنها ما تجىء متفاوتة كقصيدة زينب لابن على ، وحربتها :

يا بدر ما غطاك احجاب   فى ادجايا شمس النهار السعيد يا زنوبا

فاين العهد يا زينب

ويلاحظ أن الشطر الثانــى أطول من الاول والثالث . وكقصيدة الباكــى للمدغري ، وحربتها :

شهدوا بين ايلا افنيت وامضيت امن الوجنا وخالها واخدود الجلار

والشاما والخال والشفر لهوا خدوج ولغزال السعــديا

ويلاحظ أن الشطر الاول جد طويل . ويسير نظام القافية فى هذا الوزن على اشكال حيث تأتى أحيانا موحدة فى كل اشطار البيت وان بحركات مختلفة ، وتأتــى أحيانا أخرى غير موحدة .

* المـــثـــنـــى :

وزن المبيت (انظره) الذي يتكون البيت فيه من شطرين : أحدهما يسمى الفراش والثانــى الغطا (أنظرهما) . وله قياسات (انظــره) متعددة لا سبيل الى حصرها أساسها النسب الايقاعية فى موسيقى البيت . منها ما يكون شطراه متساويين ، وانماطه كثيرة ابسطها ما جاءت عليه قصيدة الحجة للحاج عمارة ، وحربتها :

يا لحضرا قولوا بالسر ولجهار الصلا والسلام على النبى المختار

ويسمى قياس لمشركــى (انظره) . ومنها ما يجىء فراشه أطول من الغطاء كقصيدة الديجور للمدغري ، وحربتها :

شف الشكايا شى اشكا ابهجرو شى بالتيهان شى ابعشقو واغرامو
شى بالفركا شى جايب لهديا يرحل ويكيــم

ومنها ما يقسم فيه الفراش والغطاء حتى يبدو وكأنه رباعــى كقصيدة انعيد اصيامى للجيلالى امتيرد ، وحربتها :

انعيد اصيامى وانكلع كفارت لـوزر
عنقت اغزالى ، فالدجا حتى بان الحال

ويخضع نظام القافية فى هذا الوزن لاشكال مختلفة ، فهى قد تكون واحدة فى الفراش والغطا سواء بحركات موحدة او مختلفة ، وقد تكون مختلفة فيهما ، وقد تسير كل ابيات القصيدة على حرف واحد . بل اننا نجد مثلا فى بعض قصائد قياس لمشركـى (انظره) تنويعـا فى القافية يجعل أبيات القسم تبنـى على قافيتين وتكون قافية الحربة (انظره) على حرف الابيات الاخيرة فى القسم ، ومثلها قافية الدخول (أنظره) .

* المـثـنـيـة :

وصف يطلق على الحربات التى لا تتفق فى عدد الاشطار مـع بقية أبيات القصيدة (أنظر الحربة) مثال ذلك قصيدة المعراج لعبـد القادر الجراري ، فانه يقول فى اول بيت من القسم الاول :

بعد تمجيد الماجد انوضح لخبر اعلى المعراج اصاح افليلة السرا

ويأتى بالحربة ثلاثية الاشطار فيقول :

الصلاة اعلى الهادي راكب البراق سيدنا محمد لمشرف الصديق
من اسرا من محرم الحرم افلفسيق

وقد يضيف الشاعر أكثر من شطر الى الحربة على حد ما فعل ابن على فى قصيدة الذرة ، وهى مبيتة من قياس المشركى ، فانـه يقول فى اول الدخول :

سبح المولى تسبيح اللسان والقلـب
وقدس المولى تقديس النجاب لقراب

يا ساهى من نومك فق سبح الرب   لمتـــا وانت تايـــه افلغرور لواب
الصلا والسلام اعلى اخيار لنسب   سدنا محمد طه اشفيع لعراب

— ج —

* لـمـجـرد :

رقصة يختم بها انشاد قصائد الذكر (انظره) عند بعض الطوائف كعيساوة واحمادشة .

* الـجـفـريـات :

قصائد يتأمل فيها الشاعر أحوال المجتمع والناس ويستعرض المناكر والعيوب ، متوسلا باسلوب الرمز والاشارة والتلميح ، وغالبا ما يلجأ فى ذلك الى الحيوانات فيمثل بالذئاب والضفادع والبوم للسفلة الذين غدوا سادة، وبالسباع والنسور لكبار القوم الشرفاء الذين اذلهم الدهر . وفيها يستوحى الشاعر واقع الناس والحياة ليتنبأ بما سيقع من احداث . ومن اشهرها قصيدة لحسن اعلى التى يقول فى اولها :

بسم الله الرحيم   الجليل المعين   مفتاح البادئين بسم الله أعوان

* الـجـافـى :

عنوان لمجموعة من قصائد التغزل (انظره) ، منها قصيدة احمد الكندوز التى حربتها :

معداك اجافى اذا اجفيت رسمى ما زال ياالجافى مركاحك لوليف

واتذوق امن امحاين لجفا   واتقول لاواه كنت حتى نا جافى

* **الجمعة :**

مناسبة يوم الجمعة اتاحت للشعراء فرصة الغزل ووصف جمال الطبيعة ، على غرار ما نجد عند الشيخ العربى الفاسى فى قصيدته التى حربتها :

خرجوا لبكار

يوم الجمعا لسواحل لبحر

بالآلا وانغايم لوتر

جافوا للز خار

شف امدينة سلوان زاهرا

* **الجمهور :**

أو جمهور الاولياء ، مصطلح يطلق على بعض القصائد التى تمدح مجموعة من الاولياء والصالحين ، كمطولة عبد القادر العلمى التى اولها :

يا من يشفى اضرارا عبدو بعد السقم
ويفرح من اقوات فالصدر احزانى

* **جنب :**

يقال للمنشد الذي لا يستطيع أن يلون الميزان وينوع النغم فى القصيدة الواحدة انه يغنى على جنب واحد ، وهو دليل على قصر الباع فى الاداء

* **الجناح :**

انظر مكسور الجناح .

* الــجـــنــاس :

التجنيس (انظره)

* الــتــجــنــيــس :

هو عند شعراء الملحون كالجناس المعروف فى علم البديع ، الا انه لا يكون عندهم الا تاما . ومن الامثلة عليه قول الكندوز فى قصيدة غاسق لنجال ، وهو اكثر الشعراء براعة فيه :

بجفاك عمدا لى عدت انحيل

ما شفك تعذابـــى اولا امحانـــى

سيف لجفا امحانـــى

لعبـــاد لا محانـــى

فامحانى الاولى جمع محنة ، والثانية فعل محا فاعله السيف والثالثة فعل لمح بمعنـــى راي فاعله العباد .

* الــجــيــلالــيــات :

القصائد التى قيلت فى المولى عبد القادر الجيلالى كهاته التى يقول الطالب لحسن فى حربتها :

غثنـــى يا مولى بغداد

ادخيـــل لجـــواد

بك شجنـــى محسوب اعليك بك عانـــى

* المحبوب :

عنوان لمجموعة من قصائد التغزل (انظره) منها قصيدة محمد بوزيان التى حربتها :

محبوب خاطري من فكد وعمدالى   عمدا لى لحبيب ما نعم ابلوصال

* الحبر :

يقال حبر النظام أي الشاعر الكبير ، واصل معناه العالم او الصالح .

* الحجاز الكبير :

نوبة موسيقية (انظر نوبة)

* الحجاز المشرقى :

نوبة موسيقية (انظر نوبة)

* الحجام .

يطلق على بعض قصائد التراجم (انظره) يصف فيها الشاعر محبوبته ويصف حفلات الوشم الذي يزين جسمها بألوان من الصور والرسوم تمثل حيوانات واسلحة وابطالا وبساتين وخياما وهوادج وغيرها مما يوحى بالتعبير عما يكن من عواطف الحب وما يحس من آلام الفراق وما يتمنى من سعادة اللقاء وكأنه يرمز بوشم هذه الاشياء الى مختلف حالات المحب والمحبوب. فالغزلان للهجر والنفور ، والخيول

والاسلحة لمدى القوة والمقاومة ، والاغراس والورود للحظات الوصال . منها قصيدة ابن سليمان التى حربتها :

دير احجام عاري فى صدرها بوجات ووشمو بالمهل
اعلى الصدر كن اظريف ونيل
نوشام ابجيد الخنار فاطما

* الحربة :

اللازمة ، ومكانها من القصيدة بعد الدخول (انظره) ، ثم تكرر فى نهاية كل قسم ، وبها ترد المجموعة على المنشد . والمفروض أن تكون الحربة من نفس قياس (انظره) القصيدة .

وتجدر الاشارة الى انه فى مكسور الجناح (انظره) يختم القسم ببيت يكون على وزن الحربة وقافيتها ، وكذلك فى بحر السوسى (انظره) فان القسم يختم ببيتين او ثلاثة على وزن الحربة وقافيتها . ومثل هذا يقال بالنسبة لبحر المشتب (انظره) . ومع ذلك فانه توجد حربات لا تتفق مع أبيات القصيدة فى عدد الاشطار ، ويطلق عليها الحربات المثنية (انظره) .

* الحراز :

قصائد يبدو فيها الشاعر المحب متنكرا فى هيآت مختلفة ليصل الى محبوبته حيث يدخل فى حوار مع محرزها اي محصنها ، وهو فى العادة زوجها الذي يرده ويطرده فى كل مرة ياتيه متنكرا فى صفة من الصفات الى ان يتمكن من خدعه فيدخل بيته ويتصل بمحبوبته فى غفلة منه . وغالبا ما ينجح المحب حين يتنكر فى هيئة فقيه . ويعتبر الحراز من أهم قصائد التراجم (انظره) ومن اشهرها حراز مولاي على البغدادي وحربته :

مال حراز الدامى ما يتق بيا هيهات حارس فى كل اوقات
اعلى الدوام ايجنب اولا يروم لى قطـــمـــيا

* **الـــحـــرفَ :**

القافيـــة

* **احراميـــة :**

وصف يطلق على السرابة التى لا يعرف اسم مؤلفها ، فيقال : سرابـــة احرامية واسرارب احراميين (انظر : سرابة) .

* **حـــســـس :**

يقال ان فلانا تيحسس عـــلى المعنـــى اذا كان يحاول فهمه وتوضيح غموضه ، ولا سيما فى قصائد الرمز (انـــظـــر : الدسيس د المعنـــى)

* **الـــحـــســـنـــاويـــة :**

وصف يطلق على النوع السماوي من السرارب ، فيقـــال : اسرارب حسناوية او اسرارب حسناويين (انظر سماوي) . ولعـــل الاصل فى التسمية النسبة الى ابنى احسن .

* **الـــحـــضـــرا :**

غناء او انشاد قصائد الذكر من طرف النساء اللائى يطلق عليهن الحضارات (انظره) .

* **الـــحـــضـــارات :**

النساء اللائى ينشدن الذكرات على أسلوب الحضرة .

* **الحضاري :**

السرابة التى تنشد فى استرسال سريع .

* **الحفاظ :**

المنشد الحافظ للقصائد .

* **لحمام :**

1 ــ عنوان لمجموعة من قصائد التغزل (انظره) يبدؤ الشاعر فيها متوجها الى الحمام يبثه شكواه مما يقاسى من جفاء المحبوبة وهجرها ، فى مقابلة بين حاله وما يعانى الحمام من انثاه ، على حد ما فعل ابن سليمان فى قصيدته التى حربتها :

حالى من حالك يا حمام النايح نوجت ما كنا
انت من فركة لحماما ونا شيفيدنى ابطير لعدا يا راف

2 ــ عنوان لبعض قصائد الشوق لزيارة البقاع المقدسة حيث يرسل الشاعر طائرا يحمل رسالة الحب والشوق للرسول الكريم. منها قصيدة الحاج ادريس بن على التى حربتها :

هاك اكتاب يا حمام للمدينا   من ارض فاس سر اتزور المدانى

3 ــ عنوان لبعض قصائد المرحول (انظره) التى يحملها الشاعر سلامه الى أحبابه من مدينة الى أخرى على حد ما فعل التهامى المدغري فى قصيدته التى حربتها :

عول اولد احمامى للحباب تدي علوانى
وصل فى حفظ لمان شور ناس امدغرا

* المحمل :

عنوان لبعض القصائد التى تصف ركب الحجاج ومراحل الحج كهاته التى يقول الحاج عمر المراكشى فى حربتها :

يا ربى بك لك كمل بالخير اعليا مكا ننظرها ايزول كربى

* المحاورات :

هى قصائد الخصام ، والحوار فيها قد يدور :

1 ــ بين اناس كما بين الحضرية والبدوية ، والخادم والحرة، والزمنية والعصرية ، والشابة والعجوز ، والسمراء والبيضاء ، والطويلة والقصيرة ، والسمينة والنحيفة .

2 ــ بين نباتات كالورود والزهور .

3 ــ بين طيور .

4 ــ بين جمادات كالقلة والغراف

5 ــ بين مظاهر كونية كالليل والنهار .

6 ــ بين اشياء معنوية او وهمية ، يشخصها الشاعر كالتيه والضنا والشغف والهيام .

وقد كانت تتخذ بعض هذه القصائد وغيرها مما يعتمد الحوار كالحراز لاداء ادوار تمثيلية او ما كان يطلق عليه لبساط (انظره) .

* لحويط :

يقال لحويط لقصير للتعبير عن قياس المشركى (انظره)

* حيـــاح :

يقال حياح الحا بمعنــى ولوع بها محرك لها . وهو وصف كان يطلق على التهامى المدغري لكثرة نظمه على هذا الحرف . ويقال انه سئل عن شغفه بالحاء فرد بأنها تجسم كل احوال الانسان وانها قاسم مشترك بين المتعة والالم لان الانسان اذا ارتاح او التذ قال : اح ، واذا تألم او تعذب قال : اح .

— خ —

* الـخـــاتـم :

1 ــ اسلوب يجعل الشاعر يلتزم بدء ابيات القسم او انهاءها بكلمات معينة يكررها . فمن النوع الاول قول بوعمـــرو فى قصيــدة زهرة بادئا كل بيت باسم حبيبته :

زهـــرا زهـــوا للـــذات	مـــصـبـــاح الخـــودات
زهـــرا عـــسل لبـنـــات	حـــازت لبهـــا واثبـــاتـــا
زهـــرا شـمـــس انبـــات	بـــالحســـن اتـجـــلات
زهـــــرا مــــن عـــدات	زيـــن عبـــلا واخنـــاثـــا

ومن النوع الثانى قول محمد بن لحسن فى قصيدة هنية حيث ختم كل بيـــت من أبيات القسم الاخير منها باسم هنية :

خـــذ اراوي روض لـــفـــنـــان فمديـــح للا بوتيتـــيـــن اهنيـــا
بهـــا زال الـــهـــول واهـــوان صعبى واشهدت باللحظين اهنيا

2 ــ عنوان لبعض قصائد التراجم (انظره) يستعمل الشاعر فيها خاتم حبيبته بدلا من الدمليج او الخلخال (انظرهما) . منها قصيدة الحاج محمد العوفير التى حريتها :

خاتم ولفى تاج لبها اتوضر وامشى لى
كيف المعمول ايلا اتسال عنو درت لجمال

* لـخـصـام :

يطلق على قصائد المحاورة (انظره) .

* الـخـلـخال :

عنوان لمجموعة من قصائد التراجم (انظره) يصف الشاعر فيها كيف أنه بعد ان يتم له الوصال تقدم له المحبوبة تذكارا لتخليد لحظاته، يكون فى الغالب بعض حليها دمليجا او خلخالا او خاتما ، الا انه لا يلبث أن يضيع له فيأخذ فى البحث عنه الى أن يجده . منها قصيدة عبد السلام الزفري القصري ، وحربتها :

خلخال يامنا تفكيرا خلاتو امشى لـى
عجبى افيوم توفى واتقـول اراه ما نقـول

(انظر : الدمليج والخاتم) .

* لـخـلـوق :

عنوان القصائد التى تناولت مولد الرسول عليه السلام ، كهاته التى يقول الغالى الدمناتـى فى حربتها :

ابديت باسم المولى نعـم الغنى الستـار
باسمـو نستفتـح يا صاح فى اشعـاري

* الـخـمـريـة :

قصيدة الـخـمـر .

* الخمارة :

عنوان لبعض الخمريات كهاته التى يقول المدغري فى حربتها :

كنت امهني اسليم ما نعرف يا خناري
كاس اولا طاسا اولا خمر
ولا ندري اشروطها فحضرت الخمارا

* خامس لشطار :

انظر الخماسي .

* الخماسي :

أو خامس لشطار هو وزن المبيت الذي يتكون البيت فيه من خمسة أشطار . ومن قياساته ما جاءت عليه قصيدة أسادتي اولاد طه للحاج ادريس بن على ، وحربتها :

أسادتي اولاد طه   برضاكم عالجوا الحال

يا ناس الجود ولفضال

أنا فى عار للا فاطما   الزهرا الطاهرا

ويسير نظام القافية فى هذا الوزن على شكلين أحدهما يلتزم قافية واحدة فى كل أشطار البيت مع اختلاف فى الحركات ، والثانى لا يلتزم .

* اخوات :

(انظر شكارتو)

* **اخـيـاطـا :**

سرقة الشاعر لمعانـي غيره . ومن أقوالهم : « اخياطا مزيانا احسن من اسجيا امدبرا » ، يقصدون أن ربطا متقنـا لمعانى الغير خير من سجية غير ناضجة ، (انظر : امدبرة) .

* **الـخـيـاط :**

الشاعر الذي يسرق معانـي غيره فيخيطها ، ويربط ما بينها. ويعرف كذلك بالسلاخ (انظره) .

ـ د ـ

* **امـدبـرا :**

يقال اسجيا امدبرا اي شاعرية غير ناضجة ولا مكتملة ، وعند اصحاب الفن ان « اخياطا مزيانا احسن من اسجيا امدبرا » (انظر اخياطا) .

* **الـدخـول :**

1 ـ التمويلة التى يقدم بها لقصائد مكسور الجناح والسوسى، باستثناء الحراز ، مثل :

قـال يانا سيدى
او : وهو يا سيـدي .

2 ـ الشطر الذي يستهل به القسم فى بحر مكسور الجـنـاح (انظـره) .

3 ـ الابيات الاولى للسرابة (انظره)
4 ـ مطلع القصيدة ، تجىء بعده الحربة ثم الاقسام ، وهو

غير معدود فيها . والغالب أن يستهل بالبسملة او الخطاب يوجهه الشاعر لنفسه او غيره

* **الدربلة :**

المرقعة ، وتطلق على تنويع القافية ، وتعرف كذلك بالمرشوش والعزرودة (انظرهما) .

* **الدرج :**

ميزان موسيقى (انظر ميزان) .

* **الدريدكة :**

مقطع تختم به بعض القصائد ، ويتضمن فى الغالب ما اعتاد الشاعر تضمينه فى القسم الاخير كاسمه والتصلية والدعاء للاشياخ والعلماء والمنشدين وهجو الخصوم وتاريخ النظم . وقد تطول فتصل الى سبعة وعشرين بيتا كما عند الشاوي فى نهاية تصليته .

ومن حيث القافية فانها تأتى موحدة فى جميع أبيات الدريدكة، كما تأتى غير موحدة . ثم انها قد تكون متفقة مع قافية القصيدة وقد لا تكون . واحيانا تجيء على حرف واحد مع السويرحات (انظره) .

* **الدراع :**

يطلق على الدكر (انظره) عند احمادشة ، وقد برز فيه أحمد الكندوز . ويقال فى تسميته أن هذا الشاعر لم يكن يعتقد فى الطائفة الحمدوشية ولا فى غيرها من الطرق الصوفية ، وكان له ولد ينتمى لتلك الطائفة ، ورآه ذات يوم يسير فى استعراض الطوائف فى حالة حماس وجذب فأخرجه من الصف وحاول منعه من الاستمرار فى هذا

الاستعراض ولكن الولد افلت من أبيه وعاد الى ما كان فيه . أما أبوه فاصيب للحين فى ذراعه التى ظلت مريضة منتفخة نتنة من القيح الى درجة أنه اضطر — لشدة الرائحة الكريحة التى كانت تصدر منها — الى أن يعتزل الناس فى غرفة بعيدة . وذات ليلة صعد اليه فى الغرفة مؤذن جامع الحى — وكان حمدوشيا — وضربه على ذراعه فشفى على الفور . ومنذ ذلك الوقت تراجع الكندوز عن رأيه فى هذه الطائفة وبدأ ينظم القصائد للحمدوشيين .

* الدسيس :

يقال « الدسيس دالمعنى » ويقصد به دس المعنى حتى لا يبقى السامع « تيحسس اعليه » (انظر هذا المصطلح) . ويقصد به فك الرمز والتصريح بالفكرة والمغزى فى القصائد التى تتوسل بالاسلوب الرمزي كالجفريات والمحاورات . ومن الامثلة عليه ما ورد فى قصيدة جفرية لعبد الله اعلى حيث قال رامزا الى ان الاحوال تغيرت وان الدنيا صفت للسفلة فغدوا سادة :

فرعنت البوم اعلى البيزان اتولت
بينت انيابها ودركت الصولا

والسبع اخشى امن الضبع بعد الزهرات
لزم التحدير خاف من ولد الغولا

واستمر على هذا النحو فى رمزه بالحيوانات ثم كشف فى الآخر عما قصد اليه من نقد لواقع الناس والزمان فقال :

لمساجد كتعود افلنمات ترجع لقوام عن القبلا مشغولا
يقوا لبنى عند التجار لطفات ويكثر المال ولثياب المشكولا

* **الــــدعــــى :**

الذي يدعى ما ليس فيه ، ويطلق عنوانا لبعض قصائد الهجاء ، كهاته التى يقول محمد بن على ولد ارزين فى حربتها :

لا يشكى عاشق صورتى لعدايا ويحب زورتى ما دالى من ساحتو اجفيل

ما ينظر وجهى اولا يراه   لو صرف المال والعمر

ما تقبل طالب الوصول ابحسناتــو

* **الــــدق :**

الضرب ، ويقصد به الهجاء ، ويطلق عليه كذلك الشحط ولهجو (انظرهما) .

* **الــــدكـــــر :**

ويجمع على دكرات، وهى القصائد التى تنشد عند الطوائف، ولا سيما احمادشة (انظر الدراع) وعيساوة ودرقاوة . ومنه قصيدة محمد ابن العربى الرباطى الدلائى ، واولها :

نور لحبيب ادانى بضياه الدانى   الحضرة الفردانى يابابا

* **الــدالـــيــة :**

اي الكرم ، وتطلق على بعض الخمريات كهاته التــى يقــول التهامى المدغري فى حربتها :

قلت أصاحى هات لى الكاس اغنل وارجع لى اجحا ونخلنى يا حضار

طاح اعلى القمصال ابلبتر   سلك راسو وسار هربان اجهارا

وتعرف هذه القصيدة كذلك بـــ : الساقــى

* الدمغي :

السماع ، يقال أن هذا الشيخ يحفظ القصائد بالدمغى اى سماعا ، والنسبة للدماغ .

* الدمليج :

عنوان لمجموعة من قصائد التراجم (انظره) كقصيدة محمد الميساوى الفلوس ، وحربتها :

دمليج ازهيرو سابغ الشفر فى جيبى ياهل لهوا درتو وامشى ليا
باش انجاوب ايلا اتسال عنو تاج الغزلان

(انظر الخلخال والخاتم)

* الدندنة :

تفعيلة قائمة على « دان دانى » يقاس بها ايقاع الوزن . ومن الامثلة على تطبيقها قولهم بالنسبة لحربة قصيدة المزيان للعلمى .

حن واشفق واعطف برضاك يالمزيان　　لا اسماحا ميعاد اللهيالهاجر

دان دانى يا دانى دان دان يـا دان　　دان دانى يا دانى دان دان دانى

* الدهبية :

عنوان لقصائد تمزج بين الحديث عن الخمر ووصف الطبيعة عند غروب الشمس ، وهى فى لونها الذهبى . منها قصيدة الحاج ادريس بن على الحنش ، وحربتها :

اساقى عكب النهار فز ابوقت السرور واستقنا بين ادواح

شف الدهبيا الرايحا　　لبست توب لغروب والليل اغشاها

الشعراء الكبار .

* **دور :**

انشد القصيدة وروجها بانشاده ، وكأنه بذلك جعلها تدور .

* **دوز :**

انظر صفى

* **المدونة :**

تطلق على قصيدة الوصاية عند أشياخ مراكش (انظر الوصاية) .

* **الديب :**

عنوان لبعض قصائد الهجاء كهاته التى يقول محمد بن على فى حربتها :

شف طيري جاب لى ديب امعوض اغزال
آمن ايال

لولا ازهاكتى ربيتو غرخ دياب ما يتربى قالوا الناس ونا ربيتو

* **الديجور :**

أي الليل ، ويطلق عنوانا لقصائد تتحدث عن الليل باعتباره مظهر يوحى للشاعر بالامتزاج مع الكون والطبيعة فى تجاوب بينه وبين حالة الشاعر النفسية والعاطفية . اشهرها قصيدة التهامي المدغرى التى حربتها :

شف الشكايا شى اشكا ابهجرو وشى بالتيهان شى ابعشقو واغرامو
شى بالفركا شى جايب لهديا لليل ايكيم

* **ديـر :**

وضع التديره (انظرها وانظر كذلك : ديل وردم)

* **التـديـيـرة :**

هى الردمة والتدييلة (انظرهما) وتعنى الشطر الذي ينتهى به العروبى (انظره) .

* **ديـل :**

وضع التدييلة (انظرها وانظر ردم ودير) ، واصلها ذيل .

* **أتـدييلـة :**

اي الذيل ، وهى الردمة والتديرة (انظرهما) . وتعنى الشطر الذي يختم به العروبى (انظره) .

— ر —

* **اربـاب :**

يقال : 1 ارباب الموهوب .

2 — ارباب لمواهب
3 — ارباب اليضمار .
يقصد بهم الشعراء .

* **الـــربـــعـــا :**

يقال «اشياخ الربعا» ، أي الذين لا قيمة لهم

* **الـــربـــاعـــى :**

او المربوع ، وهو وزن المبيت الذي يتكون البيت فيه من اربعة اشطار ، قد تكون متساوية كتصيدة طامو للعلمى ، وحربتها :

طامـــو يـــا بهيـــج الخـــدادا   الحـــر المسرارا يا غاية لمجيد
ديري اللـــعـــاشق امـــرادي   ينكـــى بـــك كـــل احـــسود

وقد تكون متفاوتة كأن يكون الشطر الاول والثالث أطول من الثانى والرابع ، ومن أمثلتها قصيدة التصلية لابـــن احســـايـــن ، وحربتـــهـــا :

صلى الله امع ملايكو عل لحبيب الساري وامر هل ليمان افلبشـــر
بصلاة الهادي امع اسلامو بايات اسوارو   صلى الله اعليه وافرا

او كأن يكون الشطر الاول والرابع أطول من الثانـــى والثالث كما فى قصيدة فارحة للتهامى المدغري ، وحربتها :

دسنى تحت لخلال بين ادروعك لملاح   واللبا والدواح
انهيداتك تفاحا   انا خايـــف امن عيونك يجرحونى يا فارحا

ويسير نظام القافية فى هذا البحر على نمط يلتزم فيه حـــرف واحد فى كل اشطار البيت ، كما انه قد يسير على نمط تختلف فيه القـــافيـــة .

* **المـــربــوع :**

انظـــر الربـــاعـــى .

* **الـــربـــيـــعـــيـــة :**

يطلق هذا المصطلح :

1 ــ عنوانا لبعض قصائد وصف الربيع والطبيعة عامة ، ومن ابرزها قصيدة الحمري التى حربتها :

الورد والزهر واغصانو واشجار باسقا واطيار
ايسبحو النعم الغنى والما افقلب كل اغـــديــــر

2 ــ عنوانا لبعض قصائد المديح النبوى ، كهاته التى يقول التهامى المدغري فى حربتها :

لله الحمد جاد من هو فتاح   فاتح البيبان ابمفتاح
مفتاح الخير والرضا والرحمـــا الفتاحـــا

* **ربــــى :**

روى القصيدة وانشدها وجعلها متداولة ، وهو يقابل : اولد (انظره) . وفى امثالهم : « السجاي تيولد والحفاظ تيربـــى »

* **الـــتـــرتـــيـــحـــة :**

عبارة يضبط بها الايقاع ، ويطلق عليها كذلك : التشحيـــرة (انـــظـــره) .

* **المرحول :**

1 ــ عنوان لبعض القصائد التى تصف الرحلة الى الديار المقدسة كهاته التى يقول عبد القادر بوخريص فى حربتها :

اارواح اراسى انشوف هذا الركب الساير
خلا ناس الذوق شايقا لمقام المختار

2 ــ عنوان لقصائد تصف الرحلة التى تشد لزيارة بعض الصالحين كهاته التى يقول الحاج ادريس بن على الحنش فى حربتها .

الغادي للرباط هاك اسلامى لسيادي
اولاد الولى بن لمهيدي

3 ــ عنوان لقصائد تصف الرحلة من مدينة الى أخرى ، وتحمل السلام ، كهذا المرحول الذي جعله الجيلالى امتيرد من مراكش لفاس والذي يقول فى حربته :

كبل لمدينة فاس يا حمامى بكتابى للحباب فى حفظ الغانى
بميات اسلام اعلى امقامهم يعبق طيب اشداه

(انظر كذلك : الحمام والورشان).

* **اردم :**

ختم السرابة او العروبى بالردمة (انظره) .

* **الردم :**

يقال هذا شيخ « طاح اعليه الردم » اي وقعت عليه الانقاض بمعنى انه لم يعد قادرا على النظم او الحفظ وان قريحته جفت .

* **الـــردمـــة :**

1 ــ الشطر الذي تختم به السرابة وتكون كالفاصل بينها وبين القصـــيـــدة (انظر السرابة)

2 ــ الشطر الذي ينتهى به العروبـــى

* **الـــمرســـول :**

1 ــ عنوان لمجموعة من قصائد التغزل (انظره) يلجأ الشاعر المحب فيها الى ارسال مبعوث لاخبار المحبوبة بحاله ورجائهـــا ان تزوره . منها قصيدة احمد الغرابلى التى حربتها :

خبرنى يا مرسول عن اسراج اعيانى وشمس انهار نظفـــر بوصالو
عـــراض الزين الله نصرو مولاي المزيان

2 ــ عنوان لبعض قصائد الشوق لزيارة الديار المقدسة وقبر الرسول عليه السلام حيث يبعث الشاعر رسولا معه كتاب للنبى الكريم يحمله حبه وشوقه، منها قصيدة الحاج محمد بن على المسفيوي وحـــربتهـــا :

امن الغرب اتسير ابلكتاب يالمرســـول
وصـــلـــو لحمد طـــه خاتم الرسالا

* **الـــمـــرســـم :**

عنوان لمجموعة من قصائد التغزل (انظره) تجعل الشـــاعـــر يستلهم المرسم ــ اي الدار ــ بعد أن أصبح خاليا ، ليعبر عن حاله وما يعانـــى من فراق الحبيبة . منها قصيدة محمد بن على التى حربتها

انا والمرسم يا حمام وثالثنا فالزهوانت
المرسم بيبكى اعلى الشمعا وانت تبكى اعلى النثا وناعل لغزال

* **المـــرش :**

مصاحبة الانشاد بالتصفيق او ما يسمى بـــ : التكفاف .

* **المــرشـــاش :**

المصفق الذي يصاحب الانشاد بضرب الكفين .

* **الـمــرشـــوش :**

قرنفل ابيض مخلوط بالوان أخرى ، ويطلق على تنويع القافية، ومن أسمائه كذلك : العزرودة والدربلة (انظرهما) .

* **الـــرصـــد :**

نوبة موسيقية (انظر نوبة).

* **رصـــد الذيــل :**

نوبة موسيقية (انظر نوبة)

* **رصـــع :**

قال شعرا منمقا (انظر : امرصع) .

* **امــرصــع :**

يقال : كلام امرصع بمعنـــى منمق جميل .

* **الـــرقـــيـــق :**

يقال : العلم الرقيق للتعبير عن الشعر الملحون .

* **ركـــب :**

تسلم المنشد الغناء من منشد سابق عليه بقصيدة اخرى يؤديها على نفس الميزان الاول .

* **الـــركـــاز :**

يجمع على الركازة، وهم الذين يشتغلون بتبليط السطوح وتركيزها وكانوا يحفظون الكثير من القصائد ويتوسلون بترديدها محافظين على ايقاعها بضربات المراكز . ويطلق عليهم كذلك : الكصاصة. وهى حرفة آخذة فى الاندثار ان لم تكن قد اندثرت بالفعل . ومن الاعمال التى كانت تصاحب بانشاد الملحون : الدرازة والخرازة والدباغة وكذلك البحرية القائمة على قيادة المراكب الصغيرة التى تساعد حركة مجاذيفها على ضبط ايقاع انشاد القصائد .

* **الـــتـــركـــيـــك :**

كسر الميزان :

* **رمـــل المـــايـــة :**

نوبة موسيقية (انظر : نوبة) .

* **الـــرامـــى :**

عنوان لبعض قصائد الهجاء كهاته التى يقول محمد بن ريسون فى حربتها :

هكذا قل المن ابغا بالرميا يتفرج
شـــارتو يسقطها فبراجو
حـــاضـــى مرجـــا

* **راح :**

انظر الرواح .

* **الـــراحـــة :**

يطلق مصطلح « الراحة والشفا » على التويزة (انظره) .

* **الـــــرواح :**

1 ــ الخروج من القافية الاصلية والعودة اليها حين يستعمل مع مصطلح السراح حيث يقال : السراح والرواح (انظر السراح)

2 ــ نهاية القصيدة أو نهاية القسم .

* **اروى :**

اخذ عن الاشـياخ .

* **الــــراوي :**

الحافظ الذي يروي القصائد .

ــ ز ــ

* **الـــزجـــل :**

يطلق فى الاصل على الشعر العامى الذي نشأ مع الموشحات فى الاندلس . وعندنا أنه كل شعر يتوسل باللغات واللهجات العامية .

* **الـــزرب :**

القسم الاخير من القصيدة اذا اشتمل على الهجاء ، تشبيها له بالسياج الذي يحيط بالحدائق والبساتين ويحميها ، فكأن هذا الزرب يحمى القصيدة ويرد عن صاحبها الخصوم .

* **الــــزردا :**

ومعناها الوليمة ، وتطلق عنوانا لبعض قصائد الفكاهة كهاته التى يقول الحاج محمد بن عمر الملحونـــى فى حربتها :

ولمضيـــغ افـــراســـا
ملا ايليه ضرسات
كيملوج فمضيغو عاد تيسرطو

* **الـمـزلـوك :**

معناه فى الاصل الخيط الرقيق ، ويطلق على :

1 ــ السرابة التى تنشد رقيقة حادة .

2 ــ بحـــر الـسوســـى (انظره) عند بعض الاشياخ

* **الــزهــو :**

1 ــ عنوان لبعض القصائد التى تصف لذات الحياة ومتعها كهاته التى يقول المدغري فى حربتها :

الزهو فبنات اشبان   ولمنازه والخيل امايت لوتر والغانى
ولقمـــاش روض كيسان

2 ـ عنوان لبعض القصائد الدينية التى ترى ـ فى شبه معارضة للاولى ـ ان اللذة فى العبادة والعلم والجهاد كهاته يقول المدنى التركمانى فى حربتها :

الزهو افلكتوب وما قال الله وصلاة المختار والفجر فى وقتو والصوم
والحج الجهاد فالنصارى يوم المعلوم

* **الـزيـن :**

عنوان لبعض قصائد العشق (انـظـره) كقصيدة المولى عبد الحفيظ التى حربتها :

آش را من لا شاف الزين فى افراش الصالا
مـن افـراق احـبـيـبـو ولـهـان

* **الـمـزيـان :**

عنوان لمجموعة من قصائد العشق (انظره) كقصيدة عبد القادر العلمى التى حربتها :

قـال المـزيـان اتـصـيـف لـى زيـنـى
امدح امحاسنى كيف ايمدحو ناس لغرام ابدور لحسان

ـ س ـ

* **الـسـبـب :**

يقال : « السبب والمعنى » لدوافع القول وحوافزه عند الشاعر

* **السـجـاى :**

صاحب السجية (انظره) الذي يبدع شعرا فيه عواطف ومعانى وافكار ، وهو غير الوهبى (انظره) .

* **السجـيـة :**

1 ــ الشعر الملحـون .
2 ــ مستويات الابداع الشعري ، وهى ثلاثة :

ا ــ المـنـقـول .
ب ــ الهيـض .
ج ــ الـغـيـظ

(انظر هذه المصطلحات) .

* **الـسـاحـى :**

عنوان لبعض الخمريات كهاته التى يقول المدغري فى حربتها :

فق أساح علم لفجر طار اغراب الداج طابـت الخمـر اكب الـراح
بوجود العدرا المالحـا ما كيف الراح بين لملاح امراحا

* **امـسـدي :**

منسوج ، وهو وصف للشعر حيث يقال : انظام امسدي .

* **السرابـة :**

قطعة شعرية قصيرة يقدم بها فى انشاد القصيدة ، وتكـون على نفس البحر ، والغالب أن تتكون من هذه الاجزاء :

1 ــ أبيات تمهيدية يطلق عليها : الدخول (انظره) .

2 ــ ناعورة وهى أبيات قصيرة نادرا ما تكون أقل من ثلاثة (انظر ناعورة) .

3 ــ بقية الابيـــات .

4 ــ الردمة وهى عبارة عن شطر يتيم تختم به السرابة ويكون فاصلا بينها وبين القصيدة (انظر الردمة) .

وعند الاشياخ ان الذي لا ينظم السرابة لقصيدته لا يستطيع ضبط ميزانها بل لا يعتبر شيخا ، وقالوا فى ذلك : « مـــن لا يـــوزن بسرارب ميزانو يبقى غايب » وهى قولة تصدق على المنشد كذلك .

ومع ان السرابة تتفق والقصيدة فى الوزن والموضوع فانهـــا تختلف عنها فى الانشاد . ومن ثم فان السرابة تقسم الى أربعة أنواع (تنظر فى أماكنها) ، هى :

1 ــ المـــــزلـــوك .
2 ــ الـــكـــبـــاحـــى .
3 ــ الـــحـــضـــاري .
4 ــ الـــســـمـــاوي .

ويلاحظ اليوم نتيجة ضعف مستوى النظم والرواية أن الشعراء لم يعودوا يقدمون لقصائدهم بالسرارب ، وان المنشدين لا يمهدون بها كذلك ، وان فعلوا فانهم يخلطون حيث ينشـــدون سرابة هـــذه القصيدة لتلك حتى ولو لم تكن منسجمة معها فى الموضوع . فـــكـــان أن تعطلت هذه المقطوعات وضاع اكثرها . وما بقـــى منها ينســـب فى الغالب لغير أصحابه او لا يعرف قائله . ويطلق على الســـرارب التى يجهل اسم منشئها : « اسرارب احراميين » وكان بعد هذا أن بدأت السرابة تنفصل عن القصيدة وغدت تعتبر عند البعض نوعا

مستقلا من الزجل . وكنموذج نقدم السرابة التى مهد بها محمد بن على لقصيدته « دامى لجدار » :

1 ــ الدخــــول :

اقلبى كن عـــن امصابـــك صبار   الصبـــر مفتاح اللكنوز والذخيرا
محبوبـــك لا تعـــاتبـــو ولو جار   وارتجا وطو بعد السوايع لعسيرا
لو طال الهجر لاغنى مـــن لمزار   يا للى ما جبت لهل لغرام سيرا
انشوف اجمالى واقفا انحيرا

2 ــ الــنــاعــورة :

يــا عمهــوج لجــدار   ما هــو عمهــوج الراتــع لقفارا
يا شنيــار الــصفار   يــا بدر اتجلــى فكــمــال دارا
يا كوكــب السحــار   يــا مـــن حبو فى ساكنى اتوارا

3 ــ بــقــيــة الابيــات :

يا سالب مهجتى ولا جاب اخبار   لا تشوق بصري فى ذاتــك لنيرا
لامان اطلبت امن الخال والشفار   جرحو اذاتى جرح الايلو اجبيرا
ازديت الكى عن اجراحى بالنار   آش يطفى ناري واغصايصى اكثيرا
واهــوايــا ما هــو ســتــار   لــهــوا طالــب يفدي الثــار
هذا عشقى اولا وجدت ما نختار   عشقــى بــاسميتــى تفــتــار
اللا وقت اتجور اعلى القليب نارو   يشتــد القلــب امــن اكــدارو

4 ـ الــــــردمـــــية :

توجدني كانقول يا ستار

وتجدر الملاحظة ان هذه السرابة جاءت موحدة القافية ، وهي ظاهرة غير مطردة .

* اســــــرح :

انـــــظــــر الســـراح .

* الـــســــواح :

يطلق « السراح والرواح » على الانتقال في الابيـــات والاقسام من القافية الاصلية الى قافية اخرى ، ثم العودة اليها . واشتقوا من هذا المصطلح فعلي : اسرح وراح .

* الــســـويرحـــة :

تجمع على سويرحات ، وهي أبيات تستهل بها أقسام بعـــض القصائد ، ويطلق عليها كذلك ناعورة ج نواعر (انظره) .

* اســــــرد :

أدى القصيدة بالسرادة (انظره) .

* الـــســـــرادة :

اداء القصيدة سردا دون غناء ، ولا يكون الا بالنسبة لبعض القصائد الطويلة كهول القيامة للمغراوي والجمهور للعلمي . والغالب

ان تتم السرادة فى زاوية او مسجد او مسيد ، وفى مناسبات دينية وخاصة ذكرى مولد الرسول عليه السلام .

* **الســـريـــع :**

طبقة فى الميزان الموسيقـــى .

* **الـــســـاقـــى :**

عنوان لبعض الخمريات كهاته التى يقول الجيلالى امتيرد فى حربتها :

الساقــى وكـــض لريام رد بالك للنوبا لا تغيب عـــن مولاها
كب واســـق مـــا زال الليل

* **الـــســـلاخ :**

الشاعر الذي يسطو على شعر غيره فيحتفظ بالمعانـــى ويبدل الالفاظ ، ويطلق عليه كذلك : الخياط ، وهو غير المساخ (انظره) .

* **امـــســـلـــس :**

يقال « كلام امسلس » بمعنـــى انه سلس مستقيم لا كسر فى مـــيـــزانـــه .

* **اســـالـــك الـــطـــرقـــان :**

يقال للشاعر الذي تعرف — عن طريق تلمذه على الاشياخ — الى مختلف جوانب الفن ومشاكله واكتسب تجارب مـــن شأنهـــا ان تصقل شاعريته (انظر : اشياخا) .

* **الســمــاوي :**

السرابة التى يستهل انشادها ببطء كالموال ثم ياخذ صــوت المنشد فى العلو والارتفاع كأنه يصعد بها الى السماء . والغالب انها كانت تنشد فى الهواء الطلق وبمناسبة حفلات التنزه . ويطلق على هذا النوع كذلك « السرابة الحسناوية » (انظر حسناوية) .

* **الســوســى :**

بــحــر تكون الوحدة فيه قسما مركبا من ثلاثة أجزاء :

1 ــ بيت من شطرين يستهل به القسم وتكون قافيته موحدة مع الابيات التى تبدأ بها الاقسام الاخرى .

2 ــ مجموعة من الاشطار المرسلة تخضع لتسلســل الانشاد دون تقييد فى العدد والوزن والقافية .

3 ــ بيتان او ثلاثة أبيات موزونة مقفاة تمهد للحربة التى تكون على نفس الوزن والقافية ، وتكون موحدة القافية فى كل الاقسام .

ومن الامثلة على هذا البحر قصيدة الزمنية والعصرية لحسن اليعقوبــى ، واول أقسامها :

1 ــ بيت من شطريــن :

يا لحضرا سمعوا ما صار   بين زوج ابنات افلكارا

2 ــ الاشطــار المرســلــة :

شــابــا عصريــا بكرا
والاخرا زمنيا عذرا

فرجــونـــى بين الحضـــرا
وكنـــت حـــاضـــر
نصغـــى لخصامــهــم
نســمـــع العصريـــا
اتـــقـــول للزمنيـــا
يـــا جارتـــى اهنيـــا
سمعـــى منـــى اخبـــار
من يوم اسكنت احداي جارا
وانتيـــا فاشفـــار
يا حسبى لله سالبا بخصامك جمعلفكار
عمرك ما شفت انتقول شى مدرسا
ولا احضرت مجالسا
ولا اهواتك الدراسا
ايلا اهـــواتـــك
بـــك اعـــوار النـــاس
جارحا بلسانك فات لقياس
مـــشـــغولا بيـــا
ولا العنت شيطانك الشريـــر
خذينى نصفاك تتشتمى فيا
جهرا ابلا اخفيا
فالستا ساعـــت لعشيـــا
عند اغـــروب النـــهـــار
قـــالـــوا للشتامـــا النـــار
بلسانـــك قلت اعلى الشكـــارا

3 ــ بـــيـــتـــان :

أ ــ مصحوبا ديما امعايا مملوا ابلكـــتوب عل لفتـــخـــار
سابقـــا للمعيـــار
كابرا اميا فالسب الفتب والزورا

ب ــ لا لك المدرسيا فايقا عل لبكـــار

يا تسمعى لخبـــار
يالزمنيا غشيما اموخرا للورا

4 ــ الحريــــة :

آش را من لارا لبنات يوم قاموا لكحـــار
زوج هيفات اصغار
شـابا عصريا وامع الحاجبا فالجورا

وتجدر الملاحظة ان بحر السوســـى يكثر فى قصائد المحاورات والحراز .

* الســـولان :

السؤال ، وهو عنوان بعض قصائد الخصومة والهجاء ، يحاول الشاعر فيها تعجيز خصمه وتحديه بمعميات والغاز . ومن ابرزها قصيدة المدنى التركمانـــى التى حربتها :

اصغ اوجل واتأمل يا انسان جاوب اسؤالى كان انت البيب فاطن

ــ ش ــ

* المـــشـــتـــب :

بحر تكون الوحدة فيه قسما مركبا من بيت يفصل فيه بين أول اشطاره وبقيتها بمجموعة من الاشطار الحرة القصيرة تسمى « لمطيلعات » (أنظره) فكأن داخل البيت محشو بهذه الاشطار الزائدة التى لا تتقيد بوزن او بقافية ، وهذا هو الاصل فى التسمية اذ الشتب ما تملا به الفرش واللحوف والمضربات . ومن الامثلة عليه قصيدة التوبة لمحمد ابن سليمان ، وفى اول اقسامها يقول :

1 ـ اول البيــت :

ما فيها مــا يبقــى

2 ـ لمطيلعــات :

غير نعــم الباقــى
يــا غفيــل ما لــك شــاقــى
لايــن تاتزيــد احماقــى
ويــن من غرتهم بالمال والنصر
مــا فازوا غير ابلقبر
ما نفعهــم فيهــا تدبيــر
آسعادت من دار الخيــر
نــال ســلــوان
واعليه ما صعاب هــان

3 ـ بقيــة البيــت :

وانت ارمتنــى لهلاكــى فى ذا الاسواق
نلحقهــا مخليــا
اولاوجدت اعمارا

4 ـ الحــربــة :

يا راســى لا تشقــى
التاعــب لا بد من لفراق
لا تــامــن فالدنيــا
ابناسها غــرارا

ويلاحظ التطابق بين البيت والحربة وزنا وقافية .

* **شـــجـرة :**

كان الشيخ عبد العزيز المغراوي يلقب بـ « شجرة لكلام » اعترافا بشاعريته الخصبة .

* **شــحــــر :**

استعمل التشحيرة (انظره)

* **الـتـشـحـيـرة :**

عبارة يضبط بها الايقاع ويكمل عند الاداء مثل :

1 ــ يـا سيدنـا

2 ــ اسيدنا سيدنـا

3 ــ يا للا يا للا

4 ــ دادامى اللا هيا للا

وغالبا ما يؤديها المرددون او من يطلق عليهم الشدادا (انظره) ويقال في هذه الحالة ان الميزان يشد ويقبض (انظرهما) .

* **الـشـحـط :**

الهجاء ، ويطلق عليه كذلك : الدق ولهجو (انظرهما) .

* **شـــد :**

يقال ان الميزان يشد اذا كان يضبط بعبارات التشحـيرة او الترتيحة من طرف المرددين او الشدادا (انظر تشحيرة وترتيحة) .

* **الـشـــدادا :**

المرددون الذين يشدون الميزان أي يضبطونـــه بالتشحيـــرة والترتيحة (انظرهما) .

* **لـمـشـــركـــى :**

يعتبر قياس المشركـــى أبسط أوزان بحر المثنـــى (انظره) ، ويطلق عليه كذلك لحويط لقصير (انظره) ، وهى عبارة تقتـــرب فى مدلولها من قول العروضيين عن بحر الرجز بانه حمار الشعراء أو حمار الطلبة . وأقدم نماذجه قصيدة الحجة للحاج عمارة وحربتها :

يا لحضرا قولوا بالسر ولجهار   الصلا والسلام اعلى النبى المختار

وهى قصيدة تحدث فيها عن ادائه لفريضة الحج ، ويبدو أنه نظمها فى البقاع المقدسة ، ومن هنا جاءت تسميـــة وزنهـــا بـــ : لـــمـــشـــركـــى نسبة الى المشـــرق .

* **شـــعـــبـــانـــة :**

مناسبة أتاحت للشعراء فرصة استعراض جمال الطبيـــعـــة والفاتنات فى قصائد تحمل اسمها ، ومن أشهرها قصيدة امتيرد التى حربتهـــا :

آش را من لارا لريام يوم داروا شعبانـــا
كعرايس نحكيهـــا بارزا فحضرت كســـرا

* **الـشـــعـــر :**

الملـــحـــون :

* **الـشـاعـر :**

صاحب الشاعرية ، ويجمع كما فى المعرب على الشعرا

* **الـشـمـالـة :**

القصائد التى من شأنها أن تحرك السامعين وتهزهم وتؤثر فيهم ، وهو وصف كان يطلق على قصائد الشيخ الجيلالى امتيرد .

* **الـشـفـا :**

يطلق مصطلح : « الراحة والشفا » على التويزة (انظره).

* **شـكـارة :**

يقال عن الشيخ ان : « شكارتو اخوات » بمعنى خوى وفاضه ونفذ زاده اذا جفت قريحته الشعرية

* **الـشـمـعـة :**

عنوان لمجموعة من قصائد التغزل (انظره) يجري الشاعر فيها حوارا مع الشمعة حول ما يعانى كل منهما من آلام . من اشهرها قصيدة محمد بن على ولد ارزين التى حربتها :

لله يالشمعا سلتك ردي لى اسؤالى
واشبيك فالليالى تبكى مادالك اشعيلا

* **المـشـمـوم :**

عنوان لبعض قصائد وصف الطبيعة ، كهاته التى يقول محمد ابن على المسفيوي فى حربتها :

يالعاشق قطف النوار بين لـريـام
كل وحدا ركـم لها افنـوع مشموم

* **شـاخ .**

اصبح شيخا

* **الشيخ :**

الشاعر والمنشد ، ويضاف اليه فيقال :

1 – شيخ السجية بمعنى الشاعر
2 – شيخ لشياخ ، اى شاعر الشعراء واميرهم
3 – شيخ لكريحة بمعنى المنشد
4 – شيخ النشاد ويقصد به المنشد
5 – شيخ النظام بمعنى الشاعر .

* **اشياخا :**

التلمذ على الاشياخ اي المشيخة . ويقال فى امثالهم « شيخ ابلا اشياخا باطل شاخ » .

– ص –

* **الصبوحى :**

عنوان لقصائد تمزج بين الحديث عن الخمر ووصف الطبيعة فى الصباح الباكر ، منها قصيدة التهامى المدغري التى حربتها :

غنم الصبوحى يا نديم واسطاب ارضيع الكاس ولطيار افمغناها
لا ترتى للبرنيس كب – ورا ربى غفار

* الـصـــــروف :

تفعيلات الشعر الملحون ، وهى نوعان :

1 ــ الدندنة
2 ــ مالى مالى .

(انظر هذين المصطلحين) .

* الـتـصـــريـف :

نوع من الجناس يجعل الشاعر يتصرف فى كلمة باستعراض عدد من اشتقاقاتها ، والغالب أن يكون ذلك باسم الحبيبة فى القصائد الغزلية ، كقول ابن على فى قصيدة كنزة :

ما كيف اوصالك كنز

وافضل من مال اللى كنزوا

عالجنـــى يا شمس لمحاسن يا كنزا

* الـصـــفـرا :

عنوان لبعض الخمريات كهاته التى يقول محمد بن الوليد العلوي فى حربتها :

صولى صولى ببهاك يا بديع الحسن المكمول
فرحت لخلا عابك يالصفرا وبلغت امناها

يــــا درت لــســرار
وانت كن قمرا شرقت بضياها ويلا غرارا

* **صـفـى :**

غربل واجاز ، يقال ان هذا الشيخ صفى قصيدة شيخ آخـر اذا اجازها وذيلها . ويقال كذلك : دوز (انظره) . والغالب أن يتـم ذلك بين الاستاذ وتلميذه .

* **الـتـصـلـيـة :**

عنوان لقصائد يصلى فيها الشاعر على الرسول صلى الله عليه وسلم محاولا ان يبلغ بصلواته أكبر عدد يمكن تصوره او تخيلـه ، مستعرضا انواع الكائنات والمخلوقات المختلفة عـسـاه يبلغ أعلى درجات العد والحساب . ومن اقدم نصوصها تصلية محمد بن عبد الله ابن احساين التى يقول فى حربتها :

صلى الله امع ملايكو عل لحبيب الساري
وامـر هـل ليـمـان افـلـبـشـر
بصلاة الهادي امع اسلامو بآيات اسـوارو
صـلـى الـلـه اعلـبـه وافـرا

* **امـصـور :**

يقال ان هذا المنشد يؤدي الميزان « امصور » أي غير متقن لا تنسجم نغماته مع طبقة صوته ومع كلمات القصيدة ، ولا يتجاوب معه الجمهور والعازفون .

* **صـيـاديـة :**

وصف للقوافـي اذا كانت غير مستمدة من موضوع القصيدة ولا منسجمة معه ، اذ جرت العادة ان تكون القافية مأخوذة منه ، فقصائد المحبوبات مثلا تكون مقفاة بآخر حرف من اسمائهن (قصيدة كنزة على قافية الزاي وزهرة على الراء وسعاد على على الدال . وهـكـذا) .

وتغلب هذه الظاهرة فى الخمريات كذلك حيث نجد ان قصائد الكأس تأتى على قافية السين والساقى على حرف القاف . ومـن الامثلة على القصائد التى جاءت قوافيها صيادية قصيدة مينا للحسن بن شقرون فانها حائية وكان الاولى ان تكون على حرف النون ، تقول حربتها :

مينا باشت لملاح　　مينا روح ادخالى وراحت واصلاح
من اجفاهـا جمري لحلاح　　طعنتنى دون استلاح

— ض —

* التضمين :

التلزيم (انظره) .

* الضيف :

او ضيف الله عنوان لمجموعة من قصائد التراجم (انظره) ، يظهر الشاعر فيها لكي يصل الى محبوبته متنكرا فى صفة شخص يطلب الضيافة . منها قصيدة احمد بن الحاج التى حربتها :

اضيف الله امرحبا زد اهلا بمجيك للرسام　　فتح الغنبور واللثام
حينى بالسلام نستامن يا من قبط الزكيم

— ط —

* اطبع :

ذيل ، يقال ان شاعرا « طبع » قصيدة شاعر آخر اذا ذيلها وغالبا ما يصدر ذلك عن استاذ كدليل اعتراف لتلميذه بالشاعرية واجازته له .

* **الطبـاع :**

ويجمع على : طباعا ، هو الشيخ الذي يطبع أي يذيل قصيدة تلميذه ويجيزها .

* **الطبـايـع :**

عنوان لبعض قصائد الوعظ والزهد والحكمة ، كهاتـه التى يقول محمد الصغير فى حربتها :

سبحان الله فى اطبايع الناس ما بقى من لا هاج اغرامو
والناس احوال كل واحد فى حالـو

* **الطجيـن :**

عنوان لبعض قصائد الفكاهة ، وهى شبيهة بالزردة (انظره).

* **لمطـارش :**

الكلمات او الاشطار المكررة فى أسلوب النشـب (انظره) . وتطلق لمطارش حتى على الكلمات التى تكرر فى غير هذا الاسلوب كقول بنعيسـى الدراز فى حربة قصيدته زهرة :

بمزاري بمزاري
جدلى بوصالك نبرا
يـا مولاتـى زهرا

ولعل أصل الكلمة من الطرش بمعنى القذف ، كان الشاعر يقذف بها من شطر لآخـر .

* **الطرشون ؟**

اسم لنوع من الطيور ، وقد اتخذه الشاعر عنوانا لمجموعة من قصائد التغزل (انظره) حيث يتخيل محبوبه الهاجر له طائرا نافرا على حد ما فعل محمد بن على المسفيوي فى قصيدته التى حربتها :

طرشونى غاب يا هلى واغدرنى واجفانى   وافراقو رشانى
نسعى لكريم يجمع شملى وامنايا

* **لمطيلعات :**

1 ــ الاشطار الحرة التى تلى الدخول فى بحر مكسور الجناح (انظره) وتسمى كذلك : لكراسا .

2 ــ الاشطار التى تفصل فى بحر المشتب (انظره) بين اول اشطار البيت وبقيتها .

* **طيب :**

يقال طيب الميزان اذا سواه وعدله .

* **طاح ؟**

انظر : الردم .

ــ ع ــ

* **معرب :**

يقال « لا معرب على وهبى » اى لا جدوى من مناقشته فى المعانى والافكار (انظر : وهبى) .

* **العـروبـى :**

ابيات يتدم بها الشاعر لاقسام قصيدته ، وقد تكون مكونة من بيتين كل واحد منهما بشطرين يضاف اليهما شطر خامس على حد ما نجد عند الجيلالى امتيرد فى قصيدة فاطمة حيث يقول : .

انا يا فاطما احسانك ما ننســاه   وانت لحسان من تليتو من ناسو
اكشفتى سرنا ولو حتى بغطاه   عيار الحب طابعك كشف الخاسو
حتى بنيان ما علا دون الساسو

وقد يرتفع هذا العدد حتى يصل الى ثلاثة عشر بيتا والردمة كما عند العلمى فى قصيدة الجمهور حيث يقول فى عروبــى أحد الاقســام الاخـيــرة :

اللهم ارضى اعلى الخلايف عز الديــن
قد انجوم السما قد احماس الديجــان
قد اعداد لشجــار واعشوب البريــن
وما فالبحر امن اعجايب عــل للــوان
قد اعداد لرمال فاقفــار الارضــيــن
وما من هايما اتسيح اعلى لــوطــان
اللهــم ارضــى اعلى ملوك الحرميــن
اعداد ما فكل تــربــا من بســتــان
واعداد انسيم زهرها بعــد الفجريــن
وانغــام اطيارها اتزبرج اعلى لفنان
قد اما سبحــو الســمارس وامقنيــن
والحرمل والسرنــد والطــيــر لحسان

ما غنى اليتروك وارقــص بالجنحيــن
مهما شاف لهزار لحسن بالــتــرنـــان

وما بات لحمام اعلـــى البرج اينيــن
بــصوات امرخما اتبكـــى بالتحنـــان

واعداد النحل والنمل وادواب آخريــن
وانوار اعلى لصناف بارزا من لغصان

اللهم ارضـــى اعلى اهل السر المبيــن
رضوان الا ينتهى عـــن طــول ازمان

ما حملت امن اخلايق اجواف الثقليــن
بملايك طايعا اوحش وانـــس وجـــان

اللهم ارضى اعلى كوكب هل ليقـــيــن
ابا بكر الزكـــى وعمـــر وعـــثـمـــان

وابـــن ابى طالب الافضل قوم الشجعان
ابن عم المجتبـــى الشافـــع فالعصيان

وانصر يا ذا الجلال لمام السلطان

وعلى الرغم من ان لكل عروبـــى ردمته فان بعض الشعـــراء التزموا نفس الردمة فى كل عروبيات القصيدة كـمـــا فعل الحـــاج ادريس الحنش ، فانه التزم اثر كل عروبى فى قصيدتـــه التطوانيـــة قوله :

الله ايجود بالنصر لعلام الدين

وتجدر الاشارة الى ان القافية قد تكون موحدة فى العروبـــى الواحد ، ولكنها حين لا تكون فان الردمة تأتـــى على حرف الاشطار الثانية او الاعجاز (لغطاوات). اما من عروبـــى لآخر داخل القصيدة الواحدة فان القافية لا تكون موحدة .

* **المــعــراج :**

عنوان القصائد التى تحكى قصة الاسراء والمعراج ، كقصيدة عبد القادر الجرا.ي التى حربتها :

الصلاة اعلى الهادي راكب البراق   سيدنا محمد لمشرف الصديق
من اسرى من حرم الحرم امنغسيق

* **المــتــعــريــجــة :**

لــكــوال (انظره)

* **المــعــرصــة :**

البستان والحديقة ، ويطلق :

1 ـ عنوانا لبعض قصائد وصف الطبيعة ، ومن اشـــهـــرها قصيدة المدغري التى حربتها :

يا لعرصــا فرحى صولى ابطيب لطياب
ساكنـــك سيدي ولد الساكنيـــن طيبــا

2 ـ وصفا لاحد الاشياخ اذا برز وتفوق ، وتعبيرا عن صيغة شيخ الاشياخ أو أمير الشعراء حيث يقال : عرصة لشياخ ، وقــد اشتهر بهذا اللقب الشيخ الجيلالى امتيرد .

* **لــعــراض :**

المعارضة ، وهو عنوان لبعض قصائد الهجاء القائم على اختلاف الرأي في قضية او مسالة تطرح للجدل والنقاش . ومن اشهر قصائد

هذا الفن ما دار بين الغرابلي والتركماني حول الايمان والعمل ، حيث قال الاول قصيدة حربتها :

يالداعي بالعرف اصغ الهل العلم انما قالوا
الشهادا من غير اعمال ليس تكفي مولاها

وقال الثاني قصيدة حربتها :

آلداعي شهد والشهادا بالله أبالرسول تكفي وأكفات واخير
فالدنيا ولاخرا اكثر والمومن نيتو افضل من اعمالو

* **عراق العجم :**

نوبة موسيقية (انظر نوبة) .

* **العزرودة :**

دودة سوداء مخططة بالاصفر ، وتطلق على تنويع القافية ، وهو اسلوب في التقفية يعرف كذلك بـ : الدربلة والمرشوش (انظرهما) .

* **لعزو :**

او لعزا وهو الرثاء . ومن اقدم نصوصه قصيدة عبد العزيز المغراوي في رثاء المنصور السعدي وحربتها :

عام شايب مات الذهبي اخيار لتراب
ما بقى للسعدى باش ايرجعو

* **عـــاشــورا :**

مناسبة أتاحت للشعراء فرصة استعراض جمال الطبيـــعـــة والفاتنات فى قصائد كهاته التى يقول الحاج محمد النجار فى حربتها :

اجى انشوف يا من لا شاف الهايجات يسدارو
كيف شفت عيــن حـــســن يوم عـــاشـــور

* **الــعــشـــق ؟**

الشعر الذي يصف الجمال ، ومعظم قصائده تحمـــل اســـم المحبوبات ، وفى طليعتها زينب وفاطمة وزهرة وخديجة ، ويقابلـــه الـــتـــغـــزل (انـــظـــره) .

* **الــعــاشــق :**

1 ــ عنوان لمجموعة من قصائد التغزل (انظره) كقصيدة احمد المركوم التى حربتها :

مال العاشق يا هل الهوى صابر لدعات ما بغى يسخـــا بالمعشوق

2 ــ لقب أطلق على الشاعر محمد بوعمـــرو لسبـــقـــه الى موضوع العشـــق .

* **الــعــشــاق :**

نوبة موسيقية (انظر : نوبة) .

* **الــمــعــشــوق :**

عنوان لمجموعة من قصائد التغزل (انظره) كقصيدة الرجراجى التى حربتها :

يا علاج القلب المحروق يالمعشوق
لا تهون بميسورك من الكيـــد طلقو

* **العـــلــم :**

يـــقـــال :

1 ــ العلم الرقيــق .
2 ــ العلم الموهوب او علم الموهوب .

يقصد بهما الشعــر الملحــون

* **لــمــعــلـم :**

الشيخ الكبير ، وكان هذا اللقب يطلق على محمد بن علـــى العمرانى المعروف بولد ازرين .

* **الــمــعــنــى :**

يـــقـــال :

1 ــ «السبب والمعنـــى» لدوافع القول وحوافزه عند الشاعر .

2 ــ «حسس اعلى المعنـــى» اي بحث عنه .

3 ــ «الدسيس د المعنى» اي توضيحه .

(انظر هذه المصطلحات) .

* **عــايــب :**

وصف يطلق على الميزان اذا كان غير سليم ، وبصفة خاصـــة على ميزان القصيدة الذي لا يقوم على السرابة ، حيث ورد فى قولهم : « من لا يوزن بسرارب ميزانو يبقى عايب » (انظر : السرابة) .

* غـــريبـــة الحسيـــن :

نوبة موسيقية (انظر : نوبة) .

* لـــغـــزال :

عنوان لبعض قصائد العشق (انظره) كقصيدة بنعيســـى الدراز التـــى حربتها :

اعطف برضـاك يا غزالى يا مشموم لبها الفايح
يا من حسنك اسلب عقلى بكـمـــال اوضاحو

* الـــتـــغـــزل :

شعر العواطف والمعاناة من الحب ، وتعرف قصائده بالمحبوب واللايم والجافـــى والعاشق والمرسول وما اليها ، ويقابله العشق (انظـــره) .

* اغـــــزيـــــل :

عنوان لبعض قصائد العشق (انظره) . وقد يكون فى الغـــزل بالمذكر كقصيدة التهامى المدغري التى حربتها :

دام الله اجمال صورتك يا شادي   انـــت اعنـــايـــتـــى وامـــرادي
اغزيـــل يسلب من جـــا يصيدو   زنجـــار فى عـــيـــد حـــاســـدو

سيـــدى محمد

* **الــغــــزوات :**

القصائد الايوبية (انظره) .

* **لــغــصـــان :**

اقسام القصيدة ، وهى تسمية تذكر بمصطلـــح الاغــصـــان المستعمل فى الموشحات .

* **لــغــطــا :**

اي الغطاء ، وهــو ثانى شطري البيت فى وزن المثنى (انظره) وهو شبيه بالعجز فى الشعر المعرب .

* **الــغــطـــاس :**

الغواصة ، ويطلق عنوانا لبعض قصائد الهجاء ، كهاته التى يقول احمد الغرابلى فى حربتها :

هكذا من ينشى غطاس تحت لمواج ايموج
كل من صادفو قلبو اصناجو
وابــقــى كـــرجـــا

* **الــغــافــل :**

عنوان لبعض قصائد الوعظ والزهد والحكمة ، كهاته التـــى يقول محمد الشاوي فى حربتها :

لعــن الشيطان   يالغافل اكما لعنو الله مولانا
مهما يدور بك اخزه ولعنـــو

* الـــغـــيـــوان :

الـــغــنـــاء .

* الـــغـــيـــظ :

احد مستويات الابداع الشعري (انظر : السجية) ويتجلى ى نقل الشاعر لاحاسيس نفسه وانفعالاتها كما فى القصائد التى تعبر عـــن العاطفـــة ، سواء كانت عاطفة حب اودين .

— ف —

* الـــفـــار :

عنوان لبعض قصائد الفكاهة الا انها ضاعت فى اغلبها بسبب ما كانت تثيره بين الاشياخ من شغب وشنآن ، الشىء الذي جعل المنشدين يتحاشونها وكذلك الجمهور . من ذلك ما يحكـــى مـــن أن الناس كانوا يطلبون من المنشد قصيدة الفار فيقولـــون له :

تيجى احلو افمك (انظر كذلك : الكلب) .

* فـــجـــج :

استعرض نغمات وطبوعا مختلفة فى قصيدة واحدة ويقـــال كذلك : بدل (انظره وانظر : التفجاج والتبدال) .

* الـــتـــفـــجـــاج :

تنويـــع النغمات فى القصيدة الواحدة ، وهو التبدال ، وفعله : فجج (انظره) .

* لــمــفــرد :

ميزان قديم لعل قصائد الملحون كانت تنشد عليه فى القديم .

* فـــــرش :

استعمل التفريشة (انظره) .

* لــفــراش :

اول شطري البيت فى وزن المثنى (انظره) ، وهو شبيه بالصدر فى الشعر المعرب .

* الــتــفــريــشــة :

التشحيــرة (انظره) .

* الــفــراق .

عنوان لمجموعة من قصائد التغزل (انظره) تحكى هجر المحبوبة وما يعانـــى المحب من ذلك . منها قصيدة التهامى المـــدغري التـــى حــربــتــهـــا :

لا يعيد افراق المعشـــوق يالعـــشــــاق
بعدما عنـــقتنـــى تعنـــاق لام مرشــــوق

* افــصــيــح :

يقال « افصيح لشياخ » بمعنى أفصحهم واقواهم تعبيرا وقدره علــيــه .

* **لـفـصـادا :**

الفصد ، وهو يطلق على القصائد التى تصور الحفلات التـــى كانت تقام بهذه المناسبة ، كقصيدة فضول المرنيســـى التى حربتها :

اواه يا منين اتجمعوا لريام فزمان النوار وانواوا لفصادا
(انظر : الحجام) .

* **فـصـــل :**

قسم القصيدة .

* **لـفـصــالا :**

تقسيم القصيدة .

* **فــاكــيــة :**

يقال « فاكية لشياخ » بمعنـــى ثمرتهم وشيخهم ، وهو لقـــب كان يطلق على الشيخ الجيلالى امتيرد .

— ق —

* **اقـبــض :**

بمعنى قبض ، يقال أن المرددين قبضوا الميـــزان اذا اشـــدوه (انظره)

* **الـقـدام :**

ميزان موسيقـــى (انظر : ميزان)

* **القرصان :**

السفينة الحربية ، ويطلق عنوانا لبعض قصائد الهجاء كهاته التى يقول محمد بن سليمان فى حربتها :

هكذا قل للداعى ايدير قرصان ويخرج
كيف من سافر بين امواجو
واغنم وانجا

* **القريض :**

الشعر الملحون .

* **القسم :**

المقطع ، وقد يكثر عدد الاقسام فى القصيدة او يقل ، كما أن عدد الابيات داخل القسم الواحد قد يكثر او يقل. والغالب ان يتراوح عدد الاقسام من اربعة الى عشرة ، وكذلك يكون عدد الابيات داخل القسم الواحد ومع ذلك فان بعض القصائد فاق عدد اقسامها المعتاد ، ومن الامثلة عليها :

1 ــ قصيدة هول القيامة للمغراوي تضمنت ستة وعشرين قسما .

2 ــ القصيدة الفياشية للشرقى اشتملت على تسعة وعشرين قسما .

3 ــ قصيدة الجمهور للعلمى بلغ عدد اقسامها اثنين واربعين.

4 ــ قصيدة الحسين للفلوس وصلت الى خمسة واربعين قسما .

اما بالنسبة لعدد الابيات فى القسم الواحد فانه قلما يزيد على عشرة ، وقد بلغ فى قصيدة الشمعة لمولاي التايك ستة عشر بيتا فى القسم الاول واحد عشر فى الثانى وثلاثة عشر فى الثالث واربعة عشر فى الرابع والاخير . ومثل هذا الاختلاف بين الاقسام شاذ ولكن الاشياخ يعللونه بـ « السبب والمعنى » (انظرهما) .

ومن براعة الشاعر ان يقدم لاقسام قصيدته بأبيات قليلة ، منها ما يسمى: لعروبى (انظره) ، ومنها ما يطلق عليه اسم النواعر (انظره) .

واذا كانت أقسام القصيدة الواحدة تتساوى فى عدد الابيات فان القسم الاخير منها قد يطول ، وغالبا ما يتضمن اسم الشاعر وتاريخ النظم واهداء السلام والتصلية والدعاء وهجاء الخصوم . ويطلق على نهاية القصيدة او نهاية القسم الاخير منها اسم : الرواح (انظره) . وتجدر الاشارة الى انه يطلق على الاقسام كذلك اسم : لغصان (انظره) .

* **لقصيد :**

قصيدة الشعر الملحون

* **لقصيدا :**

القصيدة الزجلية التى هى قصيدة الشعر الملحون .

* **لقصير :**

يقال « لحويط لقصير » للتعبير عن قياس لمشركى (انظره)

* **الــقــاضــى :**

عنوان قصائد يلجأ الشاعر المحب فيها الى ممثل القضاء عساه ينصفه من جور المحبوبة ، وهى من نوع التراجم (انــظــره) . منها قصيدة امتيرد التى حريتها :

آلقاضــى لك ادعيت لغزال خناري
اعلاش دون سبا هجرت لوكار
جفلت من رسمى قامت لقنا بودواح ازهور
زينت لاسم زهرا

* **الــقــطــعــة :**

قصيدة الشعر الملحون .

* **الــقــافــيــة :**

هى القافية المعروفة فى الشعر المعرب ، وتسمى كذلك الحرف ويطلق على الشعراء : « هل لقوافــى » (انظر : اهل)

* **الــقــامــوس :**

يطلق على بعض قصائد الوصايا والحكم كقصيدة محمــد بن على التى حريتها :

ما لبس اجديد اللى ما قرا احساب البالى
اولا يبلى بطعام اللى ايكون ناوي بالغــدر

* **القــوامــس :**

بمعنى الدواهــى ، يقال :

1 ــ اقوامس الملحون ، اي الشعراء الكبار
2 ــ اقوامس الموهوب او العلم الموهوب ، ويقصد بهم الشعراء الكبار كذلك .

❋ القايم ونصف :

ميزان موسيقي (انظر : ميزان)

❋ اقياس :

يجمع على قياسات ، وهى أنواع الميازين داخل البحر الواحد. وتنطق بالصاد : « قياص » .

ــ ك ــ

❋ الكاس :

عنوان لبعض الخمريات كهاته التى يقول المدغري فى حربتها .
نق اصاح هات امناجلك اغنم نشوة راحي يا صاحي
رادف واخلف شين ضاع لك جمع الري انصاحا واشكر بوجود المليح

❋ اكحل :

يقال « كلام اكحل » بمعنى معقد وصعب .

❋ لكراسا :

تطلق على :

1 ــ لمطيلعات (انظره) .
2 ــ السويرحات او النواعر (انظرهما) .

* مكسور الجناح :

بحر تكون الوحدة فيه قسما مركبا من اربعة اجزاء :

1 ــ الدخول وهو عبارة عن شطر فى استهلال القسم لا غطاء له يبدو كالطائر الذي كسر أحد جناحيه . وتكون أشطار دخول اقسام القصيدة موحدة القافية

2 ــ مجموعة من اشطار قصيرة غير مبيتة ولا غطاء لها تسمى : لمطيلعات أو لكراسا (انظرهما) ولا تسير على قافية موحدة سواء فيما بينها او من قسم لآخر .

3 ــ بيت على وزن الحربة وقافيتها كأنه تمهيد لها .

4 ــ الحربة اي اللازمة

ومن الامثلة على هذا البحر قصيدة المزيان لابن على ، وهذا اول اقسامها :

1 ــ الدخول

تــه بجمالك على لقمـار

2 ــ لمطيلعات :

الشمس اتغير ايلا تشوف زينك
لبدر امن اجبينك والبان غار منك
اسبغ امن الظليم الوفرا
واضوا من لكواكب غرا
والحاجبين فوق الطرا

نحسابهم نونين
وامعرقيـــن باثنين
واشفار فوق وجناتك ناموا

3 ـ البـيـت :

اصوارمو استلوا من لجفان
واجفانك غلبوا يا فهيم شفف اجفانــى
ولخدود اسبغهم الجلار
عل لبياض احمرار

4 ـ الحربـة :

ليا قال المزيان
وصف هذا الحسن ياللى تهوانــى
قلت يا دابل لشفار
تـوصافـك لا يحصـار

ونجدر الاشارة الى انه اذا كان لا يشترط فى لمطيلعـات أن تكون موحدة القافية او عل ىنفس قافية البيت والحربة فان بعـض الشعراء التزموا وحدة القافية فى كل القسم على حد ما فعل الحاج ادريس بن على فى قصيدة غيثة ، وحربتها :

قولوا للا غيثا مولاتــى   رف بوصالك عل لعشيق يام الغيـث

* الـكـلـب :

عنوان لبعض قصائد الفكاهة ، وقد عرف الغالــى الدمناتــى بنظمها ، وكان الناس يطلبون الاستماع اليها بمحضره بمثل قولهم : « قولوا لنا الكلب د الغالى » وكانهم يشتمونه ، فتضايق من ذلك

واحرق كل انتاجه فى الموضوع وحرم على حفاظ شعره ان ينشدوه (انظر كذلك : الفار)

* لــكــلام :

الشعر الملحون . والقصد من التسمية بصيغــة التعريــف المطلق ان هذا الشعر هو الكلام الحق الصادق .

* كـــان حـــتـــى كـــان :

نوع الشعر الذي نشأت عنه قصيدة الملحون ، وكان يعتمد على القص والحكاية فى خلو من الوزن والقافية . وقــد ورد هــذا الاسم فى اول قصيدة موزونة وقفنا عليها ، وهى لابن احساين ، يقول فيها :

نبدا باسم الله انظامـــي يا للي ابغـــا لـــوزان
لوزان خير لي أنايا من قول كان حتـــى كـــان

ـ كـــ ـ

* الـكـبـاحـي :

السرابة التى يصاحب اداءها ضرب قوي ومتواصل بالكــف (انظر : السرابة) .

* كـــرح .

أنشد الملحون (انظر لــكــريحــة) .

* لــكــريــحــة :

من أسماء الشعر الملحون ، وسمى كذلك لصدوره عن القريحة ولانه يكرح به ، اي ينشد ويغنــى .

* لــكــوال :

اهم آلة يضبط بها منشد الملحون الايقاع ، ويطلق عليه كذلك : « التعريجة » (انظره) .
ولعل اصل التسمية : الجوال او القوال ، وهما افتراضان يدلان على اهمية الدور الذي تؤديه هذه الآلة فى مصاحبة انشاد قصائد الملحون.

— ل —

* مــلاحــم :

قصـــائــد طويــلة :

* الــمــلــحــون :

الاسم الذي شاع اطلاقه على الزجل فى المغرب ، وهو من اللحن بمعنـــى عدم الاعـــراب وليس من اللحن بمعنى الغناء .

* الــتــلــزيــم :

ويطلق عليه كذلك التضمين ، وهو أن يضمن الشاعر قافيتــه اكثر من حرف ويلتزم ذلك فى كل القصيدة او فى بعــض اقسامهـــا . وهو ما يسمى فى الادب المعرب بلزوم ما لا يلزم . وقد برع فيه الحاج أحمد الغرابلى ، ومن خير الامثلة على تضمينه قصيدة ملكة التــى يقول فى اول اقسامها ملتزما حرفـــى اللام والكاف :

يا من اطلوع اهلالك
يفجـــى اظـــلام لحلاك
نحكـــى اشموس لفلاك
لله جد لى بوصالـــك
ننكى ابزورتـــى عدالك
لنى اغلام حسن اجمالك
قبل الصيام يا مولاتـــى ونا غلام مملوك
ومن لفـــراق مهلوك
ويلا تزورنى تتعافـــى ذاتـــى الهالكا
لو تجفـــى قلبـــى ايواصلك
ويلا دزتنـــى ابقى العار اعليك

* الـــلـــفـــا :

من اسماء الشعر الملحـــون .

* الـــلايـــم :

عنوان لمجموعة من قصائد التغزل (انظره) يعبر الشاعر فيها عما يقاســـى من لائميه فى الحب وهم ممن لم يذوقوا طعمه . منهـــا قصيدة علال الصدراتـــى وحربتها :

دعنى كف لومك يا لايم لا تلوم دمع العين اسجيم
حالتـــى لا حالا حالـــى انحيـــل اســـقيـــم

— م —

* مـــالـــى مـــالـــى :

تفعيلة لضبط الايقاع فى قصيدة الملحون ، يقاس بها بعد ان تضاف لها كلمات مثل : الرادا العادا ــ سيدنا . للا مولاتـــى للا او ما اليها مما يشد به الميزان (انظر : شد)

والغالب فى استعمال هذه التفعيلة أن يبدأ بتلك الكلمات ثـــم تختم بـــ : مالى مالى . ومن الامثلة على ذلك قولهم فى هذا البيت من قصيدة الوردة لابن سليمان :

لا تلومونى فى ذا الحال جيت نشهد وانـــودي
يا عدولى فالمـــوت اسبابـــى خـــد الـــوردا
للا يـــا مولاتى لـــلا ويـــا مـــالـــى مـــالـــى
للا يا مولاتـــى لـــلا ويـــا مـــالـــى مـــالـــى

ويقـــال ان الذي دعا الى اتخاذ هذه التفعيلة هـــو الشاعـــر المصمودي (انظر : الدندنـــة) .

* المـــايـــة :

نوبة موسيقية (انظر : نوبة) .

* مـــخ :

يـــقـــال ان القافية « اعلى مخها » اذا جاءت فى القصيدة كلها بحـــرف واحـــد .

* المـــدح :

1 ـــ المديح النبوي ، ويطلق عليه كذلك : المداحى . ومن ابـــرز قصائده هاته التى يقول النجار فى حربتها :

نور الـــحـــق الســـامـــى   صلى اعليه ربى واعلى آلو لكرام

نحـــســـن بـــه اختامـــى   محمد لمفضل طـــه خيـــر الانـــام

2 ـ مدح الاولياء والصالحين . ومن الذين قال الشعراء فيهم قصائد كثيرة:المولى ادريس(انظر : الادريسيات)، وعبد القادر الجيلالي (انظر : الجيلاليات) ، وعبد السلام ابن مشيش ، وسبعة رجال . ومن الامثلة على هذا المدح قصيدة الفقيه العميري فى ابن مشيش ، وحربتهـا :

انا يـا ابن مشيـش غـارا بالـرافا كـن لـى اعويـن

يا بـدر انبـا اولا تـوارى يـضوي ما طالـت السنين

يخفـى الهلال ولـمـنـارا والـصـيـرا الباقيـيـن

3 ـ مدح الملوك والامراء والحكام ، على غرار قصيدة الحاج محمد العوفير فى جلالة الملك الحسن الثانـى ، وحربتها :

دام الله أيام صولتك يا نعـم السلطـان
يا كعـب التمجيـد والسعادا نور اعيانى
يـا تـاج المغرب سيدنا مولاي الحسن

* مـداح :

كان الشيخ الحاج محمد النجار يلقب بـ : «مداح النبى » لكثرة ما نظم من قصائد فى مديحه عليه السلام .

* الـمـداحـى :

المديـح النبـوى .

* لـمـرمـات :

جمع مرمة ، ومعناها المنوال وهو الآلة الخشبية التى يستعمل النساج والدراز . ويقصد بالمرمات بحور الشعر الملحـون ، وهـى اربـعـة :

1 ـ المبيت
2 ـ مكسور الجناح .
3 ـ المشتب
4 ـ السوسى

(انظر هذه المصطلحات) .

* **المساخ :**

الذي يسرق شعر غيره ويمسخه بقلب معانيه والفاظه ، وهو غير السلاخ (انظره) .

* **المليح :**

عنوان لبعض قصائد العشق (انظره) كقصيدة الرجراجى التى حربتها :

انا عبد لمليح طايع   مال نكسبت ارجيع

* **الماهر :**

الشاعر المتقن الماهر .

* **الموال :**

مقدمة قصيرة يستهل بها الانشاد على ميزان خاص ، وهى تتكون فى الغالب من بيتين يكونان فى معظم الاحيان معربين . وقد يكون الموال مستقلا فى حد ذاته .

والموال المغربي شبيه بالموال المشرقي من حيث الشكل لا يختلف عنه الا فى اللحن والاداء . ومن خصائصه أنه يستهل بـ : آنانانانا . ومن الامثلة على الموال المعرب هذان البيتان المنسوبان للصفدي :

ومن عجب انى أحن اليهم	واسأل شوقا عنهم وهم معى
وتشتاقهم عينى وهم فى سوادها	ويطلبهم قلبى وهم بين اضلعى

ومن الامثلة على الموال الملحون :

تانحبك ونهواك	وفى امسبتك ايكرهونى
ما راحتى حتى نلقاك	واعليك يتحلو اعيونى

* مول :

استعمل الموال او التمويلة (انظرهما) .

* التمويلة :

كلمات يمهد بها لحفظ الميزان وأدائه فى بداية انشاد القصائد . ويقال ان لكل قصيدة تمويلة تكون على قالبها وميزانها . فمثلا تمويلة قصيدة التوبة لابن سليمان تنشد على ميزان عراق العجم وتكون كالآتى :

امالى يا مالى
أسيدي يا سيدي
للا يا مولاتى للا
امالى مصبرنى
اغرايبى لامونى

— ن —

* النحلة :

عنوان لبعض قصائد وصف الطبيعة ، ومن أشهرها قصيدة التهامى المدغري التى حريتها :

صولى يا شاما الظريفا وازهاي اغنى اودندنى قطفى من لزهار
اترياق اعلاج كل ضر ابنت الملك ملك هما واتمارا

* النشب :

وهو ثلاثة انواع :

1 — نشب كلمة ، وهو ان يستهل الشطر بكلمة من الشطر الذي قبله ، والبيت بكلمة من البيت السابق عليه ، وغالبا ما تكون آخر كلمة فى الشطر او البيت ، وكأن القصيدة سلسلة مرتبطة الحلقات ، ويطلق على الاجزاء المنشوبة : لمطارش (انظره) . ومن امثلته قول محمد بوزيان فى قصيدة المحبوب ، وكان بارعا فى استعماله :

محبوب خاطري من فكدو عمدالى عمدا لى والنوم ضج من لنجال
لنجال اعلى الخد ادمعها سلسالى سلسالى يهوا اكما لمطر هطال
هطال امن افراق اللى زاد اهبالى اهبالى من فكد امن اهويت اغزال
اغزال افلبها غيرو ما يحلالى يحلالى وصلو ايلا نعم ابلوصال

2 — نشب كلمتين على ما نجد عند الحاج احمد الغرابلى فى قصيدة عين الرحمة حيث يقول :

اعين الرحما الراحما يا قرت لنيام
يا قرت لنيام جدلى يا بحر التعظيم
يا بحر التعظيم ولفضل يا عيــن الرحما

3 ــ نشب شطر ، وقد برع فيه التهامى المدغري ، وخاصة فى قصيدته فارحا التى نقتطف من بعض اقسامها قوله :

سلتــك ببــهــاك يــالرايح   مالــك ســكــران دون راح
ونا عــقلــى امــعــك راح   بايــت من ليعــت لجرايــح
ســاهر والنــاس رايحا
بــايت من ليــعت لجرايــح   عقلــى بهــواك ما ارتــاح
وانبــرد ابــغــيــر اح اح   بيــن التنــهــاد والجوايــح
كاوي بجمار لافحــا
بيــن التنهــاد والــجوايــح   بالشــوق اتكــمــد لجــراح
اللــى من دكــت الــلــماح   والغالــب ما ابقــى يسامح
ولا يدري امسامحــا

* الــنــشــاد :

المنشــد ويجمع على : نشادا .

* الــنــاشــفــة :

قصيدة تكون كل كلماتها مهملة الحروف . ومن الامثلة عليها قصيدة الكبير بن عطية ، وفى حربتها يقول :

روم حرم الهادي واسع امكارم احــمــاه
لمــرام اموصــل والــود ولــمــكــارم
ما مســى محروم الساعى لو راد احماه

ويعتبر ذلك من براعة الشاعر وقدرته على التعبير .

* **الـــنـــظــم :**

الشعــــر الملحـــون .

* **الـــنـــظـــام :**

الشعــــر الملحـــون .

* **الـــنـــظـــام :**

الـــشـــاعـــر .

* **نـــاعـــورة :**

وتجمع على « انواعر » ، هى :

1 ـــ أبيات قصيرة تأتـــى بعد الدخول فى السرابة (انظره) والغالب انها لا تتعدى ثلاثة أبيات .

2 ـــ ابيات تستهل بها أقسام بعض القصائد، ويطلق عليها كذلك : لكراسا والسويرحـــات (انظرهما) . والغالب ان تكون مكونة من ثلاثة ابيات ، وقد يصل هذا العدد الى خمسة ، كما أن البيت فيها يكون من شطرين ، وقد يصل الى اربعة .

فمن الامثلة على الناعورة المكونة من ثلاثة أبيات بشطرين ما قدم به الشاوي لاول اقسام قصيدة له فى التصلية حيث قال :

واجـــدو من هـــو حـــى واحـــد   قبل لوجود واظهر للخلق اوجادو
جعلو محبـــوب احبيب مـــاجـــد   كرمو وفضلو واهدى به اعبادو
ويح من اعصاه وكـــان جـــاحد   جهنم اجـــزاه فيهـــا مقـــعـــادو

ومن نماذج الناعورة ذات الخمسة أبيات قول المصمودي مقدما لاول أقسام قصيدة الجار :

ما يشبهني عاشق الجار بالحب سرت ديواني واخلاكي اصفر
نار الحب اقوى امن النار منها اعذاب قلبي يا صاح ينزبر
من قوتها سارت اجمار بين لحشا اوسط المهجا وامع الصدر
نار اتمادى فيه بشرار واعييت ما نلاهي وانكابد فالصبر
جيت انزور احمامة الدار لا حي لا مونس لا غاشي لا خبر

وفيما يخص القافية فان النواعر قد تكون موحدتها في كل القصيدة ، وقد تأتي كل منها على حرف . كما أنها قد تلتزم نفس قافية القصيدة وقد تخالفها .

* النافر :

عنوان لبعض قصائد التغزل (انظره) . منها قصيدة عبد القادر العلمي التي حربتها :

ايلا اهداك اعلى ربي فاش جاك اكلام الحساد
يا سراج اعياني رف يا غايت كل احبيب

* انفق :

يقال عن الميزان انه « انفق » اذا ادى في انسجام .

* المنقول :

أحد مستويات الابداع الشعري (انظر : السجية) ، ويتجلى في رواية الشاعر لما في الكتب ونقله ونظمه كما في قصائد مولد الرسول عليه السلام ووفاته ، وهي تحكي ما ورد في السيرة النبوية .

* **الـمـنـهـاج :**

اسلوب النظم وطريقته .

* **نـوبـة :**

جمعها نوبات ، وهى اقسام الموسيقى الاندلسية ، وعددها احدى عشرة ، هى :

1 ـ رمـل المايـة
2 ـ الاصـبـهـان
3 ـ المـايـة
4 ـ رصد الذيـل
5 ـ الاستهلال ، وهو من اضافات المغاربة
6 ـ الـرصـد
7 ـ غريبـة الحسيـن
8 ـ الحجاز الكبيـر
9 ـ الحجاز المشرقـى
10 ـ عراق العجم
11 ـ الـعـشـاق

وعلى هذه النوبات يقوم انشاد قصائد الملحون .

ـ هـ ـ

* **لـهـجـو .**

الهجـاء ، ويطلق عليه كذلك : الشحط والدق . (انظرهما)

* **التهديرة :**

عزف قوي وسريع يقوم على الآلات الايقاعية الصدمية ، وخاصة لكوال والطبيلة والبندير ، مع مصاحبة التصفيق . وهو غالبا ما يسبق انشاد بعض القصائد أو ينهيه وقد يتخلله عند سكوت المنشد وتوقف الآلات الاخرى . ويطلق على هذا العزف كذلك اليد

* **الهرتال :**

المتسلط على الشعر بنظم فارغ لا عاطفة فيه ولا معنى ، ويجمع على : هرتالا .

* **المهراز :**

المدفع ، ويطلق عنوانا لبعض قصائد الهجاء ، كهاته التى يقول محمد بن ريسون فى حربتها :

هكذا قل للداعى ايدير مهراز ايخرج
كور مزد من سور ابراجو
يفرع من جا

* **مهزوز :**

طبقة فى الميزان الموسيقى .

* **الاستهلال :**

نوبة موسيقية (انظر : نوبة)

* **الـهـيـض :**

احد مستويات الابداع الشعرى (انظر : السجية) ، ويتجلى فى وصف الشاعـر للواقع ونقل الحقيقة كما فى بـعـض قصائد المحـاورات .

ـ و ـ

* **واحـــد :**

انظـر « جنب » .

* **الـورشـان :**

طـائـر ، وهو :

1 ــ عنوان لبعض قصائد الشوق لزيارة البقاع المقدسة ، حيث يرسل الشاعر هذا الطائر يحمل رسالة الحـب والشـوق للرسول الكريم ، علـى حد ما نعل الحاج عـمـر المراكشـى فى قصيدته التى حربتها :

اولد لحمام ادي لى عنوانى — للصادق لمصدق رسول الله

2 ــ عنوان لبعض القصائد التى يحملها الشاعر سلامـه من مدينة الى اخرى (انظر مرحول) كهاته التى يقول الـحـاج ادريس الحنش فى حربتها :

عاول نرسلك من مكناس فى احمى ربى يا ورشانى
بمسـلـم اعـلـى لفـقـرا فى فـاس

* لـــــوزان :

الاوزان ، وهى من أسماء الشعر الملحون (انظر : كان حتـــى كـــان) .

* الـمـيـزان :

جمعها اميازن ، وهى فروع خمسة تتجزأ اليها كل نوبة مـــن نوبات الموسيقى الاندلسية التى يقوم عليها انشاد الملحون (انظر : نوبة) ، وهـــى :

1 ـ البـسـيـط
2 ـ القايـــم ونصف
3 ـ الـبـطـايحـى
4 ـ الـقـــدام
5 ـ الدرج ، وهو من اضافات المغاربة

* امـــوســـع :

طبقة فى الميزان الموسيقـــى .

* الـتـوســـل :

عنوان للقصائد التى عبر فيها الشاعر عن حاله المثقل بالذنوب والاوزار ، ورجائه الملح فى الله أن ينقذه ويعفو عنه ، متخذا وسيلته اليه او الى رسوله الكريم وساطات مختلفة .
ومن أشهر هذه القصائد توسل العلمى الذي حربته :

يا من ابلانـــى عافينـــى ارحمتك النال
خـــف ثقلى يتســـرح يرتخـــا اعكـــالى

* لــــوصــــال :

عنوان لمجموعة من القصائد يصف فيها الشاعــر المــحــب وصوله الى حبيبته او زيارتها له كقصيدة محمد بن على التى حربتها:

زار الزين امقامى   وامع امجيه جانى سلوانى والمرام

واجعلتو فزمانى   هو مالكــى ونا للــبــاهى اغــلام

* الــوصــايــة :

عنوان لبعض قصائد الوعظ والزهد والحكمة ، كهاته الــتــى يقول العباس الحرار فى حربتها :

سبحــان من خلقنا واقهرنا بالموت

ويطلق بعض اشياخ مراكش على هذه القصائد اسم «المدونة» (انظره) .

* الــــوفــــاة :

عنوان لبعض القصائد التى تناولت وفاة الرسول عليه السلام ، كهاته التى يقول أحمد الفرابلى فى حربتها :

معظم يوم اتوفــى بدر التمام   سلطان لنبيــا بلقاســم

* اولــــد :

انشأ وابدع ، ومن امثالهم « السجاي تيولد والحفاظ تيربــى » (انظــر : السجاي والحفاظ) .

* الـــوهبـــى :

الشاعر الذي له قدرة على النظم فى سهولة ويســـر دون أن تكون له عواطف وافكار . ومن هنا قالوا « لا معرب على وهبـــى » (انظر معرب) اي لا جدوى من مناقشته فى المعانـــى . وهـــو غيـــر السجاي (انظره) . ومن الشعراء الوهبيين محمد الجابري واحمـــد المرياق الذي نقتطف قوله فى قصيدة لا مضـــمـــون لها ، من بـــاب « السماء فوقنا والارض تحتنا » :

شف اولاد اليوم من كثرة لحرام اعماوا
ما قبطو فيمانهم غير الله يداوي
ويلا غاب الصح لا طبيب ايداوي بدوا
واش المركب دون رايس وقومانو يرساوا
واش لغنم ابدون سارح ترعى لخطاوى

* الـــمـــوهـــوب :

الملحون ، وفى التسمية ايحاء بانه هبة من الله مصدره الالهام

— ي —

* الـــيـــد :

التهديرة (انظره)

الـــربـــاط   د. عباس الجراري

إدريس الأكبر فاتح المغرب

وثيقة تاريخية عن دعوته لم تنشر، ولم تعرف لدى الذين كتبوا عنه من المغاربة

تقديم وعرض : د. عبد الهادي التازي

نشرت تحت هذا العنوان كل من مجلة (التضامن) و (الوثائق) دراسة للاستاذ علال الفاسي وعد القراء في نهايتها بالحديث عن تحركات الامام ادريس بن عبد الله خارج الساحة المغربية من أجل استرجاع الخلافة للعلويين وقد شاءت الاقدار ان تستاثر بروح الفقيد الجليل قبل ان يتمكن من تزويدنا بما به وعد ، فله ما أعطى وله ما اخذ .

ومعلوم ان الاستاذ علال كان في دراسته كشف عن وثيقة تتعلق بالامام ادريس الذي كان يدعو في بداية مقامه بطنجة الى اخيه الامام يحيى والذي لم يلبث - بعد ان بلغته الاخبار عن تصفية اخيه من طرف هرون الرشيد - ان اخذ يدعو لنفسه متصلا بمختلف الجهات بما فيها وليلي التي استقبلته في النهاية وبايعته على اساس ما جاء في الوثيقة .

لقد كان الوعد الذي قطعه الاستاذ الراحل على نفسه محور حديث جرى بينه وبيني أثناء زيارته الاخيرة لبغداد أوائل

1972 وصادف أننى كنت حديث الحصول على وثيقة تتعلـــق برسالة بعث بها الامام ادريس بن عبد الله الى أهل مصـــر يدعوهم فيها الى الالتفاف حول آل البيت رضوان الله عليهم... حصلت عليها ضمن مخطوطة بميلانو (مكتبة أمبروزيانـــا) بمساعدة السفارة الايطالية فى العاصمة العراقية .

وقد أعرب لى رحمه الله عن رغبته فى الحصول على صورة للورقات التى يتضمنها المخطوط الذي لم يكن غير الجزء الثانى من سيـــرة الامـــام المؤيـــد بالله محمد بن القاسم (من أيمة اليمن) ذاكرا أنه بحاجة اليها فى البحث الذي يعده ـ رغم شاغله وحالته الصحية ـ حول المولى ادريس غير أنه ـ وقد علم اننى أحرر آنذاك القسم الخاص بالعلاقاتالخارجية للدولة الادريسية من (تاريخ المغرب الدبلوماسى) سمح لى بتأجيل استعارتها ايـــــاه .

وعند عودتى للمغرب أطلعنى على الوثيقة التى كان يعتزم نشرها ، مجددا رغبته فى الحصول على نص ما كان رآه ببغداد، وهكذا أعرتها له يوم 27 ـ 3 ـ 74 الى أن كانت ليلة سفـــــره الاخير الذي استشهد فيه حيث اعاد ما كنت أعرته مؤكدا انه قام بتصويرها وانه سيتحدث عنها فى مقال لاحق .

وما أشك أنها كانت فى طريقها للنشر من جانبه ، وأنهـــا كانت ضمن ما وعد به ولهذا فانى أقدمها اليوم للقراء محاولا أن أرضى نفسه الطويل ـ رحمه الله ـ فى البحث العلمى ورغبة فى اطلاع جمهور القراء عليهـا .

وسوف لا أتحدث هنا عن الصلات التى استطاع الامـــام ادريس أن يربطها سواء مع الامارات المجاورة لمملكتـــــه ، أو بالعبيديين بافريقية والامويين بالاندلس ، ولكنى سأكتفى بمـــا يتعلق بعلاقاته مع العباسيين ببغداد وبطموحه رضى الله عنه الى كسب أهل مصر وخطابه اليهم فى هاتيك العصور من غير أن يقيم وزنا للخطر الذي كان يهدده من العباسيين فى بغداد وبالرغم أيضا من الاخبار التى وصلت عن انتقام أولئك من أخيه الامام يحيى بن عبد الله بعد أن كانوا زودوه بتأمين يتضمن عدم العدوان عليه على ما ذكر ...

وقد ورد الخطاب المشار اليه ضمن رسالة مطولة وجهها المؤيد بالله محمد بن القاسم (ت. 1054 = 1644) (1) امـــام اليمن الى المغرب الاقصى عندما احتدت الازمة الداخلية ببلاد المغرب فى أعقاب وفاة المنصور السعدي وتفرق بنيه وظهـــور بعض الزعامات وبخاصة عندما اشتدت أطماع أتراك الجزائر فى الاستيلاء على المغرب عبر الخلافات الناشبة بـــين القـــادة الظاهرين الذين كان فيهم من ينتمى بدوره الى العترة النبوية مما كان يهدد بخروج الحكم من يد آل البيت الشريف أيـــام السلطان محمد الشيخ الاصغر ، أواسط ذي القعدة 1048 = مـــارس 1639 .

---

(1) هو محمد بن القاسم بن محمد بن على كان عظيم السلطان فى بلاد اليمن وقد قام بعد وفاة أبيـــه سنة 1029 وانقـــادت له الديـــار اليمانية كان عالما متفننا وفى أيامه وبمساعدة أخيـــه المولى الحسن أضطر الترك للخروج من اليمن كلـــه عـــام 1045 = 1035 وقد توفى عام 1054 = 1644 . القاضي الشماحي : تاريخ اليمن ص144

ففى هذه الظروف وصل ((السيد الجليل العالم النبيـــل الطاهر بن عبد الله الادريسى » وكان العلامة هاشم بن حازم ابن أبى نمى (2) وجده (زبيد) سائحا وعليه أسمال فى هيئـة السؤال ، وعرفه وعرف علمه ومنصبه الشريف فرفع قـــدره وطالع فيه مولانا الحسن أخا المؤيد بالله محمد بن القاســم فاستدعى ذلك وصول مولاي الطاهر الى مقامه وعرف ما عنده من فنون العلم وأنه من أهل بيت ملك ، وأخبره أنه خرج خائفا من ابن عمه ملك البلاد ، فقربه كثيرا وأقام عنده أياما وأعطاه ما يجل ويعظم من الخيل والخلع النفيسة والنقود الكثيرة على أنواعها وأرسله مع بعض خواصه الى الامام المؤيد ، وقد أخبر المرافقون للزائر المغربى أنهم رأوا فيه أثناء الطريق ما يـدل على أنه من الامراء وأكابرهم ، ومن أهل الهمم العلية .. وقـد مكنه الاجتماع بالامام من التعرف بالحالة فى المغرب وأعطاه الامام عطاء جزلا وكتب معه دعوة الى المغرب الاقصى ، وأخبر بعض أصحاب مولانا الحسن أنه سمع الزائر المغربى يخوض معه فى الدعوة لنفسه فى المغرب كما سمع مثل هذا الكلام عـن عدد من الناس ويذكر المصدر الذي نقل هذا الكلام أنه لا يدري بعدما حصل : وهل ان الامر تم للامير المغربى المذكور أم لا ..؟

وبعد هذا يأتى المخطوط بنص الدعوة والرسالة التـى وجهها الامام المؤيد محمد بن القاسم الى المسمى الطاهر بـن

---

(2) أسرة ابن نمي مشهورة وقد حكم عدد منها الحرمين على مـا هو معلوم ولم اعثر على ترجمة خاصة لهاشم هذا حفيد ابن ابي نمي..

عبد الله الادريسى باعتباره أحد أبناء الرسول المستحقين دون غيرهم لتولى الحكم ..

وفى أثناء هذه ــ الرسالة الدعوة ــ يستطرد الامام المؤيد بالله بالاتيان بالنص الكامل للرسالة التى كان الامام ادريس الاكبر بعث بها الى أهل مصر ، وهذا بيت القصيد ، وأريد قبل أن أستعرض نص الرسالة المشار اليها أن أبادر الى القول بأنها هى عينها مضمون القسم الثانى من مقال الاستاذ علال الذي يبحث عنه الاستاذ عبد الوهاب بن منصور ، وأنها هى نفسها الوثيقة التى تحمل رقم 5 فى العدد الاول من مجلة (الوثائق) الغراء ...

⁂

ان الذين يتتبعون تنقل الامام ادريس من المشرق فى أعقاب وقعة فخ ، ويتتبعون الى جانب ذلك كيف أن هذا الرجل استطاع أن يؤسس فى المغرب الاقصى نواة لاول دولة مستقلة ليدركون مدى التخوف الذي كان يساور العباسيين من أمر افلاته أولا ثم من أمر نجاحه فى التفاف الناس حوله ..

خمس سنوات فقط بعد وقعة فخ استطاع فيها هذا اللاجىء السياسى أن ينجح ، بمساعدة السكان ، فى انشاء خلافة مستقلة عن المشرق تأخذ طريقها فى اتجاه مصر !

لقد فقدت الخلافة بالامس ولاية الاندلس عندما استطاع عبد الرحمن بن معاوية بن هشام أن يفلت من تعقب العباسيين ويلتجىء الى هذا المغرب الاقصى سنة 136 ـ 753 ثم يعبر منه المتوسط (3) ليكون له فى شبه الجزيرة الاندلسية دولة مستقلة! لكن ذلك تم فى ظروف قلقة كان فيها العباسيون فى حالة سطو على كيان بنى أمية ، وأما افلات ادريس فقد تم فى عـــز الدولـــة واستقرارها ! أما ادريس فهو من آل الامام على ، ولابـــد أن كسبه سيفوق كل تصور ...

ولا شك أن الذي زاد فى قلق الخليفة هرون الرشيد وتخوفه ما بلغه عن طريق رجال أخباره من أصداء الرسالة التى بعث بها الامام ادريس ، مع وفادة سرية ، الى أهل مصر يذكرهم فيها بفضائل أهل البيت ويصف فيها التضحيات الغالية التى بذلوها فى سبيل حقهم الشرعى ويطالبهم بتأييده ومساندته .. لقد اقتنع الخليفة الرشيد بأن الادارسة لا يفكرون فقط فى فصل المغرب عن دار الخلافة الاسلامية والاكتفاء بزعامته ، وانما كانـــوا يخططون لتوحيد الخلافة كلها تحت قيادتهم !

---

(3) التجأ عبد الرحمن الذى لقب بالداخل ، الى المغرب الاقصى واقام حينا بقبيلة مغيلة مختفيا عند شيخ من شيــوخ البربــر يدعــى وانسوس ، ثم نزل عند قوم من زناتة على شاطىء البحر المتوسط ولحق بمليلية وغيرها . . . وفى اواخر 136 = 753 بعث رسوله (بدر) الى الاندلس للاتصال بانصار بنى أمية . . . وقد نجـــح (بدر) فى مهمته وعاد يحمل البشرى لعبد الرحمن الذى عبر البحر فى ربيع الآخر 138=755 ومن ساحل غسانة الى البيرة **Alvira** حيث مسى سيــد الاندلس ... البيـــان المغــرب ج 2 ، 45 — نفـــح الطيـــب 2،64 .

ايها الناس ان الله بعث نبيه محمدا صلى الله عليه وآله وسلم بالنبوة وخصه
بالرسالة وحباه بالوحي فصدع بامر الله وابلغ حجته واظهر دعوته
وان الله جعل ناوه مخصوصا بولادته وجعل فينا ميراثه ووهبه فينا وعن
[illegible] اليه محمود الاجر [illegible] على الله ولا على رسوله
صلى الله عليه وآله وسلم فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم اجمعين [illegible]
ناوه باحسن الحالة [illegible] صغارا واكرمنا بطاعته كبارا ف
جعلنا الدعاة الى العدل القائمين بالقسط المجانبين للظلم [illegible]
الجور [illegible] من بعضنا [illegible] والدعاة الى سبيل [illegible] ساحل ناوه فكان
ما حلهم [illegible] بعضنا
وقتلوا [illegible] على الخشب [illegible] على
الاطباق [illegible] من ساحل ناوه وكرامة
اكرمنا بها [illegible] عليه الاعدة [illegible]
عليه الصغير [illegible] علينا الكبير في كلام طويل [illegible]
ايضا ان احمد النبي [illegible] الطاهر الحسين بن ابراهيم في دعوته [illegible]
بسم الله الرحمن الرحيم من آل يس الى جماعة المسلمين سلام
عليكم اما بعد فلولا اعتبارنا بابائنا [illegible] الاولين وتمسكنا بوصيتهم
نبينا صلى الله عليه وسلم والقيام بامر الله والامر بالمعروف والنهي عن المنكر
والدعاء الى سبيل الحق اذ عصي الله في ارضه وحكم في عباده بغير كتابه
[illegible] بعضنا على ان بعض على اي حين وفي اي زمان
[illegible] من الناس [illegible] من الامر وقل من العدد على كثرة من العدد و
[illegible] لان من الناس [illegible] الى دعوة [illegible]
[illegible] في سبيل [illegible]
الى كثرة عدونا وقلة من تبعنا صبروا عند اللقاء صبرا عند الموت لا

اللوحة 72 حرف (ب) من المخطوطة اليمنية التي حصل عليها الايطاليون أثناء اتصالهم باليمن والتي زودني بها في بغداد السنيور اريسطو بيرنارديني **Birnardini**

لقد كان الامام بعث ادريس فعلا الى مصر(4) رسالة يقول فيها داعيا الى الالتفاف حول أهل البيت ما نصه :

((بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فالحمد لله رب العالمين لا شريك له الحى القيوم ، والسلام على جميع المرسلين وعلى من اتبعهم وآمن بهم أجمعين ، أيها الناس ان الله بعث نبيه محمدا صلى الله عليه وآله وسلم بالنبوة ، وخصه بالرسالةوحباه بالوحى ، فصدع بأمر الله وأثبت محبته وأظهر دعوته وان الله جل ثناؤه خصنا بولايته وجعل فينا ميراثه ووعده فينا وعدا سعى له به ، فقبضه اليه محمودا لا حجة لاحد على الله ولا على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين فخلفه الله جل ثناؤه بأحسن الخلافة ، وغذانا بنعمته صغارا وأكرمنا بطاعته كبارا وجعلنا الدعاة الى العدل ، القائمين بالقسط ، المجانبين للظلم ، ولم نمل ، اذ وقع الجور، طرفة عين عن نصحنا أمتنا والدعاء الى سبيل ربنا جل ثناؤه ، فكان مما خلفته أمته فينا أن سفكوا دماءنا وانتهكوا حرمتنا وأيتموا صغيرنا وقتلوا كبيرنا واثكلوا نساءنا حملونا على الخشب وتهادوا رؤسنا على الاطباق فلم نكل ولم نضعف بل نرى

---

(4) يظهر ان الرسالة بعثت عند معبره الى تلمسان سنة 174=790، للشخصية التى كان الامام تعرف عليها وهو فى طريقه من الشرق الى بلاد المغرب . ولعلها السيد المصرى الذى تعرف على ادريس وراشد واضافهما عنده ورافقهما الى برقة ، ولا يبعد ايضا أن تكون موجهة الى علي بن سليمان الهاشمي الذى كان تستر على الامام ادريس ومولاه راشد ورفيقهما ، ابن أبي زرع : روض القرطاس .

ذلك تحفة من ربنا جل ثناؤه وكرامة أكرمنا بها ، فمضت بذلك الدهور ، واستملت عليه الامور وبى منا عليه الصغير وهرم عليه الكبير ... » (5) .

رسالة ادريس وهارون الرشيد ..

وقبل أن نعرض للرسالة اليمنية الى أهل المغرب نشير

اشارة خاطفة للآثار التى خلفتها الاخبار التى وصلت الى بلاط بغداد عن هذه الرسالة..

لقد تحدث المؤرخون عن هلع الرشيد من بيعة أهل تلمسان للامام ادريس مرددين القولة المأثورة التى ترددت فى بلاط بغداد « أن من دخل الباب لابد أن يصل الى ما وراء الباب» ولكنهم أي المؤرخين غفلوا عما تقتضيه الرسالة الادريسية من وصول ادريس فعلا الى مصر التى لا تبعد عن بغداد !

واعتقد أن الوشاية التى وصلت بادريس من مصر هى التى عجلت بتنفيذ ذلك الهاجس الاسود الذي خطر على بال

(5) الجزء الثاني من سيرة الامام المؤيد بالله محمد بن القاسم ، المشار اليه فى صلب المقال — دكتور احمد مختار العبادى : المغرب والوحدة الاسلامية : المحاضرة الاولى فى حفل افتتاح السنة الاكاديمية لجامعة محمد الخامس الرباط يوم 20 اكتوبر 1961 — مجلة التربية الوطنية ، الرباط ، مجلة تطوان . وقد ذكر الدكتور العبادي أنه عثر على الوثيقة بفضل افادة الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني رئيس قسم المخطوطات بالخزانة العامة .

جعفر البرمكي والمتلخص فى انفاذ جرير بن سليمان الشماخ الزبيدي لاغتيال الامام ادريس على نحو ما تم بالنسبة لاخيه يحيى بن عبد الله بالمشرق ...

ان الرسالة العباسية فى بغداد لم تستفد من الخطأ الذي وقعت فيه الخلافة الاموية فى دمشق عندما كان ولاتها على المغرب يعاملون السكان على نحو من القهر والقمع والكبرياء الامر الذي ادى الى اعلان التمرد على حكام دمشق وانشاء دولة مغربية تقوم على مذهب جديد .

كان على بغداد أن تدرك أسباب ذلك التمرد بل وتدرك معه الفرق بين ذلك الانفصال الخطير الذي ذهب الى حد اضطهاد العروبة وبين هذا الاستقلال الذي كان يهدف لحماية العروبة ويعمل على صهر المغرب فى مجتمع اسلامى سليم .

اننا نعتقد انه لولا ذلك « الهاجس الاسود » لكتب الناس التاريخ الاسلامى بطريق غير التى كتبوها به على ذلك العهد ، ومع ذلك فقد أبى القدر الا أن يفسد خطط الرشيد بميلاد ادريس الثانى الذي أرسى قواعد الدولة بما قام به طيلة حياته من أعمال ومنجزات بالرغم من أن بنيه من بعده اختلفوا على أمرهم ، ويكفى أن نردد هنا عاصمته فاس : المدينة التى يقترن اسمها باسمه ، ويكفى أيضا أن نعلم حديث بعض المؤرخين عن سفارة من فاس تصل الى شارلمان لمزاحمة سفارة بغداد لديه ...

البعيد والقريب حكمه وكل من بلغته من الامة جعل رتوبتها من الاختلاف
في الدين عاصمه ولم نزل نعمل النظر في تبليغها اليكم واقامة حجة الله بها
عليكم بان كان قد بلغتكم في الجملة ولم تحصل لاعلاء الله بها كلمة الحق في جميع
اهل هذه البقعة الى ان اتصل بنا السيد الجليل الاوحد النبيل واسطة
عقد السادة ودرة تاج الشرف والجادة الطاهر بن محمد اعزه الله
فاحضرنا همكم باستسقافها فانكم ان شاء الله احق من قام بحقها وسرى عن
هلا فيها لما احلكم اسوة شرف البيت وكرم الابوة بالتمسك فيها فينا يا تون
وبذلك من ان شاء الله تعالى سلفكم من اهل بيت النبوة ومن احق منكم
بذلك وابائكم هم الذين شادوا الجهاد بانفسهم ونصحوا في امر الله ليبلغوا
عنهم ما وحقائق امر الله ولا لانوا بل كانوا كمن ضرب الله مثلهم من ابائهم
الحسين عليه السلام في قوله وكاين من نبي قتل معه ربيون كثير فما وهنوا
لما اصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والا فمن جدكم علي ابن
الكامل بن الحسن الرضي شيخ المسلمين وبابن المومنين وابن سيد النبيين
والحسين الطاهر الاطايب من سادات الحسن الذين لما نظر اليهم
جعفر الصادق وقد امرهم الى المدينة هملت عيناه حتى جرت دموعه
على لحيته ثم قال لابنه الحسين بن زيد بن علي عليهم السلام والله لا يحفظ
الله حرمة بعد هذا ابدا وان اباؤه سادة الدنيا وزينة الاحياء
ابي محمد بن عبد الله النفس الزكية ابن ابراهيم بن عبد الله النفس الرضية
ابن يحيى بن عبد الله النفس التقية ابن ادريس بن عبد الله النفس
النقية وغيرهم من اهل بيتهم الذين اشار اليهم جدكم الامام الاعظم
ادريس بن عبد الله سلام الله عليه في رسالته الى اهل مصر اذ يقول
بسم الله الرحمن الرحيم اما بعد فالحمد لله رب العالمين لا شريك له
في الملكوت والسلام على جميع المرسلين وعلى من اتبعهم وامن بهم اجمعين

اللوحة 72 حرف (أ) من مخطوطة المجلد الثاني من سيرة الامام المؤيد بالله
مكتبة امبروزيانا (ميلانو) وهي تحمل رقم 115

الرسـالـة اليمنيـة

لابد ونحن نعيد الى الذاكرة أن خطاب الامام ادريس ورد ضمن الدعوة التى وجهها المؤيد بالله الى أهل المغرب أن نتساءل عن محتوى الرسالة اليمنية ؟

ان الرسالة بعد أن تذكر الجهة التى أرسلتها تذكـــر ان « كتابنا هذا الى اخواننا وبنى أبينا صفوة العترة وخير الاسرة واخوانهم وبنى عمهم من آل الامام الاعظم ادريس بن عبـد الله .. ومن يتصل بهم من المسلمين .. قمنا لله داعين وبأمره فى عباده معلنين .. ولم نزل نعمل النظر فى تبليغها اليكم واقامة حجة الله بها عليكم .. الى ان اتصل بنا السيد الجليل الاوجد النبيـل واسطة عقد السادة ودرة تاج الشرف والمجادلة الطاهر بن عبد الله رعاه الله تعالى فأخبرنا عنكم وانكم ان شاء الله أحق مـن قام لله بحقها والتمسك فيما تأتون وتذرون بسلفكم من أهـل بيت النبوة ، ومن أحق منكم بذلك وأباؤكم الذين ساروا للجهاد بنيته ومضوا فى أمر الله ليبلغوا حجته فما ونوا فى أمر الله بل كانوا كمن ضرب الله لهم مثلا من آبائهم النبيئين والمرسلين فى قوله : فكأي من نبىء قتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ، والا فأين جدكم عبـد الله الكامل بن الحسن الرضى شيخ المسلمين ورائد المؤمنين وابن سيد النبيئين واخوته الاطاهر الاطايب وأين أبناؤه سادة الدنيا وزينة الاحياء ؟ اين محمد بن عبد الله النفس الزكية ، أين ابراهيم بن عبد الله النفس الرضية ، ابن يحيى بن عبد اللـه النفس النقية ، أين ادريس بن عبد الله البضعة التقية وغيرهم

من أهل بنيهم الذين أشار اليهم جدكم الامام الاعظم ادريس بن عبد الله سلام الله عليه فى رسالته الى أهل مصر اذ يقول : بسم الله الرحمن الرحيم الى آخر الرسالة التى أوردنا نصها ... وبعد هذا تورد الرسالة اليمنية أيضا نص رسالة أخرى من ابن أخيه التقى النقى الطاهر الحسن بن ابراهيم موجهة الى جماعة المسلمين يشير فيها أيضا لمكان أهل البيت ويتخلص المؤيد بالله من نص الرسالتين ، الادريسية والحسنية الى قوله : « نعم فكتبنا اليكم دعوتنا هذه داعية الى مثل ما دعا الله سلفنا وسلفكم وآباؤنا وآباؤكم من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ... والدخول مع جماعة اخوانكم من أهل البيت واتباعهم من المؤمنين فيما دخلوا فيه من الاجابة وأمرنا السيد الجليل الطاهر بن عبد الله ان يبلغها ان شاء الله اليكم ويأخذ عهد الله فيها عليكم ويقوم فيكم ان شاء الله بأحكامها ويستعين بعد الله بكم على نشر أعلامها بما يطابق كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وتختم الرسالة بالآية الشريفة : « قل هذه سبيلى ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » وتزيد تدقيقا فتذكر التاريخ والمكان الذي حررت فيه على النحو التالى : « بتاريخ العشر الوسطى من ذي القعدة عام ثمانى وأربعين وألف بدرب الامير من وادي أقر من بطنة جحور وأعمال محروس شهارة (6) .

(6) (شهارة) مكان دعوة القاسم بن محمد حيث وقعت معركة شهيرة بين الاتراك واليمن : اليمن عبر التاريخ ص 246 — 265 .

تأمـــلات فى هــذه الوثيقـــة

نلاحظ باديء ذي بدء أن الوقت الذي اختير لهذا اللقاء بين شخصية تنتمي لآل البيت فى المغرب وأخرى تنتمي لنفس البيت فى المشرق كان يتفق مع تطلعات أتراك الجزائر لضرب وحـــدة المغرب سواء بطريق التآمر والغدر أو طريق عقد الاحلاف مـــع العناصر الانفصالية التى كانت لا تتردد فى مد يدها الى اسبانيا أو انجلترا أو هولاندا على ما هو معروف فى تاريـــخ المغـــرب السياسى على هذه الفترة التى أمسى فيها المغرب ستة مغارب.. وان اشراف اليمن الذين خبروا الاتراك وتمكنوا أخيرا مـــن اجلائهم عن البلاد عام 1045 _ 1635 كانوا أكثر ادراكا مـــن غيرهم لتخوفات المغرب من أن يفلت الحكم فيه الى من هو غير مؤهل فى نظرهم على الاقل ، وقد اعجزنى البحث عن هوية الزائر المغربى لبلاد اليمن على ذلك العهد : الطاهر بن عبد الله وهل له صلة بأميرغاس عبد الله بن محمد الشيخ الذي له آثار بصحن جامع القرويين بالرغم من أن السعديين ليسوا ادارسة ؟

ان المعروف فى التاريخ أن المغرب كان يعيش فى هـــذه الفترة حقبة جد صعبة ، فقد كانت البلاد موزعة فى شبه ملوك الطوائف : محمد الشيخ الاصغر بن زيدان يحكم طرفا من البلاد والشيخ العياشى يستأثر بطرف آخر منها والموريسكيـــون ينحازون تارة الى أتراك الجزائر وأخرى الى الاسبان لتفشيل حركة الجهاد والمقاومة وذلك من أجل السيطرة على الحكم، وبين هذا وذاك ظهرت زعامات أخرى من أجل المساومة ...

لكنى على ظن من أن ذلك التحذير وصل الى بلاد المغرب، وانه كان من أسباب تدارك الامر من قبل سيدي محمد بن الشريف (محمد الاول) أول ملوك الدولة العلوية الشريفة الذي ظهر فى نفس التاريخ الذي حملت فيه الرسالة الى الديار المغربية .

ونتساءل هنا بهذا الصدد عن السر الذي يختفى وراء تذكر الملوك العلويين باستمرار لاشراف اليمن بالصلات السنوية التى كانت تنفذ اليهم كل سنة عن طريق ركب الحاج فان الامر لا يتعلق فقط بمواساة تقتضيها الاصول الاسلامية سيما مع وجود مواطنين مغاربة من أصل يمنى على هذا العهد ولكن أيضا بتعاطف سياسى يستهدف ابعاد المتسلطين على الحكم ...

ولابد من الاشارة هنا الى ما حمله تقرير سري رفعه الى الباب العالى أحد السفراء العثمانيين : اسماعيل أفندي يقول فيه: ان العلويين لا ينظرون بعين الرضا لحكم الترك وأن لهم قلوبا تهفوا اليهم فى الجزيرة العربية وعبر أقطار الشمال الافريقى قاطبة ولذلك فان ما يتدرع به العلويون من مطالبتهم المستمرة برفع القيد التركى عن الجزائر انما يقصدون به الى اقصائنا والاحتفاظ بتلك الايالات عربية القلب واللسان » .

وبعد فاذا كانت الوثيقة التى كشف عنها الاستاذ علال قد أعطت الدليل على ما كان يهدف اليه الامام ادريس من اعادة

الامور الى نصابها فى ذلك العصر المبكر ، فان هذه الوثيقة تؤيد هى الاخرى أن القضية ظلت مشغلة آل البيت الى العصـــور المتأخرة لا فرق فى ذلك بين من تواجد منهم فى أقصى المشرق أو أقصى المغرب .

ان التاريخ الدولى للمغرب ملىء وحافل حتى ليعتبــر فى نظرنا أكثر الدول أصالة وأقواها صلة بالاحداث العالميـــة فى سائر مراحل تاريخه وان صلابة عوده فى النضال وتحدى التسلط ظلت ملحمة مشرقة لدى أصحاب الرواية والدراية .

الرباط **د. عبد الهادي التازي**

الفكر العلمي
ومنهجية البحث عند علماء المغرب

عبد العزيز بنعبد الله

ان البحث العلمى يشمل كل مجالات الفكر الذي ينطلق من جماع مقومات الحضارة ، فالمجتمع المتوازن هو الذي تساوت عناصره وتكاملت معطياته فتحرر فيه النظر فى مساندته للواقع وانطلقت التجربة غير مقيدة فى مسارها الطبيعى المنبثق من ملابسات فعلية يعضد فيها الفكر العمل كما يساند العمل الفكر ولذلك تبلور التوازن بين المقومين فى المجتمع العربى فى اروع مظاهره فكانت سمة المشاركة تطبع الثقافة فى اطار تكوين عام لا يترك مندوحة للبس أو الغموض فى التفكير العملى لو العمل الفكري لدى البحاث العربى .

فهذا الباحث قد امتاز اذن بروحه الواقعية فلم يانف من الاقتباس من النص القديم بعد تمحيصه على ضوء المعطيات الجديدة التى تتواكب كلها فى المجتمع الواحد وهذا هو سر عبقرية الفكر العربى فى العصور الاولى للنهضة العربية اي ما يسمى بالقرون الوسطى التى كانت فترة ذهبية فى حياة الانسانية لان الفكر ظل نظريا فى ابعاده المخبرية يلتزم بواقع الحياة ويعطى لكل الظروف حقها من التمحيص ليضع الخاص فى

اطاره العام دون أن ينساق فى التيارات السطحية التى تحـدو الفكـر الساذج الى التعميم السريع انطلاقا من نظرات جزئية .

فالمجتمع العربى مهما تكن أبعاده ومقاساته ـ من القرية الـى المدينة الوسطى الى الحاضرة ـ كان يرتكز ـ منذ الانطلاقة الاولى ـ على دعامات توفر له ظروف الحياة التى لا يعوقها خصاص ولا يحجزها عائق وقد كان من المقرر ـ بدائيا ـ فى حضارات العـرب أنـه « لا تستوطن الا بلدة فيها سلطان قاهر وطبيب ماهر ونهر جار وفاض عدل وسوق قائم » * ، ومنذ ذلك أصبحت المدينة الاسلامية الفاضلة هى التى تساوق فيها المحيط الطبيعى الخصب والعـدل الاجتماعـى الموفـور والاقتصاد الاكتفائى السابغ والمنطلق الحر الـذي يكفـل للفكر المسار الانسانى فى غير قيد ولا شرط عدا الاقيسة المنطقية الرصينة ؟

ولذلك كانت التجربة أساس الابتكار والابداع عند العرب فتفوقوا فى العلوم التجريبية خاصة وقد اكد كودار فى (تاريخ المغرب) ص 449 انه اذا كان العرب قد تفوقوا تفوقا بارزا على (اللاتين) فى عهد من العهود فان ذلك لا يمكن أن يكون الا فى الحساب والطب والجغرافيـة والعلـوم الطبيعية والصيدلة والكيمياء والفيزياء (البصريات) اذ جـابر بـن حيان الكيماوي وابن الهيثم الفيزيائى فى طليعة من أقام هذين العلميـن على قاعدة تجريبية راسخة ، وقد بنى العرب تجاربهم على اجهزة مخبريـة فسبقوا الاوربيين الى وضع الاوانـى الزجاجية الكبرى التـى تحتوي على السوائل الملونة للفرز والتمييز بدقة وضبـط وهى اليوم اسـاس تحليلات وتمحيصات المختبرات العصرية فى مختلف العلوم (2) ، وقد شعر العرب منذ القرن الثانى الهجري بأهمية علم الصيدلة فى التجارب الطبية كما اقتنعوا بأن معرفة الكيمياء أساسية فى البحوث الصيدلية والطب .

وكان ابن جلجل الاندلسى اعظم طبيب طبائعى فى عصره حيث عرب مفردات ديسقوريدس وزاد عليها الادوية المعروفة عند العـرب والتـى

---

*) (زهـرة الآس) ص 24

1) (كتاب الطب والاطباء بالمغرب ـ عبد العزيز بنعبد الله ص 5) .

جهلها (ديسقوريدس) فأكمل بذلك هذا الكتاب انطلاقا من انواع الاعشاب المتوافرة فى الوطن العربي وخاصة فى المغرب والاندلس ، وانما برز ابو بكر محمد بن زكرياء الرازي فكان أبا للطب العربى بفضل ما حققه من تجارب ، فله ما يناهز مائتي كتاب ترجمت جميعها الى اللاتينية منها كتاب « تجارب المارستان » وقد وصف فيها — اثر تحليلات ميدانية — الجدري والحصبة وادخل الى الطب اجهزة ووسائل عيادية جديدة فكان أول من استعمل الفتائل فى العمليات الجراحية وكذلك الانابيب التى يمر منها الصديد والقيح والافرازات السامة ، كما برز كطبيب اخصائي بفضل تجاربه فى حقل بكر هو « طب الاطفال » الذي قام فيه بدراسات وابحاث ضمنها كتابا خاصا .

وقد أكد (رينو) (2) أن تاريخ الاندلس امتزج بتاريخ المغرب تحت راية المرابطين منذ أواخر القرن الحادي عشر وخاصة الثانى عشر الميلادي وهما أبرز عصور اسبانيا المسلمة ثم قال : « فكيف اذن يمكن أن نفصل بين دراسة الطب بالمغرب ودراسة حياة العلماء الذين أنجبتهم الاندلس او الذين تكونوا فى مدارسها ثم ساروا فى أعقاب ملوك المغرب فى أشبيلية أو قرطبة أو فاس ومراكش أو أغمات فللمغرب الحق اذن فى أن يتبنى ابن باجة وابن طفيل وابن رشد الخ ...

واذا قارنا بين شقى العروبة وجدنا أن الروح التجريبية عند علماء المغرب والاندلس جعلتهم يبذون أحيانا سلفهم من المشارقة فهذا ابن رشد قد صنف شرحا لرجز ابن سينا فى الطب المعروف عند الاوربيين بـ (كانتيكوم) فامتاز الفرع على الاصل حيث أكد ابن زهر الاوسط أفضليته على كتاب (القانون) الذي هو أعظم مصنفات ابن سينا لانه جامع لمباديء العلم .

فالفكر التوليفي Synthétique هذا هو الذي يعتبر من عوامل النجاح فى التجربة العلمية المغربية ، وقد حكم المجتمع الطبى عام 1500 م

2) الطب القديم بالمغرب — نشرة معهد الدروس المغربية عدد 1 ص 72) .

ـ 906 هـ بالسبق لابن سينا فى خمس محاضرات من اصل عشر ولجالينوس فى اربع ولابقراط فى واحدة (كازيط المستشفيات ـ عدد مارس 1932 ـ محاضرة الاستاذ فوسك) .

كل ذلك راجع لروح الاصالة التى بدرت فى تجارب ابن سينا .

واكبر طبيب تجريبى ظهر فى الاندلس فى القرن الرابع الهجري هو ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوي Avempace صاحب كتاب (التعريف لمن عجز عن التأليف »)الذى قال فيه احد الجراحين الغربيين : « لا شك ان الزهراوي اعظم طبيب فى الجراحة العربية وقد اعتمده واستند الى بحوثه جميع مؤلفى الجراحة فى القرون الوسطى وكتابه هو اللبنة الاولى فى هذا الفن وهو اول من ربط الشرايين ووصف عملية تفتيت حصاة المثانة واستخرجها بعملية جراحية وعالج الشلل واول من استعمل خيوط الحرير فى العمليات الجراحية والظاهرة الطريفة التى امتاز بها (كتاب التعريف) هى احتواؤه بازاء النصوص على آلات دقيقة ووضعه لمبدأ اساسى منذ البداية يتلخص فى ان علم التشريح اساس للجراحة (3) فكتابه هو أول تعبير للجراحة كعلم (ص 456) .

وتوجد فى (خع 1427 د) (4) بعد المقالة الثامنة من كتاب التعريف مقالة تحتوي على 28 صورة لحدائد الكى وآلات العمل وهذه المكاوي الدقيقة الصنع تختلف حسب العضو المريض من الراس الى الاذن والفك والعين داخلا وباطنا والاضراس والمعدة والمقعدة والكبد والطحال والقدم والساق والتآليل والمثانة الخ ؟

ومن جملة الاطباء الذين انطلقوا من التجربة الوزير ابو المطرف عبد الرحمن بن شهيد الذي عرف الادوية المفردة ورتب قواها ودرجاتها فى المختبر وقارن بين العشب الاصلى والدواء المستحضر فقرر عدم استعمال الادوية ما أمكن العلاج بالاغذية او ما يقرب منها حتى اذا اضطر الى

3) (لوكلير ـ الطب عند العرب ج 1 ص 455) .
4) هى المكتبة العامة بالرباط .

الادوية فضل المفردة على المركبة واختصر التركيب فى هذه فوصل الى نتائج غريبة فى الابراء من الامراض الصعبة والعلل المخوفة بأيسر علاج واقربه (5) .

وكان منطلق التجربة العربية المصلحة الجماهيرية فقد كان من مهام المحتسب تحليف الاطباء أن لا يعطوا أحدا دواء مرا ولا يركبوا له سما ولا يصنعوا السمائم عند أحد من العامة ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الاجنة ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل والغض عن المحارم وعدم افشاء الاسرار (أو السر المهنى) والتوفر على جميع الآلات (6) .

وقد ادت التجربة بأفراد الشعب فى المجتمع البربري منذ عهود سحيقة الى حقن جراثيم الجدري التى كانوا يستعملونها لتحصين المصاب (7) .

وقد لاحظ لوكلير (8) أن المغرب هو أشد أقطار الاسلام عمقا من الناحية العلمية ، كما اكد ان علما تجريبيا هو الطب ازدهر فى المغرب الاقصى منذ القرن العاشر الميلادي أي الرابع الهجري (9) ، ونقل الكانونى (فى شهيرات المغرب) عن كتاب « فن الاسنان بالمغرب الاقصى» انه كان بفاس فى القرن الرابع مدرسة طبية .

ولم يسبق للفكر العلمى أن تحرر فى المغرب كما وقع فىالقرنين الخامس والسادس الهجريين فى عهد الموحدين وذلك بفضل العناية التى أولاها الخلفاء للبحث العلمى ولتجارب العلماء يشهد بذلك نبوغ امثال ابن طفيل وابن رشد وبنى زهر فى الطب وابن العوام النباتي والادريسى فى فنون الهيئة والجغرافية والفلك والفلسفة ، وقد اصبحت مصنفاتهم مرجعا لرجال القرن السابع وما بعده امثال ابن البيطار (المتوفى عام 646 هـ)

---

5) (النفح ج 2 ص 874) .
6) (كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لعبد الرحمن الشعراوى) ـ مخطوط ـ .
7) (كودار ـ وصف المغرب وتاريخه ج 1 ص 239) .
8) الطب عند العرب ج 1 ص (40) .
9) الطب والاطباء بالمغرب ص 14 ـ عبد العزيز بنعبد الله .

واستاذه ابى العباس النبطى مما مكن الاندلس والمغرب حمل راية الفلسفة والعلوم فى العالم الاسلامى (10) .

وقد خلف أبو عبيد البكري صاحب المسالك كتابا حول أعشاب الاندلس واشجارها فوصف ظواهر غريبة فى تاريخ علم الطبيعة كالاعشاب المسهلة وشجر (اركان) الذي وجده فى طريق أغمات الى فاس .

وهكذا ففى العهد الذي كانت الاندلس خاضعة لسكان مراكش تكونت ــ كما يقول لوكلير (ج 2 ص 240) جماعة من الاطباء التفت حول ملوك المرابطين والموحدين وسار معظمهم فى ركاب هؤلاء الملوك الى المغرب حيث قضوا بقية حياتهم فى البحث والتصنيف وتدريس الطب والفلسفة والعلوم فأفاد المغرب كثيرا من نكبة الاندلس .

ورغم ما اظهره المنصور فى موقفه ضد الفلاسفة فان هدفه الاساسى كان هو ضمان التوازن بين المعقول والمنقول باعتبار أن هذا التوازن هو أساس نجاح كل تجربة علمية لان النظر الذي لا يعززه الواقع لا يمكن أن تدعمه قاعدة راسخة ، فلذلك ساند علوم الطبيعة فى نفس الوقت الذي عمد الى تدوين الاحاديث النبوية وترتيب الجرايات لحفظها وبالرغم عن اعتقال المنصور لابن رشد وأبى جعفر الذهبى فانه ما لبث أن أعاد الحظوة لهذا الاخير عندما أناط به مهمة السهر على مصالح الاطباء وطلبة الطب فى سبيل تنظيم البحث العلمى طبقا لمنهجية التوازن بين كفتى الفكر والعمل . ويظهر أن أبا العلاء زهر بن زهر هو أول طبيب أندلسى ورد على المغرب بعد استيلاء المرابطين على الاندلس ، وقد كان طبيبا خاصا ليوسف بن تاشفين بعد أن كان طبيب المعتمد بن عباد الذي استدعاه لمعالجة (الرميكية) عندما كان أسيرا فى اغمات ووالد أبى العلاء أبو مروان عبد الملك بن أبى بكر محمد بن مروان بن زهر هو الذي تولى رياسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان (11) . وكانت له آراء شاذة

10) (لوكلير ج 2 ص 72) .
11) (نفح الطيب ج 1 ص 445) .

امتاز بها فى تجاربه منها منعه من الحمام اعتقادا منه بأنه يعفن الاجسام ويفسد تركيب الامزجة (12) ، وقد تمخضت تجارب ابى العلاء فى المغرب عن تأليفه لكتاب (التذكرة) الذي ترجمه (كولان) وطبعه عام 1911 م. بباريس ، وهو مجموعة من الملاحظات سجلها لولده ابن زهر لتعريفه بالادواء الغالبة فى مراكش والادوية المناسبة .

وبعدما توفى ابو العلاء امر على بن يوسف بجمع ملاحظات اخرى اسفرت عنها تجارب زهر بن زهر فى المختبر حيث سجلها فى تقارير سماها (المجربات) (13) وقد جمعت بمراكش عام 526 هـ. وقد ترجم « جان دوكابو » « التذكرة » من العبرانية الى اللاتينية (نسخة فى مكتبة كلية الطب بباريس) ثم توالت التراجم عام 1280 م. والمطبوعات (عشر مرات بين 1490 و 1554 م،) وتوجد الآن نسخة فى مكتبة مدرسة اللغات الشرقية بباريس يرجع تاريخ طبعها الى 1531 م. وهى تحتوي على كليات ابن رشد .

وهنالك رسالة فى امراض الكلى كتبها ابو العلاء لعلى بن يوسف لا توجد سوى ترجمتها باللاتينية المنشورة عام 1497 م. كما يوجد مخطوط له حول الخواص بمكتبة باريس ومنه استقى ابن البيطار خواص لحوم الحيوانات .

ولابى العلاء مقالة فى شرح رسالة يعقوب بن اسحاق الكندي حول تركيب الادوية ، وتوجد نسخة من (جامع اسرار الطب) لابى العلاء فى المكتبة الوطنية بالرباط (تحتوي على 185 ورقة).

وقد خالف اطباء عصره عندما ادى بحثه المخبري الى الوصية باستعمال بطيخ فلسطين (اي الدلاح او الدلاع بالمغرب) فى امراض الكبد والمعالجة بجس النبض والنظر الى قوارير البول وهو كشف ماهر كان بادرة جريئة لعلماء العصر الحديث .

---

12) عيون الانباء فى طبقات الاطباء لابن ابى اصيبعة ج 2 ص 64)

13) يوجد مخطوط منها فى الإسكوريال (رقم 844) .

وابو مروان عبد الملك بن زهر هو ولد ابى العلاء ، وقد الف كتاب (الاقتصاد) (14) عام 515 هـ لابراهيم بن يوسف أخى على المرابطى لخص فيه التجارب الطبية واوضح الفروق بكيفية عملية بين الجذام والبهق كما شرح ابعاد العدوى انطلاقا من تجارب ميدانية ، وقد افرد لهذه المسألة رسالة لم تصلنا .

وعلى كل فان روحه العملية وفكره العلمى الجلى جعلا منه طبيبا ممتازا فاق (ابن سينا) ولا يعادله فى الشرق عدا (الرازي) .

ومن خواص منهجية الوضوح والضبط تحليل الحالات الجزئية للتدرج من الخاص الى العام مع استعراض نماذج من القضايا تلقى الاضواء على جوانب دقيقة يغفلها البحاثون الذين يكتفون بالنظرات العامة والتعميمات السطحية المرتجلة ، وقد خالف ابن زهر هذا زملاءه من أطباء عصره الذين كان يبادر بعضهم فيصف لمن استشاره من المرضى دواء دون تمحيص للحالة القائمة فى جميع خواصها وقد حكى قصة واقعية تمت فصولها فى بيت أمير مرابطى استدعى ثلة من الاطباء للاستشارة فتحدث كل واحد عن تجربته فى خصوص الداء الذي يشكو منه الامير مبادرا بوصف الدواء ، وقد اكد ابن زهر — تعليقا على ذلك — ان كل هؤلاء الاطباء لم يوفق سوى واحد منهم عجز مع ذلك عن استكناه اصل الداء فهذه السطحية او السمة الجزئية فى منهجية البحث هى التى أدت الى اختلاف النظر والحياد عن الوجهة الصحيحة فى تحديد العلاج الناجع وقد كان ابن زهر هذا جريئا فى تجاربه معتمدا بما يصل اليه من نتائج ينطلق منها فى جراة لا يعبأ بتقليديات عصره فيدعو مثلا الى استعمال الفصد للشيوخ من سبعين سنة فاقل وللاطفال كذلك حيث فصد ابنه من ثلاث سنوات فادهش معاصريه ، وكانت هذه التقاليد قد اصبحت مسلمات دون أن تسندها فى البداية تجربة علمية صحيحة .

---

14) (مخطوط بباريس عدد 2959 ونسخة فى الاسكوريال حسب — رينو — محررة بالعربية ومكتوبة بحروف عبرانية) .

وقد صنف أبو مروان عبد الملك بن زهر كتابه (التيسير) بطلب من ابن رشد كتذييل لكتابه الكليات (15) . وقد نهـج ابـن زهـر فى كتاب (التيسير) أسلوبا جديدا فى الحكمة القياسية مستخدما التمحيص العقلى للوصول الى أحسن النتائج فكان طبيب التمحيص العلمى يحضر الادوية بنفسه غير مستعمل الخمر فى تركيبها على سنن والده ابى العـلاء حتى ولو اوصى بذلك (جالينوس) على خلاف (الرازي) وكان منهجه العملى يقضى باسناد الاعمال اليدوية الى اعوانه مثل الفصد والكى وفتح الشرايين فى حين كان هو يشرف بنفسه على التحليلات الهادفة الى تقرير نظام الاكل عند المريض ووصف الادوية وقد توصل بفضل قياساتـه الطبيـة وتجربته الشخصية الى الكشف عن أمراض جديدة لم تدرس قبله فاهتم بالامراض الرئوية واجرى عملية القصبة المؤدية الى الرئة وتمكـن من تشريحها فى مرض الذبحة ، وقام بتجارب فى أمراض الجهـاز الهضمـى واستعمل انبوبة مجوفة من القصدير لتغذية المصابين بعسر البلع كما استعمل الحقن المغذية واكتشف طفيلية الجرب وسماها (صؤابة الجرب) كما بسط طرق العلاج القديمة واوضح ان الطبيعة ــ اذا اعتبرناها قوة داخلية تدبر شأن الجهاز البشري ــ تكفى وحدها فى الغالـب لعـلاج الادواء (16) وسر العبقرية فى هذا المنهج هو ان الطبيب ابا مروان كـان ينسى نفسه ويستهلك فى مريضه فاذا عرضت عليه حالة شائكة حاول ان يعيشها واستمد من ذكرياته وتجاربه ومنطقه ولهذا كان نسيج وحـده فانكب أطباء العصور الوسطى على دراسة كتابه (التيسير) الذي ترجـم أولا عن العبرانية من طرف شخص مجهول (17) .وهكذا استعاض أبو مرواض بالمنهج التجريبى والطريقة العقلية عن التقليد فى ممارسة فـن الطب وأدت تجاربه العملية ــ علاوة على ذلك ــ الى تطوير ثلاث شعب حاول توحيدها وهى الصيدلة والجراحة والطب العام .

ومن أغرب مجالى الابتكار ما قام به أبو مروان عبد الملك بن زهر حيث أنبت كرمة عنب سقاها من ماء مسهل واستخرج منهـا ما سماه

---

15) توجد نسخة منه فى المكتبة الوطنية بباريس عدد 2960 تحتوى على كتابى الاغذيـة والتيسير لابن زهر والتذكرة لابى العلاء) .

16) (حضارة العرب ــ كوستاف لوبون ــ ص 530 من الطبعة الفرنسية) .

17) (مخطوط بمكتبة ليد) ثم الى الايطالية عام 1260 م .

(الترياق السبعينى) فصار يعطى منه لعبد المومن بن علــى الموحــدي لكراهيته شرب المسهلات (18) . أما الحفيد أبو بكر بن ابى مروان الطبيب الشاعر (المتوفى عام 596 هـ) بمراكش فقد الف (الترياق الخمسينى) ليعقوب المنصور وكانت امه وأختها عالمتين بالطب لا سيما فى امراض النســاء تمارسان علاجها بمراكش (ابن ابى اصيبعة ص 167) ، وقد برهن هذا عن حظ وافر من التوازن الفكري والتواكب بين المعقول والمنقول والتجربة والعقلانية مما حداه الى حفظ صحيح الامام البخاري (19) ولم يكن فى زمانه اعلم منه باللغة حيث كان يحفظ شعر ذي الرمة وهو ثلث لغة العرب (المطرب لابن دحية) ؛

وقد اصبحت التجربة العلمية منطلق الكشوف فى شتى الميادين حتى كان الاطباء والبحاثون يبرزون هذه الظاهرة كبادرة جوهرية فى دعم اتجاهاتهم فسمى أبو الحسن سفيــان الاندلســى (المتوفــى عام 537 هـ) طبيب على بن يوسف المرابطى ـــ كتابه فى الطب ـــ (كتاب التجربتين) ، واضاف الى تقاريره محاضر شيخه أبى بكر محمد بن يحيى ابن الصائــغ المعروف بابن باجة (المتوفى بفاس عام 533 هـ) . واشتــراك عالميــن فى تصنيف كتاب واحد أو القيام بتجربة مشتركة كان نتيجة للروح الواقعيــة عند علماء العصر الموحدي فهذا أبو الوليد ابن رشد قصد بكتابه الكليات ابن زهر ليلحق به دراسة عن الجزئيات لتكون جملة الكتابين ككتــاب كامل فى صناعة الطب .

وقد توصل ابن رشد فى مخبره الى نتائج مدهشة جعلته يقترح فى شرحه لابن سينا ما يصفه الاطباء اليوم وهو تبديل الهواء فى الامراض الرئوية وقد اشار الى جزيرة العرب وبلاد النوبة كمراكز شتوية ، وابن رشد أول من اشار الى الدورة الدموية الكبرى وحللها فى كتابه (الكليات) الذي استمد منه (ويليام هارفى) William Harvey معظم نظرياته فى

---

18) (ابن ابى اصيبعة ج 2 ص 66) .

19) (الانيس المطرب ج 2 ص 180) .

حين اكتشف ابن النفيس المصري الدورة الدموية الرئوية الصغرى قبل الغربيين بثلاثة قرون (20) .

ويعتبر محمد بن احمد بن خليل السكوني (646 هـ) نموذجا لرجل مشارك اتقن عدة علوم فصنف فى الطب والبيطرة وصنعة ركوب الخيل وتدبير الحروب وتعليم الثقاف والرمى وسمات الخيل ودلائل العتاقة كما جمع بين كتابي ابى مروان بن زهر وابنه أبى بكر فى الاغذية واضاف اليهما فصل الخواص والكليات الواقعة فى (تيسير) ابن زهر وهو اشبيلى اقام بمراكش متلبسا بعقد الشروط كعدل موثق (21) . ومن المختبرات مستشفى مراكش الذي وسمه عبد الواحد المراكشى (فى المعجم ص 177) بروعة البناء والتخطيط ووفرة السرر والفرش وخزائن الادوية وتحضيرات الصيادلة للادهان والاكحال والاشربة والالبسة الخاصة للمرضى مما جعل المؤرخ (ميليى) يعترف (22) بأن مصحات أوربا تخجل منه بل كذلك مستشفيات القرن العشرين .

وهكذا شجع الموحدون اقامة المخابر العلمية فى شكل مستشفيات مجهزة بمختلف الآلات والاجهزة والادوية والاختصاصيين والمساعدين الفنيين .

وبعض العلوم التجريبية قد اعتبرت اشبه بالعلوم الدينية لان فيها خدمة للفكر الديني كالفلك والتوقيت والحساب او خدمة للانسان كالطب وقد قال الشافعي : « لا أعلم علما بعد الحلال والحرام انبل من الطب (23) فالضلاعة فى الحديث بجانب الطب والصيدلة والعلوم الطبيعية كانت شنشنة الكثير من ارباب الفكر أيام الموحدين ، فهذا أبو جعفر بن هارون الترجالى ، طبيب يوسف بن تاشفين قد تتلمذ لابى بكر المعافري فى الحديث ، وكان شيخ ابن رشد فى الطب والتعاليم واخصائيا فى

---

20) (نشرة المعهد المصرى ج 26 عام 1934 — بحث بقلم ماكس ماير هوف ص 33 ، وقد اشار ابن النفيس الى ذلك فى (الكتاب الشامل) الذى احتوى على 300 مجلد) ولم يكمل منه سوى ثمانين .

21) (الاعلام للمراكشى ج 3 ص 145) .

22) Millet فى كتابه عن الموحدين عام 1923 (ص 129) .

23) آداب الشافعي ومناقبه ص 321 .

صناعة الكحل (اي طب العيون) . ومما يدل على وحدة منهاج البحث فى مجموعة من العلوم ان بعض الاطباء استخدموا فى دراساتهم طريقة الاسناد والتحري فى ضبط النصوص والمقارنة والتنظير بين العناصر الخارجية لمتابلة التجربة بنظرية النص وهى منهجية لقنها لهم اساتذتهم فى علوم الحديث ، وقد أشار على بن ميمون فى تأليف له الى انه ما راى مثل فاس ومثل علمائها فى حفظ نصوص كل علم مثل المنطق والتوحيد والبيان والطب وسائر العلوم العقلية ملاحظا انها تفوقت فى ذلك على تونس والشام والحجاز ومصر ومعززا وجهة نظره بالمشاهدة والعيان (25) . وقد الف الامام السنوسي شارح البخاري شرحا على رجز ابن سينا فى الطب وشرحا كبيرا على الحوفية فى الحساب والرياضيات الفه وهو ابن تسع عشرة سنة (نيل الابتهاج ج ص 353) . وبهذه المشاركة تبلور الفكر الاسلامى العلمى فشمل كل مجالات المعرفة ووازن بين نتاج التجربة العلمية من جهة ونتاج الفكر النظري بما ينطوي علي هـمن عقل ونفس وقلب وروح كمدارك تجمعها « لطيفة ربانية » تشمل الوجدان الى جانب الحدس والالهام وبذلك اكتملت نظرة الباحث المسلم الذي انطلق من توازن ذاتيته التى ازدوج فيها الجسم (أو المادة) والروح . وقد وجد الاطباء فى الطب النبوي حقلا خصبا حفل ببادرات سبقت الكشوف العلمية من ذلك قوله عليه السلام : « ان هذا الطاعون رجز سلط على من كان قبلكم أو على بنى اسرائيل فاذا كان بأرض فلا تخرجوا منها فرارا منه واذا كان بأرض فلا تدخلوها » (26) . اما قوله عليه السلام (مسلم ص 30) : « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر » فيقابله قوله عليه السلام « فر من المجذوم فرارك من الاسد » وما ورد فى صحيح مسلم (ص 31) من ان ابا هريرة كان يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله « لا يورد ممرض على مصح » وكان يحدث كلتيهما ثم صمت عن قوله لا عدوى ولا طيرة الخ . واقام على ان لا يوردممرض على مصح وعلق ابو سلمة على ذلك فقال : « لا ادري انسى ابو هريرة او نسخ أحد القولين الآخر » .

---

24) ابن ابى اصيبعة ج 2 ص 75 .
25) سلوة الانفاس ج 1 ص 74 .
26) صحيح مسلم ج 7 ص 27 طبعة على صبيح .

وقد كان أبو العباس النبطى أحمد بن محمد بن مفـرج الاشبيلى المعروف بابن الرومية او ابن العشاب « اماما فى الحديث حافظا ناقدا » قام

على الصناعتين لوجود القدر المشترك بينهما ــ كما يقول ابن الخطيب فى (الاحاطة) ــ وهما الحديث والنبات اذ موادهما الرحلة والتقييد وتصحيح الاصول .

وهنا ننتقل الى علم النبات لنعطـى نظرة عن منهجية علمائه فقد درس (النبطى) الاعشاب فى محاولات شخصية دون اعتـمـاد على النصـوص الكلاسيكية مثل كتب (ديسقوريدس) و (جالينوس) واقتبس منـه تلميـذه الاندلسى ابن البيطار ذوقه الخاص وعلمه الواسع وقد رحل الى الشرق عام 613 هـ بعدما درس اعشاب الاندلس والمغرب ودعاه الملك الافضل للاستيطان بالقاهرة فأبى ، وعند وصوله الى مصر لم يكن قد مر على وفاة موسـى بن ميمون سوى القليل ، وقد اقتبس ابن ميمون هذا خلال مقامه بفاس الكثير مما نقله الى مصر حيث حاول بلورة الفكرين الشرقـى والغربى فى ابحاثه .

وقد كان ابن اليطار أعظم نباتيى العرب (27) لا يضاهيه سـوى الغافقى والشريف الادريسـى والنبطى ورشيد الدين الصوري الذيـن درسوا كلهم الطبيعة ووسعوا دائرة المعلومات البشرية بتجاربهم وابحاثهم وقد تنقل ابن البيطار فى جبال الشام صحبة رسام كان يصور له الاعشاب وهذا مظهر جديد لمنهجية العرب فى العلوم الطبيعية استأنسوا بها فى « مسالكهم » عندما حددوا ايضا الاطوال والعروض الجغرافية بدقة تحدوا بها ما وصل اليه العلم آنذاك ، وقد خلف لنا ابن البيطار أعظم مجموعة فى هذه العلوم وقد رحل الى الشرق عام (1216م) ومر ببلاد اليونان والمغرب حيث سجل ملاحظات شتى حول الاعشاب والاسماء البربريـة التى اندرجت منذ ذاك فى القاموس العربـى فكانت تلك وسيلة دقيقـة للتعرف بالضبط على نوع وخواص النبات المقصود حتى لا يختلط مع غيره

---

27) لوكليـر 2 ص 225 .

وذلك انطلاقا من الصورة أولا ثم من الفحوى الناتج عن مقارنة التعريفات فى كل لغة وهذه العبقرية الفذة هى التى حدت الملك الافضل الى تعيين ابن البيطار المغربى رئيسا لعشابى مصر القاهرة وكذلك الكامل بن العادل (النفح ج 2 ص 683) ولم يهمل ابن البيطار نتائج تجاربه بل ركزها فى جزازيات بتعاون مع تلميذه ابن ابى اصيبعة علاوة على الرسام المذكور حيث رتبها على حروف المعجم وصنفها الى أشجار وجنبات واعشاب وازهار اسوة بشيخه النبطى الذي رتب أيضا كتابه فى الحشائش على حروف المعجم وواجه سيلا من التلاميذ والمعجبين عندما فتح دكانا لبيع الاعشاب بأشبيلية حيث توفى عام 638 هـ (28) فلذلك حمل علماء النبات فى الشرق اسماء متعددة هى العشابون والشجارون والنباتيون والحشائشيون (التذكرة التيمورية) .

وعنصر آخر فى منهجية البحث عند ابن البيطار هو عدم الاكتفاء بتنقيباته الخاصة بل حاول دعمها واكمالها بالتجارب التى اجراها زملاؤه قبله فى مختلف الاقطار كالغافقى والزهراوي والادريسى وعبد الله بن صالح الكتامى الذي كتب أيضا عن اعشاب الاندلس والمغرب وخاصة ارباض فاس (29) ولذلك استوعب كتابه « جامع المفردات » ألفى وصفة من أوصاف العقاقير فكان أكمل واوسع ما صنفه العرب فى الطب .

و (كتاب الادوية) للشريف الادريسى الذي اشار اليه ابن أبى اصيبعة صورة حية للاسلوب التجريبى ايضا فهو حافل بالملاحظات الشخصية التى اقتبس منها ابن البيطار فى مائتى موضع من كتابه فى الاعشاب (30) واعتمد عليه وحده فى ثلاثين موضعا (31) وقد ترك لنا وصفا دقيقا عن حشائش المغرب واعشابه معرفا اياها أحيانا باسمائها البربرية فرارا من اللبس وامعانا فى التوثيق والشريف الادريسى هذامغربى صميم خلافا لما ذكره الحسن بن محمد الوزان من انه ولد فى صقلية (32)

---

28) النفح ج 1 ص 635 .
29) لوكليــر ج 2 ص 248 .
30) لوكليــر ج 2 ص 8
31) ص 68 .

وما توهمه أيضا من وفاته عام 506 هـ — 1122م فى حين انه انتهى منتأليف كتابه (نزهة المشتاق) عام 548 هـ/1154 م.

وقد عرف المغرب فى عهد بنى مرين أزهر عصوره فى تشييد المدارس اي أحياء الطلبة للتفرغ للبحث والدرس ، وقد أكد (ابــن مــرزوق) فى «المسند الصحيح الحسن» (33) ان ابا الحسن انشأ أول مدرســة هى مدرسة الحلفائيين (وهى مدرسة الصفارين الحالية) عام 670 هـ بينما اسس أبو سعيد مدرسة العطارين ومدرسة المدينة البيضاء ومدرســة الصهريج ومدرسة الوادي ومدرسة مصباح ، وقد والى ابو الحسن اقامة المدارس فى المغارب الثلاثة حيث انبسط الحكم المرينى ، والمدينة البيضاء هى فاس الجديد التى اقام فيها المولى محمد بن عبد الرحمن العلوي عام 1260هـ/1844م مدرسة للمهندسين ادرج فيها كمعهد للتعليم دراسة العلوم فاستحال بذلك مفهوم المدرسة كحــى جامعــى الى مفهومهــا كمعهــد ومؤسسة تعليمية ، ولعل العامل الجوهري فى تبلور المنهجية العلميــة الصحيحة بفاس حوالى 620 هـ أي بعد مرور بضع سنوات على ظهــور المرينيين (عام 613 هـ) (34) هو أن حاضرة المغرب الاسماعيلية أصبحت آنذاك مجمعا لعلم القيروان وقرطبة حيث رحل علماء المدينتين متخذيــن مقرا لهم هذه المدينة التى اصبحت تسمى (بغداد المغرب) ومعنى ذلــك أن معطيات الفكر العلمى التى كيفت منهجيات الدراسة والبحث منــذ القرن الرابع الهجري فى افريقية والاندلس قد تجمعت وتبلــورت بفاس لتعطى اروع نتائجها لذلك اعتبر (باديا ليبليش) المعروف بعلــى بــاي العباســى مدينة فاس بمثابة (اثينة افريقيا) التى هى عاصمــة الفكــر اليونانى كما اعتبر القرويين اول جامعة فى الدنيا (رحلة ص 12) ، وقــد وصف الدكتور (رينو) مدينة فاس بمعهد الحضارة التى تجلــب العلمــاء والطلبة مع العالم اجمع ملاحظا أيضا انــهــا « كعاصمة اثينة بالنسبــة للاسلام » حيث كانت تدرس جميع العلوم والفنون والآداب (35) . وقــد

32) لوكليــر 2 ص 65 .
33) هسبريس ج 5 35 عام 1925 .
34) كمالاحظالمراكشى فى المعجب ص. 220 .
35) الطب القديم بالمغرب ص 77

لاحظ (دوكامبو) أن جامعة القرويين كانت ملتقـــى الاجانـــب من مختلف الجنسيات والاديان (36) . وقد اشار « كابريال شارمس » (37) الى « عصر المجد الذى كان المغرب فيه ملتقـــى جميع العلوم وجميع الفنون التى تنتشر من هنالك فى اوروبا معرجا على مدينة فاس التى يرى معظم مسلمى افريقيا انها اعظم مدينة مقدسة بعد مكة نظرا لاصلها وللـــدور الذي قامت به فى تاريخ الاسلام حيث كانت مركز القوة العربية عندما كان نورها يتألق وحتى عندما أصبحت مراكش عاصمة المغرب السياسية كانت فاس بمعاهدها ومساجدها عاصمة الغرب الاسلامى فكريا وادبيا بل ان مدارسها كانت طوال مدة مديدة أولى مدارس العالم (ص 297) وهنا فى هذه المدينة « انبثق ما يسمى بالحضارة الغربية التى اشـــع نورها فى اسبانيا، فاضاء جوانب اوربا » (ص 298) . ولكن « ملكة العـــلــم والتعليم » كما سماها ابنخلدون وهى طريق النظام لم يعد لها وجود فى نظره فى المائة الثامنة من الهجرة وهى عصر ابن خلدون وابن الخطيب وهو يقصد التمكن فى المشاركة دراية ورواية اى فهما وحفظا أو تجربة ونظرا بحيث بدأ التوازن يختل فى عنصري منهجية البحث وهما النقل الصحيح انطلاقا من النص والتمحيص الدقيق لمعطيات الوجود والكون اي التجربة العملية الرصينة التى تتلمس فى تؤدة وعمق وشمولية مدى انطباق الفكر والنظر على الواقع .

ومهما يكن فان نكبة أبى الحسن بافريقية وطريف بالاندلس وتوالى الازمات الاقتصادية والاوبئة التى جرفت بالعالم اجمع آنـــذاك وكابـــد المغاربة من جرائها المرائر فانتشر الفقر والمرض وانتكس العمران وهلك العلماء وكادت تندرس معالم العرفان ثم فى آخر القرن الثامن تبدلت ــ كما يقول الناصري (38) أحوال المغرب بل واحوال المشرق ونسخ الكثير من عوائد الناس ومالوفاتهم وأزيائهم » وذلك حسب ابن خلدون نظرا لما « نزل بالعمران شرقا وغربا فى منتصف المائـــة الثامنـــة من الطـــاعون الجارف الذي تحيف الامم وذهب بأهل الحيل وطوى كثيرا من محاســـن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص

36) المغرب المعاصر مملكة تنهار ص 12 باريس 1886 هـ .
37) فى كتابه (سفارة المغرب ص 254) .

من ظلالها وفل من حدها واوهـى من سلطانها وتداعت الى التلاشـى والاضمحلال احوالها وانتقص عمران الارض بانتقاص البشـر فخربـ الامطار المصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الدكار والمنازل وضعفـت الدول والقبائل وتبدل الساكن وكأنـى بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه » وهذا العصر هو عصر ابـن الخطيب الذي قال فيه « رينو » (39) « ان دراسة عصر ابن الخطيب مفيدة للطبيب لانها عصر الطاعون الاسود والاكبر الذي هلك فيه حسـب المؤرخين ثلث سكان المعمور » . واضاف الدكتور « رينو » الى ذلك ان الاطباء المغاربة صنفوا مؤلفات فى علل هذا الداء وطرق علاجه وهذا الملحظ يبرز لنا البحاث المغربى منكبا فى مكتبه أو عيادته يمحص وينقب غير مستكين لحوافز الانهيار التى جرفت بزملائه محاولا استكناه أصل هذا الطاعون والكشف عن اسبابه لوصف ما يمكن أن يستأصل شافته أو يحدد على الاقل من لاوائه .

وهذه خاصة تعد من ضروريات النجاح فى استكـمـال البحـوث والكشوف والواقع ان الفكر العلمى العربـى بدأ يتحجر لا لعوامل ذاتية بل تحت ضغط ظواهر خارجية عجلت فى الشرق ايضا بعصر الانحطاط العلمى منذ أواخر القرن الثامن وبداية القرن التاسع على اثر السيول التى حطمت معالم المدينة تحت سياط (جنكيزخان) و (تيمورلنك) الذي واكبه فى المغرب غزو البرتغال لجيوب استمر احتلاله لها ازيد من ثلاثة قرون بعد ان استولى على سبتة عام 818 هـ/1415 م. ثم قصر المجاز 862 هـ/1457 م ثم طنجة 869 هـ/1464 م ثم اصيلا وانفا عام 876 هـ 1471 م. ثم الجديدة والبريجة فى حدود 907 هـ/1501 م. والعرائش عام 910 هـ/1504 م وآسفـى عام 912 هـ/1506 م. وأزمور عام 914 هـ/ 1508 م ثم المعمورة والمهدية حوالى 920 هـ/1514 م. وقبيل ذلك بنحو العقد من السنين كان المستعمر قد بسط نفوذه على اكادير وما اتصل بها من سواحل السوس فلم يبق من الثغور سوى سلا والرباط وهذه هى المرة الاولى التى كابد فيها المغرب غزوا اجنبيا فى مثل هذه الاهميـة منذ

38) (الاستقصا ج 3 ص 47) .
39) (فى كتابه الطب القديم بالمغرب ص 47) .

الفتح الاسلامى فطويت صفحة فى شمال المغرب على اثر سقوط سبتة التى ازدهرت فيها الفلسفة والطب ومختلف العلوم (40) ٠

وقد لاحظ لوكلير (41) انه أمكن فى هذه الفترة تسجيل نحو الاربعين عالما نصفهم من الاندلس لا يوجد بينهم طبيب مشهور لقلة الاصالة وللاقتصار على الجمع والتأليف ٠

وعندما أعاد الملوك السعديون وحدة البلاد بعد الفوضى التى اقحمتها فيها حروب آخر ملوك بنى مرين انبعث المغرب فكريا وقد تحدث ليفى بروفنصال (42) عن نهضة المغرب من الوجهة الادبية مبرزا انه من الغريب ان لا نجد مثل هذه النهضة فى العلوم الطبية ٠ والواقع أن الفكر العلمى التجريبى تقلص فى هذه الآونة وحتى الاطباء الذين برزوا خلال هذه الفترة كانوا من النوع الذي توازنت عناصر تكوينه العام دون اختصاص علمى دقيق من هؤلاء عبد الرحمن سقين القصري الفاسى (956 هـ/1549 م) كان مشاركا فى الحديث والادب والتصوف يقرىء (الفية ابن سينا) فى الطب بجامعة القرويين (43) وعبد الوهاب الزقاق (961 هـ/1553 م٠) الذي شارك فى الآداب والاصلين والطب والتفسير والحديث والنحو ، واحمد بن عبد الحميد المعروف بالمريد المراكشى الذي كان اماما فى جميع الفنون حكيما ماهرا فى الطب (1048 هـ/1638 م) (44) وهذا لم يمنع ظهور عالم فذ اختص فى الطب والنبات هو أبو القاسم الوزير الغسانى صاحب (شرح حميات ابن عزرون) و (حديقة الازهار فى شرح ماهية العشب العقار) الذي الفه للسلطان المنصور السعدي عام 994 هـ/ 1585 م٠ (45)

---

40) كما يتلجى ذلك من كتاب « بلغة الامنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة فى الدولة المرينية من مدرس واستاذ وطبيب » .

41) (ج 2 ص 258)

42) فى كتابه « مؤرخو الشرفاء)

43) (النيل ص 153) .

44) (الاعلام للمراكشى ج 2 ص 114) .

45) (النشر ج 2 ص 125)

والواقع ان رجز ابن عزرون بن اسحاق هذا الذي شرحه ايضا ابو الفضل محمد العجلانى (46) ومحمد بن يحيى اللمتونـــى انما هو تكميل لارجوزة ابن سينا فى الطب ولكنه محاولة من الطبيب المغربـــى تعريف المغاربة فيه بنظريات الاقدمين وأطباء العرب فى منهجية كتاب (الحدائق) الذي تحدث عنه الدكتور « رينو » (47) فاشاد بالمنهــاج الواضح الذي امتاز به فى الوصف النباتـــى « الذي يتسم غالبا بطابع الاصالة والطرافة لاشارته الى منابت الاعشاب بالقرب من فاس ولتوفره على معلومات ثمينة حول معظم المواد الصيدلية بهذه المنطقة مع محاولة لترتيب ثلاثى يدخل عنصرا جديدا فى وصف أعشاب المدرسة الصيدليــة الشرقية ، كما جلى محمد الاندلســـى الصوفى صاحب الطائفة الاندلسية (980 هـ/1572 م) فى الكيمياء والرياضيات والطب والهيئة والطبيعــة (48)

ولكن العنصر الجديد هو أن العطاء العربـــى فى المغرب بدا يتقلص حيث تحجرت مناهج البحث بل انقلبت كفة التوازن واندرج فى سلك اطباء البلاط السعدي أطباء أجانب مثل :

1) كيوم بيرار ، الطبيب الجراح الفرنســـى الذي كانت ثقافته العلمية مع ذلك متواضعة (49) .

2) (كريسطوف كوسطا) الطبيب النباتى الذي ولد بسبتة ثم جال فى آسيا عام 1578 م. 986 هـ (50)

3) الطبيب (دوليل) قنصل ملك فرنسا (هنري الرابع) الذي عوضــه الطبيب (هوبير) استاذ اللغة العربية بباريس (ص 499).

4) الطبيب (اندرياس كاميلو) الاسير الاسبانى .

---

46) (نسخة فى خـــع) .
47) (فى نشرة معهد الدروس المغربية العليا ج 18 ص 195) .
48) (الاعلام للمراكشى ج 4 ص 318)
49) رينو — نشرة معهد الدروس العليا ج 18 ص 206) .
50) كودار ص 495) .

وقد اسس الرهبان الاسبان فى فاس ومكناس وسلا وتطوان مستشفيات لمعالجة النصارى والمغاربة معا (51) واتسمت العلوم التطبيقية كالصيدلة بالعقم حيث لاحظ الحسن الوزان أن العقاقيريين بفاس اصبحوا غير قادرين على تركيب الاشربة والادهان طبقا لما يصفه الاطباء فيجتمعون كلهم لاعداد المستحضرات وهذه الظاهرة تنم على الاقل عن امانة واخلاص للمهنة ، غير ان الرصانة الحضارية ومناعة التقاليد السليمة كان من لوازمها الموصولة بالرغم عن فوضى الفكر وهلهلة المنهج وانخفاض المستوى الاجتماعى قلة الوفيات حيث ظل معدل التعمير متراوحا ــ كما يقول الحسن الوزان ــ بين 65 و 70 سنة بل يرتفع فى الاطلس الى ما بين 80 و 100 سنة (52) .

واذا كان العهد العلوي قد اتسم بنوع من الازدهار فى العلوم النقلية والعقلية خاصة فى رحاب جامعة القرويين فان الدراسات العلمية أمست سطحية بل اندرس التعليم الرسمى للطب والعلوم اواخر القرن الماضى (53) وان كان العلماء ظلوا يعتنون بكتب الطب الكلاسيكية الا أن الروح العلمية التجريبية وحتى التطبيقية الصحيحة تقلصت فأصبح المغرب فى الحقل الطبى مثلا يتأرجح بين ممارسات العجائز والحجامين الذين يتقنون الفصد وجبر الاعضاء المكسرة والطلبة الذين يقضون بضعة أشهر فى اوربا ويحملون معهم أدوية يسيئون استعمالها نظرا لعدم الضبط فى وصفات العلاج ولما ابرزه « رينو » (ص 128) من غموض فى المعلومات « حول اسباب الامراض وخواص الادوية المفردة » وهذا لم يمنع طبعا من استمرار وجود رواسب لمهارة علمائنا الاقدمين تركزت فى بعض التطبيقات التقليدية مما جعل بعض الاطباء الجراحين يتسمون بحذق فى اجراء عمليات التشريح الصغرى التى لم تكن تتمخض عن مضاعفات ناتجة عن التعفن أو الاصداد والتقيح بسبب استيناس عامة الناس بتقاليد طبية كتضميد القروح بالزيت الغليان أو القطران الساخن والحناء والفحم وصمغ الصنوبر لاستئصال جراثيم التعفن أو مقاومة النزيف

(51) (رينو ص 27) .
(52) (ماسينيون ص 73) .
(53) (الطب القديم بالمغرب ص 77) .

بالصوفان والمساحيق المستخلصة من اليقطين ودقيق الفول فى اللفافات الضاغطة او محاولة التئام الجروح بخياطة حافتى الجرح فى شكل منحرف، ثم جبر العظام المكسورة بعملية الدلك الذي أكد « رينو » ان المغاربة سبقوا فيه كشوفات (لوكاس شامبيونيير) حيث كان الطبيب يصف فى كسر العظام حب (ايلان) الغنى بمادتى الفوسفاط وكاربونات الجير كما يوصى لايقاف داء الفتق بآلات من جلد او ثوب محشو بالصوف مع استخدام الكي دائما فى الامراض الباطنة وكثير من العمليات الجراحية (ص 134) وقد لاحظ « كودار » فى كتابه (54) أن الكى أعظم دواء للجراحات بالمغرب، وقد نجح المغاربة حيث أخفق جراحون فرنسيون اشاروا بقطع العضو المجروح فى حين أشار المغاربة الى كى العضو بحديدة محماة ، وقد وصف أطباء غربيون بعض المظاهر التطبيقية الرائعة فى أساليب العلاج وتحضير الدواء حتى خلال فترة التحجر المنهجي فتحدثوا عن تبنيج المريض اثناء العمليات الجراحية بالسيكران وهو عشب مخدر وكذلك جوز الطيب فى عملية الختان وظلت طريقة التطبيق منطلقة كما كانت من الثالوث الكلاسيكي أي علم الطبيعة وعلم الصيدلة وعلم الطب وهو ثالوث كان للمغرب فضل تنظيمه على اساس علمى وبذلك امكن مثلا تشخيص الداء اعتبارا من هذا التشخيص والاستمداد من علم الاحياء لانتقاء اصلح العشب او المعدن استجابة لدواعى المرض وقد أكد الدكتور « رينو » ان الطبيب الجراح الحسن ركب دواء من السيكران والكبريت يكون البخار المتصاعد من طبخه بمثابة مخدر يستمر تأثيره اربعا وعشرين ساعة (رينو) كما لاحظ الدكتور « ميكيريز » (55) بالجزائر ان الاطباء المغاربة كانوا يستخدمون وسائل الايحاء والتنويم فى معالجة مرضاهم واجراء عمليات جراحية لهم بحيث يتوصلون الى درجات شتى من التنويم لا تختلف عن الاساليب المستعملة عند الاوروبيين منها تعليق زجاجة لامعة أمام المريض فينام بينما المباخر ترسل روائح العطر والعود (56) كما حلل « كودار » فى تاريخه (57) عمليات التنويم التى أشار اليها الدكتور

---

(54) (وصف وتاريخ المغرب ج 1 ص 238)
(55) فى كتابه (الاخبار الصادر عام 1859 م).
(56) رينو ص 131) .
(57) (ج 1 ص 240) .

« ميكيريز » وهو وضع زجاجة فوق طاولة مغطاة بخوان أبيض يتـــلألأ وراءها مصباح فيجلس المريض على مسافة قريبة مصوبا نظره نحو الضوء فيشعر بتثاقل وبعد بضع دقائق ينام وتتسارع دقات قلبه ويحرق البخور فى الغرفة فيفقد النائم احساسه على أن بعض التخصصات قد امتاز فيها اطباء المغرب الى ما قبل الحماية الفرنسية (1331 هـ / 1212) كالاوجاع وأمراض العيون والحميات وكذلك طب فن الاسنان الذي أكد « رينو » ممارسته بمهارة كبرى (ص 122) فى المـــغرب .

ولم تكن عناصر هذه المنهجية تحيد بكثير عما وصلته أوربا حيث كان اطباؤنـــا يستمدون من (علم الاحياء) طريقة رصينة لاستخدام بعـــض الحيوانات فى معالجة الامراض وهو نفس ما يستعمله الغربيون (58) وقد صدر فى القرن الماضى كتاب لعبد الرزاق بن محمد بن حمادوش الذي حج عام 1130 هـ/1717 م. اســـمـــه « كشف الرموز فى شـــرح العقاقيـــر والاعشاب » مرتبا على الحروف ومحتويا على نحو الالف عشبة كما صدر لنفس المؤلف كتاب « تعديل المزاج بحسب قوانين العلاج » وقد أشار ابن حمادوش فى (كشف الرموز) الى خواص بعض أعـــضـــاء الحيوانات فى العلاج منها استئصال داء الكلب بمثقال (جرام) من كلية الكلب العقـــور بمجرد قتله وهى نظرية أشار الى جدواها الدكتور (فزانتـــزان) حيـــث لاحظ (59) أن مرارة الكلبالعقور تحتوي على مادة مضادة لجراثيـــم داء الكلب ويستعمل الكحالون (اطباء العيون) أيضا أعضاء حيوانيـــة خاصة فى مرض العين منها خلاصة الكبد واكياس ما فوق الكليتيـــن وقـــد استخدمها الدكتور (باطيس) فى (نيويورك) ضد التهاب القرنية الملتحمة وكذلك الدكتور «ضور» فى مدينة « ليون » والدكتور «دراي» فى (باريس)(60) عـــلى ان لهـــؤلاء الكحاليـــن مهارة فى معالجـــة انواع الـــرمد بأساليب وضعوها فاستطاعوا بها ازالة غشاوة العين المانعة من الابصار بل نجحوا فى عمليات أصعب من ذلك (61) .

---

58) (رينـــو ص 155)
59) فى بحث له فى (الاسبوع الطبى) بتاريخ 14 مايه 1898 .
60) (راجع رينـــو ص 160)
61) (رينو ص 13)

وقد صنع أطباء الاسنان أدوات وآلات خاصة لقلع الاضراس والثنايا المسوسة ذكر « رينو » مجموعة منها (ص 135) كما مهر الطبيب المغربي في معالجة قروح الاذن حيث مارس عمليات خطيرة كللت بالنجاح ، وقد وصف طبيب مختص هو الدكتور « بنسيمون » (62) جدوى منهجية الطب التقليدي في المغرب في عدة حالات لم يعد نزاع في جدواها — على حد تعبيره — منها ان المصاب بالحصبة أو الحميرة (بوحمرون) كان يجعل في غرفة يكسى فراشها وجدرانها واغطيتها بلون أحمر وهي طريقة في العلاج لا يزال يستعملها الدكتور « شاطينيير » الذي لاحظ أن الفضل يرجع اليها في تخفيف تفجر الحميرة والحمى وتدارك الاستئصالات .

وقد تأخر علم البيطرة في القرن الماضي رغم توفر بياطرة في جميع المدن كان لهم معرفة ببعض الامراض الحيوانية بل لهم اختصاص في أدواء الافراس والبغال والحمير والجمال يستعملون فيها بالاخص الكي والفصد والخصاء وقد لاحظ « رينو » بمزيد من الدهشة استعمال البيطري المغربي للتلقيح ضد مرض منتشر عند المعز وهو المعروف بالبيور وقد ساق « رينو » (ص 171) ستة وثلاثين نوعا من الامراض التي تصاب بها الدواب وكذلك أنواع الماشية مثل البقر والغنم والمعز مع الادوية المركبة لعلاجها من طرف البياطرة المغاربة .

واذا كان المغرب قد سلم من كثير من الاوبئة التي عرفتها أوربا في القرن الماضي كالحمى الوبائية والحمى الحصبية او قلت فيه الاصابات بالدفترية او التفويد (63) فان ذلك ليس راجعا الى علاجات وقائية بقدر ما هو راجع الى طبيعة المناخ ، وكذلك أسلوب العيش لدى المسلم المغربي بقطع النظر عن المستوى الاجتماعي وكان لحسن التربية التقليدية أي منهجية علماء التربية أثر في المناعة الوقائية حيث كان السل نادرا ولم يظهر الوباء منذ (1234هـ/1818م) كما ظهرت الكوليرا (بوكليب) لآخر مرة عام 1313 هـ/ م. وكان اول ظهورها عام 1250 هـ/1834 م. فاستعمل الطب المغربي لمكافحتها زيت الزيتون المملح بجدوى (رينو ص

---

(62) (في بحث نشره في مجلة المغرب الطبي في عدد شتنبر عام 1951) .
(63) (رينو ص 140) .

86) ثم تفشت عام 1276 هـ/1859 م. منحدرة من (اسبانيا) وكذلك عام 1865 فاستؤصلت بتدابير صارمة اتخذها المخزن فى المعزل الصحى بالصويرة حيث طرد البواخر الواردة من الاقطار المنكوبة بأوربا .

وقد عرف المغرب ابان الحماية مجاعات واوبئة رغم وسائل العلاج والوقاية المتطورة وكان الجدري يظهر كل سبع سنوات تقريبا فيلقح بحقن جراثيم بثور ودماميل الفحل او الناقة او باستعمال الكبريت والملح مع الاخلاد الى الراحة فى مكان مظلم ، واذا اردت أن تعرف سر ذلك فاقرأ كتابا صنف فى نفس السنة لمؤرخ هو « موليراس » اسمه (المغرب المجهول) حيث لمس الكاتب الرحالة من خلال تطوافه بمختلف قبائل شمال المغرب المظاهر الحضارية التى وسمها الاسلام بسمات الروعة والعمق والفعالية ومن ذلك الطهارة التى هى احدى دعائم الاسلام والتكافل الاجتماعى الذي كان يجعل من المواطنين ذاتا واحدة رغم ضعف الوازع الدينى فى نفوس الكثير منهم مما ادى الى نوع من التضامن أسفر عن تضاؤل المجاعات المؤدية الى سوء التغذية وانتشار الامراض فبينما لم يعرف المغرب منذ 1023 هـ/1614 م. طوال ثلاثة قرون القحط والمجاعة الا ثمانى مرات أي مرة كل خمس وثلاثين سنة تقريبا (64) لاحظنا تفشى المجاعة فى جنوب المغرب ابان الحماية بصورة أودت بحياة ازيد من مليون نسمة .

وكانت المنهجيات العلاجية العلمية تعزز بوسائل وقائية ادارية كوجود لجنة صحية فى كافة مدن المغرب تسهر على سلامة الصحة العمومية وطهارة المدينة وتموين الاسواق وجلب الماء كما كان المخزن يؤسس المحاجر الصحية للحيلولة دون تسرب الاوبئة من خارج المغرب ، ويحاصر فى الداخل انتقال العدوى ، فمنذ ازيد من ثلاثة قرون أي عام 1089 هـ/1678 م. وقف الحراس من العبيد على (مشرع سبو) وغيره — عندما ظهر الطاعون بمكناس والقصر الكبير يصدون الواردين على فاس ومكناسة ، كما أمر السلطان بتحريق ما بسوق الخميس (65) كما

64) (رينو ص 140) .
65) (نشر المثانى ج 2 ص 44)

كان محظورا نقل جثث الموتـــى من خارج المدن الى داخلها حتى فى الاوقات العادية . ورغم تضاؤل الاصالة فى المنجهية العلمية ظهر أطباء وعلماء امثال عبد الوهاب أدراق (1076 هـ/1665 م.) الذي نظم ارجوزة فى حـــب الفرنج (الزهري) والجدري وقد ورد فى كتاب « الاقنوم فى مبادىء العلم » لعبد الرحمن بن عبد القادرالفاســـى (1096 هـ/1684 م.) 281 فصلا حلل فيها علوم عصره منها ستة فصول خصصها للطب وللتشريح والبيطرة والزردقة (او طب الحيوان) والصيدلة وطرائق العلاج (يوجد مخطوط فى خع فى مجلدين) وقد أفرد أبو زيد هذا علم النبات برسالة سماها « تفسير الاعشاب » .

ولاحمد بن محمد بن حمدون ابن الحاج (1316 هـ/1898 م.) كتاب « الدرر الطبية المهداة للحضرة الحسنية » خصصهـــا لمبـــادىء الطـــب والطبائع وضروريات الحياة (الهواء والاغذية والاشربة ، والادوية المفردة والامراض وطرق علاجها والخواص الطبية).

وقد لاحظ « رينو » (66) أن ابن الحاج أعطانا للمرة الاولى فى تاريخ المغرب تقسيما فنيا للادوية (67) .

وقد اصذبح للمغرب منذ ذلك قاموس طبى ما فتىء يتضخم منذ ذاك وقد وصف « رينو » الارجوزة الشقرونية (لابن شقرون المكناسى) بأنها اسهام فى بلورة المصطلحات التقنية فى هذا المجال ، ولكن فى بداية هـــذا القرن انبثق نموذج جديد فى شخص الطبيب والنباتـــى والصيدلـــى عبـــد السلام العلمى الذي بعثه الحسن الاول لدراسة الطب بالقاهرة فحاول وصل تراث المغرب بتراث المشرق بتحديثنا عن علماء مصر المعاصريـــن وبتوليف رصيد الفكر العربى من خلال خمسين مصنفا تمثل خلاصة المنهجية العملية فى شتى العروبة ، فقـــد درس عـــام 1291 هـ/1874 م. فى الاسبطالية الكبرى بالقصر العينى الذي أسسه الخديوي محمد علـــى عام 1243 هـ/1827 م. ، فكانت البادرة التى دغدغت فكره لاول وهلة والتى

66) (الخطـــاب ص 8)
67) (الاعلام للمراكشى ج 2 ص 246) .

تنم عن اهتمامات الفكر العربى وخاصة المغربى اوائل هذا القرن ــ هــى تأليف كتاب حول « الاسرار المحكمة فى حل رموز الكتب المترجمة » لتفسير المصطلحات التقنية فى العلوم العصرية الدخيلة فى العربية ولكنه اقتصــر على جانب من هذا العمل الموسوعــى الشامل تبلور فى كتابــه « ضياء النبراس فى حل مفردات الانطاكى بلغة فاس » (الذي طبع عام 1318 هـ/ 1900 م.) حيث اضاف مفردات بربرية مرادفة للمصطلحــات الطبيــة العربية .

فهذا الكتاب يشكل بمتين تحليلاته نقطة تحول فى منهجية تاريخ العلم عامة والطب خاصه حيث حاول التوفيق بين الشهور والبروج والادوية وانواع النباتات المتداولة فى الشرق والغرب مصححا اغلاط سلفه ومــنــظرا بين المصادر المطبوعة ودروسه فى مصر والطرائق المنهجية عند أطباء المغرب وصيادلته وما يسميه بالطب الجديد والكيمياء الجديدة باوربا وأمريكا ويأتى أحيانا بأسماء الدواء بالعربية ومختلف لهجاتها ثم باللاتينية والافرنجيــة مع تحليل ذلك بالمصطلحات الحديثة كالتصعيــد والتقطيــر وتطبيقاتــه وتجارب شيوخه بمصر واسهامه الشخصى فى هذه التجــارب كتصبيــر الحيوانات لدراستها وتحضيرات المعمل الكيماوي وعندما عاد الى فاس اقام مصحة على نمط جديد قرب الحرم الادريســى بفاس واصل فيهــا تجاربه طوال ثمان عشر سنة (توفى عام 1323 هـ / 1905 م.) فأتم كتاب « ضياء النبراس » ووضع « مفتاح التشريح » ورتب تذكرة الانطاكى على الامراض بدلا من الحروف على النمط العصري لتسهيل البحث عن اسلوب علاج مرض مخصوص مخللا ذلك بنماذج من المنهجية التقنيــة الحديثــة كأسلوب تقطير مخلوط النوشادر بجهاز « ولف » وتقسيمات الطب الى أمراض باطنة وتشريح هيكلى وعضلى ومفصلى وتشريح عصبــى وتاريخ طبيعى وكيمياء طبية وأقرباذين « صيدلة » وطب الرمد والامراض الجلدية وداء الزهري وأمراض النساء والاطفال وعلم الحيوان وكيمياء المعادن الخ.

ولم تكن هذه النواة من المنهجية الحديثة مجرد امتــداد لتطبيقــات تقليدية فقد وصف لنا الدكتور « رينو » مشهدا من المشاهد الجامعية فى 8 شوال 1310 هـ/1892 م. حيث اجتمع اربعة من علماء فاس لامتحان

طبيب مغربى فانهالت عليه الاسئلة فى « الطب وقوانينه وتركيب الادوية وتقاسيم الشرايين ووظائفها وعددها وعدد العظام وكيفية التميز بين انواع العصب والعضلات ومعرفة النباتات والازهار والاعشاب وخواصها وأسمائها وطرق اذابتها والمواقيت المناسبة لوصفها للمرضى » . وبعد المداولة منحوا الطبيب الممتحن اجازة (68) ومع ذلك فان الطابع النظري أمسى مسيطرا على التعاليم حيث وصف لنا الدكتور « رينو » أيضا (ص 117) مشهدا فى « تالكزونت » بسوس حيث تابع خمسون طالبا تعليمهم فى الطب بدون تطبيقات حول علاج المرض او التشريح وكانت الدروس مجرد محفوظات ، ولذلك حاول الحسن الاول ارسال بعثات علمية الى أوربا مع تشجيع المؤسسات العلمية الاوربية بالمغرب كالمستشفى الاسبانى بطنجة حيث تابع ستة طلبة مغاربة تمرينات فى الفحص والتضميد والتشريح البسيط ، وقد مارس ثلاثة منهم التطبيب فى الجيش واستفاد الناس من تجاربهم (69) والواقع أن الفكر العلمى تقلص بالمغرب أول هذا القرن وكان من اسباب ذلك جوارف الاستعمار الاوربى الجديد الذي اقام العراقيل فى وجه النشء الصاعد فتسرب الدخيل الاجنبى كعنصر توطينى للاستعمار الفكري الذي تبلور فى وجود اثنين واربعين طبيبا بالمغرب أوائل هذا القرن مع عدة مستشفيات ركزتها البعثات البروتستانتية فى مختلف الحواضر وشلت بادرات المخزن وأمسى المغرب يعيش ليومه وتوقفت البعثات الى الخارج وتحجرت دراسات العلوم بجامعة القرويين وروافدها وانفتح الباب على مصراعيه لغزو افتعلت اوربا اسبابه ومهدت باتفاقاتها السرية ضد مصر وليبيا والمغرب العربى الى سريان دائه الفتاك فى مجموع دار الاسلام التى ما لبثت أن تفككت أوصالها تحت ضربات انهارت على اثرها الخلافة الاسلامية وأسفرت الحرب الاولى عن فسيفساء من الدويلات والامارات التى شغلت احتكاكاتها ومجاذباتها الهامشية الفكر العربى والاسلامى عن مواصلة النضال فى المسار الحضاري الذي كان للعرب فيه الدور المبدع الخلاق .

---

68) (ص 121)

69) (رينو ص 60)

أما الهندسة والرياضيات فقد كان العرب ـ حسب « سيديو » Sédillot أساتذة أوربا فيهما حيث أدرجوا الخطوط الماسة للدائرة Tangentes في الحساب واستعاضوا عن الاساليب العتيقة بحلول مبسطة أصبحت أساسا في علم حساب المثلثات الحديث Trigonométrie وقد لاحظ « شال » Chales أن الفضل يرجع للعرب في تضبيق الجبر على الهندسة وتأكد ذلك عندما صدرت منذ عام 1252 هـ/1836 م مؤلفات لمحمد بن موسى الخوارزمي تحتوي على بحث في الجبر حلت مشاكله في المعادلات الثلاثية بطريق هندسية وقد أبدع العرب في علم المثلثات نظرا لتطبيقاتها في علم الفلك وواصل الاندلس والمغرب كلاهما بلورة هذه المنهجية الرائدة فظهر امثال ابن حمزة المغربي الذي استعمل في القرن الرابع طريقة جديدة في اللوغريتم كما استخدم الحاج يعيش المالقي علم الهندسة في « الميكانيك » أو « علم الحيل » لصنع مقصورة عبد المومن ابن علي في جامع القصبة بمراكش وقد وضعت على حركات هندسية ترفع بها لخروجه وتنخفض لدخوله ، كما صنع على التلمساني موقت القرويين « منجانة » مدرسة أبي عنان المريني بفاس عام 758 هـ / 1356 م (70) واستخدم عبد الله بن يونس الاندلسي طرائق هندسية لاستخراج المياه من أجل سقي بساتين مراكش (71) وذلك في نطاق ما يسمى اليوم بالهيدرولوجيا Hydraulogie كما استعمل أبو عمران موسى بن حسن بن ابي شامة الهندسة في البناء وهو ما يسمى اليوم بالهندسة المعمارية وذلك عندما « صنع البيلة والخصة » بصحن جامع القرويين عام 599 هـ/ 1202 م(72) وقد تضخم عدد هؤلاء المهندسين المعماريين في عصر بني مرين حيث خرج السلطان يعقوب عام 674 هـ/1275 م. الى ضفة « وادي فاس » ومعه أهل المعرفة بالهندسة والبناء فوقف على المدينة البيضاء (فاس الجديد) حتى حدت وشرع في حفر أساسها (73).

وقد عرف الرياضيون المغاربة علما خاصا هو « علم المساحات » الف فيه أبو العباس بن البنا العددي المراكشي (721 هـ / 1321 م.)(74).

70) (الجذوة ص 31)
71) (نزهة المشتاق ـ افريقيا والاندلس ص 67) .
72) (الجذوة ص 37 و 57)
73) (السلوة ج 3 ص 145)
74) الجذوة ص 77)

وضرب المنصور الذهبى المثل فى هذا العمل الرائد حيث تضلع فى المنطق والحساب والهيئة والهندسة فكان يفك كل يوم شكلا من مشاكل كتاب « اقليدس » (درة الحجال ص 51) علاوة على ضلاعته فى الجبر والمقابلة (75) ، وقد عرفت بمراكش فى عصر ابن القاضى (76) زمرة من الاختصاصيين فى التعاليم عرفت بـ « جماعة الفنون » كان شيخها هو احمد التقليتى كما برع السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن العلوي فى الهندسة فكان يلقى دروسا تطبيقية فيها بمراكش ويحل أشكالها (77). ومن مظاهر التطبيقات الهندسية فى الفلك والمساحات الآلة التى اخترعها محمد بن محمد بن سليمان الرودانى (1094 هـ/1682 م.)الذي كان نموذجا لعالم مغربى شارك فى مختلف التعاليم فبرز فى (الرياضيات والمخروطات والمتوسطات والمجسطى وأنواع الحساب والمقابلة والارتماطيقى والمساحة) وكانت الآلة عبارة عن كرة مستديرة مسطرة دوائر ورسوما ركبت عليها أخرى مجوفة منقسمة نصفين فيهما تخاريم وتجاويف (78) .

وقد أصبحت لعلم الرياضيات فى القرن الثانى عشر الهجرى تطبيقات فى علم الاقتصاد حيث صدر لمحمد المسناوي مرينو الرباطى (1207 هـ / 1792 م) مؤلف فى (تقدير فرض النفقات) « وضعه بعمل الرموز والارقام مرتبطا على أطوار حياة المنفق عليهم » (79) .

ولم يتوقف العلماء مع ذلك عن ابداع الجديد فى حقل الهندسة والرياضيات حيث وضع الرياضى الكبير محمد بن على التركى الرباطى ما سماه بالشكل (80) الكوري انتظمت فيه « سائر الزوايا فى الخطوط والاشكال » ، كما تفنن الحيسوبى الفلكى أحمد بن عبد الله التنانى

---

75) (السلوة ج 3 ص 226)
76) (درة الحجال ص 92)
77) (الاعلام للمراكشى ج 2 ص 216)
78) (نشر المثانى ج 2 ص 273 مع رسالة فى وصفها منشورة فى الاعلام للمراكشى ج 4 ص 334 نقلا عن خلاصة الاثر) .
79) (الاغتباط ج 1 ص 136)
80) (الاغتباط ج 2 ص 192)

الصويري فى مختلف فروع الرياضيات فحل الكثير من الاشكال ونقلها الى الاعمال الحسابية وكان رئيس الحيسوبيين والمهندسين فى الحضرة الحسنية (أي فاس عاصمة الحسن الاول) .

أما الفلاحة فقد برز فيها علماء أفذاذ اهتم معظمهم بهذا العلم كرافد للطب والصيدلة فدرسوا الاعشاب والعقاقير والاغذية الطبيعية وامتاز بعضهم بمنهجية أصيلة فى البحث حيث كان ابن البيطار عبد الله بن صالح الكتامى يتنقل فى الجبال صحبة رسام كان يصور له الاعشاب وقد خلف لنا أعظم مجموعة فى العلوم الطبيعية عند العرب وسجل بالمغرب بعد عام 613 هـ / 1216 م. ملاحظات شتى حول الاعشاب ضبطها على حروف المعجم (81) وعززها بما أفاده من رحلة ابن الرومية (وهو ابن العشاب) للمغرب وخاصة مدينة فاس وكان معلمه هو عبد الله بن محمد ابن صالح الشجار الكتامى صاحب الدكان بمراكش (583 هـ / 1187 م.)، وقد نالت أعشاب المغرب حظها من دراسة المحدث الطبيب النباتى الرحالة على بن عبد الله الاشبيلى المعروف بغلام الحرة الذي جال فى أقطار المغرب العربى وسجل أعيان الكثير من الحشائش والنباتات قبل رحلته الى الشرق .

وكانت التجربة والفحوص هى السمة البارزة فى « كتاب الفلاحة » لابن العوام الاندلسى وهو كتاب لا يوجد له نظير فى الادب العربى بما يحتوي عليه من معارف تطبيقية ووثائق قديمة ثمينة (82) بل هو أعظم ما أنتجه لا العرب وحدهم بل حتى العصور القديمة (ص 110) .

ولاحمد بن محمد الغافقى كتاب فى الاعشاب يحتوي على 380 رسما ملونا لنباتات وحيوانات متقنة الرسم (83) ، كما للشريف الادريسى كتاب فى الادوية أشار اليه ابن ابى أصيبعة ملىء بالملاحظات الشخصية اقتبس منه ابن البيطار فى مائتى موضع من كتابه واعتمد عليه وحده فى ثلاثين موضعا .

---

81) (النفح ج 2 ص 683)
82) (لوكلير الطب عند العرب ج 2 ص 11) .
83) (نسخة فى دار الاثار العربية بالقاهرة)

وقد صنف ابو القاسم الوزير الغساني للسلطان أحمد المنصور السعدي عام 994 هـ / 1585 م. كتابه « حديقة الازهار فى شرح ماهية العشب والعقار » الذي ذكر الدكتور « رينو » (84) أنه يمتاز بمنهاجه الواضح جدا فى الوصف النباتى الذي يتسم غالبا بطابع من الاصالة والطرافة .

وفى علم الجغرافية والفلك عرف المغرب عالما جغرافيا قام بدور طلائعى فى وضع أسس علم الجغرافية الحديث هو الشريف الادريسى الذي رسم أول خريطة للعالم وكان بحق استاذ اوربا فى الجغرافية ، وقد طاف بمصر وآسيا الصغرى والقسطنطينية وانجلترا قبل أن يستدعيه ملك صقلية وهو أول من اكتشف ان النيل ينبع من بحيرات خط الاستواء فى حين ان الاوربيين لم يكتشفوا ذلك الا منذ عهد قريب (85).

وقد وضع لروجى الثانى ، ملك صقلية كرة ارضية فلم يخطىء فى تحديد الاطوال بين الاسكندرية وطنجة الا فى نصف درجة بينما غلط بطليموس قبله بألف عام فى ثمان عشرة درجة ولم يعرف العالم طوال هذه الالف سنة عالما جغرافيا فى مثل ضلاعة الشريف الادريسى السبتى ، أما ابو على الحسن بن عمر المراكشى (627 هـ / 1230 م.) فهو احد أمجاد المغرب فى القرن السابع : قام بتجارب أصيلة فقاس من المحيط الاطلنطيقى الى مصر ارتفاع القطب فى احدى واربعين مدينة واقعة بين سبعمائة مرحلة فى الساحل واليه يرجع التطوير فى تخطيط المزاول الفلكية وقد لاحظ « ماسينيون » (86) أن المراكشى جمع مائة واحدى وثلاثين احداثية فلكية Coordonnées للمدن الاسلامية وضع اربعا وثلاثين منها بنفسه فى سبع عشرة مدينة مغربية مر بها ولذلك كانت الخريطة الناتجة عن هذه المقاسات متقدمة بالنسبة لخريطة الشريف الادريسى حيث استطاع ان يوضح الاتجاه العام لشواطىء الاطلنطيك فكان أول جغرافى يرجع اليه الفضل فى تخطيط خريطة المغرب ، وقد ضمن هذه المعلومات

---

84) (نشرة معهد الدراسات المغربية العليا ج 18 ص 195)
85) (حضارة العرب — كوستاف لوبون — الطبعة الفرنسية ص 508)
86) فى كتابه (المغرب فى السنوات الاولى للقرن السادس عشر ص 51)

كتابه « جامع المبادىء والغايات فى علم الميقات » فى مجلدين مع رسوم هندسية وجداول (87) وهنالك جغرافى مغربى ثالث هو الحسن بن محمد الوزان الفاسى المعروف بليون الافريقى (957 هـ / 1950 م.) ، فقد زار بلاد فارس والتتار والاستانة وافريقيا (مصر والصحراء) وعاش بفاس ككاتب فى مستشفى المجانين وصنف بالايطالية كتابه « وصف افريقيا » عام 934 هـ / 1527 م. ترجمه الى الفرنسية
وصدر بالعربية بتحقيق الدكتور جما لزكريا قاسم ، كما صنف قاموسا عبريا لاتينيا الفه بروما عام 930 هـ / 1524 م. (مخطوط بالاسكوريال 598) وولى نعمته بفاس هو السلطان محمد البرتغالى .

وقد كان التقسيم الجغرافى للحسن الوزان (كما يقول ماسينيون) (88) منبثقا عن الجغرافية الاحيائية والاقتصادية وذلك للمرة الاولى فى تاريخ هذا العلم وهو تقسيم أسمى من التقسيم العربى الى الاقاليم .

ومن أبرز ما حققه علماء المغرب من بادرات ذات أهمية دولية قيام ابن رشد بالكشف عن « العالم الجديد » اي امريكا حيث اعترف « كريسطوف كولومب » نفسه بأنه لم يشعر بوجود قارة يابسة وراء المحيط الا بعد أن قرأ كتاب « الكليات » فى الطب لابن رشد (89).

وقد امتاز الفكر المغربى فى الدراسات الاسلامية بنوع من الانتقاءات الاصيلة يدعمها فى شتى المجالات ابتكار وابداع .

فقد استظهر المغاربة القرآن بكامله على كل المستويات فأسست كتاتيب فى السهول والجبال والمدن والقرى لتحفيظه بالقراءات السبع ، ونظم الشعب بكل طبقاته تلاوته فى المساجد فى شكل « أحزاب » مرتبة على

---

87) (يوجد هذا المخطوط فى عدة مكتبات (فى خع وهي غير كاملة وفى مكتبة سليم اغا 866- مكتبة ليدن - مكتبة احمد الثالث (الجزء الاول 3343 - دار الكتب المصرية 1208 (ميقات) نسخة غير كاملة ، طبع نصفه المترجم الى الفرنسية من طرف Sédillot فى مجلدين عام 1835 بباريس .

88) (فى كتابه « المغرب فى السنوات الاولى للقرن السادس عشر ص 73)

89) راجع كتاب (ابن رشد ومذهبه) Averroès et l'Averroïsme للمؤرخ الفرنسى (رونان)

أيام الشهر مهدوا لها بقواعد رصينة للتجويد مع وضع طريقة فطرية لوقف آية القرآن تجمع بين اعتبارين اثنين هما المفهوم والنفس الطبيعـي . وقد شعر رجالات المغرب بأسبقية الشرق في علوم القرآن فقننوا التفسير الذي لم يكن يتصدى له الا علماء افذاذ باذن خاص من أمير المؤمنين فأمر المنصور السعدي اولا باختصار « الكشاف » للزمخشري مع تتبع سقطاته حفاظا على صفاء العقيدة ثم بجمع تفسير ابن عرفة من تفسيري تلميذيـه البسيلي والسلاوى وضرب ابنه زيدان المثل بالانكباب شخصيا على وضع تفسير اعتمد فيه على ابن عطية والزمخشري مع ابراز مظاهـر الشذوذ انطلاقا من روح عملية كيفت منهجية علمائنا فاقتصروا على شروح وحواشي وايضاحات حللوا فيها ما كان من نظرات خاصة انبثقت عـن الشعور بضرورة الحفاظ على وحدة الفكر الاسلامى بتصفية اسس العقيدة والارتكاز على مصدر مزدوج تبلور اولا فى التاويلات القرآنية المعززة بالحديث الصحيح وثانيـا فى استقـراء واقع فـعـل الرسـول واصحابـه وكبار القراء والمـحـدثيـن ولهـذا اتسمت منهـجـيـة الدراسات الديـنـية فى كـل الـعـصـور بـالاسـتـنـاد الـى الاصليـن الكتاب والسنـة مع رفض سائر الاتجاهات الفردية أو الجماعية المحدودة من خلال نظرات الـفـرق والنحل الانفصالية فكان المنبع الثانى الذي ارتكزت عليه طرائق البحث هو السنة النبوية مستمدة من التوفيق بين أقوال الرسول عليـه السلام وافعاله ، وكان لعمل اهل المدينة الاثر القوي فى تفضيـل المذهب المالكى على غيره من المذاهب حيث كان منطلق الاقتباس هو صحيح الامام مسلم أولا ثم صحيح الامام البخاري ثانيا فنظمت دراسـات الـحديـث باشراف الملوك منذ عهد الموحدين اي القرن السادس الهجري واستمر فى ظل الدولة العلوية الى عهدنا هذا فكان مظهرا لسلفية الفكر المغربـي فى رجوعه الى الاصالة ، وللدروس الرمضانية التى ينظمها جلالة الحسـن الثانى منتدى يضم اقطاب الفكر الاسلامى كل سنة توحيدا للفكر وتعريفا بالتـراث .

وقد تواكبت منهجيات البحث العلمى منذ عهد الموحدين فى مجالى النقل والعقل فتبارى العلماء للمشاركة فى المجالين حيث برز أمثال ابن رشد وابن

زهر واختص فى تدريس الحديث والاستنباط من أصوله فى مجلس المنصور الموحدي الشيخ ابن القطان الذي استبحر فى علوم الحديث وبصر بطرقه وميز بين سقيمه وصحيحه ونقد رجاله فكان اول شخصية مغربية ركـزت الدراسات الحديثية على الاساليب والمناهج المتبعة فى الشرق مع نوع من الطرافة والاختصاص تبلورا فى التركيز عل ىالاصل الصحيح دون غيـره والانطلاق بروح جديدة لفهم النص تحللا من تعقيدات بعض الفقهاء ، فادت هذه الروح التحررية الى احراق كتب المذهب المالكى منذ عهد يعقـوب المنصور بعد تحررها من الحديث (90). وكان جده عبد المومن بن علىقد امر عام 550 هـ / 1155 م. بتحريق كتب الفروع ورد الناس الى قراءة الحديث فى العدوتين معا (المغرب والاندلس) فبرز المغاربة فى علم الحديث دراية ورواية حتى تتلمذ الحافظ ابن حجر امام أهل الحديث شرقا وغربا لمحدثين مغاربة كأبى البركات الكمال المكناسـى وتقى الدين الفاسى ، وابن شقرا محمد بن بدر الدين السلاوي بل وصف العلماء محدثا مغربيا هو ادريس العراقـى الفاسى بأنه أحفظ من ابن حجر .

وكانت جامعة القرويين منارا وهاجا بدد الخلافات المذهبية التـى سادت بفاس قبل القرن الرابع الهجري حيث انتشر مذهبا الامامين أبـى حنيفة والاوزاعى بل وحتى المذهب الشافعـى عن طريق ابى جيده الفاسى ولكن الفكر الوحدوي ما لبث أن تغلب فكان القرن الرابع آخر عهد بالفكرة الخارجية التى سادت فى سجلماسة الى قيام الدولة الشاكرية .

وتداخلت العلوم الاسلامية ومنها علوم الآلة الاثنا عشر مع جملة من العلوم العقلية والتجريبية فكان لعلمى الاجتماع والاقتصاد شأنهما فى اطار علم الفقه كما كان للفلسفة والمنطق دور فى تكييف علم الاصول وعلمى الكلام والتصوف وكانت الرياضيات مدمجة فى علم الفرائض كما اندرج الفلك فى علم التوقيت ولنا مثال من القرن الحادي عشر فى شخص ابن سليمان محمد ابن محمد الرودانـى الفاسـى 1094 هـ / 1682 م) الذي كان محدثا فلكيا يحسن غالب الحروف ويتقن علم التوقيت حيث صنف منظومته التى بناها على تجاربه الخاصة وارصاداته فلم يقلد احدا من المتقدمين كما عززها

(90) (المعجب للمراكشى ص 171)

بآلة صنعها بوسائله الخاصة فى علم التوقيت والهيئة (نسخـة فى خـع 2197 د) وله ايضا « تحفة أولى الالباب فى العمل بالاسطرلاب » استخرج فيه تسوية البيوت من زيج الغبيك (الغ بيك) (خع 2187 د) غوطا بالمانيا الشرقية 1415 .

وهو محدث ضليع استطاع ان يضع معلمة لكل كتب الحديث مما لم يسبق اليه بفضل فكره الموسوعـى حيث جمع فى كتابه « جمع الفوائد بجامع الاصول ومجمع الزوائد » (احاديث الصحاح والسنن والمساند) ومعجم الطبرانـى (91) الثلاث الخ . وهو ايضا فقيه أصولى (له مختصر التحرير فى أصول الحنفية لابن الهام وشرحه) ومؤرخ ضليع له « صلة الخلف لموصول السلف » وهو فهرست لترتيب اسماء الكتب على حروف الهجاء (92) .

وقد احتفظت اللغة العربية بأصالتها فى المغرب الاقصى بفضل رجالها المجددين الافذاذ ، وقد نشرنا بحثا معززا بالوثائق حول فصحى عاميـة المغرب (93) وكان لعلماء اللغة فى الشق الغربى للعروبة ، دور فعال فى بلورة معطيات اللغة مما فسح المجال لفاتن الحكمى (329 هـ/ 1008 م.) فقام بمناظره صاعد بن الحسن البغدادي فى مجلس المنصور (94) كما رد على صاعد هذا ابن قزار البربري الذي صحت عن طريقه اللغة العربية .

ومن اللغويين الذين برزوا بابتكاراتهم فى هذا الحقل :

1) عيسى بن عبد العزيز يلبخت المراكشى (607 هـ / 1210 م) الذي فاق ابن الشلوبين امام النحاة بالاندلس ؟

2) ابن عصفور على بن ابى الحسين الحضرمى (659 هـ / 1260 م) الذي سكن مدينتى أنفا ومراكش وكان خاتمة النحاة فى الوطن العربى (بدا

بدأ النحو على وكذا ختم النحو ابن عصفور على

---

91) (خع 2584) طبع مرتين (عام 1345 هـ ـ 1926 م على الحروف بالهند ثم طبـع فى الستينات بالحرمين الشريفين فى مجلدين) .

92) (خزانة الاوقاف 6275) .

93) راجع كتابنا ((نحو تفصيح العامية)) .

94) الذيل والتكملة ج 2 ص 526 (طبعة احسان عباس)

3) محمد بن عمر الغماري (802 هـ / 1399 م) الذي تفرد على راس المائة الثامنة فى النحو (95) .

4) محمد بن الطيب الشرقـــي الفاســـي (1170 هـ / 1756 م.) الذي اكمل قاموس الفيروز ابادي واعتمد تلميذه الشيخ مرتضى الزبيدي على حاشيته الكبرى على القاموس (وهى فى اربعة مجلدات) وقد تتلمذ له علماء المشرق والمغرب .

5) ابن مضا أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سعيـد قـاضـــي الجماعة بفاس ومراكش (592 هـ / 1195 م) الذي ابرز فى « كتاب الرد على النحاة » (96) بنظرية جريئة تقول بعدم القول بالقياس فى هذا العلم (تبعا لانكار الموحدين لفكرة القياس كمنهجية فى الفقه) والاعتماد علـــى السماع وهو يهدف الى هدم نظرية العامل والمعمول القائلة بأن كل حركـــة نتيجة واثر لعامل لفظـــي يأتى بعدها وأن اللفظ لا يحدث حركة فى اللفظ التالى له وانما يحدثها المتكلم نفسه فليس الفعل هو الدافع للفاعل وانما وردت الـلـغـة هـكـذا فنحـن ننحـو كـمـا نحـا الـعـرب والحقـيقـة ان ابن جنى هو اول من انـكـر العـامـل فى كـتـابه (الخصائص) حيث قال : « وأما فى الحقيقة ومحصول الحديث فالحركات من الرفع والنصب والجر والجزم انما هى للمتكلم نفسه لا لشيء غيره » ثم قال : « ان ضرب انتهت فلا يمكن أن تكون عاملا بمجرد النطق بها فى زيد أو عمر والخ. »

وأول من اسس تعليم العربية للاجانب بروما فى القرن العاشر الهجري الحسن بن محمد الوزان الفاسى المعروف بليون الافريقى ، كما أن لبرات دونش اليهودي الفاســـي (349 هـ / 960 م.) أول من دعا الى وجوب العناية باللغة العربية والاستعانة بها فى فهم « العهد القديم » وقد أخضع يهود المغرب النحو العبري لكتاب سيبويه وقام داود بن ابراهام الفاســـي بوضع قاموس اسمه « اجرون » انطلاقا من معاجم اللغة العربية .

---

95) (نيل الابتهـــاج ص 281)
96) نشر كتاب الرد على النحاة حديثا (ظهر الاسلام احمد امين ج 2 ص 118 وج 3 ص 96)

وقد برزت براعة الفكر الاندلسـي المغربى فى بادرات رائعة ضمن المعمار الهندسـي والموسيقى (أو الآلة) الذين امتازا باصالة ما زالت معالمها يثير اعجاب العالم فالفن المعماري بتصميماتـه وترخيماتـه ونجبيساتـه وتسطيراته وترصيعاته وتلويناته وكذلك الآلة الاندلسية بطبوعها ونوباتها وترانيمها وتلحيناتها كل ذلك مظهر لعبقرية نادرة ، وقد تبلـورت روح الابداع فى منهجية التصنيع حيث كان المغرب منذ عهد الموحدين يبذ العالم بانتاج الورق لامداد أوربا الغربية كما يصنع انواع الزجاج والسكر المصفى الذي تنافس البلاطان الفرنسى والمغربـى على اقتنائه فى عهد السعديين ، وقد صنع المغرب أسطولا وصفه « اندري جوليان » (97) بأنـه اول أسطول فى البحر الابيض المتوسط مما حدا صلاح الدين الايوبى الـى الاستنجاد به ، كما أكد أن الموحدين هم اول من نظم الاساليب التجاريةطبقا لمقتضيات التجارة الدولية (راجع كتابنا « معطيات الحضارة المغربية »)؟ وقد اشاد المؤرخ والقانونـى الفرنسـى « جاك كايى » Caillé بالروح الدولية التى كانت تذكـى السلطان سيدي محمد بن عبد الله لما كان يبديه من آراء سبق بها ما عرفته أوربا فى العصر الحاضر اذ لم ينس فى اتفاقاته البنود المتعلقة بالسلم والحرب والحصانات الدبلوماسية وبعض مظاهر الحرية المحددة فى اطار دقيق برهن عن ادراكه العميق لمقومات القانـون الدولى مما يدل على مدى اسهام المغرب فى دعم التشريعات التى تعتبر أساسا للعلاقات بين الدول فى القرن العشرين (راجع كتاب كايى) حيث نشر نصوص المعاهدات والاتفاقات المبرمة بين المغرب ودول أوربا فى عهد محمد الثالث . وهذه الروح الخلاقة قد أذكت ايضا ملك المغرب محمد الرابع الذي نوه القنصل « لوكونط دووسكواط » بحصانة فكره والمامه بمعطيات السياسة الاوربية وتعريبه لكتب علمية وانكبابه على دراسة العلوم حيث اسس مدرسة للمهندسين بفاس وبلغت مبادراته مبلغا من الابداع جعل كلا من « فرانسوا شارل رو » و « كايـى » يؤكد اختراعه لمدفع (تاريخ المغرب — عبد العزيزبنعبد الله ج 2 ص 65) .

---

97) فى كتابه تاريخ افريقيا الشمالية .

وقد ظل اقطاب الفكر ينتجعون الشرق لاستتمام المعارف وتبادل الاجازات كما كان المشارقة يتوقون الى مبادلة علمائنا وجوه النظر ، وقد عرف الشرق كيف يقدر المغرب فى شخص أفذاذه أمثال ابن سليمان الروداني والمقري وابن الطيب الشرقى ويحى الشاوي واليوسى واحمد بن ناصر واحمد القادري ومحمد (فتحا) الفاسى ومحمد بن الطيب العلمى المتوفى بالقاهرة وأحمد بن الخياط الذي مكث طويلا فى القاهرة ايضا واحمد الهلالى الذي ترك لنا وصفا شيقا لرحلته العلمية هذه لان اساليب الشرق والغرب كانت تتكامل كما أن عناصرها الحيوية يتمم بعضها بعضا فى هيكل موحد رصين . ولعل ما لاحظه المقري — وقبله ابن خلدون — من فروق بين الشرق والغرب فى الاتجاهات الفكرية والمناهج العقلية قد ظل على ما كان عليه اذ بينما كان الشرق مطبوعا بالعمق فى ملكة العلوم النظرية طفق المغرب يوغل فى البحث اللفظى مع تحقيق ما احتوت عليه بواطن الابواب وتصحيح الروايات وبيان وجوه الاحتمالات والتنبيه على ما فى الكلام من اضطراب الجواب واختلاف المقالات مع ما انضاف الى ذلك من تتبع الآثار ، وبينما غلب على تآليف المشارقة الايجاز (عدا البعض كالغزالى والفخر الرازي) مع انحصار فى الموضوع سواء فى التصنيف أم التدريس اذا بالمغاربة من القيروان الى القرويين يوغلون فى الاستطراد ، واذا كانت صناعة التأليف قد انتهت فى علماء المغرب على صناعة أهل المشرق فى شخص ابن البناء المراكشي فقد عللوا ذلك (ببراءة نسبه من البداوة) غير أن الامر لم يبلغ الحد الذي زعمه ابن خلدون فى المائة الثامنة من انقطاع ملكة التعليم على طريق النظار ، لان التحقيق العلمى ظل طابع الكثير من علماء عهد الشرفاء ، هذا مع تحفظات منها نوع من التجمد فى المنهج وايغال فى استظهار النصوص حيث ادى الحال فى بعض نواحى المغرب الى تطرف فى الاستظهار تجاوز المتون الى معاجم اللغة ، ولكن هذا الاسلوب الذي كان يحجر الفكر أحيانا عند من لا يستطيع أن ينسق بين واعيته وملكته التصورية قد ضخم — على العكس عند البعض — السليقة العربية .

غير أن العلوم فقدت منذ أوائل القرن الحادي عشر سمتها العلمية فأمست مجرد «حرف» تقنية ضمت اختصاصيين فى الحساب والهندسة والمساحات (98) .

98) الاعلام للمراكشى ج 1 ص 46 .

وبالرغم عن تقلص شبكة العلوم فان الروح العملية ظلت تذكي الخاصة من العلماء الذين كانوا يشعرون بالفروق الدقيقة في الاتجاهات العلمية ، ويتجلى ذلك في تقسيمات أبي علي اليوسي للعلوم : الى فلسفية وملية ، وتحديده لماهية علم الفلسفة الذي يهدف الى « تكميل النفس الناطقة والاطلاع على حقائق الاشياء بقدر الطاقة » وانه — كما يقول — اما نظري واما عملي ، والاول اما مجرد عن المادة مطلقا وهو العلم الالهي ، أو في الذهن فقط وهو العلم الرياضي ، او مقيد بالمادة وهو العلم الطبيعي . والثاني اما متعلق بنفس الشخص من حيث هي ، وسمي سياسة النفس وعلم الاخلاق ، أو بها وبما يحتاج اليه من شهوات قواها وهو علم تدبير المنزل ، أو بما يعم وهو الملكية والسلطنة » .

وبذلك اصبحت التعاليم تنحصر في عمليات تطبيقية . صرف تلك فذلكة مختصرة تعطينا صورة مكبرة عن بعض مظاهر منهجية البحث العلمي في المغرب .

الرباط **عبد العزيز بنعبد الله**

قصة



للكاتبة الامريكية : غرايس ماسن
ترجمة : عبد المجيد بن جلون

أطلقت عليها احدى صويحباتها فى المكتب لقب « مسكينة » فعلق اللقب بها لانها واصلت قبول الضرب على الآلة الكاتبة الضخمة العتيقة فترة طويلة من الزمن دون ان تشكو من ذلك أو تطالب مستر اريكسون باستبدالها لها بآلـــة خفيفة جديدة ، وتتالت علـــى ذلك الـــشهـــور .

كن يقلن لها : ان مصابك يا مسكينة يتلخص فى أن لك قلبا فارغا من كل عزيمة ، أتخشين ان تقتحمى على الشيخ مكتبـــه وتجأري بالشكوى ، ثم يتحاحكى فى حبور ، وكانت تعلم أن ذلك من حقها ، وكانت تردد فى نفسها كل صباح وهى فى طريقها الى عملها العبارات التى ستقولها لمدير المكتب عند وصولها اليه ، ولكنها لم تستطع الى ذلك سبيلا فى يوم من الايام .

وكانت تقيم معها أخت لها طاغية ضاقت بها ذرعا ، كما ضاقت ذرعا بزوج أختها الذي ظل يسخر من الصديق الشاب الوحيد الذي كانت تعرفه ، الى ان هجرها الى غير رجعة ، فاستقر فى أعماقها أنها فتاة مهينة ، واقترنت هذه المهانة بالآلة العتيقة الكريهة ، فاما تخلصت منها والا تعمق شعورها بالضعف الذي كان سببا فى كل ما تشعر به من كرب وبلاء .

وعندما دقت الساعة الثانية عشرة والنصف ، انتفضت من مكانها لتسير فى الردهة منهوكة القوى ، وسعت الى باب مكتب مستر اريكسون نصف المفتوح فرأت أنه لا يباشر اى عمل فانتغض قلبها انتفاضة بائسة وهى تسعى اليه لتجد نفسها واقفة أمامه تقول له فى تلعثم : مستر اريكسون المعذرة .

وفجأة انطلق جرس التليفون ، فقال لها وهو يرفع السماعة: عودي فى وقت آخر فخرجت مسكينة لا تلوي على شىء وسارت تائهة فى طريقها الى المطعم الذي تتناول فيه غدائها دون ان يعيد اليها اي اطمئنان جو الخريف الجميل ، ولا الموسيقى المرحة التى كانت تأتيها من قبل ملعب الحيوانات التى مرت به فى طريقها الى المطعم .

وشعرت بالمهانة التى اعتادت ان تشعر بها كلما تقدم فتى المطعم الاسمر لتولى خدمتها ، ثم انطلقت تحلم بغرفة لها خاصة لا يشاركها فيها احد ، وذهبت تتخيلها كما تتمنى ان تكون ، ثم انهمكت فى تناول طعامها لا تكاد تشعر بالضوضاء التى ارتفعت

حارج باب المطعم ، ولكنها استيقظت أخيرا من احلامها على صراخ سيدة ضخمة توقف بها الباب الدائري .

وعندما سادت ـ المطعم ـ الفوضى لم يكن أحد يعرف ماذا حدث سوى ان هناك سيدة تصرخ ، وذهبت خادمةتتبين جلية الامر ، ثم اخذت تصرخ هى بدورها حينما اقتحم المطعم حيوان اثار الرعب والهلع : يا للطامة ! انه أسد .

وصعق الناس فى امكنتهم حينما وقعت اعينهم على هذا الزائر المخيف الذي لم يزد على ان وقف فى اختيال ، ودار برأسه ليرى الناس وكأنهم قد انقلبوا الى بهلوانات تجري وتنطح وتختفى تحت الموائد وخلف حاجز المشرب ، وقد تملكهم ما يشبه الجنون .

أما مسكينة فعجزت عن الحركة تماما ، واقتصرت على لزوم كرسيها فى ذهول ، ولم تستطع ان تتحرك حتى حينما أخذ الفتى الواقف خلف حاجز المشرب يشد طرف كمها ، وتعالت الاصوات من كل مكان: «نادوا رجال الشرطة» اضربوه بالكراسى انثروا الفلفل على عينيه » .

حاولت مسكينة ان تطبق جفنيها دون جدوى ، فتقدم الاسد خطوة وعاد يرفع رأسه وهو يغمض عينيه الذهبيتين ويفتحهما ويبصبص بذنبه ويشمشم بخياشيمه ، وهمهم فى جوفه بعض الهدير .

ولم تحفل مسكينة بالناس وهم يصيحون بها ، فقد تركز انتباهها فى الاسد الذي اصبح على مقربة شبر واحد منـــهـــا ، وتوقفت أنفاسها وهى تراه يلعق شفريه فى تمهل واناة .

ثم مد رأسه الى مسكينة فترددت فى المكان همهمـــة مـــن الرعب، ، فجمدت من الذعر وقرب فكه من ركبتها فنظرت الـــى بقية الفطيرة فى يدها التى امتدت به الى فم الاسد ، فالتقطهـــا من بين اصابعها بلسانه القرمزي ، ثم لعق اصابعها .

وهنا حدث أمر عجيب ، لقد شحذ الذعر شخصية مسكينة فتنفست الصعداء ، وراعها ما تطفح به عينـــاه مـــن أمـــارات الاستغراب والاستفهام ، كما راعها تغض اذنيه البادي والندبة السوداء الواقفة على خيشومه ، وخطر ببالها ان الخوف قـــد انتابه هو ايضا .

وكان الفتى الواقف خلف حاجز المشرب قد شرع فى العمل وأخذ يملأ اناء بماء ملتهب يغلى ، وقال لمسكينة خذي حـــذرك سأصب هذا على وجهه ، ولما ادارت راسها وراته حذرته مـــن ذلك صائحة : لا تفعل ، الا تعلم انك سوف تؤذيه ؟ بل وقفت تحول بين الاسد وبين الفتـــى الطائش ، فاقترب منها الاسد الى أن حاذى ركبتيها، فمدت اليه يدها ــ فى غير ما وعـــى ــ فلمست لبدته الصفراء تلمسا مال براسه اليها ، فانقشع عنهـــا الخوف دفعة واحدة ، كانها بعد ترديها فى مهاوي الرعب المدلهم قد خرجت الى حرم آمن لم يعرف مجرد الوجس فى يوم من الايـــام .

ولما اقتحم المطعم شرطى وفى اثره عملاق رث الملابس ، ارتجف الاسد ارتجافا شديدا ، وقد وضع عند الباب قفص ، واخذ الرجل العملاق يلوح فى الهواء بهراوة وهو يصيح بالاسد « هيا يا قيصر هيا » فأهابت به مسكينة صائحة : لا تضربـــه ، فلم يسع الرجل الا ان يحدق فيها حينما ادرك وجودها وتمتم : يـــا الاهـــى !

وازدحم المكان بعد ذلك بمخبري الصحف والمصورين وهـــم يباشرون عملهم فى حذر ، فزأر الاســـد زئيرا اعقبته فوضـــى ضاربة الاطناب ، ولما عاد الهدوء الى نصابه كان قيصر الهرم قد قبع فى زاوية من زوايا القفص وقد بدا عليه ان قواه قـــد خارت وانه سئم الحياة ، وانصرف عنه الصحفيون ليتجهوا الى « مسكينة » يلتقطون لها الصور ويلاحقون بالاسئلة هـــــذه الفتاة العجيبة التى تمكنت من ان تهديء من روع الاسد بنصف فطيرة، فصرفته عن الفتك بالناس وتمزيقهم ، حتى اذا ما انتهى الحادث بسلام رجعت واجفة وقد تأخرت عن موعد عملها عشر دقـــائـــــق .

وعند عودتها الى المكتب قال لها مستر اريكسون ساخرا : تحضرين فى الوقت الذي يحلو لك يا مسكينة ، فلم تزد على أن رفعت الغطاء الجلدي عن الآلة الضخمة الكريهة بعد ان جلست الـــيـــهـــا .

وعندما أخذت تدق عليها تشابكت اذرع حروفها وتعطلت عن العمل ، فقالت لها زميلة لها ساخرة : تطالبين متى بآلة جديدة يا مسكينة ؟ وتعالت الضحكات .

كانت قد انجزت بعض الاوراق فجمعتها وانطلقت بها الى مكتب الرئيس ، ولكنها شعرت فى طريقها بعزيمتها على مجابهته تنهار ، فعرجت على الحمام ، وفى الحمام رأت خصلة من شعر الاسد ما تزال عالقة بركبتها ، فطافت بأنفها ذكرى رائحته ... فأحيت الذكرى العزائم فى قلبها ... وتطلعت الى المرآة فخيل اليها انها رأت آثارا للدمع فى مآقيها ، وشعرت فى أعماقها بشىء جديد لا تدرك كنهه ... بشىء لا تستطيع الكلمات التعبير عنه ، فهو يشبه مزيجا من الندم والتمرد وتفاهة الدنيا ما كاد يتقمصها حتى وجدت نفسها بعد لحظة فى طريقها الى مكتب مستر اريكسون ، ثم حدقت فى وجهه وصاحت به وهى تضرب بقبضة يدها على مكتبه بين الكلمة والاخرى قالت له :

مستر اريكسون : ان من حقى الحصول على آلة جديدة ، فان أحدا غيري لن يقبل الضرب على تلك الآلة العتيقة العجفاء ، ولذلك فاننى لن اجلس اليها مرة أخرى ولو وصل الامر الى حد فصلى من العمل ، يضاف الى ذلك انك وعدتنى بمكافأة فى آخر السنة ولكنك لم تبر بما وعدت ، وها انذى لا ازال أقيم مع اختى وأخضع لما تسومنى به من بخس :

فأجابها مستر اريكسون وقد جحظت عيناه من العجب ، ماذا حدث ؟ قالت : ربما كنت تعلم يا مستر اريكسون ان صويحباتى لقبننى « مسكينة » ، لقبننى بذلك لاحتمالى ، ولذلك فانا امقت اللقب ولن احتمل ان ...»

وعندما رفعت بصرها الى مستر اريكسون أدهشها أن ترى شيخا أصلع قد ارتسمت على محياه أمارات ما لقيه من عنت فى

الحياة ، فقالت هل أنت على ما يرام يا مستر اريكسون ؟ هـل أصابـك صـداع .

ــ كلا ، كلا يا ابنتـي ، لقد بلغ منى التعب منتهاه من عناء اليوم ، وادركنـي اللغوب .

ــ انني آسفة لذلك .

عجبا ، فلقد شعرت مرة اخرى بان الخوف قد انقشع عنها وخرجت بعد ترديها فى مهاوي الرعب الى حرم لم يعرف مجرد الوجس فى يوم من الايام ، فاضافت : لا يوجد فى الحياة شىء يستحق ان يخشـى ، ما دام هناك حق .

وقال لها مستر اريكسون وهو يبتسم ، وقد رفع حاجبين تخللهما الشيب : هذه اول كلمة طيبة أسمعها فى يومى ، وقـد تكونين على حق ، ومهما يكن من شىء فان لك على آلة جديدة ، ولك على المكافأة أيضا ، فانها لن تلحق بنا خسارة يا مسكينة ... اوه ، اعذرينـي فقد نسيت انك تمقتين هذا اللقب .

ــ لن احفل بذلك بعد اليوم ، ولك شـكـري يا مستـر اريكـسـون .

وتبسمت لنفسها ، ثم هرولت منصرفة قبل أن يخطر علـى بالها ان تفعل برأس مستر اريكسون ما فعلته برأس الاسد منذ قليل حينما لمست لبدته الصفراء ...

الـربـاط　　　　　　عبد المجيد ابن جلون

قضية روديسيا (*)
تطورها التاريخي

د. شوقي عطا الله الجمل

مقـدمــــــــة :

قضية روديسيا من القضايا الهامة التى شغلت بال الافريقيين ، ولا تزال تؤرقهم بل شغلت هيئة الامم المتحدة ولجانها المختلفة ، ولا تزال مدرجة فى (جدول) مجلس الامن والجمعية العمومية ، كما تستحوذ على نشاط وجهود لجان عدة من لجان الهيئة الدولية .

ولعل شكوى بتسوانا الاخيرة أمام مجلس الامن من اعتداءات حكومة الاقلية العنصرية فى روديسيا عليها ومساندة ممثلى الدول الافريقيـــة وفى مقدمتهم ممثل المملكة المغربية فى الامم المتحدة لبتسوانا فى شكواهـــا تثير التساؤلات حول حقيقة قضية روديســيا .

1) سنستخدم هذا اللفظ ــ تجاوزا ــ فى هذا البحث رغم أن الوطنيين يفضلون ان يطلقوا على بلادهم لفظ زمبابوى (Zimbabwe) أو زمبيزيا اللفظ القديم المعبر عن أصلهم الافريقى وحضارتهم القديمة والمرتبط بنهرهم العظيم (الزمبيزى) .

والقضية غريبة فى بعض أطوارها لكنها على العموم تعتبر صورة من الصور التى مارس بها الاستعمار نشاطه فى القارة الافريقية منذ أن رزئت به فى العصور الحديثة . ووجه الغرابة فيها يرجع الى أن الاقليـــــة العنصرية من المستوطنين البيض الذين لا يزيد عددهم عن 220 الف بينما يتجاوز عدد الوطنيين اصحاب البلد الحقيقيين اربعة ملايين نسمة — قد أعلنت الاستقلال بالبلاد عن النفوذ البريطانى . والاستقلال فى حد ذاته هدف تسعى كل الشعوب المغلوبة على أمرها فى الحصول عليه ، ولكن استقلال هذه الاقلية الدخيلة وانفرادها بالحكم يعنى فى الحقيقة استبدادها بالامر دون أصحاب البلاد الحقيقيين واستمرار استغلالها لخيرات البـــــلاد وتسخيرها لاهلها لخدمة مصالح هذه الاقلية التى تشبه الاخطبوط الذي يتسلق على النبات الاصلى ليمتص عصارته ويتركه جافا لا حياة فيه .

وتمتد جذور هذه القضية فى الحقيقة الى الوقت الذي قدم فيـــــه الاستعماري البريطانى سيسل جون رودس (Cecil John Rhodes) الى جنوب افريقيا ، ثم بدأ نشاطه فى هذه البلاد ، واسس شركة جنوب افريقيا البريطانية [Britsh South Africain Company] ليحقق عن طريقها أهدافه بعد أن استطاع الحصول من ملك قبائل (الميتابلى) الذي كان يحكم هذه البلاد على تصريح بالتنقيب عن المعادن فى أرضها فوضع خطة للاطاحة بالملك الافريقى ، ووضع يده على هذه البلاد واستعمارها واستغلالها لتحقيق أهداف الرجل الابيض .

وفى عرضنا لتطورات هذه القضية سنقدم عرضا سريعا للملامح الجغرافية للبلاد لاهميتها فى تفسير الاحداث التى ألمت بها بعد ذلك ، ثم سنتتبع التطور التاريخى والحضاري للسكان فى الفترة السابقة لامتداد النفوذ البريطانى اليها ، مبرزين بعض معالم الحضارة الافريقية بهـــذه البلاد والتى يتعمد المستعمرون الاوربيون تجاهلها لانهـــا تهدم الاساس الذي يبنون عليه استئثارهم بالسلطة دون الافريقيين ؛ اذ يدعون أنـــه لم يكن لهم نصيب من الحضارة من قبل فلن يمكنهم بالتالى مسايـــرة الحضـــارة الحديثـــة .

وسنشير للوسائل التى اتبعها الاستعمار لبسط نفوذه على البـــلاد

ونظام الحكم الذي وضع لها والذي ادى فى الحقيقة الى أن تصل المشكلة الى الوضع الذي وصلت اليه :

فالمشكلة فى الحقيقة ليست بنت اليوم ، لكنها النتيجة الطبيعية للسياسة الاستعمارية التى اتبعت منذ البداية فى هذه البلاد ، فسواء فى فترة ادارة شركة جنوب افريقية للمستعمرة وهى الفترة التى امتدت من 1890 الى 1923 أو فى فترة الحكم الذاتى وهى فترة امتدت من 1923 الى 1953 ، أو فى فترة الاتحاد الثلاثى (اتحاد وسط افريقيا) الذي فرضه المستوطن البيض فى عام 1953 مهددين بالانظمام الى اتحاد جنوب افريقيا اذا لم تتحقق الوحدة مع روديسيا الشمالية ونياسالاند — كان واضحا أن الاقلية البيضاء فى روديسيا تعمل للانفراد بالسلطة لتستطيع أن تنفذ سياستها العنصرية المتطرفة والتى تتنافى مع كل المبادىء الانسانية والدولية .

والقاء نظرة على وضع الافريقيين ومدى ما يتمتعون به من حقوق ، وما تتاح لهم من فرص للاستفادة من الخدمات فى بلادهم ، ومقارنة ذلك بوضع المستوطنين البيض يوضح أبعاد السياسة العنصرية التى تعمل الاقلية البيضاء فى روديسيا لتحقيقها .

أما عن موقف منظمة الوحدة الافريقية من القضية ، وما اتخذته من قرارات فى هذا الشأن ومدى فاعليتها فسنستند فى توضيحه على تقارير لجان المنظمة ومحاضر جلساتها وقرارات مؤتمراتها .

كذلك فى معالجة موقف الجمعية العمومية للامم المتحدة ، ومجلس الامن واللجان الخاصة المتخصصة (لجنة الاربعة والعشرين عضوا) ، ولجنة حقوق الانسان ، والمجلس الاقتصادي والاجتماعى وغيرها من هذه القضية — فقد رجعنا لتقارير هذه اللجان الرسمية كما هى واردة فى وثائق الامم المتحدة ، وقد أشرت بصفة خاصة للدراسة التفصيلية التى قامت بها « اللجنة الخاصة لمعرفة مدى نشاط المصالح الاقتصادية الاجنبية وتغلغلها فى روديسيا وأثر ذلك على القضية الروديسية » ، فقد تناولت هذه الدراسة كل نواحى النشاط المتعلق بالزراعة والتعدين وأعطت صورة لاستثمارات الشركات الاستغلالية المختلفة فى روديسيا وأرباحها

التى تحققها بما يلقى الاضواء على موقف الراسماليين الاجانب وموقف القوى الاستعمارية الاخرى من القضية التى تعتبر من اهم واخطر قضايا الكفاح فى سبيل الحقوق الطبيعية للشعوب .

اولا — الملامح الجغرافية لروديسيا :

ليس من شك فى أن (شخصية المكان) — كما يعبر عنها بعض الجغرافيين او (فلسفة المكان) كما يحلو للبعض أن يسميها (2) — كان لها أكبر الاثر ليس فقط فى اغراء الاستعماريين السابقين من امثال سيسل جون رودس على الاصرار على مد النفوذ الاجنبى لهذه الجهات — لكن أيضا كانت فى مقدمة الاسباب التى جعلت احفاد هؤلاء الاستعماريين يعملون اليوم على زيادة قبضتهم على هذه البلاد فاذا القينا نظرة على خريطة روديسيا فلعل اول ما يلفت النظر هو موقعها الداخلى فى الهضبة الجنوبية للقارة الافريقية ، فهى لا تطل على سواحل بحرية او محيطية وان كانت تقترب كثيرا من سواحل المحيط الهندي ، وتحدها من الشمال والشمال الغربى جمهورية زامبيا Zambia (روديسيا الشمالية سابقا) ، ومن الشرق موزمبيق Mozambique (المستعمرة البرتغالية السابقة) ومن الجنوب جمهورية جنوب افريقيا S. Africa R. ومن الغرب بتشوانا Botswana (بتشوانا لاند البريطانية سابقا) فهى تشبه الصدفة المغلقة على نفسها (3) . وقد حتم هذا الموقع الداخلى على روديسيا أن تتجه الى الدول القريبة المطلة على المنافذ البحرية مثل موزمبيق (على المحيط الهندي) وانجولا (على المحيط الاطلنطى) ، وارتبطت روديسيا بها بخط حديدي يمتد من ميناء بيرا Beira فى موزمبيق الى بنجويلا Benguala على المحيط الاطلنطى فى انجولا Angola وقد أدرك (سيسل رودس) اهمية ميناء بيرا لروديسيا باعتباره منفذا طبيعيا لها ، وكاد أن يدخل فى نزاع مع

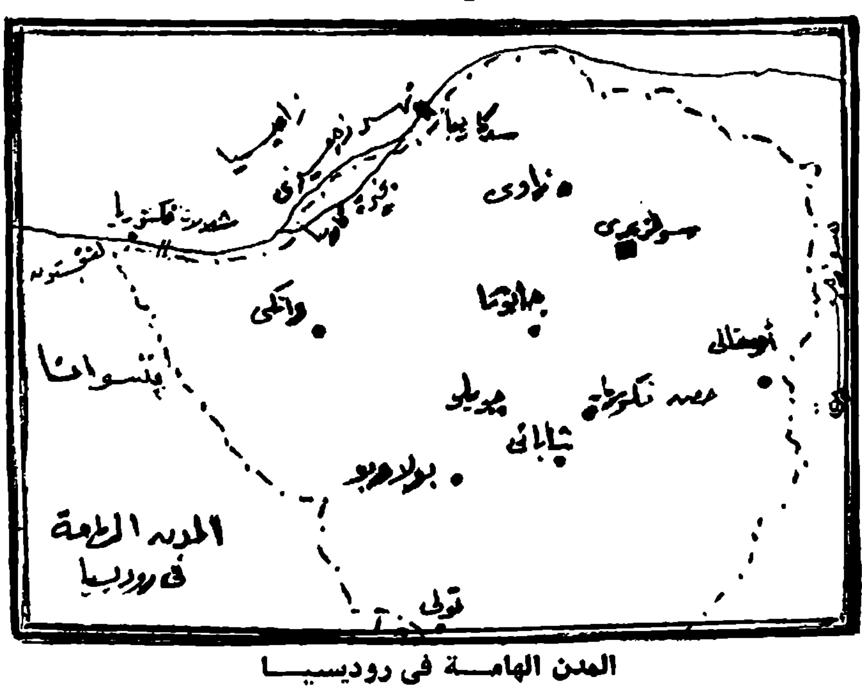
---

(2) انظر حمدان ، جمال : شخصية مصر (القاهرة 1976) ص 1 ، 2 ، 3 .

(3) Brlesford, W.V. : Hadbook to the Federatlon of Rhodesia & Neysaland (London 1960) p. 1,

أنجولا
جنوب غرب أفريقية (ناميبيا)
بتسوانا
إتحاد جنوب أفريقية
المحيط الأطلنطى
المحيط الهندى
موقع روديسيا

موقع روديسيا



المدن الهامة فى روديسيا

البرتغال بسببها لكن اللورد سولزبري Salisbury رفض أن يذهب الى حـد الحرب مع البرتغال لهذا السبـب (4) .

وموقع روديسيا هذا جعلها مطمع الدول الاستعمارية — هذا من جهـة الموقـع .

أما سطح روديسيا فهو مرتفع اذ تمثل هضبة يتراوح ارتفاعها بين 4.000 و 5.000 قدم فوق سطح البحر ، وقد ادى هذا الارتفاع الـى اعتدال المناخ معظم شهور السنة رغم وقوع (روديسيا الجنوبية) فـى العروض المدارية ، واغرى هذا الارتفاع كثيراً من الاوروبيين علـى الهجرة الى هذه البلاد ، وتقطع الهضبة عدة انهار تختلف فى اتجاههـا وتصريفها النهري ، واهم هذه الانهار — نهر الزمبيزي وروافده وهو يسير من الغرب للشرق وتعترض مجراه (شلالات فيكتوريا) الشهيرة التـى رآها لفنجستون Livingstone فى 16 نوفمبر عام 1855 فأبدع فى وصفها وقدم لنا صورة من وحى انفعالاته النفسية اثر مشاهدته لهـا للوهلة الاولى (5) . وقد اقيم على هذا النهر سد كاريبا الذي تم تنفيذه فى عـام 1959 (6) .

وبالطبع تختلف درجة الحرارة كما تختلف كميات التساقـط (اي الامطار) تبعا للارتفاع وللموقع ولذلك اختار المهاجرون الاوروبيون المناطق المرتفعة المعتدلة المناخ تاركين المناطق المنخفضة الحارة والتى تنتشر فيهـا الامراض للافريقيين .

ويسقط المطر هنا فى فصل الصيف (الجنوبى) فى الفترة ما بين شهري نوفمبر ومارس ، بينما يسود الجفاف باقى شهور السنة ، ومتوسط المطر

---

(4) Waugh, Evelyn : Tourist in Africa (New York 1960) p. 149

(5) Livingstone, David : Missionary Travels & researches in South Africa (1857) p.p. 510-525.

(6) طول جسم السد 420 قدما وعرضه نصف ميل تقريبا ، وتبع اقامته نشأة — بحيـرة مساحتها 2.000 ميل مربع وقد ترتب عليه تهجير عدد كبير من السكان من الاماكن التى غمرتها مياه السد . والهدف الاساسى من السد امداد منطقة (الحزام النحاسى) بقوة كهربائية ضخمة تيسر عمليات الاستغلال الاقتصادي التي يحرص عليها المستعمـرون الاوربيـون

ما بين 25 ، 30 بوصة سنويا ، ويلاحظ أن أكثر شهور السنة حرارة ليست هى شهور الصيف ، لكن ترتفع درجة الحرارة بشكل ملحوظ فى فترة الجفاف التى تسبق موسم المطر ، والمطر عامل رئيسى فى تحديد الانتاج الزراعى (7) .

ومن جهة النبات الطبيعى تغطى حشائش السافانا مساحات ، واسعة من روديسيا ، كما تغطى مساحات كبيرة الغابات التى تستغل اخشابها فى صناعة الاثاث والصناعات الخشبية الهامة الاخرى بالاضافة الى استخدامها كوقود ولاغراض التعدين ، ولذا فقد قطعت كثير من الاشجار بغير نظام ودون أن يزرع بديل لها مكانها ، وساعدت الحرائق — التى كثيرا ما كانت تنشب فى الغابات ويتعذر اخمادها الا بعد أن تأتى على مساحات واسعة منها — على اهدار هذه الثروة الطبيعية ، ولذا يجد المتنقل فى بعض غابات روديسيا التحذير التالى « شجرة واحدة تعمل مليون عود ثقاب — لكن عود ثقاب واحد يمكن أن يقضى على مليون شجرة (8) » .

أما عن الانتاج الزراعى فيختلف تبعا لكمية المطر ، وأهم الغلات الزراعية : الفاكهة ، والشاي ، والبن ، والذرة ، والطباق ، والقطن ، والحبوب ، وقصب السكر .

وترعى الماشية فى المناطق التى تصلح للرعى والتى تتوفر بها المراعى الطبيعية من السافانا ومراعى الفلد الصالحة لتربية الكثير من الحيوانات ، وتعتبر روديسيا من اكبر الدول المصدرة للثروة الحيوانية ومنتجاتها ، وقد أدخل الاوروبيون أنواعا جديدة من الماشية التى اشتهرت باعطاء كميات وفيرة من الالبان ، كما ادخلوا رعى الخيل والخنازير (9) . وللزراعة والرعى مكانة هامة فى حياة الافريقيين فى روديسيا كما فى مناطق كثيرة فى القارة الافريقية — فنظرتهم للارض وللماشية تختلف اختلافا كليا عن النظرة الاستغلالية التى ينظر بها الاوروبى لها ، فالارض ملك للقبيلة منها

---

(7) Black, Colin : The Lands & People of Rhodesia & Nysaland (London 1961) p. 23.

(8) Maurette, Fernand : Geographie Universelle, Tome XII (Paris 1883) p. 263.

(9) Kuper, H. : The Shona & Ndebele of Southern Rhodesia (London 1954) p. 20.

تستمد سلطانها فى السلم أو الحرب كما أنها ترتبط بعقيدة روحية لديهم فهى المكان الذي تأوي اليه أرواح الاسلاف ٠

ولذا كان اغتصاب الاستعماريين لاراضى الافريقيين واستغلالهـــا لانتاج الغلات التجارية (كالطباق ، والشاي ، والفاكهة ، والقطن) دون مراعاة لتقاليد الافريقيين وحاجاتهم مثار غضبهم وحقدهم على الاستعماريين الـدخـــلاء (10) ٠

وشهرة روديسيا فى التعدين ليست حديثة ، ولا يرجع الفضل فيهــا ـ كما قد يتبادر للذهن للمستعمرين الاوروبيين ، فقد ذاعت القصص عن شهرة هذه البلاد (بالذهب) ، فقد قيل ان كنوز الملك سليمان التـــى اشتهر بها جاء الكثير منها من روديسيا ، وان ملكة سبأ أتت من أرض سابى التي يجرى فيها نهر سابى وقد دلت الاثار على أن (الحديد) و (النحاس) كانا معروفين منذ زمن بعيد فى هذه البلاد ، وكان السكان يصنعون منها بعض لوازم حياتهـم (11) ٠

وقد اكد الجيولوجى الالمانى كارل مـــاوخ (Carl Mauch) فى عام 1866 وجود الذهب بروديسيا ، كما يرجع اليه الفضل فى لفــت انظار العالم الى آثار زمبابـــوي (Zimbabwe) والى أهميتهـــا فى الكشف عن معالم الحضارة القديمة للشعب الافريقى الذي سكن هــذه البـــــلاد ٠

ومن المعادن الهامة الاخرى التي كشـــف عنهـــا فى روديسيـــا ـ الاسبستوس ، والكروم ، والفحم ، والحديد ، والنحاس الى جانب معادن أخرى مثل الجرافيت والميكا ، البريليوم ، والليثيوم والتصدير (12) ٠

ويتضح لنا مما سبق أن المواد الخام الزراعية والمعدنية متوفرة فى روديسيا ، هذا بالاضافة الى الايدي العاملة ، ورؤوس الاموال الاجنبية

---

(10) انظر التقادير السنوية عن الانتاج الزراعى الروديسى التي تصدرها وزارة الاقتصاد .
Ministry of Economic Affairs Salisbury : Economic Report.

(11) Certrude, Sarah : Rhodes (London 1933) p. 10

(12) Stamp ; Dudley : Africa - A Study of Tropical Development (N.Y. 1959) p. 432.

التى تدفقت على البلاد بهدف الاستغلال ، كما توفرت الطاقة المحركة لوجود الفحم بكميات كافية ولاستغلال مساقط المياه على نهر زمبيزي بعد اقامة (سد كريبا) . وكل هذا يتيح الفرص لنجاح مشروعات التصنيع بها .

وتحتل الصناعات المعدنية وخاصة صناعة الحديد والصلب مركزا هاما فى اقتصاد البلاد ، كما قامت الصناعات الغذائية ويتركز الانتاج الصناعى فى المدن الكبرى مثل سولزبرى (Salisbury) وبولاوايو Bulawayo ومن تحليلنا لجدول الصادرات والواردات ومن التقرير الاقتصادي الذي تصدره وزارة الاقتصاد الروديسية يتضح لنا ما يلى : (13)

1 ــ يعتبر الدخان ، والجلود المدبوغة ، والذرة ، والاخشاب فى مقدمة الصادرات من الانتاج النباتى والحيوانى والاسبستوس ، والكروم ، والذهب ، والنحاس من الانتاج المعدنى .

2 ــ الدول الهامة التى يجرى معها التعامل التجاري هى : دول الكومنولث ، والبرتغال ومستعمراتها السابقة (موزمبيق وانجولا) والمانيا الغربية ، وايطاليا ، والهند ، واليابان ، وفرنسا .

3 ــ منذ سنة (1958) دخلت اسرائيل فى عداد الدول المشتركة فى نطاق هذا التبادل التجاري وعقدت معها اتفاقيات اقتصادية كتلك التى عقدت مع اتحاد جنوب افريقيا بهدف معاملة هذه البلاد معاملة خاصة تتيح لها الاولوية فى مجال النشاط الاقتصادي ، وحجم التبادل التجاري مع البلدين سجل تزايدا مستمرا عاما بعد عام .

واهمية هذه الدراسة للاقتصاد الروديسى فى موضوع بحثنا هذا ترجع الى أن أنها تعطى فكرة عن أثر المقاطعة الاقتصادية على الحكومة العنصرية فى روديسيا لو طبقت هذه المقاطعة بحزم ودقة ، كما توضح الدور الذي تلعبه بعض الحكومات الاستعمارية مثل جنوب افريقيا

---

13) انظر التقرير الاقتصادى (Economic Report) الصادر عن وزارة الاقتصاد الروديسى والارقام الخاصة به لعام (1965) .

العنصرية واسرائيل فى افساد فاعلية قرارات المقاطعة التى أصدرتها الامم المتحدة ضد حكومة الاقلية العنصرية فى روديسيا التى سنتحدث عنها فيما بعد (14) .

وقبل مجيء المستعمرين الى روديسيا كان الوطنيون يستخدمون الطرق البرية فى تنقلاتهم ، ورغم وعورة هذه الطرق فقد اعتادوا عليها ، لكن المستعمرين طوروا وسائل النقل لتساير أهدافهم الاقتصادية فمهدت عدة طرق برية لتيسير نقل الخامات المعدنية لاماكن التصنيع والتصدير ، كما مدت الخطوط الحديدية لتسهيل السيطرة على الاقليم وربطه بالخطوط الحديدية التى تصل الى موانيء جنوب افريقيا ، كما ربطت المدن الهامة فى روديسيا الخطوط التلغرافية ، وقد انشيء فى كل من (بولاوايو) و (سولزبري) مطار دولى (15) .

واذا كان استنزاف ثروة البلاد من أهم الدوافع التى دفعت المستعمرين للاهتمام بتيسير وسائل النقل والمواصلات وربط هذه البلاد بالبلاد الاخرى المجاورة — فاننا لا يمكن ان نقلل من اثر وسائل النقل والاتصال المختلفة فى فتح عيون المواطنين الافريقيين فى روديسيا الى ما يدور حولهم فى البلاد الافريقية الاخرى بل وفى العالم الخارجى .

ثانيا — التطور التاريخي والحضاري لروديسيا

مر تاريخ الشعوب التى سكنت روديسيا من مراحل أهمها :

1 — فى العصور السابقة للميلاد :

كشف النقاب عن التاريخ الماضى للشعب الافريقى فى روديسيا وعن المظاهر الحضارية لهذا الشعب قبل أن ينكب بالاستعمار — يعتبر أمرا كريها لدى المستوطنين البيض بل هو مصدر رعب بالنسبة لهم لانه

---

14) انظر تقرير اللجنة الخاصة للامم المتحدة (Special Committee) عن النشاط الاقتصادى الاجنبى فى روديسيا الجنوبية والصادر فى اكتوبر 1966 .

(15) Hailey, Lord : An African Survery (London 1957) p. 1593

يرتبط فى ذهنهم بما يطالب به الافريقيون من حق الاغلبية فى الحكم ، بينما يرتبط هذا التاريخ فى ذهن الافريقى بماضيه المجيد ومقومات قوميته وحضارته وآماله فى مستقبل سعيد (16) .

وتعتمد الكثير من معلوماتنا عن تاريخ الشعوب التى عاشت فى هذه المنطقة فى الفترة السابقة للاستعمار الاوروبى على الاثار التى عثر عليها وعلى الروايات التى يرويها السكان عن اسلافهم وعلى الاساطير التى تشير لمعتقداتهم بالاضافة الى كتابات الرحالة .

ولعل اول دليل على حضارة وحياة السكان الاوائل لهذه البلاد يتمثل فى الرسوم الجميلة الملونة التى عثر عليها على جدران أكثر من (1500) كهف فى روديسيا ، وهى تدل على مرحلة حضارية متقدمة وعلى فن افريقى أصيل ، فمن دراسة هذه المناظر نستطيع أن نكون فكرة عن حياة هؤلاء السكان ، ونظامهم الاجتماعى ، وتقاليدهم ، وحيواناتهم (17) . وقد لجأ الفنان الروديسى الى صقل الاحجار وفى بعض الأحيان تغطيتها بعجينة ملساء تسهل الرسم عليها ، ويبدو أن الادوات التى استخدمت فى الرسم هى ريش الطيور وقطع الاخشاب المدببة ، أما المواد التى استخدمت فى التلوين فلعلها أخذت من جذور بعض النباتات بالاضافة الى مساحيق صنعت من طحن بعض الصخور ومن التربة ذاتها التى تحتوي على بعض المعادن . « وقد ظهر فى رسومهم اللون الرمادي ، والاصفر ، والاحمر ، والابيض ، واللون الاسود ، الذي ربما حصلوا عليه من الفحم النباتى بينما كان اللون الازرق نادر الاستخدام ، ولم يظهر أثر للون الاخضر فقد كانت الاشجار تلون بلون ذهبى باهت ، وقد بدت فى بعض الاشكال محاولات للتعبير عن الحركة ، بل لقد تغلب الفنان الروديسى على بعض العقبات التى واجهت الفنان الاوربى فيما بعد كرسم المنظور

---

(16) Mtshali, Vulindela : Rhodesia ; Background to Conflict (London 1968) p.p. 16-19.

— ملاحظة : مؤلف هذا الكتاب من قبائل (الزولو) فى جنوب أفريقيا ، وقد تخصص فى دراسة الحركات القومية فى جنوب أفريقيا ، وحصل على درجة الماجستير فى العلوم الاجتماعية من معهد الدراسات الاجتماعية فى نيويورك (Institute of Social Studies) ويعد رسالة للحصول على الدكتوراه فى العلوم السياسية .

(17) Brelsford, Op. Cit. p. 33

ومراعاة المسافة (18) . ويرجح بعض المؤرخين أن هذه الاثار الفنية ترجع الى (البوشمن) ، ويذهب هؤلاء الى أنهم كانوا منتشرين ب هضبة روديسيا منذ وقت بعيد قد يصل الى القرن الخامس فبل الميلاد ، لكنهم تحت ضغط موجات أخرى اجتاحت المنطقة اضطروا للهجرة ولم يبق من نسلهم الا بقايا البوشمن الذين يوجدون اليوم فى صحراء كلهاري وقد تأقلموا على مضي الزمن بالبيئة الجديدة .

ويذهب البعض الاخر من المؤرخين الى أن السكان الذين تركوا آثارهم فى هذه الكهوف لم يتركوا البلاد نهائيا بل اندمجوا فى هجرات اخرى من اجناس جديدة وفدت على المنطقة (19) .

ولا شك فى أن هذه اللوح الفنية التى تركها سكان روديسيا الاوائل على كهوفهم تحتاج لدراسة أكثر عمقا ، فمثل هذه الدراسة يمكن أن تعطى صورة اوضح عن خصائص البيئة التى كانوا يعيشون فيها وعن مظاهر حياتهم المختلفة .

وهناك سؤال يلح على المشاهد لهذه الاثار الفنية وهو : ما الدافع الذي دفع الروديسى لان يسجل هذه المناظر على الاحجار وبهذه الكثرة الغريبة ؟

هل ترتبط هذه الرسوم بالنظام (التوتى) أو ببعض معتقداتهم ، أم أن الفنان الروديسى كان فى هذه الرسوم فنانا أصيلا يعبر عن انفعالاته أكثر من أي شىء آخر أو يرسم للفن ذاته (L'art pour l'art)

2 — فى العصور الميلادية الاولى :

منذ طلائع القرن الاول الميلادي وفد على روديسيا قوم جدد اخذوا يشاركون (البوشمن) فى هذه المنطقة ، ويبدو أن دخولهم فى هذه البلاد كان فى موجات وتم بطريقة سليمة ، ويدل عليهم التغير الواضح فى

(18) Ransford, Oliver : The Rulers of Rhodesia from Earliest Times to the Referendum (London 1968), p.p. 14 & 15.

(19) Ransford, Oliver : Op. Cit. p. 748.

النقوش والرسوم التى وجدت على الكهوف ، ويبدو أن هؤلاء الوافدين الجدد كانوا يعيشون فى أكواخ وانهم كانوا على دراية باستغلال المعادن فصنعوا منها الكثير من أدواتهم ، وأنهم كانوا يمتازون عن السكان السابقين بطول القامة وميل البشرة الى السمرة وان كانت لا تبدو فيهم الصفات الزنجية ، وقد ربط بعض المؤرخين بين هؤلاء القادمين الجدد وبين (الهوتنتوت) وذكروا أنهم يمثلون هجرة جديدة من مناطق البحيرات الوسطى فى افريقيا الى روديسيا ، بينما راى آخرون أن التغير الذي طرا على المنطقة لا يعدو ان يكون مرحلة حضارية متقدمة من المراحل التى مر بها (البوشمن) انفسهم وانهم كانوا من المرونة بحيث استطاعت جماعة منهم أن تنتقل من العصر الحجري الى عصر المعادن ومن الجمع والصيد والتنقل المستمر الى الرعى والاستقرار النسبى — ويعتبر هذا بداية شهرة هذه البلاد بالذهب ، والعاج . وشجع هذا العرب والهنود والصينيين للقدوم للساحل الشرقى لافريقيا فى انتظار مبادلة بضائعهم بالذهب والعاج الروسى .

3 — هجرات البانتو لهذه البلاد :

منذ القرن التاسع الميلادي — نلمس بوضوح أن النقوش الفنية للروديسيين الاوائل تبدأ تفقد طابعها الاصيل ، ويظهر فيها عامل السرعة والعجلة ، ويستطيع المدقق ان يحكم بيسر على انها تمثل فترة قلق واضطراب ، ولعل هذا يرجع الى تعرض المنطقة لغارات الزنوج (البانتو) الذين زحفت جحافلهم على المنطقة فأفقدتها هدوءها .

وادت هذه الغزوات الى انقراض معظم سكان هذه البلاد اللهم الا القلة التى استطاعت أن تهرب للمناطق الوعرة ، وقد اصطدمت هذه القلة فيما بعد بالمستعمرين الاوروبيين . والعجيب ان الاوربيين الذين حرصوا على سن القوانين التى تكفل الحفاظ على بعض الحيوانات التى أدركوا انها على وشك الانقراض لم يهتموا بالحفاظ على أحفاد هذا الشعب العريق .

4 ـ امبراطوريـــة المونوماتـــابـــا : (Monomatapa)

كان تدفق البانتو على هذه البلاد على شكل موجات بدأت صغيرة لكن بالتدريج زادت كثافتها وتعتبر هذه الهجرات من ابرز الهجرات المعروفة فى التاريخ وكان تأثيرها على التكوين السكانى والحضاري على جنـــوب القارة الافريقية كله عميقا وقويـــا .

وفيما يختص بروديسيا فقد استطاعت احدى هذه القبائل المهاجرة المعروفة بقبائل الكارنجا (Karanga) ان تبسط نفوذها علـــى منطقة الميتابلى (Metabele Land) ، ثم بسطت نفوذها على منطقة الماشونا (Mashona) فى الشمال والشرق ، واستطاع زعماء الكارنجا ان يفرضوا سلطانهم على القبائل المنتشرة شمالا حتى قرب نهر الزمبيزي واستمروا يتوارثون حكم هذه المناطق عدة قـــرون .

ومنذ منتصف القرن الخامس عشر شنوا سلسلة من الحروب ترتب عليها مد سلطانهم أيضا حتى ساحل المحيط الهندي وبهذا اصبحوا يحكمون المنطقة التى تشمل معظم روديسيا الحالية وجزءا كبيرا من جنـــــوب (موزمبيق) ، وأصبحت حدود امبراطوريتهم من نهر الزمبيزي شمالا الـــى نهر (لمبوبو) جنوبا ، ومن المحيط الهندي شرقا الى نهر جواي (Gwai R.) غربا وتعاقب على حكم هذه البلاد عدد كبير من الحكام ونقلوا عاصمتهم الى سفوح تلال تشيتاكو (Ciako)

واختير تل مرتفع منها كمدفن للزعماء المتوفين واصبح يطلق عليه لفـــظ (Zimbabwe) وهى تعنى بلغتهم مدافن الزعماء (20) .

ووصلت امبراطورية المونوماتابا الى قمة مجدها فى القرن الخامس عشر ونهضت فيها الصناعة حتى انه قيل ان بضعة الالاف من الهنود كانوا يساهمون فى استغلال مناجم الذهب بها وان ما يقرب من 10،000 تاجر عربى مسلم كانوا يستقرون بها ليمارسوا عملية التبادل التجاري وليكونوا حلقة الاتصال بين اخوانهم فى الجزيرة العربية وبين سكان هذه

---

(20) اطلق اسم (زمبابوى) على اكثر من مدينة حيث كانت تنقل العاصمة ومدفن الزعماء ، ولكن يطلق الاسم اليوم فقط على العاصمة القديمة بالقرب من حصن فكتوريا

البلاد الافريقية . وقد أعطى لنا الرحالة البرتغاليون ـ الذين أخذوا يترددون على هذه الامبراطورية منذ القرن السادس عشر ـ صورة عما وصلت اليه من العظمة والتقدم ، فوصفوا لنا القصر الامبراطوري في زمبابوي وما به من تحف وسجاجيد وأواني خزفية ونحاسية والحصون الحجرية المنتشرة في أنحاء الامبراطورية حيث كان الامبراطور يحتفظ بحامياته لحماية المناجم والطرق التجارية المؤدية للساحل ، كما ذكروا ان المراعى كانت في هذه الامبراطورية عامرة بالحيوانات ، والمزارع مملوءة بالحبوب والفواكه ، وكان يصاد منها سنويا ما لا يقل عن 50.000 فيلا ، وان جيش الامبراطورية كان يصل في وقت الحرب الى 100،000 مقاتل مسلحين بالسيوف والاقواس والسهام وذكروا أن جزءا من دخل الامبراطورية كان مخصصا للعناية بالفقراء والمعوزين (21) .

وقد ظلت هذه الامبراطورية قائمة لكن عوامل الضعف زحفت عليها حتى أصبحت تحت رحمة المستعمرين الاوروبيين بالاضافة لغارات القبائل الافريقية الاخرى الطامعة في ثروة هذه الامبراطورية الغنية .

5 ـ محاولات البرتغاليين مد نفوذهم لهذه البلاد :

افتتح البرتغاليون ـ كما نعلم ـ صفحة الاستعمار الاوروبى الحديث في القارة الافريقية بنزولهم في ساحل المغرب واحتلالهم سبتة Ceuta في عام 1415 وتتابعت رحلاتهم بعد ذلك حتى قام فاسكودا جاما Vasco Da Gama في عام 1497 برحلته الشهيرة التى عبر فيها رأس الرجاء الصالح الى الساحل الشرقى للقارة ، ومن ثم تتابعت رحلات البرتغال للساحل الشرقى بقصد تثبيت أقدامهم في هذه السواحل

---

(21) كان اول اوربى دخل هذه البلاد وكتب انطباعاته عنها هو انطونيو فيرناندز البرتغالى، فقد اوفدته حكومة البرتغال في عام 1511 لزيارة امبراطورية المونوماتابا وبحث امكانيات التبادل التجارى بينها وبين البرتغال .

انظر : Tracey H. : Antonio Fernandes (Lourenco Marques 1940)

وكذلك قام ادوارت بربروسا بعد رحلة فاسكو دا جاما الشهيرة برحلته الى الامارات العربية بساحل افريقيا الشرقى وتوغل بعض الشىء في الداخل وتحدث عن امبراطورية المونوماتابا وما شاهده فيها وما سمعه عنها .

ـ انظر :
Keatley, Patrik : The Politics of partnership (London 1965) p.p. 57-59.

الافريقية ومحاولة القضاء على نفوذ العرب الذين كانت لهم السيـــادة التامة على طريق التجارة ويعملون كوسطاء فى نقل منتجات الهند والشرق الاوسط الى افريقيا ، واستولى البرتغاليون على الموانىء والامـــارات العربية بشرق افريقيا ، وفى سنة 1509 عينوا حاكما عاما لمستعمراتهم فى شرق افريقيا ، ومن ثم اخذت انظارهم تتجه الى امبراطورية المونوماتابا التى ذاعت شهرتها واخبار ثرائها (22) .

وقد مهدت رحلة (انطونيوفرناندز) التى اشرنا اليها سابقا الطريق امام البرتغال لهذه المملكة الافريقية فبدأ نشاطهم التجاري والتبشيري فى هذه المنطقة ، وممن وفد اليها من المبشرين البرتغال القس دي سلفيـــرا [Don Concala Da Silviera] الذي وصل اليها فى عام (1560) وقابل الامبراطور الذي سمح له بالتبشير فى بلاده ، لكن بعض المقربين للامبراطور اقنعوه بأنه ساحر وجاسوس يمهد الطريق لحملة غزو برتغالية ضـــده وانتهى الامـــر بقتله ، واثار مقتل (دي سلفيرا) ضجة فى البرتغـــال وانتهز الملك (سيباستيان) الفرصة فأعد حملة لغزو هذه البـــلاد واقلعت الحملة من لشبونة فى عام 1569 وكان من ضمن المرافقين للحملة شخصان هما مونكلارو Monclaro ودي فاريـــا (De Faria) نخصهما بالذكر لانهما قاما بتسجيل (يوميات) دقيقة عن احداث هـــذه الحملة وهى تعطينا فكرة عن احوال هذه البلاد فى ذلك الوقـــت (23) .

وقد اقترف المستعمرون أعمالا وحشية ضد المواطنين والمسلمين فـــى المناطق التى مرت بها حملتهم ، واستطاعوا اخيرا أن يجبروا الامبراطور على التوقيع على معاهدة ترك لهم بموجبها العمل لاستغلال مناجم الذهب فى بلاده على أن يتكلفوا بحماية عرشه ــ لكن البرتغاليين الذين كانوا يظنون

---

(22) للدراسة التفصيلية لنشاط العرب فى السواحل الشرقية للقارة الافريقية وفى المناطق الواقعة خلف هذه السواحل فى ذلك الوقت انظر : شوقى جمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها (1970) ص 35 ــ 47

(23) قام تيـــل Teal بترجمة مقتطفات من هذه المذكرات ونشرها فى Records of South Easte
وقد تحدث ايضا بالتفصيل عن اخبار هذه الحملة البرتغالية .
Africa Welch, S.R. : South Africa under King Sbastian (Cape Town 1949).

ـ كما قال احد الكتاب المرافقين للحملة ـ انهم سيغرفون من الذهب بايديهم كما يشاؤون من مناجم منطقة مانيكا (Manica) اصيبوا بخيبة امل (24) .

ويمثل منتصف القرن السابع عشر قمة النفوذ البرتغالى فى بلاد (المونوماتابا) ، ومنذ النصف الثانى من هذا القرن بدأ النفوذ البرتغالى يضعف حتى انتهى الامر بانسحاب البرتغال من هذا الميدان تاركين اياه لغيرهم من الدول الاستعمارية الاخرى . ولعل وصول فان ريبيك (Van Reibeek) الذي ارسلته شركة الهند الشرقية الهولندية على راس بعثة من ثلاث سفن الى نقطة خليج تيبل Teble Bay فى ابريل 1952 ووضعه نواة محطة لتموين السفن حيث تقوم مدينة كيبتون Cape Town الحالية تعتبر النقطة الحاسمة فى هذا التحول ، فقد بدات اعداد من الهولنديين تتدفق على هذه البلاد وتستقر فى المناطق الصالحة للزراعة والاستغلال فكان هذا بداية لنفوذ البوير ونشاطهم فى جنوب افريقيا .

6 ـ مملكة الميتابلى (Matabele)

تعرضت امبراطورية (المونوماتابا) لغارات قبائل افريقية أخرى هى قبائل الروزوى Rozwi المحاربة ، واستطاعت هذه القبائل فى أواخر القرن السابع عشر أن تسقط هذه الامبراطورية وأن تفرض سلطانها على هذه البلاد ، واتخذ زعماء هذه القبائل الغازية من مدينة زمبابوي العظيمة (Great Zimbabwe) (25) مقرا لحكمهم .

---

24) من اقوال دى فاريا De Feria مؤرخ الحملة البرتغالية .

25) ترتبط المدينة فى ذهن الروديسيين الوطنين بمجدهم التالد وتاريخهم القومى ، فهى ترمز الى ماضيهم المجيد وبالتالى للمستقبل المرتقب ، ولعل هذا هو السبب فى أنه حتى الاحزاب الوطنية الحديثة حرصت على ان تنسب لهذا الاسم العريق ، فقام اتحاد شعوب زمبابوى الافريقى (Zimbabwe Peoples Union) ويرمز له بالحروف الاولى زابو ZAPU واتحاد زمبابوى الافريقى القومى (Zanu Zimbabwe African nationalist Union) وقد كشف صياد يدعى آدم ريندرز (Adam Renders) صدفة فى عام 1869 عن بعض اثار زمبابوى فى المنطقة الواقعة على بعد 17 ميلا جنوب شرقى حصن فكتوريا ، اذ عثر على (برج) مقام على احد التلال وارتفاعه يبلغ 24 قدما ، كما عثر على مراى

على أن مجموعة من قبائل الزولو Zulu التى اشتهـرت بالمهارة فى فنون الحرب والقتال بقيادة مزيلكـازي Mzilikazi لم تلبث أن زحفت على هذه البلاد واستقرت بها . ويقال أن زحف هـذه القبائل كان تحت ضغط قوات البوير الذين كانوا قد زحفوا من مستعمرة الكيب بعد أن ضيق عليهم الانجليز الخناق . واستقر مزيلكازي واتباعه فى عام (1837) بالقرب من مدينة بولا وايو Bulawayo ولـم يجدوا مقاومة تذكر فى بسط نفوذهم على هذه المنطقة التى تشمل معظم حدود روديسيا الجنوبية حاليا ، وقد أطلقت عليهم القبائل المعادية لفـظ المتابلى Matabele لكنه أصبح بعد ذلك علما عليهم (26) .

وكان مزيلكازي الذي حكم هذه البلاد حتى عام (1866) حريصا فى البداية على الا تطأ قدم أوروبى بلاده ، لكن استطاع فريق من المبشرين ومن المغامرين الاوروبيين أن يحطم هذا السياج الذي أحاط الملك بـه بـــلاده .

من هذا المكان فى الوادي المنخفض على بقايا منازل تدل علىقيام مدينة قديمة وصفها ريدر هجرد Rider HAggard) فى قصته الشهيرة كنوز الملك سليمان (King Solomons Mines وعثر فى ارض منبسطة ليس بعيدا عن هذه الآثار على مبنى بيضى الشكل من حجـر الجرانيت له حوائط سميكة ، وقباب مخروطة الشكل وقد نحتت له ممرات وسلالـم وجزء من البناء مسقوف بينما باقى البناء عبارة عن فناء واسع، كما عثر على أوانىيعتقدانها كانت معدة لصهر الذهب ، وقد نقلت بعض الآثار والاحجار التى عثر عليها الى متاحف الغرب وبعضها حفظت فى متحف بولا وايو ، وكثرت التكهنات حول هذه الاثار ، فقد ذهب البعض الى انها ترجع الى شعوب غريبة وفدت على هذه المنطقة بينما يشير البعض الآخر الى انها قد تكون لشعوب افريقية لكنها تاثرت بحضارات اخرى وفدت من مصر أو من بابل او من شبه الجزيرة العربية . على كل لا تزال المنطقة تحتـاج لدراسات اخرى ولعمل حفريات فى هذه المناطق الاثرية .

انظر : Hensman Howard : A history of Rhodesla complied from official sources (Edinbur 1900) P. 9

كذلك Mitshall, Vulindela : Rhodesla Background to conflict (London 1968) PP. 19 & 20.

كذلك Waugh, Evely : Tourist in Africa (N.Y. 1960) P. 149.

(26 لفظ Matabele يعنى المتخفين وراء تروسهم الطويلة ، وبعض الكتاب ذكر انه تحريف لاسمهم القبلى Amandabele

انظـــر :

Frank ; Thomas : The Struggle for Power In Rhodesia & Nyasaland London ; 1960) P. 10.

وكان المبشر د. روبرت موفات Dr. Robert Moffat فى مقدمة الذين استطاعوا ان يتقربوا للملك وأن ينالوا ثقته ، وكان ممن فتحوا الطريق أمام الاطماع الاوروبية فى هذه البلاد ، كذلك كان هنري هرتلى Henry Hartley ممن سمح لهم الملك بصيد الفيلة وقد كان أول من اكتشف وجود الذهب فى صخور المنطقة التى يصطاد فيها وأكدت أبحاث الجيولوجى كارل ماوخ Karl Mauch بعد ذلك هذه الحقيقة .

واستطاع المستكشف الجغرافى الدكتور دافيد ليفنجستون Dr. David Levingston زوج ابنة الدكتور روبرت موفات أن يزور هذه البلاد معتمدا على المكانة التى كانت لصهره لدى الملك الافريقى . ونجح (لفنجستون) فى عام 1851 فى تتبع نهر زمبيزي لمصبه مكتشفا ما أسماه اللورد كرزون Lord Curson أكبر عجائب الانهار فى العالم ، ولما اكتشف المساقط المائية التى تعترض مجرى النهر سماها (شلالات فكتوريا) على اسم ملكة انجلترا فى ذلك الوقت ، وقد انتهت حياة لفنجستون بموته فى شمال غرب روديسيا قرب قرية تشيتامبو Chitambo وكانت رحلاته بداية تدفق البعثات التبشيرية على هذه البلاد (27) .

وظهر خطر هذه البعثات التبشيرية والمغامرين الاوروبيين الذين وفدوا على البلاد يطلبون التصريح لهم بالبحث عن الذهب وغيره من المعادن واستخراجها فى عهد ابن مزلكازي الذي استتب له الامر فى مملكة والده فى عام 1870 ولقب باسم لوبنجيولا Lubengula ، وقد اتخذ هذا الملك الشاب صديق والده المبشر الدكتور روبرت موفات مستشارا له وعن طريقه وقع الملك عدة معاهدات تجارية ومنح عدة تصريحات للبحث عن المعادن لاجانب مختلفى الجنسية ، ولعل من سوء حظ لوبنجيولا أن الامر لم يقتصر على أطماع فردية لكن كان عليه أن يواجه الاطماع السياسية المتضاربة لثلاثة من دهاة السياسة فى ذلك الوقت هم بسمارك Bismark

---

(27) Hansford, Oliver : The Rulers of Rhodesia from Earliest times to the Referendum (London 1968) P. 116.

ملاحظة : نشرت مذكرات لفنجستون عن رحلاته فى هذه الجهات :

(a) Livingstone, David : Narrative of en expedition, Zambese & its tributaries (1865).

(b) Livingstone, David : Missionary Travels & researches in South Africa (London 1867).

الزعيم الالمانى ، وكروجر Kruger زعيم البوير ، وررودس Rhodes الاستعماري البريطانى . وكانت المأساة التى انهت حياة الرجل بمثابة كارثة أصابت شعبا بأسره ، ولذا ارتبطت صورة الملك لوبنجيولا فى اذهان شعبه بصورة أبطال القصص الشعبى من أمثال أوديب Odepius واخيل Achilles مع فارق أن بطل الميتابلى ليس خرافيا لكنه بطل حقيقى ويوجد حتى اليوم الالاف الشيوخ الروديسيين الذين سمعوا فى طفولتهم قصصا بطولية عن ملكهم الراحل والطريقة التى رحل بها من هذا العالم الملىء بالغدر لانه لم يتحمل مشاهدة مآسى شعبه على أيدي الاوربيين الذين خانوا عهدهم للملك ، وذلك من افواه اناس شاهدوا هذه الاحداث شهود العيان (28) .

7 ـ بسط النفوذ البريطانى على روديسيا :

يرجع نفوذ بريطانيا فى البلاد الى سيسل جون رودس Cecil John Rhodes . وقصة مجىء رودس الى هذه البلاد وهو فى سن السادسة عشرة للاستشفاء وانضمامه لجماعة المغامرين الساعين للثراء عن طريق العمل فى حقل التعدين والذي ذكر هو أنهم يعانون من حمى الاحجار الكريمة Diamond Fever تشبه القصص المسرحية ـ ويعتبر رودس فى الحقيقة مثلا قويا للنزعة الاستعمارية التى يتميز بها العصر الفكتوري فى انجلترا . فقد ظل الى آخر حياته لا يمل من ترديد قوله المأثور وهو يشير بيده لخريطة افريقيا « أريد أن أرى كل هذه ملونة باللون الاحمر .

"All Red-Frome Cape to Cairo"

وتتبعنا للمراحل التى مرت بها علاقة انجلترا بروديسيا توضع الجذور التى منها نشأت قضية روديسيا .

مرت علاقة انجلترا بروديسيا فى أربع مراحل هامة نجملها فيما يلى :

(28) Keatly, Patrich : Op. Cit P. 73

ا ــ فترة ادارة شركة جنوب افريقيا البريطانية (1890 ــ 1923) :

تبدأ هذه الفترة بنجاح رودس فى بسط نفوذه على مملكة الميتابلى ، وبقضائه على نفوذ الملك لوبنجيولا الذي اضطر للهرب من البلاد .

وقد بدأ اهتمام رودس بمملكة الميتابلى باقناعه حاكم مستعمرة الراس ليرسل جون موفات John Moffat وهون ابن المبشر روبرت موفات Robert Moffat وكان مقربا للملك الافريقى ــ ليعقد معه معاهدة صداقة تمهد لنفوذ بريطانيا فى هذه البلاد وتضع حدا لنفوذ البوير وغيرهم من الذين بدأت أنظارهم تتجه لهذه المناطق .

ونجح موفات فى مهمته فعقد معاهدة عرفت باسمه (Moffat Treaty) اقر فيها الملك بروابط الصداقة التى تربط بين شعبه والشعب البريطانى ، وتعهد بالا يعقد اية معاهدة تمنح اي فرد أو دولة اجنبية اخرى اية حقوق فى بلاده دون اخطار سابق لممثل جلالة ملكة بريطانيا فى جنـــــوب افريقيـــــا (29) .

على أن رودس وقد نجح فى تحقيق الخطوة الاولى نحو هدفه ــ وهو بسط نفوذ بلاده على المنطقة التى يحكمها لوبنجيولا ــ أسرع باتخاذ الخطوة التالية فبعث فى عام 1888 الى بولاوايو بعثة على راسها شارل دنيل رود (Charles Dunnel Rudd) لمحاولة الحصول على توقيع الملك على امتيـــاز يكفل لشركة يكونها رود ورفاقه حق استخراج واستغلال المعادن الموجودة فى حدود مملكته مع سلطة كاملة لعمل كل ما يلزم للحصول على هذه المعادن على الا يمنح الملك اتفاقات مماثلة لمنافســين آخرين . وقد نجـــح رود بوسائله المختلفة وعن طريق الهدايا للملك وللمقربين اليه من الحصـــول على توقيع الملك على ما عرف بامتياز رود Rudd Concession (30)

واتجهت جهود رودس بعد ذلك الى لندن فأرسل لوزارة المستعمرات البريطانية مطالبا بسرعة منحه التصريح بتأسيس شركة لاستغلال المناطق

---

(29) Samkange, Stanlake : Origins of Rhodesia (London 1968)

(30) للاطلاع على نصوص الاتفاقية المذكورة انظر : Ibid, PP. 78 &79.

ــ كذلك نشرت نصوص الاتفاقية مع تعليقات عليها فى جريدة التيمس فى الكيب فى عدد 24 نوفمبر 1888 (the cape times)

التى تمنحه الاتفاقية حق البحث عن المعادن فيها — وسافر رودس الى لندن فى ابريل 1889 وبذل جهودا جبارة لدى أعضاء مجلس العموم والصحافة البريطانية ولاسكات أصوات المعارضين لمشروعاته من الجماعات الانسانية Humanitarians وأعضاء الغرفة التجارية البريطانية والصحفيين واقطاب المال والسياسة وغيرهم ، مستخدما كل الاسلحة المكنة من سلاح الرشوة الى سلاح الترغيب أو التهديد ، وقد فضح أمرهذه الرشاوي وكان ذلك مثار ضجة فى البرلمان وخارجه باعتباره أسلوبا خطيرا للعمل فى المجلس النيابى ، وكان رودس يردد أنه يستطيع أن يكسب اي رجل الى صفه وأن لكل رجل عنده ثمنه (31) .

وكان الملك لوبنجيولا قد أخذ يرتاب فى النتائج المترتبة على الاتفاقية التى وقع عليها لانصار رودس فأرسل بعثة الى الملكة فكتوريا يستفسر عن أهداف البعثة البريطانية التى جاءت لبلاده وعن نتائج الاتفاقية التى منحها لاعضاء هذه البعثة . وكان رد ملكة انجلترا على رسالة الملك « انها تخبره أن البريطانيين الذين جاءوا لبلاده لطلب امتيازات خاصة بالتعدين لم يكلفوا من الملكة بهذا الامر ، وذكرت له الملكة أن الحكمة تقتضى ألا تمنح كل هذه الحقوق والسلطات لاي فرد أو مجموعة أفراد غرباء فالملك قد يهب ثورا من قطيعه لكنه لا يهب كل القطيع الذي يملكه » (32) .

وأرسل رودس أحد رفاقه المدعو الدكتور جمسون Dr. Jameson ليسافر فورا الى (بولاوايو) ليكون بجوار الملك وليهدىء من روعه ، واستطاع الدكتور جيمسون فعلا أن يتقرب للملك عن طريق تخفيف آلامه التى كان يشكو منها باستخدام (المورفين) .

---

31) انظر :
Robinson, R. & Gallagher, J. : Africa & The Victorians (London 1961) P. 228
— وكذلك Cross, Felix : Op. Cit. P. 165.
ملاحظة : كانت مجالس ادارة الشركات الاستعمارية فى ذلك الرقت تعتبر المجال لمن يستطيع أن يؤدى للشركة خدمة عن طريق نفوذ انصاره فى البرلمان أو ما شابه ذلك .
32) للاطلاع على نص خطاب الملك أنظر
Gertrud, Sarrah : Rhodes (London 1933) P. 110.
ورد الملكة وارد فى :
Gross, Felix : Rhodes of Africa (London 1956) P. 168.

وفى 3 أبريل 1889 وافق البرلمان البريطانى على المرسوم المطلوب بتاسيس شركة جنوب افريقيا البريطانية

The British South Africa Company

واعطى المرسوم الشركة حقوقا وامتيازات عجيبة ــ منها حق تكوين قــوة بوليسية مسلحة ، ومد الخطوط الحديدية ، والتلغرافية وتشجيع هجرة الاوربيين لمناطق نفوذ الشركة (33) . ولسنا ندري ما هو الحق الذي يخول للحكومة البريطانية أن تعطى للشركة كل هذه الامتيازات فى أراضى مملكة اخــــــرى ؟

واستنادا على هذا المرسوم أعد رودس قوة لغزو بلاد الماشونــا والميتابلى بحجة اقامة المحطات والنقط الحصينة لحماية عمال وموظفــى ومهمات الشركة ، وتقدمت الحملة شمالا واسست عدة حصون دفاعيــة مثل حصن فكتوريا Victoria Fort وحصن سولزبري Salisbury Fort وذهبت احتجاجات الملك (لوبنجيولا) وصرخاته هباء .

ولما وجد رودس ــ الذي اصبح فى عام 1890 ــ رئيسا لوزارة مستعمرة الراس ــ الوقت مناسبا لتحقيق أطماعه أمر فى اكتوبر 1893 الحملة التى كانت قد أعدت لغزو بلاد الميتابلى بالتحرك ، فبدأت مدافعه تطبق على مدينة بولاوايو وتحصد الافريقيين ــ ولم يجد الملك أمامه الا أن يحرق مساكنه ومخازنه ويفر مع بعض حرسه ، واختفى الملك نهائيا فــى الغابات والاحراش وهكذا زالت امبراطورية الميتابلى (34) .

ولم يكتف رودس بالاستيلاء على أغلب اراضى الميتابلى لكنه أيضا نهب ماشيتهم وكانت حجته فى ذلك « أن غير المتحضرين يجب أن يتركوا المجال للمدينة والحضارة ، وأن الحرب لم يكن منها مفر لضمان استقرار واطمئنان المستوطنين الاوربيــــين » (35) .

وهكذا باسم المدنية والحضارة ــ سلب رودس سكان البلاد الافريقيين حقهم فى أراضيهم وماشيتهم وكــم من جريمة اقترفت باسم المدنيــــة والحضــــارة .

---

33) للاطلاع على نص المرسوم الصادر للشركة انظر :

Hertslet, E. : The Map of Africa by Treaty : Vol I (London 1909) P. 271.

(34) Black, Colin : The Lord & Peoples of Rhodesia & Nyasaland (1961) P. 11

(35) Lockhart & Woodhouse : Op. Cit. P. 265.

وكان الاسم الرسمي للمناطق الممتدة من الترنسفال الى الطـرف الجنوبى لبحيرة تنجانيقا والمتداول فى أوراق الشركة البريطانية هو زامبيزيا لكن منذ عام 1895 غير الاسم فأطلق على هذه الجهات اسم (روديسيا) على اسم الرجل الذي ربط هذه البلاد بعجلة الامبراطورية البريطانية .

واتجهت أنظار رودس بعد ذلك الى جمهوريتى البوير فى الترنسفال والاورنج . ولتحقيق هدفه هذا دبرت المؤامرة المعروفة غارة جيمسون Jameson Raid ولكنها فشلت لكن تجددت الحروب بين البوير والانجليز وانتهت بتوقيع معاهدة بريتوريا فى 31 مايو 1902 وبموجبها فقدت جمهوريتا البوير استقلالهما وقام اتحاد جنوب افريقيا من (الكيب ، وناتال والترنسفال ، والاورانج) (36) .

على ان قبائل الميتابلى والماشونا لم تستسلم للامر الواقع فقد ثارت هذه القبائل واعتصمت بالجبال وشنت على المستعمرين حرب العصابات واستخدمت القوات التى أرسلتها حكومة جنوب افريقيا منتهى الشدة ضد الاهالى الثائرين فى وجه مستعمريهم ، فقد كانت تعليمات رودس تقضـى باطلاق الرصاص فورا ودون رحمة على كل افريقى يشتبه فى انضمامه للثوار « لان الافريقيين ـ كما قال ـ كالكلاب يجب أن يطلق عليها الرصاص اذا خرجت عن المألوف واصبحت خطـرة » (37) .

لكن هذه الكلاب الافريقية علمت رودس درسا قاسيا وألزمتـه أن ينزل عن كبريائه وغطرسته وأن يسعى للصلح وانتهى الامر باتفاق عقد فى 13 أكتوبر 1896 بعد أن كان الحصار الطويل والجوع قـد اضنـى الثائريـن .

على أن جهود رودس اتجهت منذ اللحظة الاولى الى استغلال موارد البلاد ، فأقامت الشركة (حكومة) من المستوطنين للادارة المستعمرة حسب تعليمات مجلس ادارة الشركة . وكانت مدة الامتياز الممنوح للشركـة

---

36) للدراسة التفصيلية لحروب البوير انظر
Pemberton, Baring : Battles of the Boer War (London 1964)
ـ كذلـك Marais : The Fall of Kruger's Republic (Oxford 1961).
(37) Lockhard & Woodhouse : Op. Cit P. 352.

خمسة وعشرين عاما تنتهى فى عام 1914 لكن بعد أن انتهت مدة الترخيص المذكور مدت الحكومة البريطانية مدة الترخيص المذكور عشر سنـــــوات اخرى . وهكذا استمرت مدة ادارة الشركة لهذه البلاد قرابة خمسة وثلاثين عاما استطاعت الشركة خلالها ان تثبت اقدام المستوطنين البيض الذين اطلق عليهم اسم (الرواد الاول) على كل مرافق البلاد ، وكرس رودس المدة الباقية من حياته (توفى عام 1902) لتحقيق حلمه هذا فقد مـــدت الخطوط التلغرافية الحديدية لربط مناطق الاستغلال الهامة بهذه البلاد ، فقد كان رودس يردد دائما التعبير الذي أصبح مشهورا به وهو : « ان الخطوط الحديدية هى العربة التى ستحمل نفوذ بريطانيـــا عبـــر القـــارة الافريقيــــــــة » .

وبتدفق المستوطنين البيض على أرض روديسيا بدات عمليات النهب والاغتصاب للاراضى وممتلكات وحقوق الوطنيين (38) .

ويقول اللورد هيلى Hailey ان السلطات الحاكمة فـــى روديسيا قد بسطت سلطانها على الارض وامتلكتها بوسائل متعددة ، بقوة السلاح أحيانا ، وعن طريق عقد اتفاقات مع رؤساء القبائل أحيانا أخرى ، أو عن طريق الاستيلاء على الارض بحكم النصوص واللوائح وتفسيرها من وجهة النظر الاوربية دون النظـــر لحقوق الافريقيين أو لاهميـــة الارض بالنسبة للقبيلة والفـــــرد (39) .

واقامت الشركة (مجلسا تشريعيا) من 18 عضوا من المستوطنين البريطانيين تعرض عليه القوانين لمناقشتها .

ب ــ فتـــرة الحكم الذاتـــى (923 1ــ 1952) :

شكلت الحكومة البريطانية لجنة برياسة اللورد بكستون (Boxton Commission) لاجراء استفتاء فى روديسيا لاختيار احد أمرين :

---

(38) انظر احصاءات توزيع الاراضى ، ونصيب كل من الوطنيين الاوربيين والتاج من أراضى روديسيـــا فـــى :

Brelsford, WV. : Hand Book of the federation of Rhodesia & Nyasaland (1960) P. 783.

(39) Hailey : An African Survey (London 1956) PP. 685-686.

1) اما الانضمام لاتحاد جنوب افريقيا الذي تكون فى عام 1910 .

2) او ان تتكون فى روديسيا حكومة مستقلة استقلالا داخليا مع تبعيتها للتاج البريطانى ، وتمت عملية التصويت فى 27 اكتوبر 1922 واسفرت النتيجة عن موافقة 8874 ضد 5989 صوتا فى صالح الاقتراح الثانى ، وبناء على ذلك صدر قرار بأن تكون روديسيا مستعمرة مستقلة ذاتيا (Self Governing Colony) تابعة للتاج البريطانى — وعلى هذا الاساس وضع اساس الحكم الجديد فى روديسيا الذي ظل معمولا به حتى عام 1952 (40) .

وهكذا منحت روديسيا الجنوبية فى عام 1923 صورة من الاستقلال واصبغ على نظام الحكم الجديد فيها صبغة ديمقراطية فأصبح هناك مجلس تشريعى ، لكن فى الحقيقة كانت هذه كلها مظاهر شكلية ، بل ان الوضع ازداد سوءا يوما بعد يوم اذ أن السلطة تركزت فى أيدي الاقلية البيضاء التى استغلت قبضتها فى الجمعية التشريعية فسنت القوانين التى مكنت المستوطنين البيض من وضع أيديهم على كل مراكز النشاط فى البلاد ، وزاد عددهم بشكل ملحوظ وانتزعوا ما بقى من الارض الصالحة أو التى يمكن استصلاحها من الافريقيين ومارسوا سياسة التفرقة العنصرية بأبشع صورها فأصبح الافريقيون غرباء فى بلادهم ، وبحكم القانون أصبحوا يعيشون اما فى المعازل Native reserves أو فى الاماكن المخصصةللخدم (Servant Quarters) خلف منازل الاوربيين التى يخدمون فيها ، واصبح دخول المدن الاوربية جريمة يعاقب عليها بأشد العقوبات (41) .

وامتدت مظاهر التفرقة لكل جوانب الحياة فقد اتجهت التشريعات الى أن تلزم الافريقيين على العمل فى المناجم أو فى الاعمال الحرة التى تحتاج لجهود يدوية يترفع الاوروبيون عن القيام بها ، وكانت أجور الافريقيين لا تتناسب بحال من الاحوال مع الجهد المبذول أو مع الاجور

---

40) كان عدد البيض فى روديسيا فى ذلك الوقت حوالى 34.000 نسمة بينما كان عدد الافريقيين اكثر من مليون نسمة ولم يؤخذ برأى الا نفر قليل جدا منهم .

(41) Frank, Thomas : Race & Nationalism (London 1960) P. 87.

التى تدفع للاوربيين ، وكان العمال الافريقيون يلتزمون بالسير على الاقدام لعدة أميال بينما تلتزم الشركات بنقل الاوربيين فى سيارات خاصة وعلل الامر بحجج تحمل كل معانى الاستخفاف بالقول وبالقيم والمبادىء الانسانية ، فقد برر المسؤولون الامر بأن الابيض لا يتحمل المشى على قدميه بعكس الافريقى ، وامتدت مظاهر هذه التفرقة الى المؤسسات الاجتماعية فالافريقيون ممنوعون من ارتياد النوادي والمسارح والمطاعم ودور السينما والفنادق التى خصصت للاوربيين ، بل امتدت للمدارس والمستشفيات وأصبحت تمارس بحماية القانون وفى ظل التشريعات التى صدرت تباعا لتحقيق رفاهية الاوربيين وتسخير الافريقيين لهذا الهدف . والعجيب أن الاوربيين وصل بهم الامر الى أنهم لم يجدوا ما يدعوهم لاخفاء هذا الاتجاه ، فقد ذكر جودفري هاجنز Godfrey Huggens فى كلمة القاها فى 12 يوليه 1934 : « لقد حان الوقت ليدرك الناس فى اوربا أن الرجل الابيض فى افريقية ليس مستعدا ولن يكون مستعدا ابدا لقبول الافريقى على انه مساو له من الناحيتين السياسية والاجتماعية » . وقد اكد دفري هذا المفهوم ثانية فى حديث له آخر بعد 19 عاما من هذا الحديث الاول ، اي فى عام (1953) (42) .

ان دراسة التشريعات التى صدرت فى هذه الفترة من تاريخ روديسيا تؤكد كلها حقيقة صارخة وهى أن النهاية التى وصلت إليها مشكلة روديسيا هى فى الحقيقة وليدة السياسة التى اتبعت فى هذه البلاد طوال سنوات طويلة وتمتد جذورها حتى بداية الاستعمار البريطانى لها — وهذا مع العلم بان دستور 1923 منح بريطانيا الحق فى الاعتراض على أي قانون تصدره الجمعية التشريعية يكون فيه اضرار بمصالح الوطنيين الافريقيين (43) .

ح — روديسيا ضمن اتحاد وسط افريقيا (1953 — 1963) :

كانت الحلقة الثالثة فى سلسلة هذه الاحداث التى أدت للقضية التى نحن بصددها هى محاولة البيض فى روديسيا الجنوبية — على وجه

(42) راشد البراوى : الاستعمار البريطانى ومشكلة روديسيا — مجلة العلوم السياسية العدد 3 ص 12 .

(43) Franck, Thomas : Op. Cit. P. 20.

الخصوص ـ لتثبيت امتيازات الاقلية العنصرية البيضاء وكان هـــذا هو الدافع وراء تحمس هؤلاء البيض فى روديسيا لفكرة تكوين اتحاد من روديسيا الشمالية والجنوبية ونياسالانـــد .

وحين وجدت الاقلية البيضاء المسيطرة على الحكم فى روديسيـــا معارضة عنيفة من الافريقيين فى تكوين مثل هذا الاتحاد هددت بأنهـــا ستلجأ الى اعلان انضمام روديسيا الجنوبية الى جنوب افريقيا وهى كما نعلم قلعة الرجل الابيض ، وكانت الحجج التى قيلت لتبرير قيام مثل هذا الاتحاد « أنه يتيح فرصة للتكامل الاقتصادي بين الاقاليم الثلاثة » وقد عبر المؤيدون لفكرة الاتحاد عن ذلك مستخدمين المثل الافريقى « ان الاناء الذي يقف على ثلاثة أرجل لا يستطيع أن يقف على اثنين
(44) (A three legged pot cannot stand on two legs)

وقد ظلت فكرة الاتحاد تتأرجح فترة طويلة بين التأييد والمعارضة حتى خرجت الى حيز التنفيذ أخيرا فى عام 1953 بعد سلسلة طويلة من الاجتماعات واللجان والمؤتمرات ، ففى ابريل 1952 عقد حكام الاقاليم الثلاثة مؤتمرا عرف باسم مؤتمر لانكستر هاوس
Lancaster House Conference
حضره وزير المستعمرات البريطانى واتفق فيه على أسس قيام الاتحاد ، ولم يحضر هذا المؤتمر أحد من الافريقيين ، لكن بذلت المحاولات لاقناع الافريقيين بأن مصالحهم وضعت فى الاعتبار وأن فجر عهد جديد مـــن التعاون والمشاركة يوشك أن يبدأ وأن الجميع مدعوون للمشاركة فـــى البنـــاء الجـــديـــد (45) .

على أن مفهوم المشاركة للاسف عند الاقلية البيضاء ـ كما عبـــر عنه رئيس الاتحاد ـ هو أنها تشبه (العلاقة بين الحصان وراكبه) أو كما عبر عنه روى ولينسكـــى Roy Wolensky الذي خلف جود فري فى رئاسة الاتحاد عام 1956 « بأن الاوربيين عليهم مهمة قيادة الافريقيين

---

(44) Brelsford, W.V : Handbook to the Federation of Rhodesia & Nyasaland (London 1960) P. 591).
(45) Mshali, Vulindela : Rhodesia Background to conflict - (London 1964) P.P. 96-98.

فى الاتجاه السليم » (46) . فهى علاقة بين تابع ومتبوع وليست بين أفراد متســـاويــــــن .

وظهرت منذ اللحظة الاولى لقيام الاتحاد سيطرة الرجـــل الابيـــض وتحقق ما كان يخشاه المعارضون لقيام الاتحاد ، فقد اتجهت معظـــــم التشريعات التى صدرت الى تحقيق سيطرة البيض وتمكينهم من استغلال موارد البلاد الى أقصى حد ممكن ، واتبعت أقسى أساليب القمع والعنف مع المعارضين لهذه السياسة العنصرية حتى من البيض ـــ فحين طالب جرفيلد Garifield Todd الــــذي كان رئيســـــا لــــوزراء روديسيـــــا الجنوبية فى الفترة من 1953 الى 1958 بالعمل على رفع مستوى الافريقيين ونادى بأن التآخى بين الجميع وخلق مجتمع يشارك فيه الكل ، وينعم فيه الكل بالخير وبثمرة جهودهم هو الوسيلة الوحيدة للتقدم ـــ تكتل المتطرفون ضد هذه السياسة المعتدلة وانتهى الامر بابعاده عن الحياة السياسيـــة واعتقـــالـــــــــه (47) .

على أن هذا الصراع بين الآراء والاتجاهات المختلفة كان له الفضل فى دفع الافريقيين الى تنظيم انفسهم فى هيئة جماعات وهيئات يتزعمها بعض القادة الذين نالوا حظا من الثقافة والتعليم وذلك للوقوف فى وجه القوانين الجائرة والاطماع الجامحة للبيض فظهر المؤتمر الافريقى الوطنى (African National Congress - ANC) وظهرت الهيئة الوطنية الديمقراطيـــة(National Democratic Party - NDP)وغيرهما من الهيئات . وقابلت السلطات الحاكمة الامر باصدار مزيد من قوانين القمع وكبـــت الحريات ، لكن تطور الاحداث بهذا الشكل جعل الكثيرين من البريطانيين أنفسهم ـــ ومنهم اعضاء فى البرلمان البريطانى من امثال جون ستونهوس (John Stonehouse) الذي اتهم اثناء زيارته لروديسيا ولقائه بزعماء الافريقيين بأنه حرضهم على الخروج على السلطات بقوله لهم : « انكـــم يجب أن تتصرفوا كأنكم اصحاب البلاد ولستم غرباء فيها » ـــ يشيرون الى أن الاوضاع فى روديسيا الجنوبية لا تختلف عن الاوضاع التى تشكو منها فـــى الكنغـــــو .

---

(46) Mshall, Vulindela : Op. Cit. P.P. 96 & 100.
(47) Todd, Judith : Rhodesia (London 1966) P. 29.

وقد عقدت الحكومة البريطانية عدة اجتماعات ومؤتمرات لمحاولة وضع علاج لهذه الاوضاع المتدهورة فى الاتحاد عن طريق وضع دستور جديد يعمل به فى روديسيا الجنوبية بدلا من دستور 1923 ، لكن الوضع فى روديسيا تدهور بشكل ملحوظ واصبح ينذر بالخطر اثر فوز حزب ايان سميث Ian Smith الذي يمثل فى الحقيقة كبار الملاك والراسماليين البيض الذين اثروا ثراء فاحشا من استغلال اموالهم فى روديسيا الجنوبية — فى انتخابات عام 1962 — والف ستون فيلد Field وزارة كان سميث وزيرا للخزانة فيها بينما كانت كل من روديسيا الشمالية ونياسالاند تسعى للحصول على الاستقلال .

وفى 31 ديسمبر 1963 عقد بتلر Buttler الوزير البريطانى مؤتمرا اعلن فيه حل اتحاد وسط افريقيا واعقب ذلك استقلال روديسيا الشمالية فى يوليه 1964 تحت اسم (جمهورية زامبيا) كما استقلت نياسالاند فى اكتوبر 1964 تحت اسم (جمهورية مالاوي) وبقيت روديسيا الجنوبية مستعمرة تحت حكم الاقلية العنصرية البيضاء باسم روديسيا .

د — حكم الاقلية العنصرية البيضاء فى روديسيا :

هكذا كانت عجلة الاحداث فى هذه المنطقة الهامة من افريقيا تسير بسرعة عجيبة فبينما الاقلية البيضاء تستحث الخطى لتضرب ضربتها الاخيرة فتعلن الانفصال التام عن النفوذ البريطانى وتنفرد بتيسير دفة الامور فى روديسيا دون منازع — نجد الزعماء الوطنيين يتخاصمون ويتنازعون على اشياء ليست جوهرية فى هذه الاونة الحاسمة من النضال — فقد حدث خلاف بين انكوتو ، وسيزول Sithole وانتهى الخلاف بخروج سيزول وبعض رفاقه واعلنوا تكوين حزب جديد باسم اتحاد زمبابوي الافريقى القومى — زانو .

وفى ابريل 1964 استقالت وزارة ونستون فيلد لتفسح المجال لوزارة يراسها ايان سميث ، واعلن سميث بمجرد توليه الوزارة الجديدة « ان هدف حكومته الاساسى هو اعلان استقلال روديسيا ووضع دستور جديد لها يكفل السيادة الكاملة للبيض ويضع فى ايديهم كل السلطات والامكانيات .

وبدأ سميث على الفور سياسة عنيفة لتصفية الحركات القوميــة ، فاعتقل الاعضاء البارزين من حزبى (زانو) ، (زابــو) وزج بهم فــى معتقلات انشأها فى الاماكن النائية بعيدا عن المدن الرئيسية ـ ثم بدأ يفاوض بريطانيا للاتفاق على ما اسماه (الاستقلال) ملوحا باستعداده لاعلان الاستقلال من جانب واحد اذا لم تصل الحكومة البريطانية الــى اتفاق معه تمنح روديسيا بموجبه الاستقلال .

واتضحت نوايا سميث حين زار جنوب افريقيا قلعة العنصرية فى افريقيا للاجتماع مع رئيس وزرائها د. فيرورد Dr. Verwoerd كما زار وهو فى طريقه الى لندن ـ دكتاتور البرتغال فى ذلك الوقت دون سالازار Don Salazar ونستطيع أن نتكهن بسهولة بما دار فى هذه الاجتماعات بين الاطراف الثلاثة التى تمثل بلا شك تحالفا غير مقدس أو غير شريــف بتعبيــــر آخـــــر .

وتعددت الاجتماعات بين ممثلى بريطانيا وبين سميث واعوانه للوصول الى الاتفاق على شروط يرتضيها الطرفان دون طائل ، وكان سميث قــد أجرى انتخابات برلمانية عامة أسفرت عن اغلبية ساحقة لحزبه فــى البرلمان ، وفى اكتوبر 1965 طار ولسون Wilson الــى روديسيا فى محاولة يائسة ليثنى سميث عن عزمه ، لكن هذا الاخير لم يلبث أن أعلن حالة الطوارىء فى البلاد فى 5 نوفمبر 1965 ، وفى 11 نوفمبر أعلن فى بيان تصير قراره الخطير . وقد جاء فى هذا البيان : « ان القرار الذي اتخذناه اليوم هو قرار برفض الروديسيين أن يتنازلوا عن طريق البيع عن حقهم الوراثى . . . لقد اتخذنا هذا القرار لحماية العدل ، والحضارة والمسيحية فمن وحى هذه الاهداف فاننا فى هذا اليوم قررنا أن نمارس حقنا فى الاستقلال ليباركم اللــه جميعــا » (48) .

وقد أحدث هذا الاعلان دويا عنيفا فى بريطانيا ، وفى الدول الافريقية وفى الامم المتحدة فتحركت لاتخاذ الاجراءات لمواجهة الموقف الجديد الذي

ملاحظة : ولد سميث فى روديسيا فى عام 1919 من ابوين من المستوطنين الانجليز ، وتعلم فى جامعة رودس فى جنوب افريقيا ، وبدأ نجمه يلمع منذ عام 1961 حين استقال من حزب الجبهة الروديسية (Rhodesian Front Party). احتجاجا على دستور 1961 ، وشكل جماعة اخرى متطرفة تعارض منح اية حقوق سياسية للافريقيين .

48) ترجمة حرفية لاعلان الاستقلال الذى اذيع فى ذلك التاريخ .

يعتبر فى الحقيقة تحديا صارخا للضمير العالمى وللمباديء العالميـــة كلهـــــا .

— *** —

ثالثـا ــ موقف منظمة الوحدة الافريقية من قضية روديسيـا

منذ أن بدأت المؤتمرات الافريقية بهدف توحيد جهود الافريقيين فـى مواجهة قضاياهم المشتركة ــ احتلت قضية روديسيا مكانة هامة مـن اهتمام الدول والحكومـات الافريقيـة .

وحين نجح مؤتمر القمة الافريقى الاول فى اديس أبابا الذي عقـد فى الفترة من 22 الى 25 مايو 1963 فى اصدار ميثاق منظمة الوحـدة الافريقيـة (Organisation of African Unity (OAU) تركزت الانظار على هذه المنظمة لتبنى قضية روديسيا باعتبارها فى مقدمة قضايا النضـال الافريقى من أجل حق الشعوب الافريقية فى الحياة الحرة الكريمة (49) .

وقد اتخذ مؤتمر القمة الافريقى الاول قرارات خاصـة بقضيـة روديسيا فأعلن تأييده الكامل للوطنيين الافريقيين بها ، ودعا المملكـة المتحدة بألا تنقل سلطات ومقومات السيادة لحكومة تمثـل الاقليـات المستوطنة فيها وأشار الى أن هذا العمل اذا تم يعتبر اخلال بقرار الامم المتحدة 1514 الذي اتخذته الجمعية العامة للامم المتحـدة فى الدورة 15 بتاريخ 14 ــ 12 ــ 1960 .

---

49) حفلت الفترة التى تلت الحرب العالمية الثانية بسلسلة هامة من المؤتمرات الاسيويـة والافريقية .
— للدراسة المستفيضة لهذه المؤتمرات وقراراتها انظر :
شوقى الجمل : الوحدة الافريقية ومراحل تطورها (القاهرة 1966) .
— أما عن ميثاق منظمة الوحدة الافريقية فهو من 32 مادة ــ انظر :
Organization of African Unity ; Basic Documents & Resolutions-Charter of OAU.
— وكذلك بطرس بطرس غالى : منظمة الوحدة الافريقية (د. ت) ص 79 وما بعدها .

وقد شكل المؤتمر لجنة خاصة أطلق عليها اسم (لجنة التحرير) من تسعة أعضاء لبحث — قضية الاستعمار من جميع نواحيه وعهد اليها ببحث هذه المشكلة الروديسية ، وقد قررت هذه اللجنة بدورها تأليف لجنة ثلاثية من ممثلى (تنجانيقا ، وأغندة ، ونيجيريا) للسعى فى سبيل التوفيق بين الحزبين الرئيسيين فى روديسيا حزب زابو وحزب زانو لتتكاثف الجهود كلها لمواجهة الاستعمار خاصة بعد أن فاز فى الانتخابات حزب جبهة روديسيا الذي يمثل المتطرفين من الاقلية البيضاء .

وقد وجه مجلس وزراء منظمة الوحدة الافريقية الذي عقد فى لاجوس بنيجيريا فى الفترة من 24 الى 29 فبراير 1964 الانظار الى التطورات الخطيرة التى تتطور اليها مشكلة روديسيا ، وطالب الحكومة البريطانية باتخاذ اجراءات فعالة لمواجهة الموقف الذي ينذر بالانفجار فى روديسيا ، كما طالب الاعضاء فى منظمة الوحدة الافريقية باعادة النظر فى علاقاتهم مع بريطانيا اذا تجاهلت توصيات المؤتمر ، كما دعاهم لتقديم المزيد من التأييد للوطنيين الافريقيين فى كفاحهم فى سبيل حقهم ، وطالب المجموعة الافريقية من الامم المتحدة بالضغط لالزام الحكومة البريطانية بتنفيذ قرارات الامم المتحدة بشأن روديسيا .

وكان على مؤتمر القمة الافريقى الثانى الذي عقد فى القاهرة فى الفترة من17 الى21يوليوز1964 أن يواجه الموقف فىروديسيا بما يستلزمهمن اجراءات حازمة خاصة بعد أن تولى الوزارة ايان سميث فى ابريل 1964 عقب استقالة وزارة فيلد .

وقد أشار رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة فى الخطاب الذي القاه فى جلسة الافتتاح الى خطورة الوضع فى روديسيا ، كما أشار رئيس وفد زامبيا — وهى الدولة الافريقية التى لم تكن حتى انعقاد المؤتمر قد استقلت بعد (50) — الى وضع زامبيا الحرج بالنسبة لموقعها بين قوى استعمارية وعنصرية (انجولا ، وموزمبيق ، جنوب افريقيا ،

(50) استقلت زامبيا فى 24 اكتوبر 1964 وهى روديسيا الشمالية ، لكنها اتخذت بعد الاستقلال اسم جمهورية زامبيا .

روديسيا الجنوبية) كما أن الاستعمار ربط بين اقتصاديات هذه البلاد بطريقة تضمن تحكمه فى شرايين الحياة الاقتصادية بهـــا (51) .

وقد اتخذ هذا المؤتمر الافريقى (مؤتمر القمة الثانى) قرارات هامة خاصة بروديسيا تقضى بأنه فى حالة اعلان حكومة الاقلية فى روديسيـــا الاستقلال من جانبها فان الدول الافريقية ستؤيد قيام حكومة وطنيـــة افريقية فى المنفى ، كما ناشد المؤتمر بريطانيا الاسراع باتخاذ الخطوات الكفيلة باعلان دستور ديمقراطى جديد يضمن حكم الاغلبية ، وطالـــب بالافراج فورا عن الزعماء الوطنيين المعتقلين فى سجون روديسيا ، وانتدب المؤتمر لجنة من ممثلى مالاوي و (تنجانيقا) و (زنجبـــار) لبذل مساعيها للتوفيق بين الاحزاب الروديسيـــة .

وحين عقد مؤتمر القمة الافريقى الثالث باكرا فى الفترة من 21 الى 25 اكتوبر 1965 كانت منظمة الوحدة الافريقية قد أتمت 29 شهرا مـــن عمرها ، وكانت فى هذه الفترة الوجيزة قد قامت بنشاط كبير فى حل العديد من المشاكل الافريقية المترسبة من عصر الاستعمار الطويل كالنـــزاع الصومالى الاثيوبى الكينى ، والحركات الاستعمارية التى صاحبت استقلال الكونغو ــ ومع ذلك فقد كانت المشكلة الروديسية تفرض نفسها علـــى رؤساء الدول الافريقية وكانت هذه المشكلة فى الحقيقة تعتبر اختبارا صعبا لمدى قوة منظمة الوحدة الافريقية ومبادئها ــ ورغم اختلاف وجهات النظر بين المنادين باستخدام القوة المسلحة لردع المتمردين البيض فى روديسيا وقطع علاقات الدول الافريقية مع بريطانيا وانسحاب الدول الاعضـــاء فى الكومنولث وبين من كان يرى ضرورة التروي قبل اتخاذ هذه الخطوات الحاسمـــة ــ فقد اتخذ المؤتمـــر قرارات توفق بين وجهات النظـــر المختلفـــة (52) .

---

(51) أشارت اللجنة الخاصة التابعة للامم المتحدة التى شكلت فيما بعد لبحث اثر المصالح الاقتصادية الاستعمارية وتاثيرها على قضية روديسيا ــ الى ذلك كما سنوضح فيمـــا بعـــد .

(52) Resolutions of African Heads of State & Governments held in Akra from 21 to 25 October 1965.

ومن اهم هـــذه القرارات :

1 ــ تقديم كل مساعدة لشعب زمبابوي لتحرير نفسه وبلاده ودعـــوة الدول المحبة للسلام لمعاونة هذا الشعب فى محنته .

2 ــ دعوة مجلس الامن لاستعمال العقوبات المنصوص عليها فى الباب السابع من ميثاق الامم المتحدة باعتبارها الموقف فى روديسيا مهدد للسلم والامن العالميين .

3 ــ مقاطعة الحكومة القائمة فى روديسيا الجنوبية مقاطعة سياسيـــة واقتصادية تامـــة .

وتشكلت لجنة من خمس دول افريقية لمتابعة تنفيذ قرارات (أكرا) بشأن روديسيا على أن اعلان اين سميث فى 11 نوفمبر 1965 ــ الاستقلال المزيف وضع جميع الدول الافريقية ومنظمة الوحدة الافريقية أمام اختبارقاس فحكومة الاقلية البيضاء فى روديسيا فضلا عما تمارسه من أعمال القمـــع والاضطهاد ضد شعب زمبابوي ــ تمثل فى الحقيقة قاعدة استعماريـــة تمـــارس الدول الاستعمارية عن طريقها نشاطها مثلها فى ذلك مثل اسرائيل فى منطقة الشرق الاوسط .

تحليـــل موقف منظمة الوحدة الافريقية بعد اعلان سميث الاستقلال :

فى ضوء قرارات مؤتمر اكـــرا والمؤتمرات السابقة له ، كان أمام الدول الافريقية عدة اجراءات تتطلبها التزاماتها اتجاه الموقف فى روديسيـــا منهـــــــا :

1 ــ اتخاذ اجراءات اقتصادية وسياسية ضد حكومة الاقليات ــ ويتطلب هذا تعاون الدول الاخرى التى تتعامل مع روديسيا لتكون المقاطعة

الفعالة كما يتطلب الامر فرض الحصار على الثغور التجارية التى تعتبر منافــذ لروديسيـــا .

2 ـــ الضغط على بريطانيا بكل الوسائل لالزامها بالقيام بواجبها باعتبارها المسؤولة عن الوضع فى روديسيا .

3 ـــ التزمت الدول الافريقية فى مؤتمر اكــرا باستخدام القوة لمنـــــع استقلال الاقلية البيضاء ـــ وتنفيذ هذا القرار يتطلب اسهام الدول الافريقية فى تكوين قوة عسكرية مسلحة لتموين المعركة ضد حكومة الاقلية فى روديسيا ولتقديم التأييد الكافى لزامبيا باعتبارها المنفــذ الوحيد لوصول المساعدات للشعب الافريقى فى روديسيا ، كمـــا يستلزم تنفيذ هذا ايضا أن ينبذ شعب زمبابوي خلافاته ويجتمع كله حول هدف واحد هو استخلاص حقه من مغتصبيه .

4 ـــ اقامة حكومة وطنية لروديسيا فى المنفى تعترف بها وتساندها الدول الافريقية ـــ لكن تنفيذ هذا يستلزم حسم الخلاف بين حزبى زابو وزانو وتكوين جبهة واحدة تواجه الموقف وتتولى الكفاح المسلـــح ضد العدو المشترك ـــ لكن كان يحول دون ذلك اصرار كل حزب على انه الحزب الوحيد الذي يمثل جماهير الشعب الروديسى .

وفى عام 3 ديسمبر 1965 عقد مجلس وزراء خارجية الدول الاعضاء فى منظمة الوحدة الافريقية اجتماعا طارئا فى اديس ابابا لبحث الموقف الجديد فى روديسيا واتخذ المجلس فى هذا الاجتماع قرارات تقضى بفرض حصار اقتصادي كامل على روديسيا وعدم تقديم ايـــة تسهيلات للحكومـــــة العنصرية بها للحصول على البترول او الوقود .

وقد ناقش المؤتمر الذي عقد فى اديس ابابا فى الفترة ما بين 5 و 9 نوفمبر 1966 مشكلة روديسيا فى اكثر من جلسة من جلساته ، كمـــا ناقش وضع زامبيا بالذات وما تتعرض له من ضغوط اقتصادية وسياسية نتيجة موقفها من القضية واتخذ المؤتمر قرارات تقضى بدعم حركة تحرير روديسيا وتقديم المساعدات الفنية والاقتصادية لمساندة زامبيا ليمكنهـــا

ان تصمد وأن تقدم مساعدات أكثر للمحاربين فى زمبابوي وكذلك تقضى باتخاذ اجراءات مشددة ضد الافراد والشركات التى لا تزال تزاول نشاطها مع روديسيا الجنوبية .

وهكذا أصبحت قضية روديسيا تحتل مكانا بارزا من مناقشات واجتماعات اللجان المختلفة والمؤتمرات لمنظمة الوحدة الافريقية ، وقد تألفت لجنة خماسية خاصة متفرعة من لجنة تحرير افريقيا لمتابعة الجهود المبذولة المتصلة بهذه القضية وهى من ممثلى (الجمهورية العربية المتحدة، وزامبيا ، وكينيا ، وتانزانيا ، ونيجيريا) وبذلت هذه اللجنة جهودا مضنية لبحث الوسائل الفعالة لمساندة المناضلين الوطنيين فى روديسيا — كما تكونت لجنة ثلاثية أخرى لمتابعة الموقف المتعلق بالقضية فى الامم المتحدة وقد أطلق على هذه اللجنة اسم (لجنة روديسيا التابعة لمجلس الامن) .

ورغم كل هذه الجهود فقد اثبتت تقارير هذه اللجان التى قدمت لمؤتمر القمة الافريقى الذي عقد فى كنشاسا (زائري) فى الفترة ما بين 11 و 14 سبتمبر 1967 أن الامر يحتاج الى اجراءات أخرى أكثر فاعلية خاصة وأن العقوبات الاقتصادية التى فرضت على حكومة الاقلية العنصرية فى روديسيا كانت قليلة الجدوى بسبب المساعدات المستمرة التى تقدمها البرتغال وجنوب افريقيا للنظام الثائر فى روديسيا ، كما أن الافريقيين هم الذين يتحملون العبء الاكبر لهذه المقاطعة الاقتصادية — كما ذكر الكاتب (كولين ليجوم) المتخصص فى الشؤون الافريقية ، « فالعمال الزراعيون أصبحوا يعيشون على لقمة العيش التى يقدمها لهم مخدوموه ، ولما كان الافريقيون لا يجدون اي بديل لهذا الوضع الذي يعيشون فيه فانهم لا حول لهم ولا قوة » . (53) .

ورغم أن قضية روديسيا كانت مثار بحث ونقاش فى مؤتمرات القمة الافريقية التى عقدت بعد ذلك ، لكن لم تستطيع الدول الافريقية أن تركز على هذه القضية بالذات لبروز مشكلات أخرى حيوية كمشكلة بيافرا ومشكلة الشرق الاوسط فلم تعد المشكلة الروديسية هى المشكلة الرئيسية التى يتركز عليها اهتمام الدول الافريقية .

---

53) الكاتب هو صاحب كتاب الجامعة الافريقية وقد ترجمه الى العربية احمد محمود سليمان (القاهرة 1964) .

ولا شك فى ان ايان سميث قد استفاد من هذه الظروف فعمد الى دعم مركزه فى البلاد ، كما أن بريطانيا لجأت الى مفاوضة نظام الاقلية غير الشرعية فى سولزبري لايجاد حل للازمة من وجهة نظرها ـ ففى الفترة ما بين 10 و 12 اكتوبر 1968 دارت المباحثات بين ويلسن رئيس وزراء بريطانيا وبين ايان سميث على ظهر الباخرة البريطانية (فيرلس) وكانت الحكومة البريطانية قد وضعت بعض المباديء لتسير المباحثات بين الجانبين على أساسها ـ ورغم أن هذه المباديء قد رفضت من جانب الحكومة العنصرية فى روديسيا فان الدول الافريقية أعربت أيضا عن اعتراضها على ما تضمنته هذه المقترحات من مبادىء ، بل احتجت على مبدأ المفاوضة نفسه مع هذه الحكومة دون اتخاذ موقف أكثر حزما منها .

وتتمة للخطوة التى بدأها سميث يوم اعلن فى 11 نوفمبر 1965 استقلال روديسيا فى ظل نظام الاقلية العنصرية ـ قامت حكومة سميث فى عام 1970 بوضع دستور جديد لروديسيا يزيد من قبضة الاقليات العنصرية فى حكم البلاد ـ كما أعلنت فى آخر فبراير 1970 قيام الجمهورية فى روديسيا ـ فكان هذا بمثابة تحد جديد لمنظمة الوحدة الافريقية وللامم المتحدة والعالم المتحضر كلـه .

وقد ناقش مجلس وزراء منظمة الوحدة الافريقية فى دورته الرابعة عشرة (فبراير ـ مارس 1970) الوضع فى روديسيا ، كما ناقش مؤتمر القمة الافريقى الثامن فى اجتماعه فى أديس أبابا (سبتمبر 1970) القضية فى ضوء هذه التطورات الجديدة ، وقد اعرب المؤتمر عن سخطه ازاء هذا التحدي السافر من حكومة سولزبري وطالب بضرورة تطبيق الفصل السابع من ميثاق الامم المتحدة الخاص باستخدام القوة لحسم الموقف فى روديسيا باعتبار انه يعرض السلام والامن الدولى للخطر .

على ان مشكلة روديسيا برزت من جديد على مسرح الاحداث منذ عودة حكومة المحافظين فى انجلترا الى الحكم فى 18 يونيه 1970 فقد صرح رئيس الوزراء ادوارد هيث (Edward Heath) بأنه سيعمل للوصول الى حل سلمى لهذه المشكلة ، ومرت المفاوضات بين الطرفين فى هذه المدة فى عدة مراحل واستغرقت شطرا كبيرا من عام 1971 وانتهى الامر

باعلان صدر فى لندن فى 25 — 11 — 1971 بأن الوفد البريطانى الذي كان على راسه السير اليك دوجلاس قد وصل الى مشروع اتفاق بشأن الازمة الدستورية بين بريطانيا وروديسيا سوف يعرض على شعب روديسيا لابداء رايه فيه عن طريق ما أطلق عليه لفظ (اختبار القبـــول) (The test of acceptability) ، وقد كونت لجنة برئاسة اللورد بيرس Lord Pearce للقيام بهذه المهمة ، ولا يتسع المجال هنا لمناقشة كل بنود هذه الاتفاقية لكن نشير لبعض ملاحظات بخصوصها : (54)

1 — لم يوضح المعيار الذي ستتخذه اللجنة لتصل الى الحكـــم الصحيح بالنسبة لراي الافريقيين فى الاتفاق ولعله كان من الافضل معرفة راي الافريقيين فى الاتفاق عن طريق الاقتراع العام بدلا من لجنة لم يحـــدد الاتفاق عدد أعضائها أو نوعيتهـم .

2 — يتعلق بدستور روديسيا نص الاتفاق على أن الاساس سيكون دستور 1969 مع تعديلات تتيح الفرص للافريقيين للادلاء بأصواتهم فـــى الانتخابات وبالتالى بالترشيح للبرلمان حسب الدخل ومستوى الثقافـــة بحيث يصبح الافريقيون على قدم المساواة مع البيض فى الحكم اذا ما وصل تقدمهم فى الميدانين التعليمى والاقتصادي الى المستوى الذي وصل اليـــه البيـــــض .

وهذا الفرض وان كان للمساواة لكن حقيقته غير ذلك ، وقد أشـــار اللورد البورت الذي كان وزيرا مسؤولا عن الشؤون الافريقية فى حكومة هارولد ماكميلان تعليقا على هذا التعديل فى الدستور « انه لا يتوقع أن تكون هناك فرصة أمام قيام حكم للاغلبية فى ظل هذا الاتفاق » .

3 — كذلك لم يضع الاتفاق حدا جذريا لمشكلة التفرقة العنصرية ، وان كان قد أشار الى أن سميث قد سجل « رغبة حكومته فى الحد مـــن التفرقة العنصرية الا اذا وجدت اعتبارات خاصة تنظر اليها أية حكومة على أنهـــا بالغـــة الخطـــورة » .

(54 نلاحظ ان البيان لم يستخدم كلمة استفتاء .

وقد قوبلت هذه العبارة فى مجلس العموم البريطانى باستهجان وكان تعليق احد أعضاء المجلس (مستر فولدز (Faulds)) بأن « أقل ما توصف به هذه العبارة أنها أمر مشين وخيانة كاملة واضحة » (55) .

4 — ومن جهة الخدمات قررت بريطانيا تزويد روديسيا بمساعدة قدرها 50 مليون جنيه استرلينى سنويا ولمدة عشر سنوات لمساعدة الحكومة على تنفيذ برامج للتنمية والتعليم خاصة فى المناطق الافريقية — وكانت هذه المساهمة البريطانية هى الورقة التى حاولت بريطانيا أن تكسب عن طريقها موافقة الافريقيين على هذه الاتفاقية .

وقد قوبلت الاتفاقية بموجة من الهجوم فى الدول الافريقية — وكذلك فى اوساط الامم المتحدة بل وفى بريطانيا من حزب المحافظين ومن الافريقيين فى روديسيا .

وصلت لجنة (تقصى الراي) الى روديسيا فى 11 يناير 1972 للقيام بمهمتها ، وفى مايو 1972 قدمت للبرلمان البريطانى نتائج عملها الذي شرحته فيه بايضاح الطريقة التى اتبعتها لمعرفة رأي الافريقيين والمصاعب التى قابلتها مع جداول تفصيلية بعدد الافراد الذين قابلتهم اللجنة من كل من الاوربيين والافريقيين واتجاه آراء كل مجموعة فيما يتعلق بالاتفاقية وما قدمت للجنة من شكاوي واتهامات عن تدخل رجال الادارة أو غيرهم فى الانتخابات أو عن اعتقال الحكومة الروديسية لبعض الزعماء الافريقيين فى فترة عمل اللجنة .

ومن تحليلنا لنتائج الاستفتاء حسب تقرير اللجنة نلاحظ :

1 — أن عدد الذين ادلوا بأصواتهم من الافريقيين كان 116،364 ، بينما عدد البالغين فوق 18 سنة حسب احصاء 1969 هو 200742 وتقدير الزيادة فى عدد السكان خلال هذه الفترة بحوالى 7 ٪

(55 انظر : Times Friday-November 26, 1971 (House of Commons)
وانظر
Report of the Commission on Rhodesian Opinion under the Chairmanship of the Right honourable Lord Pearce presnted to Parliament (May 1972).

2 ـ عدد الذين ادلوا بأصواتهم من الاوربيين كان 6،024 بينما عدد البالغين (فوق 18 سنة) حسب احصاء 1969 هو 144،970 وتقدر الزيادة فى العدد فى هذه الفترة بـ 5 ٪

3 ـ بلغ عدد الذين رفضوا المقترحات من الافريقيين الذين ادلوا بأصواتهم 107،309 بينما عدد الذين وافقوا عليها لم يتعد 2934 ـ وهكذا تكون الاغلبية الساحقة من الافريقيين قد رفضت المقترحات ، وكما ذكر التقرير أن أكثر المتفائلين من رجال الاحزاب الافريقية لم يكونوا يتوقعون ان تصل نسبة الرفض الى هذا الحد الكبير .

4 ـ وصل عدد الذين قبلوا هذه الاتفاقية من الاوربيين الى 5،634 وعدد الرافضين لم يتعد 390 ـ وهكذا تكون غالبية الاوربيين قد قبلت المقترحات .

ومن الاسباب الرئيسية التى ذكرتها الاغلبية الاوربية لقبولها المقترحات ان هذه المقترحات هى الفرصة الوحيدة لايجاد جو من التفاهم والتقارب بين الافريقيين والمستوطنين الاوربيين ، وانها ستفتح المجال لتحسين الحالة الاقتصادية ولايجاد فرص عمل جديدة ، للافريقيين وبذا يستتب الامن لانه كما قال أحدهم « الانسان الجائع انسان خطر » .

أما الافريقيون فعللوا رفضهم للمقترحات بأنها لا يحق لهم العدالة والمساواة ، كما أنهم ذكروا أن الاتفاقية تضفى الصبغة القانونية على تصرفات الحكومة الروديسية دون أن تكفل أية ضمانات على احترامها لالتزاماتها .

وهكذا انهارت هذه الاتفاقية الجديدة من بريطانيا وحكومة روديسيا العنصرية .

رابعا ـ موقف الامم المتحدة من قضية روديسيا :

كان ميلاد الامم المتحدة الذي وقع ميثاقها فى 26 يونيه 1945 وأصبح نافذا فى أكتوبر 1945 ـ أملا جديدا للشعوب الواقعة تحت نير الاستعمار ـ

فقد أعلن ميثاق الامم المتحدة (ايمان البشرية بحقوق الانسان الاساسية وبكرامته وقيمته وبتساوي حقوق الامم كبيرها وصغيرها ، كما أعلن حق جميع الشعوب فى ممارسة الحقوق الانسانية والحريات الاساسية دون تمييز بسبب العرق أو الجنس أو اللغة أو العقيدة) (56) .

وفى عام 1948 تبنت الجمعية العامة للامم المتحدة (الاعلان العالمى لحقوق الانسان) كما أصدرت عدة قرارات خاصة بحق الشعوب المستعمرة فى التمتع بحريتها ومن أهمها قرارها رقم 1514 الذي صدر فى الدورة 15 (فى 14 — 12 — 1960) .

وفى 1961 انشأت الجمعية العامة اللجنة الخاصة(The Special Commitee) لنظر الموقف فيما يتعلق بتطبيق اعلان منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة .

وفى هذا العام (1961) تقدمت 11 دولة افريقية وآسيوية بقرار للجمعية العامة لتعهد اللجنة الخاصة ببحث الوضع فى روديسيا — وقد اعترضت بريطانيا بأن روديسيا الجنوبية لا تدخلضمن الاقاليم التى تعهدت بتقديمبيانات عنها للامم المتحدة — لكن الدول الافريقية اشارت الى أن الوضع فى روديسيا خطر وانها تتحول الى جنوب افريقيا أخرى — فأصدرت الجمعية العامة قرارها رقم 1745 (16) فى 23 فبراير 1962 مذكرة بقراراتها السابقة المتصلة بالاقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي — وطلبت من (اللجنة الخاصة) بحث الوضع فى روديسيا . ومنذ ذلك الوقت أخذت اللجنة الخاصة تدرس مسألة روديسيا وتوليها اهتماما خاصا ، وقدمت هذه اللجنة عدة قرارات للجمعية العامة اوضحت فيها أن الوضع فى روديسيا خطير واستنادا لهذا أصدرت الجمعية العامة عدة قرارات منها قراراها 1747 (16) فى 28 — 6 — 1962 ، وقرارها 1755 فى 12 — 10 — 1962 ، والقرار 1760 فى 31 — 10 — 1962 ، والقرار 1883 (18) فى 14 — 10 — 1963 ، والقرار 1889 (18) فى 6 — 11 — 1963 وفى جميع هذه القراراتدعتالجمعيةالعامة حكومة المملكة المتحدة الى اتخاذ الاجراءات الكفيلة بعدم نقل أية سلطة من سلطات السيادة الى روديسيا الجنوبية بنظام حكمها العنصري الحاضر

---

56) أنظر ديباجة ميثاق الامم المتحدة .

وان تنظر فى أمر قيام حكومة تامة التمثيل لجميع سكان المستعمرة ، وأن تعمل للافراج عن المعتقلين السياسيين . وقامت اللجنة الخاصة (لجنة الاربعة والعشرين عضوا) بنشاط واضح فى القضية خلال عام 1964 وقد قامت هذه اللجنة بدراسة شاملة لنفوذ المصالح الاقتصادية الاجنبية فى الاقليم وأثره على القضية — فقد أوضح التقرير أن الرأسماليين الانجليز هم أصحاب الانصبة الكبيرة فى رؤوس الاموال المستثمرة فى روديسيا — كما أوضح أن الشركات التى تمارس نشاطها هناك معظمها لها فروع فى جنوب أفريقيا وفى المستعمرات الافريقية ، ولذا فمن مصلحتها وفى وسعها تحطيم القيود المفروضة على الاقتصاد الروديسى (57) .

ولما كان اتجاه الحكومة الروديسية الى اعلان الاستقلال من جانب واحد قد وضح فقد أصدر مجلس الامن فى 6 مايو 1965 قرارا يطلب فيه من المملكة المتحدة وجميع الدول الاعضاء عدم قبول اعلان الاستقلال من جانب واحد ويطلب من المملكة المتحدة القيام بكل ما يلزم لمنع ذلك .

وقد أصدرت الامم المتحدة عدة تحذيرات للسلطات الحاكمة فى روديسيا والمملكة المتحدة بصفتها السلطة الادارية المسؤولة عن اعلان استقلال غير قائم على أساس حق الانتخاب العام للبالغين . وكان لاعلان حكومة سميث الاستقلال فى 11 نوفمبر 1965 رد فعل سريع فى الامم المتحدة فدعيت الجمعية العامة فور صدور الاعلان لاجتماع طارىء عقد فى نفس اليوم وصدر قرار بادانة الاستقلال من جانب واحد الذي أعلنته حكومة روديسيا الجنوبية ، وطلبت الجمعية العامة من المملكة المتحدة تنفيذ قراراتها السابقة من أجل وضع نهاية لتمرد السلطات غير الشرعية فى روديسيا ، وأوصت الجمعية العامة مجلس الامن ببحث الموقف فى روديسيا على وجه السرعة .

---

(57) يعتبر تقرير اللجنة فى هذه الناحية والذى صدر فى 7 اكتوبر 1966 تحت رقم (Addi 1). من أهم الدراسات التى تلقى الاضواء على العلاقة بين النواحى الاقتصادية والنواحى السياسية فى القضية الروديسية ، وأورد جداول احصائية للصادرات وقيمة كل النقدية ، وقدم دراسة لتشريعات الارض المختلفة ، وبيانات عن شركات الاراضى وملكية كل ، بالاضافة الى دراسة تفصيلية للمعادن الهامة وانتاجها فى روديسيا — كما درس العمل والعمالة وموقف العمال الافريقيين وقارن بين اجورهم واجور الاوربيين .
Studies of the Activites of Foreign Economic & Other Interests In Southern Rhodesia & Thier mode of Operation.

واجتمع مجلس الامن فى اليوم التالى لاعلان الاستقلال من جانب واحد ودعت الدول الافريقية والاسيوية الى استخدام القوة لسحق التمرد بموجب الفصل السابع من الميثاق (المادة 42) واشارت هذه الدول الى أن التدابير التى تتخذها المملكة المتحدة قاصرة عن حل الموقف . لكن تحت ضغط بريطانيا وحلفائها اقتصر قرار المجلس رقم 217 ، الذي صدر فى 20 — 11 — 1965 على دعوة جميع الدول الى فرض الحظر على منتجات النفط والبترول وقطع جميع العلاقات التجارية والامتناع عن تزويد روديسيا الجنوبية بالاسلحة والمهمات والمواد الحربية ، وناشد القرار جميع الدول عدم الاعتراف بالسلطة غير الشرعية وعدم مساعدتها وعدم الاحتفاظ بعلاقات دبلوماسية معها .

وهكذا لم تخرج الاجراءات التى اتخذتها انجلترا والامم المتحدة لانقاذ الافريقيين فى روديسيا الجنوبية وتمكينهم من الحصول على حقهم فى بلادهم — عن هذه الاجراءات الاقتصادية التى ثبت أنها قليلة الجدوى وانها — كما أشارت الصحفية البريطانية المعروفة د. لوس مير Dr. Lucy Mair لا تعفى بريطانيا من مسؤوليتها الاخلاقية قبل الشعب الافريقى فى روديسيا (58) .

ورغم أن عددا كبيرا من الدول الاعضاء فى الامم المتحدة — ابلغت السكرتير العام انها قررت قطع علاقتها الاقتصادية كلية مع حكومة روديسيا وفرضت حظرا على تصدير النفط اليها — فان حكومة سميث لم تعبأ بهذه التدابير الاقتصادية التى اتخذتها المملكة المتحدة والامم المتحدة وثبت أن هذه التدابير — كما أشارت اللجنة الخاصة للامم المتحدة فى تقريرها فى 6 أبريل 1966 — غير كافية — وأن روديسيا الجنوبية تحصل على حاجتها من النفط عن طريق السكك الحديدية وسيارات النقل عبر جنوب افريقيا

---

58) انظر مجلة (الايكونومست البريطانية) العدد الصادر فى 18 نوفمبر 1965 .
— ود . لوسى مير حجة فى المشاكل الاستعمارية ، وقد اصدرت عدة كتب عن افريقيا ، كما القت عدة محاضرات قيمة عن بعض القضايا الافريقية الهامة — فى المعهد الافريقى الدولى (International African) (Institute) وقد ذكر اللورد هيلى أنها عاونته معاونة صادقة فى مراجعة واعادة كتابة بعض فصول كتابه الضخم عن افريقيا — انظر مقدمة كتابه :
Hailey, Lord : An African Survery P. VI (London 1957).

وموزمبيق ، وان الامر يجب أن يتجاوز العقوبات الاقتصادية الى التدخل العسكري ، وقد لجأت بريطانيا الى ذر الرماد فى العيون (Smoke Screen) كما عبر عن ذلك ممثل زامبيا فى الامم المتحدة واسكات الرأي العام العالمى بايهامه أنها جادة فى اتخاذ كل الوسائل الممكنة لحل المشكلة ، فحاولت أن تجرى مفاوضات مع الحكومة العنصرية فى روديسيا دون جدوى (59) .

وقد أصدر مجلس الامن فى 16 — 12 — 1966 — قرارا بفرض عقوبات اقتصادية اضافية ملزمة : على روديسيا طبقا للمادة 41 من ميثاق الامم المتحدة فقد قرر أن تمتنع جميع الدول الاعضاء فى الامم المتحدة عن استيراد المنتجات الاتية من روديسيا الاسبستوس ، الحديد ، الكروم ، النحاس ، السكر ، التبغ ، منتجات اللحوم ، جلود الحيوانات — كما طالب القرار أن تمتنع الدول عن تصدير النفط ومنتجاته والاسلحة ، والمعدات الحربية والطائرات ، والمركبات الالية — الى روديسيا الجنوبية ، واعتبر المجلس عدم تطبيق اية دولة لهذا القرار انتهاكا للمادة (25) من ميثاق الامم المتحدة التى تلزم الدول الاعضاء فى الامم المتحدة بقبول قرارات مجلس الامـــن وتنفيذهـــا (60) .

وقد أصدرت الجمعية العامة ولجان الامم المتحدة الاخرى عدة قرارات أكدت فيها شرعية كفاح شعب زمبابوي لاسترداد حقه فى الحرية والاستقلال وطالبت جميع الدول بتقديم كل معونة لهذا الشعب فى كفاحه ونـــددت بسياسات البرتغال وجنوب افريقيا والدول الاخرى التى تساند نظـــام الحكم غير الشرعى ودعت المملكة المتحدة لاتخاذ تدابير فعالة لاسقاط نظام الحكم المتمرد فى روديسيا . لكن ازدادت الحالة فى روديسيا سوءا وتمادت الحكومة العنصرية فى ارهابها وتنفيذ أحكام الاعدام على المعتقلين السياسيين ، كما أن مجلس الامن اعترف بأن الاجراءات التى أتخذت كلها فشلت فى انهاء حركة التمرد فى روديسيا ، وأن بعض الدول من أعضاء الامم المتحدة لا تزال تتحدى قرارات المجلس والجمعية العامة فهى لا تزال تزاول نشاطهـــا الاقتصادي والسياسى مـــع نظام الحكم غيـــر الشرعـــى فى روديسيـــــــــا (61) .

---

(59) U.N. Year Book 1966 P. 101.

(60) جلسة المجلس رقم 1340 — قرار 212

(61) قرار المجلس رقم 277 فى 18 — 12 — 1970 (الجلسة رقم 1535) .

خامسا – تطور قضية روديسيا
بعد تصفية الاستعمار البرتغالى بالقارة

ساعدت الظروف التى احاطت بالقارة الافريقية ، والظروف الدولية فى عام 1975 – 1976 على تدعيم مركز المواطنين الافارقة فى روديسيا فى كفاحهم ضد الحكومة العنصرية المغتصبة للسلطة فى بلادهم ، فقد تحطم نفوذ الاستعمار البرتغالى فى موزمبيق وانجولا ، واضطرت البرتغال لتسليم السلطة فى مستعمرتيها السابقتين للافارقة ، وادى هذا الى اهتزاز الارض تحت أقدام الحكومة العنصرية فى روديسيا ، وكذا فى جنوب افريقيا ، فاضطرت حكومة روديسيا العنصرية الى الافراج عن الزعماء الوطنيين لتتيح فرصة للوصول لاتفاق حول مستقبل روديسيا .

وتدخلت كل من انجلترا والولايات المتحدة الامريكية ، واتفق على عقد مؤتمر بمقر الامم المتحدة فى جنيف فى اكتوبر 1976 يحضره ممثلون عن الحكومة العنصرية ، والحركات الوطنية الروديسية .

وعقد المؤتمر فعلا برئاسة ايفور ريتشارد مندوب بريطانيا ، وحضره جوشوا نكومى زعيم الجناح الداخلى للاتحاد الوطنى الافريقى ، وروبرت موجابى قائد جبهة التحرير الوطنى الروديسى ، والاسقف موزوريوا زعيم الجناح الداخلى للمجلس الوطنى الافريقى ، وداما ينجى سيتهول رئيس حزب اتحاد زيمبابوي الوطنى الافريقى .

وواجه المؤتمر مشكلة تحديد موعد اعلان استقلال روديسيا وتسلم الاغلبية الوطنية للحكم ، وكان الاتجاه ان يتم ذلك خلال عامين لكن الزعماء الافارقة اصروا على أن يتم الاعلان عن الاستقلال وتسلم الاغلبية للحكم خلال اثنتى عشر شهرا على الاكثر .

واجتمع زعماء الدول الافريقية المجاورة لروديسيا والتى اطلق عليها اسم (دول المواجهة) وهم جوليوس نيريري رئيس تانزانيا ، وكينث كاوندا رئيس زامبيا واجوستينو رئيس انجولا ، وسامورا ميشيل رئيس موزمبيق لبحث وسائل مساندة الوطنين الروديسيين فى كفاحهم .

وقد ضاعف الثوار من هجماتهم المسلحة ، بينما زادت الحكومة العنصرية من حركة القمع لمواجهة نشاط الثوار خاصة المتركزين على حدود موزمبيق والدول الافريقية الاخرى المجاورة لروديسيا .

وجابهت المؤتمر ايضا مشكلة تأليف الحكومة الانتقالية التى ستتولى الحكم فى الفترة السابقة لنقل السلطة للاغلبية الافريقية — بالاضافة الى اصرار حكومة الاقلية العنصرية على أن تكون بعض المناصب الحساسة كوزارة الدفاع وقيادة الجيش فى هذه الفترة فى يد البيض . ورغم أن الحكومة البريطانية قدمت بعض المقترحات الجديدة وأعلنت استعدادها لتتولى بعض السلطات فى مرحلة الانتقال تيسيرا للخروج بالمؤتمرين من المازق الذي ادى لتأجيل اجتماعاته على أن تستأنف فى مستهل هذا العام الجديد (عام 1977) فقد رفضت الحكومة العنصرية المقترحات البريطانية . وهذا يؤكد ان على الافارقة أن يدركوا أن الامر بأيديهم هم ، وأن تكتلهم واتحادهم ونبذ عوامل التفرقة بين الاحزاب الوطنية ومضاعفة حركات المقاومة لجهودها هو الطريق الوحيد لنيل حقوقهم فى بلادهم .

والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه .

الربــــاط **د. شوقــى عطا الله الجمل**

اهــم مراجــع البحــث :

نورد هنا اهم المراجع التى استعنا بها فى هذا البحث .

اولا — المراجع الاصليــة :

وتشمل النشرات والتقارير الرسمية ، ومحاضر جلسات منظمة الوحدة الافريقية وهيئة الامم المتحدة ولجانها وكذلك الاحصاءات الرسمية الصادرة من حكومة سولزبــري :

1. Organization of African Unity (Information Department) ID/Rhodesia (The OAU & Rhodesia : Published by the General Secretariat of the Organisation of African Unity (Addis Ababa 1961).

2. Organization of African Unity (Basic Documents & Resolutions) : published by the provisional Secretariat of the Organization of African Unity (N.D.).
3. United Nations Documents Index (Southern Rhodesia Situation)
4. United Nations Reports (A/7601/Add. I).
5. United Nations Resolutions
6. United Nations draft Resolutions (A/C. 3L. & A/C AL.)
7. United Nations Meeting Records.
8. United Nations Demographic Year Book (1960).
9. United Nations Year Book (1965).
10. United Nations Year Book (1966).
11. United Nations Year Book (1967).
12. Report of The Special Comittee on the Situation with regard to the Impleimintation of The Declaration on the Granting of Independence to Colonial Countries & Peoples (Study of the Activities of Foreign Economic & Other Intersts in Southern Rhodesia & Other Mode of Operation (7 October 1966).
13. Report of the Commission on Rhodesian Opinion under the chairmanship of the Right honourable the lord Pearce (Presented to parliament — May 1972).

ثانيا — بعض نشرات ومطبوعات صادرة من هيئات تحرير زمبابوي :

"1. The Zimbabwe Review (Published by the Publicity & Information Bureau of the Zimbabwe African Peoples Union (Post Box 1657 — Lusaka. Zambia). June 1965 - March 1966 - April 1966-January 1967- February 1967 -October 1969.Dec 1969 & January 1970.
2. Zimbabwe Today (Published by The Zimbabwe African National union of Southern Rhodesia (5 Ahmed Hishmat Street Zamalek. Cairo U.A.R. (November 1965, April 1967, Dec. 1969 & January 1970).
3. Nkomo, Joshia : " One Man & One Vote ", The Only Solution in Southern Rhodesia » (Published by Zimbabwe African National Union of S.R.).

ثالثا مراجع عربية او مقربة :

1 — بدير ، صلاح الدين : التفرقة العنصرية فى افريقية (القاهرة 1966) .
2 — الراوي ، راشد : الاستعماري البريطانى ومشكلة روديسيا (1966) .
3 — البطريق ، عبد الحميد وآخرون : افريقيا حلم الاستعمار البريطانى (1962) .

4 ــ تشيرس ، ر. ج. هاريسون : الاستعمار الحديث (ترجمة دولت صادق ــ مراجعة محمد السيد غلاب) .
5 ــ الجمل ، شوقى : التضامن الاسيوي الافريقى وأثره فى القضايا العربية 1966 ..
6 ــ الجمل ، شوقى : الوحدة الافريقية ومراحل تطورها (1967) .
7 ــ الجمل ، شوقى : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها (1971) .
8 ــ حمدان ، جمال : استراتيجية الاستعمار والتحرر (1968) .
9 ــ الخشاب ، شوقى : اتحاد روديسيا ــ ونياسالاند (القاهرة 1964) .
10 ــ رياض ، زاهر : استعمار افريقيا (1965) .
11 ــ الصقار ، فؤاد : التفرقة العنصرية فى افريقية (1965) .
12 ــ صفى الدين ، محمد : افريقيا بين الدول الاوربية (القاهرة 1959) .
13 ــ غالى ، بطرس بطرس : منظمة الوحدة الافريقية (القاهرة د. ت، الناشر الانجلو) .
14 ــ ليجوم ، كولين : الجامعة الافريقية (ترجمة أحمد محمود سليمان ــ مراجعة عبد الملك عوده 1964) .
15 ــ نكروما ، كوامى : الاستعمار الجديد (ترجمة خيري حماد) .

رابعا ــ مراجع اجنبية :

1. Abraham, O.P. : The Early Political History of the kingdom Mwnee mutapa (Slisbury 1962).
2. Barber, James : Rhodesia, The Road to Rebellion (London 1967).
3. Barber, William : The Economy of British Central African (London 1960).
4. Bartlett, V. : Stuggle for Africa (1953).
5. Black, Colin : The Lands and People of Rhodesia & Nysaland (London 1961)
6. Boggs, S. : International Boundaries (New York 1940).
7. Brelsford, W.V. : Hand bookto the Federation of Rhodesia & Nysaland. (London 1960).
8. Carter, Margret : Rhodesia & Nysaland (London 1960).
9. Clegg, Edward : Race & Politics (Partnership in the Federation of Rhodesia & Nysaland (London 1960).
10. Cooper, Ayandele Gravin & Afigbo : The Growth of Africain Civilisation (London 1965).
11. Coupland, : East Africa & Its Invaders (London 1938).

12. Donald, S. Rotschild : Towards Unity In Afr'ca, A Study of Federation In British Africa (Washington 1960).
13. Duffy, J. : Protugeuse Africa (London 1959).
14. Franck, Thomas : The Struggle for Power In Rhodesia & Nyasaland (London 1960).
15. Gertrude, Sarah : Rhodes (London 1933).
16. Gross ,Felix : Rhodes (London 1933).
17. Hailey, Lord : An African Survey (London 1956).
18. Hanna, A. J. : The Beginnings of Nyasaland & North- Eastern Rhodesia (1859-95) (London 1965).
19. Hanna, A.J. : The Story of the Rhodesia & Nyasaland (London 1960).
20. Hensman, Howard : A. history of Rhodesia Complied from Official Sources (Edinburg 1900).
21. Hertslet, E. : The Map of Africa by Treaty. Vol. I (London 1909).
22. Johnston, H. : A History of the Colonization of Africa by Alien Races (1913).
23. Keatley, Patrick : The Policies of Partnership (London 1909).
24. Kelltie, Scott : The Partition of Africa (London 1985).
25. Kruger, Paul : The memoires of Paul Kruger Vol. I (London 1954).
26. Kuper, H. : The Shona & Ndebele of Southern Rhodesia (London 1954).
27. Leo Marquard : The Story of South Africa (London 1954).
28. Leys, Colin European Policies in Southern Rhodesia (London 1959).
29. Leys, Colin & Prate, Granford Rhodesia & Nyasaland (N.Y. 1961).
30. Livingstone, David Missionay Travels & Researches In South Africa (1857).
31. Lockhart & Woodhouse : Cecil Rhodes (N.Y. 1963).
32. Marais : The Fall of Kruger's Republic (Oxford 1961).
33. Masan, Philip : The Birth of a Dilemma (London 1958).
34. Maurette, Fernand : Geographic Universelle Tome XII (Paris 1883).
35. Mtashali, Vulidlela : Rhodesia, Background to Conflict (London 1968).
36. Pemberton, Baring : Battles of the Boer War (London 1964).
37. Ransford, Oliver : The Rulers of Rhodesia from Earliest times to Referendum (London 1968).
38. Raner, Wialliam : The Tribe & Its Successor (London 1962).
39. Robinson, R & Callagher, J. : Africa & The Victarians (London 1961).
40. Samkange, Stanlake : Origins of Rhodesia (London 1968).
41. Seligman G.G. : Races of Africa (London 1959).
42. Stamp, Dudley : Africa, A Study of Tropical Development (N.Y. 1959).
43. Todd, Judith : Rhodesia (London 1966).
44. Tracey, H. : Antonio Fernandes (Lourenco Marques 1940).
45. Waugh, Evelyn : Tourist in Africa (New York 1960).
46. Welch, S.R. : South Africa Under King Sebastian (Cape Town 1949).
47. Woolf, Leonard : Empire & Commerce In Africa (London 1920).

D : ch, A, A, A :

الإسلام والتطور
في ضوء فلسفة محمد اقبال (1)

محمد الكتاني

هناك عدة معطيات فى تاريخ المجتمعات الاسلامية الحديثة تسمح بتناول موضوع كهذا يتعلق على وجه التحديد بموقف الاسلام من حركة التطور التى يعرفها عالمنا المعاصر .

ذلك أن المجتمعات الاسلامية الحديثة قد عرفت الوانا من التطور الحثيث ، الذي غير وجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية التى كانت تعيش المجتمعات الاسلامية على نسقها من قبل ، فاصبحت حياتها الجديدة بعد احتكاكها بالحضارة الغربية تختلف فى نظمها واخلاقها واسسها التشريعية والقيم التى تنطوي عليها تلك النظم عن الحياة التى عاشتها كامتداد للحضارة الاسلامية الوسيطة .

وهناك عدة عوامل قضت بهذا التغيير ، او قضت بهذا الانقلاب الجذري فى حياة المجتمعات الاسلامية . منها ان القرن العشرين الذي نعيش فيه يوصف بانه قرن التطور الحاسم فى تاريخ البشرية ، ويكفى ان نشير الى انه القرن الذي انتقل فيه التاريخ البشري الى عصر الذرة ، او

1) سيصدر للكاتب قريبا كتاب تذكارى عن (محمد اقبال مفكرا اسلاميا) . يتناول هذا الموضوع فى اطار سياقه الكامل من موقف اقبال الاسلامى .

غزو الفضاء او غزو الافلاك والكواكب وانه القرن الذي خاض الانسان فيه غمار حربين عالميتين غيرتا الكثير من القيم والتقاليد والعلاقات الدولية، واستعادت فيه الشعوب المستعمرة استقلالها وسيادتها، ومن جملتهـا الشعوب الاسلامية، فواجهت هذه الشعوب مشاكل الحكم الذاتى، ومشاكل التخلف ومشاكل التنمية. وبحسبك أنك لا تري في كل مجال ولا تسمع على كل لسان الارغبات تتوق الى الحياة الجديدة، والاعقولا تؤمن بالتطور وتنشد التقدم وهذه الحركة لها تاريخ ممتد وطويل ، فمنذ الثورة الصـــناعية في اوروبا اصبح الانسان لا يتقدم فقط ، ولا يتطور فقط ، وكان الامر خارج عن طبيعته وارادته ، وانما يحدد الانسان نفسه مراحل هذا التطور ، ويخطط لهذا التقدم ، فيختصر المسافات ويطوي المراحل طيا . ومن ثم نــرى انــسان القرن العشرين سواء كان ينتمى الى العالم الاول أو العالم الثانـــى او الثالث يعلم انه لا بد من ان يتخذ من التطور حليفا بالرغم منه، وان يسعى دائما لتغيير اوضاعه وتجاوز قدم منها واستنفد امكاناته، والا كان عليه ان يواجه الانحلال أو الموت ، وكانت النتيجة ان كل مجتمع ذا حضارة عريقة كالمجتمعات الاسلامية اصبح يعانـــى توترا بين ماضيه وحاضره .

وتطرح مشكلة التوتر نفسها على هذا النحو : كيف يوفق المجتمع بين معطيات تراثه وتقاليد ماضيه الذي هو أساس من أسس الاستمرار والاصالة وبين مشكلات التعاصر وتجاوز الاشكال العتيقة ، مما يعتبــر أساسا للتحرر والانعتاق والتكيف مع الواقع ؟

وتطرح مشكلة التآصل والتعاصر نفسها على جميع المستويات ، ولا يمر يوم دون أن يزيد من تضييق سلطان الماضى على نفوس الناس وعقولهم بالنسبة لهذه الشعوب التى كان لها ماض تزهو به وتعتز ، وذلك تحت ضغط التقدم الآلى ، ومشاكل التنمية التى تعطى الاسبقية لضمان الغذاء والعمل والصحة والتعليم .

وهناك عامــل آخر ، وان كان يطرح من وجهة نظر خاصة ، هــو ان الانسان الذي اكتشف قوانين الطبيعة ، وسخرها في خدمته يحاول ان يكتشف القوانين التى يتحرك بها تاريخه ، وذلك لتحقيق مصيره المحتوم مع

تجنب ما لا غناء فيه لعرقلة هذا التاريخ المتطور عبر مراحل معلومة نحو مصائر معلومة . أما الماركســـي فيعتقد انه قد اكتشف هذه القوانين بالفعل، وأما سواء من عقلانى أو ميتافيزيقى فما يزالان يعتبران التطور خارجـــا عن ارادة الانسان نفسه ، وما تزال قوانين هذا التطور فى حكم الغيب .

واذا كان التطور الانسانى حقيقة لا تقبل الجدال افلا يحق التساؤل بالنسبة لنا نحن المسلمين على هذا النحو الذي طرحه منذ سنوات المستشرق الامريكى ولفورد سميث : هل هناك شىء خاص يخص الاسلام والمسلمين فى هذا المعترك الحضاري ، وفى هذا الانغمار الدرامى فى صنع تاريخ جديد للانســــان ؟

والحقيقة أن المفكرين الاسلاميين الواعين ، منذ جمال الدين الافغانى كانوا يشعرون بهذه المشكلة على نحو من الانحاء ، وغالبا ما صوروهـــا بصورة الصراع بين الاسلام والحضارة الغربية . ووقفوا منها او من الحضارة الغربية مواقف متباينة عكست تصورات متباينة للاسلام ، من التصور السلفـــى الوهابى الى التصورات الاخرى المتعددة المتعاقبة . فقد كان للاسلام فى نظرهم جميعا صورة ثابتة فى جميع مستوياته ان فى التشريع أو فى الاخلاق أو فى الاعتقاد (2) . وكانوا يرون التحرك الحضاري ينطوي على مناقضة الاسلام ، لا سيما حين يتعلق الامر بتحكيم العقل وحـــده فى توجيه الحياة الانسانية .

واذن فمصير الاسلام اليوم يتوقف الى حد بعيد على قدرة المسلمين انفسهم على اقامة ذلك التوازن بين سلطان العقل وسلطان الوحى، فى الحدود التى رسمها الاسلام نفسه على أساس التصور الميتافيزيقى الـــذى يقدمه فى هذا المجال . أين يقف المسلم واين يتقدم ، واين يحكم عقله ، واين يلتزم بأمر الله ويسكت صوت عقله ، ماذا يأخذ وماذا يدع من حضارة الانسان الراهنة ومعطياتها ونزعاتها ؟

---

2) هناك استثناءات لا سبيل الى ذكرها الان ، كموقف محمد عبده مثلا من بعض الاصول الاسلاميـــــــة .

لا نحب هنا أن ندلى برأي خاص فى هذا المشكل الخطير ، وانما نحب أن نميط ستار النسيان . اذا لم يكن هناك الا النسيان عن افكار رجل مسلم وشاعر وفيلسوف انجبته الهند الاسلامية ، فيمن انجبت من عباقرة ومفكرين ، هذا المفكر هو محمد اقبال ، الشاعر الفيلسوف الباكستاني الذي نحيى هذه السنة ذكراه الميلادية المئوية الاولى ، ففى أفكاره ما يشكل موقفا متميزا بين المواقف الاخرى ، قوامه العمق والاخلاص والشجاعة .

لقد نظر الكثيرون الى اقبال على أنه شاعر ، أو على انه فيلسوف، او على أنه رائد من رواد انشاء دولة باكستان . وننظر اليه الآن كمفكر اسلامى واجه قضية الاسلام والتطور مواجهة صريحة وعميقة .

هناك فى الحقيقة عدة عوامل حملت اقبال على اثارة هذا الموضوع . فقد لاحظ اولا ان التفكير الدينى فى الاسلام ظل راكدا خلال القرون الخمسة الاخيرة ، فى حين عرف الفكر الاوروبى خلال هذه القرون الخمسة بالذات حركة دائبة ، ونهضة شاملة ، وتطورا خلاقا افادت منه الانسانية جمعاء فى كل ميدان من ميادين الحياة . دع عنك أن هذه النهضة الاوروبية أفادت هى بدورها الشىء الكثير من الحضارة الاسلامية ، فهذا ما لا يغير اليوم من واقع الامر شيئا . وواقع الامر هذا ان المسلمين اليوم أصبحوا — كما يرى اقبال — ينزعون نحو الغرب ، ونحو تمثل حضارته ، والتعلق روحيا بفلسفاته مما يتنافى فى ذلك مع دينهم وقيمهم . وان ما يخشاه المرء من هذا التعلق والانقياد لتاثير الغرب أن يكون المظهر البراق لحضارته وثقافته عائقا يشل حركة التقدم ، وينحرف بالتفكير الاسلامى عن وجهته ، ويصبح المسلم فى وضع استلابى ، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا الا بما تشاء له مصلحة الغالب فى الضعيف المغلوب .

وهناك أمر آخر شعر به اقبال ، فى تلك الفترة من حياته ، وهو أن شباب المسلمين فى آسيا وافريقيا يبحثون عن توجيه جديد لعقيدتهم ، أي يتطلبون مفاهيم جديدة للدين تتناسب مع تطور العقل الانسانى . ولهذا كان من الواجب أن تعزز هذه اليقظة التى هبت ريحها على الشعوب الاسلامية بثقافة جديدة ، تقوم على تمحيص حقيقى لنتائج الفكر الاوروبى،

وبروح مستقلة ، لتكشف للاجيال الاسلامية عن المدى الذي تستطيع بـه الحضارة الغربية وثقافتها ان تفيدنا به نحن المسلمين فى اعـادة بنـاء حضارتنا ، والنظر فى شؤون حياتنا العقلية أو فى تجديد تفكيرنا الدينـى ، او فى بنائه اذا لزم الامر .

وامر ثالث لم يغفل عنه اقبال ، واعتبر من الخطأ تجاهله أو تجاهل تاثيره على الشبيبة الاسلامية . وهو هذه الحركات الالحادية ، والفلسفات المادية والانظمة المنبثقة عنها ، والتى اخذت تحرك اطرافا من شعوب آسيا وتغزو المجتمعات الاسلامية . ولا ادل على ذلك فى نظره من تأثير بعض مفكري وشعراء تركيا الذين ثاروا على الاسلام ، وخلعوا ربقته ، وكانوا نواة الانقلاب اللادينى فى الربع الاول من هذا القرن .

كل هذه العوامل ، وما كانت تمارسه من ضغوط على تطور المجتمعات الاسلامية بحيث توجهها فى خط بعيد عن الاتجاه السليم نحو تمثل عقيدتهـا واحياء دينها لاحظه محمد اقبال وقدر عواقبه ، فاعلن : « انه آن الاوان للنظر فى مبادىء الاسلام وأصوله » (3) . ومن أجل هذه الغاية ساهم فى مناقشة بعض المبادىء الاساسية والاصول الاعتقادية فى الاسلام ، التى من شأنها أن تعين الاجيال الجديدة على فهم هذا الدين فهما صحيحا ، بوصفه الدين العام الاكمل الذي ارتضاه الله للانسانية . وهذه المناقشة هى اطار محاضراته الست التى جمعها فى كتابه (تجديد التفكير الدينى فى الاسـلام) (4) .

أما من حيث المنهج الفكري الذي انتهجه فى تحديد موقف الاسلام من التطور الحتمى الذي كان يغير كل شىء فى تاريخ الشعوب الحديثة فهو منهج مستمد من مزاج رجل فيلسوف أو مفكر مـتـأثر بالمذاهب الفلسفية الغربية . فهو لم ينظر الى قضية تطور الاسلام كمشكل مستقل عن فلسفة الاسلام نفسها ، اي عن بنائه الميتافيزيقى كله ، بل نظر اليه كحركة ينتظمها

---

3) تجديد التفكير الدينى : ص 15 .
4) دعى اقبال سنة 1928 الى كلية مدراس ، فالقى أولى محاضراته الست التى أكملها فيما بعد فى اله آباد وعلكرة . (محمد اقبال للدكتور عبد الوهاب عزام) . ص 33

الموقف الاسلامى ككل من طبيعة الحياة الانسانية ورسالة الانسان على الارض .

ان التحديات الجديدة التى يواجهها الاسلام اليوم تجاه الحضارة الغربية بعضها ثقافى ، وبعضها حضاري ، وبعضها ايديولوجى . وهذه التحديات طبيعية وليس الخطر فى وجودها بقدر ما يكمن الخطر فى سوء فهم المسلمين لدينهم ، بحيث يقود سوء الفهم هذا الى موقف خاطىء . وهنا نتساءل : ما موقف الاسلام اساسا من ظاهرة التطور مع العلم أنه دين له طبيعة الدين السماوي الكامل ، ولا سبيل الى اعادة النظر فيه الا من جهة واحدة وهى الاحتجاج له او الدفاع عن مبادئه مثلما فعل المتكلمون الاولون. فالاسلام بطبيعته لا يقبل اي شكل من اشكال التطور طالما انه وحى وانتهى فى عهد صاحب الرسالة وخاتم النبيئين محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وطالما أننا نفهم من كلمة التطور مفهومها البيولوجى او العلمى (5) .

من أجل ذلك اضطر اقبال الى فحص مبادىء الاسلام الميتافيزيقية من جديد ، والنظر من جديد فى طبيعة المبادىء التى جاء بها الاسلام ، وما توحى به من مواقف ، او تمنحه من اعتبار لطبيعة الانسان فى هذا الكون ، وهى طبيعة متطورة بنفسها . واذن ما هو التصور الذي يقدمه الاسلام للانسان عن دوره فى الحياة ، ومن صلته بالوجود ، وعن تنسيق جهوده ، والتوفيق بين حاجاته وغاياته العليا ؟

ان المجال يضيق امامنا عن تحليل كل ما يتصل بهذا الموضوع على النحو الذي حلله محمد اقبال فى محاضراته الست ، من اجل صياغة فلسفة كلامية جديدة ينطلق منها المسلم المعاصر نحو مواجهة واقعه وبناء وجوده . ولكن لا ينبغى رغم ذلك ان يفوتنا تحديد المنطلق الاساسى الذي سينطلق منه نحو تحديد موقف الاسلام .

يرى اقبال ان موقع الانسان من الوجود ، وطبيعة تكوينهما يهيئانه لامرين أساسيين :

---

5) سيأتى تحديد مفهوم التطور اثناء المقالة .

1) الامر الاول ادراك ما يحيط به من الظواهر الكونية ، بحكم ما زود به من قدرة عقلية ، تمكنه من بناء صرح المعرفة أو العلم فى شتى مناحيه وموضوعاته .

2) والامر الثانى اكتشاف الحقيقة الكلية وادراكها مباشرة بحكم ما زود به من قدرة على خوض التجربة الروحية التى تعتمد على البصيرة والالهام . فهناك اذن الفكر والبداهة ، العقل والبصيرة ، التجربة العلمية والتجربة الدينية .

وليس هناك فى نظر اقبال من سبب يدعو الى الظن بأن الفكر والبداهة متضادان بالضرورة ، لانهما ينبعثان من اصل واحد ، وكل منهما يكمل الآخر ، فأحدهما يدرك الحقيقة جزءا ، والآخر يدركها فى جملتها ، متفقا فى هذا المنطلق مع الفيلسوف الفرنسى برجسون القائل بأن الحدس الوجدانى ليس الا ضربا عاليا من التفكير .

الانسان فى نظر اقبال يسعى الى ادراك هذا العالم ، عن طريق تتبع ظواهره واحداثه ، وتحديد صفات كل منها لاستنباط القوانين ، وتصنيف الاشياء ، واقامة صرح المعرفة على أساس من وعى ما يجري ، وادراك النظام الذي يتحرك به كل شىء . وبامكانه مع ذلك ــ لو اراد أن يسعى ــ أن يكتشف الحقيقة العليا المحيطة بهذا النظام نفسه ، المدبرة لوجوده ، من خلال تجربة روحية ، تتخطى كل الحواجز المادية القائمة بين الانسان وبين هذه الحقيقة المطلقة ، فعلاقته بالكون فى المستوى الاول أو المستوى الثانى علاقة واعية عاقلة حدسية . وهكذا يتحدد مصدر الدين نفسه فهو فى جوهره مستمد من المصدر الثانى ، مصدر الوحى او التجربة الدينية ، التى هى بطبيعتها فوق تجربة العقل . وليس الوحى الا ظاهرة كونية من ظواهر الوجود ، تتدخل فى توجيه عوالم متعددة على تفاوت فى قدرة التلقى وسمو الغاية ، من هذه العوالم التى نعلمها عالم الملائكة وعالم الانسان ، وعالم الحيوان وعالم الجماد . والآيات التالية تشير الى هذه الدلالة الشمولية للوحى :

ــ « وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ». (6) .

ــ « واوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون » (7) .

ــ « اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا » (8)

ــ « واوحى فى كل سماء امرها » (9) .

ــ « يومئذ تحدث اخبارها بان ربك اوحى لها » (10) .

وتتفاوت درجات الوحى حسب درجات الكائن الذي يتلقى هذا التوجيه الغيبى . والمهم ان الانسان فى طفولته البشرية كان اقرب الى ضرورة هذا التوجيه النبوي او السماوي ، لان عقله الاستدلالى لم يبلغ به بعد درجة يمكن الاعتماد عليها فى قيادة حياته . ولكنه عندما بلغ رشده اصبحت قوة الوجود العليا تكبت فيه تلقائيا تلك القوى الروحانية الاخرى التى لا تتلاءم مع مسئوليته ، وتتركه لمقاليد العقل شيئا فشيئا . ولهذا اعلن الاسـلام ختم النبوات واعلن كمال الدين . (11) ، وكانه يعلن بذلك ضمنيا ان العهد الذي يتكل فيه الانسان على التدخل الغيبى قد انتـهـى ، وان ما لا يبلغه الانسان الا بالوحى قد تقرر نهائيا ، وأن تـاريـخ الانسان بعد مجـىء الاسلام يواجه مرحلة جديدة يعتمد فيها على عقله . ويقول محمد اقبال بهذا الصدد : « ان النبوة فى الاسلام تبلغ كمالها الاخير فى ادراك الحاجة الى الغاء النبوة نفسها ، وهو امر ينطوي على ادراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمدا الى الابد على مقود يقاد منه ، وان الانسان لكى يحمل كمال معرفته لنفسه ينبغى ان يترك ليعتمد على وسائلـه هـو (12) .

---

6) سورة النجم ، الاية 4 .
7) سورة النحل ، الاية 68 .
8) سورة الانفال ، الايـة 12 .
9) سورة فصلت ، الايـة 12 .
10) سورة الزلزلت ، الاية 5 .
11) قال الله تعالى : اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا المائـــدة 3 .
12) تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ص 144 .

ـ والاسلام فى نظر اقبال يعلن ان التاريخ البشري قد بدا مرحلة العقل ، وهذا سر اهتمام الاسلام فى نظرنا بالعقل فى منطوق النصوص ومفهومها ، واعتباره التفكير فريضة دينية (13) .

والاسلام من منظور آخر انما يواجه فى هذا العصر المشكلة التى واجهها فى عصر مضى ، وهى مشكلة الصراع الدائر بين الدين وبين الحضارة . فالدين من حيث هو نظام عقائدي ثابت يبحث حسب كل ديانة عن مستقر للحياة الروحية ، يتخلص فيه الانسان من الصراع المادي والروحى. أما الحضارة فهى نظام للحياة الاجتماعية ، متجدد منفتح على معطيات التجارب البشرية . والحضارة انما تبحث عن رفاهية الانسان وسعادته الارضية قبل كل شىء . هذا التعارض الصميمى بين نزعة الدين الروحية، وبين نزعة الحضارة المادية تجلى مثلا فى المسيحية ، التى تقود الانسان الى الخلاص عبر آلام التطهير نحو مستقر روحى ، وتتجلى فى التصوف الذي يجعل من شعاره : « موتوا قبل ان تموتوا » (14). ان هذا التعارض بين الذات والموضوع ، او بين العالم الخارجى والذات الانسانية بين فهم الكون كحقيقة موضوعية ، وبان احتوائه كحقيقة مطلقة صوفية هو ما ينبغى ان نبحث عن موقف الاسلام منه . وهنا يعلن اقبال ان الاسلام يختلف عن المسيحية ، لانه يدرك ما بين عالم الذات وعالم الواقع من علاقة مادية ، بل هو يريد ان يبقى على هذه العلاقة فى وئام ، ويوجه العقل الى التماس القناعة بالحقيقة العليا من خلال هذا الكون المادي . وان اكتشاف نظام هذا الكون حسب منطق القرآن هو المجال الوحيد للبرهنة على وجود الله ، والآيات التالية دليل على ذلك :

ـ « وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » (15) .

ـ « ان فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والارض لآيات لقوم يتقون » (16) .

---

13) الف العقاد كتابا فى هذا الموضوع . بعنوان «التفكير فريضة اسلامية» . ط. دار القلم.
14) حديث غير ثابت ، ولعله من وضع بعض الصوفية . راجع المقاصد الحسنة ص 202 .
15) الدخان 38 ـ 39
16) يونس : 6

بالاضافة الى ذلك فان العالم مرتب على نحو يجعله قابلا للامتداد والزيادة قال تعالى ((يزيد فى الخلق ما يشاء ، ان الله علـــى كــل شىء قدير)) (17) ويستنتج اقبال من ذلك ان هذا العالم كتلة قابلة للامتداد والتطور ، وليس كتلة مكتملة الخلق ، وربما استقر فى اعماق هذا الكون حلم نهضة جديدة . ((قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ، ان الله على كل شىء قدير (18) .

تلك طبيعة العالم ، وما يحمل فى طياته من امكانات التجديد والتطور، والانبعاث بعد الانحلال . فما طبيعة الانسان الذي يواجه هذا العالم ؟

يجيب اقبال بان طبيعة الانسان طبيعة قلقة ، تشغلها المثل العليا ، وتنزوي بها الحاجات الملحة ، ولهذا تعانى الآلام المبرحة فى سبيل البحث عن الآفاق التى يتحقق فيها التوازن المنشود ، فالانسان كتلة بيولوجية ، تعكس ما فى الطبيعة من امشاج وتناقضات ولكنه فى نفس الوقــت روح متسامية وعقل مستنير ، وبصيرة ناقدة ، فهو قادر على اكتشاف نفسه وقيادتها ولهذا فهو مدعو الى اختراق الآفاق لمعانقة الحقيقة والتسامى اليها عبر مراحل من التطور والارتقاء . وبهذا يؤول اقبال معنى الآية : ((فلا اقسم بالشفق والليل وما وسق والقمر اذا اتسق لتركبــن طبقا عــن طبق)) (19) .

فلا تعارض اذن بين الذات والموضوع ، ولا بين الروحى والمادي فى التصور الاسلامى . فاذا اضفنا الى ذلك ان القرآن دعا العقل الانسانى لاكتشاف عالم الطبيعة ومجرى التاريخ وما ينطويان عليه من قوانيــن او سنن كونية ، وهى دعوة صريحة الى مواجهة عالم الحس والتجربة عن طريق الاستقراء والاستدلال ، وكيف انتهى هذا المنطق الحسى التجريبى فى الفكر الاسلامى الاصيل الى مناقضة المنطق اليونانى الصوري عرفنا مدى الاعتبار الذي يوليه الاسلام للوجود المادي . والنتيجة من هذا كله ان

---

17) فــاطــــــــر : 1
18) العنكبـــــوت : 20
19) الانشقـــــاق : 16 .

الطبيعة والتاريخ سيظلان فى حركة جدلية خلاقة ، فالانسان سيد بيئته ، وقد رسم له الاسلام منهج التفكير والبحث لتسخير هذه البيئة وادراك قوانينها ، وتلك هى أصول الموقف الاسلامى التى يتحدد فى ضوئها موقفه الآخر من حركة التطور . وهذه الاصول هى تزكية العقل واعتبار المادي وجها للروحى ، واعتبار التجربة والاستدلال الحسى المنهج الوحيد الذي يقود الى الحقيقة ، جزئيا عن طريق التجربة العلمية ، أو كليا عن طريق التجربة الدينية .

ولكن، هل حددنا مدلول التطور الذي نقصده فى هذا المجال؟ ينبغى قبل ان نمضى فى الاستنتاج أن نحدد طبيعة هذا التطور الذي يحاول اقبال التوفيق بينه وبين طبيعة الاسلام :

يمكننا أن نلاحظ ظاهرة التطور ـــ باعتباره اتجاها عاما للنمو، وتنويع الوظائف ، وتعقيد البنيات ، وتجاوز الاشكال الجاهزة ، فى ثلاثة مستويات :

1 ـــ المستوى البيولوجى العضوي .

2 ـــ المستوى الاجتماعى فى الحياة الانسانية .

3 ـــ المستوى الثقافى بكل ابعاده .

ولكى لا نتورط فى ايراد تفاصيل المفاهيم التى يطرحها علماء البيولوجيا او علماء الاجتماع ، او الاثنولوجيون ، أو الانثروبولوجيون لظاهرة التطور علينا ان نعتبر ان المستوي الاجتماعى هو الذي يهمنا . وقد الحت فكرة التطور على الاجتماعيين منذ ظهور كتاب داروين « اصل الانواع » فى منتصف القرن الماضى . فاصبح لهذه الكلمة سحر خاص فى نفوس الناس ، وبولغ فى اهميتها ، واخذ كل باحث فى ميدانه الخاص يبحث عن التطور فى المادة التى يبحثها ، ولو كانت ادبا . وكان اوغوست كونت أهم من اعتبار التطور قانونا طبيعيا فى الميدان الاجتماعى والثقافى ، وجاء

بعده سبينسير فجعل التطور قانونا كونيا شاملا . فلناخذ اذن بظاهرة التطور فى المستوى الاجتماعى على أن نفسرها بأبسط ظواهرها . وهنا نجد ان المجتمعات تتبع خطا واحدا من النمو الاجتماعى ، يتجلى فى تزايد التخصص المهنى ، والتشعب فى التنظيم ، والتعقيد الاقتصادي ، والتنويع فى الانتاج ، واستبدال الاشكال المستنفدة باشكال أخرى أكثر دقة وأوفى حاجة . ولكن هل يعنى هذا التطور حتما معنى التقدم ؟ ذلك ما لا يتفق عليه المختصون فى هذه الدراسات . لان من المتناقضات الغربية ان يصبح التطور فى بعض المجتمعات مهددا بانحلال البنيات الاجتماعية ، بحيث يخلق فجوة لا تعبر بين التقدم التقنى والانحلال الخلقى ، بين تسخير الطبيعة ، وضياع الانسان ـ كما حصل فى بنيان الحضارة الغربية ـ وكلما امعن التطور فى هذا المجال ازداد التدهور فى المجال المقابل . وعلى اي حال فان المجتمعات تنسلخ من حضارتها التقليدية ، وتندمج فى حضارة جديدة ، وكان ذلك تحت تاثير الاحتكاك بالحضارة الغربية نفسها ، فأخذت هذه المجتمعات الاسلامية الحديثة عرفت هذا التغير العميق فى بنياتها الاجتماعية، تختلف فى قيمها وفى اصولها عن الحضارة الاسلامية .

وبالرغم مما كان يقال عن هذه الحضارة الغربية او ما يزال يقال من ضروب النقد والتنديد فان هذه الحضارة افلحت اخيرا فى الهيمنة على اوضاعنا الاقتصادية والاجتماعية والفكرية . فالعالم الاسلامى اليوم يتحرك مع الاقتصاد العالمى ، ويتعامل فى ذلك بمقتضى قوانين السوق الرائجة، وبمقتضى الفوائد الربوية غير مبال بتحريم او تحليل . والعالم الاسلامى يتحرك مع الانظمة الاجتماعية والسياسية التى اشاعتها التجربة الغربية بين أمم العالم ، فيذهب بعضها يمينا ، وبعضا يسارا ، نحو البحث عن اقرار عدالة اجتماعية ، تستهدف رعاية حقوق الاقليات او الاكثريات حسب المذاهب والانظمة . ووراء هذين الاتجاهين : الاقتصادي والاجتماعى تنهض بنيات فوقية من الايديولوجيات والثقافات والقيم الاخلاقية .

حصل هذا التغير او التطور فىالعالم الاسلامى ، فاثار حربا فى كل نفس ، ومعركة على كل لسان ، فطائفة مضت فى التكيف مع الواقع الجديد لا تسال نفسها ، ماذا تركت خلفها ، ولا ماذا تستقبل امامها . وطائفة

جمدت على تقاليدها وتحدت كل تغيير ، فعزلت نفسها عن التاثير فى الواقع. وطائفة ظلت تتردد بين المحافظة وبين التجديد ، بين الثبات وبين التطور ، باحثة عن التوفيق أو التلفيق ، ولم يكن لها وزن عند هؤلاء أو أولئك .

نحن اذن أمام تطور هائل ، أو مخيف ، أو منذر بأسوأ العواقب ، على مجتمع يملك ميراثا من حضارة ، وقبسا من وحى ، وقدوة من الماضى يعتز بها ، ولا تسخو نفسه بتركها . وكان محمد اقبال من أولئك الذين شعروا بهذه الدوامة الرهيبة ، وبما توشك أن تفضى اليه من القضاء على هـذه الحضارة الاسلامية ، واطفاء نورها ، شعر اقبال بهذا الخطر على نحو من الانحاء . وبادر الى عمل شىء فى سبيل تجنب الكارثة . وكانت تبدو امامه عدة واجهات للعمل . ومنها واجهة ترميم الفكرة الدينية فى قلوب النـاس وعقولهم ، بملء الفراغ الروحى بما يتلاءم مع الحياة الجديدة . ومنها واجهة الدفاع عن الاسلام أمام طعون المستشرقين والمنكرين والملحدين ، كحملة من حملات الاستعمار والتغريب . ومنها واجهة الحياة الاجتماعية والنفسية للمسلمين وما ران عليها من فساد وانحلال وسلبية ومشاعر خسيسـة وقناعة باليأس والحرمان والتبعية

ومن هنا جاءت فلسفة اقبال الدينية ، ودواوينه الشعرية الطافحة بالحماس والاخلاص والنقد والتوجيه والشكوى والعتاب . دعا الى الايمان بالذات ، واضعا فلسفة لتماسكها وصنع مصيرها فى منظومة (أسـرار خودي) ، وفيها دعا الى العمل ، والاهتمام بالعالم المادي ، والتحرك مع الواقع ونبذ التصوف الرهبانى وما يدعيه من خوارق ووصول وحلول (20).

---

20) ويكفى ان نشير الى ان اقبال يجعل من مقاصد الحياة وأهدافها العليا الدوافع الكبرى للخلق والابداع والتجدد المستمر ، فلا حياة بدون دوافع تتسامى بالذات عن نفسها فى كل لحظة . وفى هذا المعنى يقول :

انمـا يبقـى الحيـاة المقصـد ... جـرس فى ركبهـا مـا تقصـد
اصلهـا فى أمـل مستتـر ... سرها فى السعـى منهـا يضمـر
احـى فى قلبـك هـذا الامـلا ... او يحـل طينـك تـربـا مهمـلا
فحيـاة القلـب مـن نـار الـرجـاء ... مـا سـوى الحق لدى القلـب هباء
فـاذا عـى بتحليـق المنـى ... هيض سقطـا وعـن الطيـر ونـى
ويميـت الحـى فقـدان الـرجـاء ... يطفـىء الشعلـة فقـدان الفـداء

ودعا الى الروح الاجتماعية وتسخير الذات فى خدمة الجماعة فى منظومة اخرى سماها : « رموز بيخودي » . ثم قام بعد ذلك بعشر سنوات بالقاء محاضراته الست فى موضوع تجديد الفكر الدينى فى الاسلام ، وفى هذه المحاضرات حاول بناء علم كلام جديد يلائم فيه بين الكثير من الآراء الفلسفية والمعتقدات الاسلامية . وكان حديثه عن ضرورة التطور بالنسبة للمجتمع الاسلامى مبنيا على اساس ما للاسلام من تصور كونى يلقى على الانسان مسؤولية تشكيل مصيره وتحقيق خلوده ، والتواصل مع الحقيقة العليا .

وفى المحاضرة الخامسة من محاضراته يعرض لموضوع يتصل بقضية التطور ، وكيف يقوم التشريع الاسلامى على اساس اعتبار هذا المبدا اعتبارا اكيدا . فما جوهر دعوته فى الموضوع ؟

يقرر اقبال ان الثقافة الاسلامية قامت على اساس اعتبار الكون متحركا متغيرا على الدوام . كما قامت على اساس ثان ، وهو وجود حقيقة مطلقة تعتبر الظواهر الكونية المتغيرة دليلا على وجودها وهى الله . ويقول :

ان المجتمع الذي يقوم على تصور الحقيقة على هذا الوجه لابد من ان يوفق فى وجوده بين نسق الثبات ، ونسق التغير فى آن واحد . ولابد لهذا المجتمع ان يكون له فى شريعته مباديء ابدية تنظم حياة الجماعة وتضبط امورها ، وذلك لان الثابت الابدي يثبت اقدامنا فى عالم متغير باستمرار . ولكن اذا فهمنا ان المبدا الابدي يستبعد كل امكان للتغيير فان هذا الفهم قد يجعلنا نثبت ما هو متحرك بطبيعته وان اخفاق اوروبا فى تجربتها السياسية والاجتماعية يشير الى عدم ايمانها بما هو ثابت فى هذه الحياة . كما أن اخفاق العالم الاسلامى فى القرون الخمسة الاخيرة من انحطاطه يشير الى عدم ايمانه بضرورة التغير والتطور ، والاساس الذي يعتبره اقبال منطلقا لهذا التطور هو النظام الحقوقى او التشريعى فى الاسلام ، لانه وحده ينظم سلوك المجتمع الاسلامى ويحفظ كيانه ويرعى حاجاته ويلبى تطلعاته . فاذا كانت الشريعة الاسلامية قابلة للتطور كان الاسلام حتما

منسجما مع تلك الاصول التى بنى عليها تصوره الميتافيزيقى ، وهى التـى تقدم الكلام عليها . ومصداق ذلك أن الثقافة الاسلامية غنية بمادة الفقه ، تلك المادة التى استوعبت كل امكانات التنظيم لبيئة متعـددة الاجنـاس والحضارات .

ويعتبر اقبال ان الاجتهاد فى الشريعة الاسلامية هو الباب الاوسـع لتحقيق كل تطور اجتماعـى تمليه الضرورة ، ان جميع المذاهب الفقهية اقرت بامكان الاجتهاد ولو فى أضيق الحدود . فكيف انتهى الامر بالفقهـاء الى اغلا ق باب الاجتهاد ، وهو أمر يعده اقبال منافيا لطبيعة الشريعـة الاسلامية ، ومنافيا لمبدأ الحركة فى التفكير الاسلامى ؟ لقد علل ذلك بتخوف الفقهاء من امتداد الحركة العقلية على يد المعتزلة ، وهى حركة خاضت فى أمور قطعية لا سبيل الى مناقشتها . فماذا يكون مصير الجماعة الاسلامية لو امتدت هذه الحركة العقلانية الى ميدان الفقه نفسه ؟ وكانت هناك حركة التصوف التى شاعت فى المجتمع الاسلامى ، وجعلت بعـض المتصوفـة يتمردون على ظاهر الشريعة ، ويستخفون بالنصوص ، ويفرقـون بيـن الشريعة والطريقة والحقيقة . ويدعون انهم تجاوزوا الرسوم والشكليات. فقوى ذلك كله من حركات التحرر من ربقة الشريعة، واهمال الانضباط مع النظام الاجتماعـى . ثم جاءت كارثة سقوط بغداد على يد المغول فخشى الفقهاء على مصير الوحدة الاسلامية ، ووقفوا جميعا وراء النظام الاجتماعى الذي تحميه المذاهب القائمة بالفعل ، واغلاق باب الاجتهاد دون احداث مذهب جديد ، او رأي جديد . وقد أصابوا فى ذلك وأخطأوا ، أما صوابهم فيرجع الى ضرورة وجود عناصر ثابتة فى حياة المجتمع ، والى ان كـل استقرار اجتماعى انما تحققه القوة الالزامية والمستقرة للقانـون . وأمـا خطؤهم فيرجع الى كونهم تشبثوا بهذا الثبات الى حد تجاهلوا معه حقيقة التطور . فوقعوا فى التقليد والجمود . وقد حدث رد الفعل على يد ابن تيمية الحنبلى الذي استرد حق الاجتهاد، كما عمل فقهاء آخرون كبار على استئناف النظر المباشر فى النصوص الاسلامية متجاوزين حدود التقليد كابن حزم الظاهـري .

ويعتقد محمد اقبال ان حركة تركيا فى الانقلاب الجذري الذي حققته انما قامت على هذا الاساس من الاجتهاد ، ونعتقد انه ركب الشطط فى هذا

القول ، لأنه سيفضى به الى القول بأن فصل الدين عن الدولة ضرب من ضروب الاجتهاد، وقد أحس بذلك وظل موقفه غير واضح فى هذه القضية، أو لعله قصد الى أن تحويل الدولة الاسلامية من نظام الخلافة الى نظام الجمهورية بالمعنى الحديث هو ضرب من ضروب الاجتهاد .

لقد وضع اقبال على نفسه هذا السؤال الصريح : هل الشريعة الاسلامية قابلة للتطور؟ وكان جوابه ان الشريعة تقبل هذا التطور بشرط أن يواجه العالم الاسلامى هذا السؤال بروح الشجاعة والاستقلال فى الرأي كما كان يفعل عمر بن الخطاب . وهو ينظر الى كثير من المواقف المعروفة لعمر بن الخطاب فى تطبيق النصوص الدينية وأحكامها وكان ينظر أيضا الى ما يمكن أن تؤدي اليه حرية الفكر فى الاسلام الحديث ، وفتح باب الاجتهاد من نتائج ايجابية او سلبية معا ، ولهذا نراه عندما نادى بحرية الرأي وفتح باب الاجتهاد ناشد زعماء الاصلاح فى الدين والسياسة ألا يتجاوزوا فى تحمسهم لتحرير الفكر الحدود الصحيحة للاصلاح، مشفقا ان يؤدي التهور فى ذلك الى ما ادت اليه الحركة البروتيستانية فى اوروبا.

ومن جملة الاصول التشريعية التى يحللها اقبال فى هذا المجال القول بأصلية الاجماع فى التشريع الاسلامى ، ويستغرب كيف ان هذه الفكرة الهامة ظلت مجرد فكرة لا غير عبر التاريخ الاسلامى دون ان تتحول الى نظام تشريعى ثابت يبرز السلطة التشريعية للامة الاسلامية. غير انه يعلل ذلك بأن مصلحة الحكم المطلق الذي عرفه تاريخ الاسلام كان يتعارض مع هذه الفكرة العظيمة القيمة ، اذ ربما ادى تطبيق حق الاجماع الى قيام معارضة صعبة المراس على الخلفاء والسلاطين ؟ على أن مما يبعث على الارتياح ان ضغط العوامل العالمية وتجارب الشعوب الاوروبية قد جعل الفكر الاسلامى وقادة المسلمين يتفهمون ما لفكرة الاجماع من قيمة عظيمة، وما تنطوى عليه من امكانات لتغيير الكثير مما يجب تغييره من النظم والاوضاع . ويعتقد ان قيام هيئة تشريعية فى كل بلد اسلامى هو التحقيق الوحيد لفكرة الاجماع . ففى هذه الهيئة يلتقى العلماء بالشريعة ، مع خبراء فى كل فن ، او مع الممثلين للرأي العام فيشتركون جميعا فى وضع ما يتناسب مع مصالح الجماعة من تشريعات ونظم . وقد ناقش اقبال بتوسع

كل اصول التشريع الاسلامى من قرآن وحديث وقياس واجماع ، مستخلصا كل النتائج الايجابية التي يمكن الاستفادة منها فى تطوير الشريعة الاسلامية.

واخيرا ينظر اقبال الى ان التطور هو حاجة نفسية واجتماعية كما انه ظاهرة بيولوجية . وتطور الانسان المعاصر فى المجال الروحى والمادي دليل على هذه الحاجة ، وعلى ما ينبغى ان تتجدد معها من ضروب التوجيه والاصلاح . فالانسانية اليوم تحتاج الى ثلاثة امور :

1) استعادة الايمان بالروح فى هذا الكون ، او رد الاعتبار لكل ما هو روحـــى .

2) تحرير روح الانسان ، وتحرير عقله من رق التبعية والتقليد

3) وضع مباديء جديدة توجه المجتمع البشري نحو المساواة والاخوة الانسانية على اساس روحى .

ولقد اعتقد ان فى بعض المذاهب الفلسفية الغربية ما يجنح نحو هذه النزعة الانسانية او الروحية ، ولكن التجربة كشفت عن ان الحقائق التى يصل اليها العقل وحده لا قدرة لها على اشعال جذوة الحماس فى النفس الانسانية ، بقدر ما يستطيع ذلك الدين وحـــده . واوروبـــا فى تجـــاربهـــا السياسية والاجتماعية دليل على ما افضت اليه مذاهبها العقلية من تناحر واثرة واستبداد وظلم . فالعالم الاسلامى مدعو الى الاستفادة من تجربة الغرب ، والاقبال على فهم دينه فهما صحيحا يحقق له تجنب الكوارث او تجنب الانحلال الذي عرفته اوروبا او حضارة اوروبا .

لقد كان اقبال اذن ينظر الى الاسلام كدين ينسجم مع طبيعـــة الانسان ، ويقدم لمعتنقيه تصورا يتطابق مع طبيعة الكون نفسه ، ويرى ان الاسس الميتافيزيقية التى حددها والاصول الاعتقادية التى جاء بها تمنح الانسان مكانة ايجابية ، وتلقى عليه مسؤولية بناء العلم الذي يسخر لـــه الطبيعة ويدله على وجود الله . ويعطى لعقله آخر الامر الحق فى ممارسة التشريع فيما سكتت عنه النصوص ، ليساير بذلك حركة التاريخ المتطور.

والدليل على ذلك ان الثقافة التى انبثقت من الفكر الاسلامى كانت ثقافـــة متحركة مبدعة ، واذن لا يمكن بحال ان يتهم الاسلام بالعجز او الجمود، بقدر ما يمكن ان يتهم بذلك المسلمون الذين اصطلحت علـــيهـــم اسبـــاب التدهور ، فوقعوا فى الجمود .

ان اقبال يفتح بآرائه الكثير من مجالات المناقشة والاخذ والرد ، فى بعض القضايا، أو فى منهج النظر، أو فى طريقة الاستدلال، او فى تاويل الآيات القرآنية، ولكن تناول هذا الجانب مما يضيق عنه المقام، وبالرغم مماقد ينتهى اليه المرء الى تقييم اقبال او تقييم آرائه فانه يحتفظ بمكانته بين مفكري الاسلام الكبار فى العصر الحديث ، من حيث الاخلاص لدين الله ، والشجاعة فى الراي والعمق فى التفكير والتحليل .

فــــاس   محمد الكتانى

قبلة

للمغرب المسلم الحبيب

عمر بهاء الدين الأميري

قبلى « المغرب » عنى يا حبيبة
قبلة يودعها قبلى وجيبه

حدثى عن « عمر » عن روحه
فذة فى عالم الروح عجيبة

كيف فى « المشرق » ينأى جسمها
وهى فى « المغرب » بالحب قريبه

كيف يمتد جناحاها .. هنا
وهنا ، وهى لكل مستجيبه

---

*) نظمت هذه القصيدة فى حلب بتاريخ 1397.11.11 هـ .

تبـــدل الـــذات مضـــاء ونــــدى
لتشـــع الخصـــب فى كـــل جديبـــة

أمـــل « الاســـلام » فى ذراتـــهـا
مشــرئــب ، والنـــداءات مهيبـــــه

قـــد كفـانـا فرقـــة يـــا أمـــة ..
هـــى خيـــر النـاس ، والخيـــر وجيبـــه

ليـــس دعـــوى ، ودعـــاء ، ومنـــى
انـــه أمـــر .. ونهـــىء .. وكتيـبـــة

وصـــواب مـــن هـــدى اللـــه اذا
نحـــن لـــم ننهـض بـــه ، فهى المصيبـــة !

* * *

رب روح أنسهـــا يحيـــى الـــدنـــى !
وهـــى مـــن هـــم الـــدنـــى تحيـا غريبـــة!!

حلب **عمر بهاء الدين الاميري**

المغرب في كتاب صبح الأعشى

(4)

محمد ابن تاويت

وفى الصفحة 99 وما بعدها جاءت نسخة كتاب من ابى الحسن أيضا وردت صحبة الهدايا والحرة الحاجة سنة 738 على المذكور ، وهو بعد البسملة : من عبد الله أمير المسلمين .. (الى عبد الحق) الى السلطان الجليل .. سلام كريم .. ورحمة الله وبركاته ، اما بعد حمد الله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد المصطفى .. والرضى عن آله الابرار .. فانا نحيط علم الاخاء الاعز ما كان من عزم مولاتنا الوالدة .. على أداء فريضة الحج .. فاعترض الحمام دون ذلك المرام .. وأن لدينا من نوجب اعظامها .. وعزمها الى ما أملته مصروف .. وهى محل والدتنا .. وقد شيعناها الى حج بيت الله الحرام ، والفوز من السلام على ضريح الرسالة .. وحين شخص لذلكم الغرض الكريم موكبها .. اصحبناها من حور دولتنا واحظيائها ، ووجوه دعوتنا .. من اخترناه لهذه الوجهة .. من أعيان بنى مرين .. والعرب وأولاد المشايخ .. وقصدهم من اداء فرض الحج قصدها .. وهكذا سيرنا من تحف هذه البلاد اليكم ما تيسر .. وعينا لايرادها لديكم .. أبا اسحاق ابن الشيخ ابى زكريا يحيى بن عثمان السويدي ، وامير الركب الحسن بن عمران وغيرهم .. ومقام ذلك الاخاء

الكريم يسنى لهم من اليسرى .. ومعظم قصدنا من هذه الوجهة المباركة ايصال المصحف العزيز الذي خططناه بيدنا .. الى مسجد سيدنا .. محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وقد عينا بيد محل الوالدة .. من المال ما يشتري به فى تلكم البلاد .. ما يكون وقفا على القرأة فيه .. وعلى غيرهم من المالكية .. والله يصل للاخاء العلى نصرة أيامه .. والسلام الكريم العميم يخص اخاءكم الاعز ، ورحمة الله وبركاته .. فى يوم الخميس المبارك من ربيع الاول عام ثمانية وثلاثين وسبع مائة .

وفى الصفحة 103 وما بعدها وردت نسخة كتاب من السلطان عثمان ابن ابى العباس المرينى ، فى العشر الاوسط من شعبان 804 من عبد الله ووليه ، عثمان امير المسلمين .. ابن السلطان الملك الجواد .. أمير المسلمين .. ابى العباس ابن مولانا ، أبى سالم .. ابن .. أبى الحسن .. (الى عبد الحق) الى محل اخينا .. فرج ابن السلطان .. أبى سعيد برقوق ابن انص .. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله على سبوغ نعمائه .. والصلاة والسلام الاكملين على سيدنا ومولانا محمد .. والرضى عن آله وصحبه وأوليائه وصلة الدعاء لمقامكم الكريم .. فانا كتبنا اليكم .. من حضرتنا العلية بالمدينة البيضاء .. والى هذا .. وكتابنا هذا يقرر لكم من ودادنا ما شاع وذاع وقد كان انتهى الينا حركة عدو الله وعدو الاسلام .. يعلق أمله الخائب بالوصول الى أطراف بلادكم المصرية .. والحمد لله الذي كفى .. شره .. ولقد كنا حين سمعنا بسوء رايه عزمنا على أن نمدكم من عساكرنا المظفرة بما يضيق عنه الفضا .. واساطيلنا المنصورة ما يحمد .. ويرتضى فالحمد لله على أن كفى المومنين القتال .. وبحسب ما لنا فيكم من الود .. وقع تخيرنا فيمن يتوجه من بابنا .. أبى عبد الله محمد ابن الشيخ .. الشريف .. المرحوم ابى عبد الله محمد بن ابى القاسم ابن نفيس الحسنى العراقى .. حسبب ما يفى بشرح ما حملناه نقله .. ان شاء الله تعالى ، وهو يديم سعادتكم .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وفي الصفحة 106 وما بعدها جاءت الجملة الرابعة في عادة الكتب الواردة عن صاحب الاندلس ، والرسم أن يكتب « الابواب الشريفة » .. ابواب السلطان الفلاني .. سلام كريم .. من فلان .. أما بعد حمد الله ثم الخطبة بالتحميد والتصلية والرضا عن الصحابة : فانا كتبنا .. وهذه نسخة كتاب ، عن أبي عبد الله محمد بن الحجاج يوسف بن نصر .. صاحب غرناطة الى السلطان .. شعبان بن حسين ابن قلاوون من انشاء ابن الخطيب ، (مشيرا الى حادثة الفرنج بالاسكندرية سنة 767 ، ووهم في لقبه الملوكي فلقبه المنصور) :

الابواب الشريفة .. أبواب السلطان الكبير .. الملك المنصور أبي الفتوح شعبان .. ابن الامير أبي علي حسين .. ابن السلطان .. المنصور المؤيد .. أبي عبد الله محمد بن قلاوون الصالحي .. سلام كريم .. من معظم سلطانه .. امير المسلمين بالاندلس ، عبد الله الغالب بالله محمد ابن يوسف بن اسماعيل بن فرج بن نصر .. اما بعد حمد الله .. والصلاة والسلام على سيدنا محمد .. والرضى عن آله وأصحابه .. والدعاء لتلك الابواب .. فانا كتبناه لمثابكم السلطانية . من منزلنا المحبور .. بحمراء غرناطة .. ووصل لها بشرف مخاطبتكم الارتفاع والانتفاع .. فالنفوس الى الله تجهز وتسلم ، والصبيان في المكاتب تدرب على مواقف الشهادة وتعلم .. والى هذا فاننا اتصل بنا ما رامت الروم من المكيدة .. وقد سول لهم الشيطان كياد ثغر الاسكندرية .. ليتموا ثغر الاسلام بصدمتها .. ويرفعوا عن دينهم المعرة ، ويتلقفوا في القدس كرة الكرة .. ويشيموا سيوف التغلب على الشام ، ويحولوا بين المسلمين .. وحجهم ومزارهم .. فهنيئا بما خولكم الله من ظفر شهدت برضا الله مراسمه .. ويهنىء البيت المقدس مكان فضل الله ومنه .. ويهنىء الاسلام عصمة ثغره .. وباب ايوانه ، مرفا الفسطاط .. ومتخير الاسكندر عند البناء .. ومما زادنا بجحا بهذا الفتح .. ما تحققنا أنه يثير من شفقة المسلمين لهذا القطر الذي لا يزال يطرقه ما طرق الاسكندرية .. والله لا يقطع عن الجميع عوائد آلائه .. وقد كان اتصل بنا في هذه الايام الفارطة الذخر الذي ملأ اليد اكتراثا .. جوابكم الكريم .. فأكرم به من وافد مخطوب .. صدعنا به في حفل الجهاد انتحاء وافتخارا .. والله تعالى يجعل لافلاك الهناء على مخاطبة مقامكم الرفيع العلاء مدارا

.. ويبقيكم للاسلام ركنا شديدا .. ما استأنفت البدور ابدارا ، وعاقب الليل نهارا ، والســلام .

وفى الصفحة 123 وما بعدها ، جاء الضرب الرابع فى الكتب الواردة من ملوك الفرنج بالاندلس والجهات الشمالية وما والى ذلك .

قال والعادة ان تكتب باللسان الفرنجى .. ويختم عليه بطمغة فى شمع احمر ، على نحو ما تقدم فى الكتب الواردة عن ملوك المغرب ..

وفى الصفحة 148 وما بعدها ، ورد المقصد الثانى فى رسوم اخوانيات اهل المغرب ، والعادة افراد الضمير ، وربما خوطب الواحد بالجمع ، كما يعبر المتكلم عن نفسه بالنون ، وربما وقع الخطاب بالغيبة ، وفيه جملتـــــان :

الاولى ، وفيها مهيعان : الاول ، فى ابتداء المكاتبات ، منها أن تفتتح بالدعاء ، كما كتب عبد الله بن طاهر : أطال الله بقاء سيدي .. وكمــا كتب ابن عميرة : أطال الله بقاء الاخ السري .. وكما كتب أبو محمد بــن عبــد البــر : ابقى الله الشيخ فى عزة تالدة .. فهذا بالبقاء لــه . وهناك دعاء بالبقاء بالحضرة ، كما كتب ابو زيد الفازازي : ابقى الله حضــرة السيد ناضرة ادواح السعد، عاطرة أفواح المجد..وظل الحضرةالمكرمة كثيف الافياء ، وورده مغن عن وسائط الاوشية والدلاء والله تعالى يعين الحضرة المكرمة على الايادي تسوغها ، والامال تبلغها بمنه .. ودعاء بذلك للمحل ، كما كتب ابن عميرة : ابقى الله المحل الاعلى حرما يتحاماه الانام (الى غير ذلك من انواع الدعــاء) .

ومنها أن تفتتح بلفظ « كتابى » كما كتب ابن عميرة : كتابى الى سيدي حفظه الله مقيما وسائرا .. ومنها ان تفتتح بلفظ « كتبت » كما كتب ابــو زيد الفازازي : كتبت ـــ كتب الله للاخ .. مجدا هامى الربابة .. ولا جديد بيمن الله تعالى الا صنعه الجميل .. والحمد لله .. ومنها ان تفتتح بكناية عن المكتوب اليه من لقب ونحوه ، كما كتب ابن عميرة : الجناب الرياسى ،

ادام الله اعتلاءه ، وحرس مجده وسناءه .. وكما كتب أبو بكر بن عيسى : السيد العماد ، والماجد الجواد .. وكذا كتب ابن عميرة : عن الامير ابى جميل زيان الى الامير ابىزكريا بن اسحاق : الامير الاجل الهمام الاعلى .. ومخاطبتنا هذه الى مجلسه .. عما نعلمه من كبير قدره ، ونوجبه لعالى امره ، ونبيح به من طيب منبره وكما كتب أبو الحسن بن شلبون : العماد المدخر ، والملاذ الذي بولائه أفخر وكذا كتب ابن عميرة : المحل الإعلى ، ضاعف الله أنوار هدايته ، وكما كتب ابو الخصال : الشيخ الاجل ادام الله عزه .. والرب تعالى ينهض بحقكم اللازم الالزم ، ويصل حراسة مجدكم الاتلد الاقدم ، بمنه وفضله .

وربما اتى بعد ذكر النعوت بالسلام ، ثم بحمد الله والصلاة على النبى ، ثم الرضا على الخلفاء الماضين والخليفة القائم ، وهى طريقة الموحدين اتباع المهدي بن تومرت ، مثل ما كتب به ابو محمد بن عبد البر ، الشيخ الاجل ، ادام الله عزته .. مجل قدره ، وملتزم بره .. سلام عليكم .. وبعد حمد الله العظيم ، والصلاة على سيدنا محمد .. وعلى آله ، والرضا عن الامام المعصوم مهديه ، وعن خلفائه الائمة الراشدين ، والدعاء لسيدنا الخليفة .. ابن الائمة الخلفاء .. بالنصر الاعز .. فكتب — كتب الله لكم مجدا .. — من فلانة — حرسها الله — ... وان الامر كذا وكذا .. قال المؤلف : وعلى هذه الطريقة ، كانت كتابة ابن الخطيب ، كاتب ابن الاحمر بالاندلس ، على القربمن زماننا .

ومنها أن تفتتح بالخطاب ، مع ياء النداء (لا النسب) او حذفها ، كما كتب أبو المطرف بن المثنى (بحذفها) : سيدي ومفخري ، وعصمتى ووزري ، وذخيرتى وعتادي .. وبها كما كتب أبو المطرف بن الدباغ : يا مولاي وسيدي ، العظيم شأنه وأمره .. وليس الذي يتبع الوبل رائدا كمن جاءه فى داره رائد الوبل .. ومنها أن تفتتح بالتحية والسلام ، كما كتب ابن عميرة : تخص الابن ومقة .. تحية الاجلال والتكرمة .. ورحمة الله وبركاته ..

وكما كتب ابو زيد الفازازي : السلام الكريم العميم ، على الشيخ .. كتب أخوكم البر بكم .. فلان ، ولا جديد بمن الله تعالى الا الخير والحمد

لله .. ومنها أن تفتتح بالكناية عن المكتوب عنه ، كما كتب ابن ابى الخصال : معظم الشيخ الاجل ابى فلان .. ونعمكم الزم للاعناق من أطواق الحمام . ومنها أن تفتتح بلفظ « من فلان » كما كتب بعضهم : من فلان الى الشيخ الحافظ .. ومنها بلفظ الى فلان : الى مولاي المعظم وأبى ..

وفى الصفحة 158 جاء المهيع الثانى فى الاجوبة ، وهى على ضربين : الاول أن يفتتح بما يفتتح به الابتداء ، كما كتب ابو عمرو الباجى : وعدك الكريم — أدام الله عزك — دين ، وقضاؤه شرف وزين .. ووصل كتابك العزيز .. والثانى ، بورود الكتاب ووصوله ابتداء ، كما كتب ابن أبى الخصال ورد كتابك فى أمر فلان .. وليس عندي الا عون وانجاد ، وطاعة وانقياد ، غير أن فى الامـــر كـــذا وكـــذا .

الجملة الثانية فى خواتم المكاتبات على اصطلاحهم ، وهى على أساليب منها : أن يختم الكتاب بالسلام المجرد ، كما فعل الباجى : واقرأ عليك سيدي .. أجزل السلام واحفله ، واتمه واكمله .. ومنها ، أن يختم بالدعاء : كما كتب ابن الدباغ ، والله لا يخلى مولاي من عبد يسترقه ومنها أن يختم بذكر التودد والمحبة ، كما كتب ابو جعفر الكاتب (ابن عطية ؟) وان لم يكن لـــى من الحق ما لا اتبسط به عليه ، فلى من الود ما أمت به اليه ، فحسبى به سلما الى فضلك ، وذريعة الى مجدك ، ان شاء الله تعالى والسلام .

ومنها أن يختم باستماحة النظر ، فى أمر المكتوب عنه ، كما فعل ابن المثنى ، ولك الطول العام .. فى اعتبار أمري ، وتحقيق خبري والسلام الى غير ذلك من الخواتم .. وفيما ذكر من الصدور والخواتم ، ابتداء وجوابا مقنـــع لمن تأمـــل .

وبعد هذا نتصل بالجزء التاسع ، فنجد فى الصفحة 35 مثالا لابن أبـــى الخصال فى التهنئة بالقدوم من السفر ، وهو من مقاصد الاخوانيات : سر الله مولاي ورئيســـى ، ورب تشريفى وانيسى ، بلقاء الاحبـــاب .. ولا زالت الايام تتصنع لاقباله ، وتقبله أوجه العز فى اقتباله ، على رغـــم الحاســـــــد ..

وفى الصفحة 85 والتى بعدها ، اتى له بتعزية فى (بنت) ، وهى الضرب الثانى من المقاصد المذكورة : الشيخ فلان ، عزاه الله على احتسابه .. فانى كتبته .. عندما وصلنى وفاة ابنتكم المرحومة .. فليعزك عنها مصابنا بالنبى عليه السلام .. فأحمد الله عز وجل اذ رجحت ميزانك .. والسلام عليك ورحمة ..

وفى الصفحة 86 والتى بعدها ، ساق له تعزية أخرى وهى فى الاب بالضرب الثالث : يا سيدي وواحدي ومحل الابن المبرور ، والاخ المشكور .. وقد وصل كتابك .. بما نفذ به القدر .. فى الوزير الفقيه الشهيد ابيك .. رحمه الله وأكرم مثواه .. فأسفت كل الاسف لفقدانه .. تغمده الله بغفرانه .. وتلك غاية الاحياء .. وانك بفضل الله تسد مسده .. واخوتك أعزك الله ـ لك اظهار وأعضاد .. فاشتمل عليهم وأرفق بهم ، فانهم ينزلونك منزلة أبيهم .. والسلام .

وفى الصفحة 87 والتى بعدها اتى بتعزية ابن عبد البر ، فى الضرب الرابع ، وهو التعزية بالام :

ما مات من أنت بعده خلف   والكل فى البعض غير ممتنع

كتب عبده القن ، من الاسى لاجله بعض ما يجن .. فلان ، بعد وصول كتابه الكريم بصدع يصمى القلوب .. فوقف العبد عليه مترقرق المدامع منخرق الاضالع .. فيا اسفى لخطب ضعضع ركن الجد .. فآه لدين ومروءة فقدا فى قرن .. لقد أصم بها الناعى وان كان اسمع .. ابى الله الا ان تعم الحرقة ، وتستولى على الوقت الفرقة .

وفى الصفحة 88 وما بعدها وردت فى الضرب الخامس تعزية ابن عبد البر فى أخ ، وكتبت والانفس مرتمضة ، والعين غير مغتمضة .. اسفا للمصاب الذي عم وغم .. بوفاة الفرد الذي فى راسه نور .. والفذ الذي شهد الرجال بفضله .. أبى فلان صنوكم .. فانا لله وانا اليه راجعون .. فوا أسفى لرزئه .. ولولا أن المنية منهل لا يحلأ وارده .. لم يبق فى أنس مطمع .. ولكن الثاكل غير ما ترى وما تسمع .. فصبرا فالمنون غاية المسين والمصبحين .

وفى الصفحة 89 والتى بعدها ، نموذج آخر له : الشيخ فلان .. يتلقى الارزاء بحسن الصبر .. فانى كتبته .. عندما وصل من وفاة .. اخيكم ،

وفى الصفحة 90 وما بعدها ، جاء الضرب السادس ، التعزيــة بالزوجة ، وصدر بقول ابن عبد البر أيضا :

وقد تقرر عند ذوى الالباب .. أن الدنيا قنطرة دائرة ، ومعبرة الـى الآخرة .. وقد نفذ القدر الذي ما له رد .. بوفاة فلانة الحقها الله رضوانه .. فانا لله وانا اليه راجعون .. لقد ذهب لذهابها الرفق والحنان .. ولولا العلم بأن اللحاق بها أمر كائن .. لما بقيت صبابة دمع .. لكن لا معنى لحزن لما يقع فيه الاشتراك .. وما أنتم بحمد الله ممن يذكر . ولولا أن التعازي مما أطرد به العمل .. لما سلك سبيله معكم .. فالصبر خير من الجزع .. والله يبقيكم أتم البقاء ، ويرقيكم أتم الارتقاء .

وفى الصفحة 91 نموذج ابى الخصال ايضــا :

الشيخ الاجل فلان ، آنس الله وحشته .. معزيه عن اهله الهالكة وسكنه .. فلان ، فانا كتبناه عن دموع تصوب .. بموت فلانة رحمها الله .. عزانا الله جميعا فيها .. واعقبنا من الوحشة أنسا ، وعمر بالرحمى جدثا مباركا ورمسا .. بمنه وكرمــه .

وفى الصفحة 227 جاءت رسالة لابن ابى الخصال ، كذلك ، فى المداعبة ، وهى فى النوع السابع عشر من مقاصد المكاتبات الاخوانية :

سيدي وواحدي الذي اجمل ذكره .. عبدك فلان مؤديها ينتجع الكرام .. وأم الحضرة .. والملك بها غض الشباب .. فأوسعه قرى .. بل امجده تبنا وعلفا ، واركبه حزنا من الارض ظلفا .. وعنده كما علمت دعاء مباح وثناء فى الشكر مساء وصباح ، والســلام .

وفى الصفحة 298 جاء المذهب الثالث فى البيعة ، ان تفتتح بعــد البسملة بخطبة مفتتحة بالحمد لله ، ثم البعدية .. وهذه نسخة بيعة كتب

بها طاهر الاندلسى .. للرشيد بن المامون الموحدي (لا الاموي) فى أخذ البيعة على أهل دانية ، اقتصر على تحميدة واحدة :

الحمد لله الذي أسبع انعامه باطنا وظاهرا .. نحمده سبحانه على نعمه .. ونشهد ان لا اله الا الله شهادة من أقر له بالوحدانية .. وصلى الله على سيدنا محمد رسوله .. وعلى آله وأصحابه الذين منهم صاحبه وخليفته .. ورضى الله عن الامام المهدي .. وعن الخلفاء ، أما بعد فان الله سبحانه جعل الامامة للناس عصمة .. واطلع بالغرب نورا مـلأ الدلـو .. وطلع على الافاق طلوع النهار .. وكلفت به الخلافة ، وقام بالخلافة مثل ما قام بها الخلفاء الراشدون سلفه ، وذلك هو الخليفة الامام أميـر المومنين الرشيد بالله ابن الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم .. ومن ابوه المامون وجده المنصور ، العريق فى الخلافة ، والحقيق بالامامـة والانافة ، فجمع ما افترق ، ونظم الامور ونسق ..

وفى الصفحة 301 وما بعدها ، وردت بيعة أهل شاطبة للمستنصر العباسى ، كتبها ابن عميرة ، قام بعقدها محمد بن يوسف بن هـود :

الحمد لله الذي جعل الارض قرارا .. وصلى الله على سيدنا محمد الشريف نجارا .. صلى الله عليه وعلى آله الطيبين آثارا واختبارا وعلـى أصحابه الكرام مهاجرين وانصارا .. أما بعد فان المستأثر بالدوام اللطيف بالانام، أنشأهم على التغاير والتباين .. وبعث النبيين وكان أعمهم دعوة .. صلى الله عليه وعلى آله .. وقام بعده الخلفاء الاربعة .. رضى الله عنهم .. وعن سيد الانام .. عم نبينا عليه افضل الصلاة والسلام .. العباس بن عبـد المطلب .. وعن الفائزين بالرتبة الكريمة .. حموا حرم المسلمين ، واحبوا سنة ابن عمهم سيد المرسلين .. آباء أمير المومنين وخليفة رب العالمين .. لما دعا الناس بالمملكة الفلانية ، حماها الله ، الى حجتهم القوية .. مجاهد الدين بسيف أمير المومنين .. المتوكل على الله تعالى أمير المسلمين ، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود .. مالت اليه الاجياد ، وانثالت

عليه البلاد .. وتقدم أيده الله بأخذ البيعة على نفسه ، وعلى أهل الملة قاطبة ، للقائم بأمر الله سيدنا ومولانا الخليفة الامام المستنصر بالله أبى جعفر أمير المومنين .. وخاطب الديوان العزيز النبوي ــ خلد الله شرفه ــ متضرعا لوسائل خدمته ، متعرضا لعوارض رحمته ، وبعث رسوله على أصدق رجاء فى القبول .. وأثناء هذه الارادة القويمة .. تفاوض أهل البلاد فى توثيق عقدهم للسلطان .. فلم يروا رأيا أسد .. من أن يطلبوه بعقد البيعة لابنه الواثق بالله .. محمد ابن مجاهد الدين ، سيف أمير المومنين على أن يكون ولى عهدهم مدة والده .. فأمضى لهم ذلك من اتفاقهم .. وبعد ذلك أتى صولة الاسلام ، وصلة دار السلام ، وورود رسوله .. .. ومعه الكتاب الذي هو نص أغنى عن القياس .. وقده السيف الصارم وسماه باسمه .. وبناء على وصايا عهد الخليفة ، أن يجددوا البيعة .. ولابنه الواثق بالله .. ولما انتهى ذلك الى الملأ من أهل فلانة وجهاتها رأوا أن يخلف من سبق ، ويصدقوا النبية مع من صدق .. فحضر منهم العلماء والصلحاء ، والاجناد والوزراء والفقهاء ، والكافة على تباينهم فى المراتب .. فأمضوا بيعة كريمة المقاصد .. على أشد مذاهب الفتوى ، والزمها لكلمة التقوى .. « هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما » انك انت الله .. واله الارض والسماوات .

وفى الصفحة 337 جاء النوع الثانى من البيعات ، بيعات الملوك .. ففى المغرب ، جرت عادة مصطلحهم بكتابة البيعات لملوكهم ، اذ ليس عندهم خليفة ــ كما قال ــ يدينون له ، بل جلهم أوكلهم يدعى الخلافة ، فهم يكتبون البيعة لهذا المعنى ، وهذه نسخة بيعة كتب بها للسلطان أبى عبد الله محمد بن أبى الحجاج بن نصر بن الاحمر ، صاحب حمراء غرناطة .. من انشاء ابن الخطيب :

الحمد لله الذي جل شانا .. والحمد لله الذي بيده الاختراع والانشاء .. والحمد لله الذي رفع قبة السماء .. نحمده وله الحمد فى الاولى والآخرة ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدا .. عبده ورسوله .. انتخبه من أشرف العرب أما وأبا .. وملأ بنور دعوته البسيطة جنوبا

وشمالا ومشرقا ومغربا .. ولا دليل أظهر من هذا القطر الاندلسي الغريب ولما استقام الدين .. أشعره الوحى بالرحلة عن هذه الديار .. وحيا الله وجوه حى الانصار .. ونسألك اللهم لهذا الامر النصري الذي سببه بسببهم موصول .. نصرا عزيزا وفتحا مبينا .. أما بعد .. فان من المشهور الذي يعضده الوجود ويؤيده .. ما عليه هذا الملك النصري الحمى .. من أصالة الاعراق .. والجهاد الذي هو سمر الركب ، وحديث الرفاق .. دارهم الثغر الاقصى — وشعارهم « لا غالب الا الله » وان هذا القطر الذي انتهى سبل الفتح الاول الى ناحيته .. وأن موسى بن نصير وفتاه حل من فرضة مجازه محل موسى وفتاه .. فلولا أن الله عمد الدين منهم بالعمدة الوثيقة .. لاجهز النصل ، واجتث من الدين الفرع والاصل .. لكنهم انتدبوا الى امساك الدين بها انتدابا .. وتناولها منهم صقر قبيل الخزرج .. أبو عبد الله الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر .. فاقشعت الظلمة ، وتماسكت الامة .. وتوارثوا ملكها ولدا عن أب .. الى أن قام بالامر وسطى سلكهم .. أبو الوليد ابن المولى .. ابى سعيد بن ابى الوليد بن نصر ، فاحيى رحمه الله معالم الكتاب والسنة .. وتأرج من ذكره عرف ، وجرى الى بابه حرف مولانا الملك الهمام .. امير المسلمين .. الخليفة الامام ابو الحجاج ، رفع الله درجته .. ولما اختار الله له ما عنده .. فوقعت آراء أرباب الشورى من أهل العلم بقاعدة ملكه غرناطة .. على مبايعة وارث ملكه .. ووسطى سلكه .. أبو عبد الله .. وهبوا الى بيعته تطير بهم أجنحة السرور .. ما بين الشريف والمشروف .. فعقدوا له البيعة الوثيقة الاساس .. على ما بويع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .. اشهدوا عليه الله وكفى بالله شهيدا .. اللهم بابك عند تقلب الاحوال عرفنا .. اللهم ان قطرنا من مادة الاسلام بعيد .. اللهم من بايعنا فى هذا العقد فاسعده بمبايعته وطاعته .. وكتب الملأ المذكورون اسماءهم بخطوط أيديهم فى هذا الكتاب .. وذلك فى الثانى والعشرين لشوال من عام خمس وخمسين وسبعمـــائـــة .

وفى الصفحة 366 وما بعدها ورد للوزير ابى حفص بن برد كتاب عهد للناصر عبد الرحمن بن المنصور ، كنموذج لطريقة المتقدمين فيما يكتب لولى عهد من الالقاب ، مما تضمنه الوجه الخامس من الفصل الثالث من

الباب الاول من المقالة الخامسة فى بيان ما يقع به التفاوت فى رتب الولايات
هذا ما عهد هشام المؤيد بالله .. الى الناس عامة .. بعد اطراح الهوى والتحري للحق .. وبعد أن قطع الاواصر واسخط الاقارب ، فلم يجد أحدا اجدر أن يوليه عهده ، ويفوض اليه الخلافة بعده .. من المامون العيب الناصح الجيب ، أبى المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر ، وفقه الله ، اذ كان أمير المومنين أيده الله ، ابتلاه واختبره .. فرآه .. مساعفا فى الخيرات ، سابقا فى الحلبات .. ومن كان المنصور أباه والمظفر أخاه ، فلا غرو أن يبلغ من سبيل البر مداه .. مع أن أمير المومنين — أيده الله — بما طلعه من مكنون العلم ووعاه من مخزون الاثر ، يرى أن يكون ولى عهده القحطانى .. أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه) .. أشهد الله على ذلك .. واشهد من أوقع اسمه على هذا ، وهو جائز الامر ، ماضى القول والفعل ، بمحضر ولى عهد المامون أبو المطرف عبد الرحمن بن المنصور ، وفقه الله ، وقبوله ما قلده .. وذلك فى شهر ربيع الاول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، وكتب الوزراء والقضاة ننتقل بعد هذا الى الجزء العاشر ، فنجد فى الصفحة 31 وما بعدها ما كتبه أمين الدين أبو سعيد بن وهب بن موصلايا عن القائم عهدا لامير المسلمين يوسف بن تاشفين ، بسلطنة الاندلس وبلاد المغرب « كذا »
هذا ما عهد عبد الله ووليه .. القائم بأمر الله أمير المومنين ، الى فلان حين انتهى اليه ما هو عليه من ادراع جلابيب الرشاد .. من موالاة لامير المؤمنين .. فولاه الصلاة بأعمال المغرب ، والمعاون ، والاحداث ، والخراج، والضياع .. وسائر وجوه الجبايات ، والعرض والعطاء والنفقة .. ببلاد كذا وكذا .. والله تعالى يصل مرامى أمير المومنين بالاصابة .. وأمره باعتماد تقوى الله .. وأمره أن يلتزم بكتاب الله .. وأمره أن يحافظ على الصلوات .. وأمره بالسعى فى أيام الجمع الى المساجد الجامعة .. وفى الاعياد الى المصليات الضاحية .. وان يقيم الدعوة على منابرها لامير المومنين ، ولولى عهده .. أبى القاسم عبد الله بن محمد ابن أمير المومنين .. وأمره بأن يعتمد فى اخراج الزكاة ما أمر الله تعالى به .. وأمره بأن يهذب من الدنس خلاله .. وأمره بأن يضفى على من قبله من أولياء أمير المومنين وجنوده أصناف جلابيب الاحسان وبروده .. وأمره بأن يعدل

فى الرعايا قبله .. ليكون الكل وادعين فى كنف الصون .. وأمره بأن يكون للمعروف آمرا وعن المنكر زاجرا .. ويتقدم بتعطيل ما فى اعماله من المواخير .. وأمره بأن يرتب لحماية الطرقات من يجمع الى الصرامة والشهامة سلوك محاج الرشاد .. أمره بأن يتقدم الى نوابه فى الاعمال بوضع الرصد على من يجتاز بها من العبيد الاباق .. وأمره بأن يختار للنظر فى المعاون والاجلاب من يرجع الى دين يحميه من مهاوي الزلل .. وأمره أن يوعز الى أصحاب المعاون بأن يشدوا من القضاة والحكام ويجدوا فى اجراء أمورهم .. وامره بعرض من تضمه الحبوس من اهل الجرائم .. وتأمل احوالهم .. وامره باختيار المرتب للعرض والعطاء .. وامره باختيار عمال الخراج .. وامره أن يرد أمر المظالم .. الى من عضد بالظلف الورع .. ومعتمدين اجراء الامر فيما يطبع على القانون بمدينة السلام .. وأن يثبت ذكر أمير المومنين ، وولى عهده فى المسلمين ، على ما يضرب من الصنفين .. والى المستخدمين فى الطرز بملاحظة أحوال المناسج .. واثبات اسم أمير المومنين على ما ينسج من الكسا والفروش والاعلام والبنود .. وامره بأن يعرف قدر النعمة التى صفت عليه برودها .. ويبدأ أمام ما يتوخاه بأخذ البيعة لامير المومنين وولى عهده على نفسه وولده .. وأن يحمل الى حضرة أمير المومنين من الفيء والغنائم ما أوجبه الله وفرضه .. ثم ان أمير المومنين آثر أن يضاعف له من الاحسان ما يتقضيه مقامه لديه... ولقبه بكذا واذن فى تكنيته عن حضرته... فتلق يا فلان هذه الصنيعة الغراء .. بالاستبشار التام .. واعتمد مكاتبة حضرة أمير المومنين متسميا .. .

هذا عهد أمير المومنين اليك .. فأصغ الى ما حواه .. وكن لاوامر أمير المومنين فيه محتذيا .. وان خفى عليك الصواب .. فطالع حضرة أمير المومنين به ، واستنجد الله فى ذلك بأسد راي وأصوبه ، يبدلك من الشك يقينا .. ان شاء الله تعالى .

وفى الصفحة 160 جاء الوجه الخامس ما يكتب فى متن العهود ، فذكر فى الطريقة الاولى ، وهى ما تفتتح بلفظ « هذا » ما كتبه أبو بكر ابن القصيرة ، عن امير المسلمين يوسف بن تاشفين ، سلطان المغرب ، بولاية

عهده لابنه أبى الحسن على ما بيده من المغرب والاندلس فى ذي الحجة سنة ست وتسعين واربعمائة :

كتاب تولية عظيم جسيم .. انفذه أمير المسلمين وناصر الدين ، أبو يعقوب يوسف بن تاشفين .. للامير الاجل أبى الحسن على ابنه .. وقد تهمم بمن تحت عصاه من المسلمين .. فاعتام فى النصاب الرفيع واختار .. فلم يوقع الله بعد طول تأمل .. اختياره .. الا عليه .. فولاه على استحكام بصيرة .. وجعله خليفته فى رعايا مسنده .. وان ينتظم اقصى بلاده وأدناها فى سلك تدبيره .. ثم دعا له ، لمبايعته من دنا ونأى من المسلمين ، فلبوا مسرعين .. ثم أمر بمخاطبة أهل البلاد لتبايعه كل طائفة فى بلدها .. والله يبارك لهم فيها بيعة رضوان .. شهد على أمير المسلمين .. بكل ما ذكر عنه .. وذلك بحضرة قرطبة حماها الله تعالى ..

وفى الصفحة 299 ورد الطرف الرابع ، من الفصل الاول فيما يكتب من الولايات الصادرة عن الخلفاء لارباب المناصب ، فكان هذا فيما يكتب عن مدعى الخلافة ببلاد المغرب والاندلس — كما قال — وهم يعبرون عن ذلك بالظهائر والصكوك ، فالظهائر جمع ظهير ، وهو المعين ، سمى به لما يقع من المعاونة لمن كتب له به ، والصكوك جمع صك وهو الكتاب فارسى معرب ، ثم تحامى المتأخرون الصك للاشتراك فيه وهو الصفع وفى الموضوع حالتان ، الاولى ما كان عليه الامر فى القديم ، حيث لم يكن مصطلح فى الابتداءات ، فتارة يبدأ بلفظ « من فلان الى فلان » أو أهل فلانة ، أو الى الاشياخ بفلانة ، أو يصلكم فلان بهذا الكتاب ، وتارة يبدأ بلفظ « أما بعد حمد الله) وتارة بلفظ « تقدم فلان بكذا » وتارة بلفظ « مكتوبنا هذا » ، فمن الظهائر من فلان الى أهل فلانة .. أما بعد حمد الله ، والصلاة على سيدنا محمد .. وعلى آله .. والرضا عن الخليفة أمير المومنين .. والدعاء للمقام الاماري .. فانا كتبناه اليكم .. من فلانة .. وولينا للنظر فيما لديكم ، من له التقدم فى الاقدام .. فلان .. وعليه أن يلازم تقوى الله .. ويشمر عن ساعده فى الدفاع عن أحوازكم .. وعليكم أن تسمعوا وتطيعوا .. وستجدون من مواليكم .. ما يوافق الظن به .. ان شاء الله تعالى والسلام .

ومن ذلك آخر : من فلان الى أهل فلانة .. وبعد فانا كتبناه أليكم .. من فلانة .. وقد اقتضى ما نتوخاه من الاحتياط على جوانبكم .. ولما كان فلان ممن حمدت مقاصده .. رأينا .. أن نقدمه لحفظ جهاتكم .. فاذا وافاكم فتلقوه بنفوس منبسطة .. بحول الله سبحانه .

ومن ذلك ايضا : وانا كتبناه اليكم .. من فلانة .. وقد صرفنا اليكم فلانا .. مطالعا لاحوال الموحدين .. أعدناه الى الشغل الذي كان يتولاه .. ولا يستند فى شىء من أحكامه الى من لا يقوم على عصمته دليل .. فأعينوه وفقكم الله .. ان شاء الله تعالى .

ومما كتب فى ولاية قاض : اما بعد حمد الله رافع علم الحق لمن اهتدى .. والصلاة على سيدنا محمد .. وعلى آله وصحبه .. والرضا عن الخليفة أمير المومنين العباسى .. فانا كتبناه اليكم .. من فلانة .. وقد علمتم أن الاحكام الشرعية هى ملاك الامور .. وقد أمعنا .. فرأينا اهلا لذلكم .. « فلان » .. فأنفذناه اليكم حكما .. فتلقوه .. بنفوس منبسطة .. والسلام .

ومن ذلك للرعينى أبى الحسن :

من فلان الى الاشياخ بفلانة .. والى ذلكم فان فلانا .. رأينا .. أن نقدمه للنظر فى قضاياكم الدينية .. فاذا وافاكم فاستبشروا بموافاته ، وقفوا عندما يمضيه .. وتعاونوا على الخير تعاونا يجزل حظكم من فضل الله وبركاته ، فهو المؤمل فى ذلك ، لا رب سواه .

ومن الظهائر بالوظائف الديوانية ، ما كتبه ابن عميرة بولاية وزارة :

مكتوبنا هذا بيد فلان .. يجد به مكان العزة مكينا .. ويتقلد وزارتنا تقلد تفويض واطلاق .. ان شاء الله تعالى والسلام .

ومن ذلك ما كتبه ابن الابار فى مشارفة ناحية : عن اذن فلان يتقدم فلان للنظر فى الاشغال المخزنية بفلانة .. جاريا فى ضبط الامور المخزنية .. على المقاصد الجليلة .. عالما أن المرء بما قدمت يداه مرتهن .

ومنه أيضا ، ما له باعادة مشارف الى ناحية : يساد بهذا المكتوب فلان الى خطة الاشراف بفلانة .. مخلى بينه وبين النظر في ضروب الاشغال المخزنية وصنوفها .. فليتقلد هذه الخطة بحقها .. جامعا بين الاحتياط للمخزن والرفق بالرعية .. ان شاء الله تعالى .

ننتقل الى الجزء الحادي عشر ، فنجد في الصفحة 6 الطرف الثاني من الفصل الثانى من الباب الرابع ، من المقالة الخامسة ، فيما يكتب من الولايات عن الملوك وهذا الطرف في مصطلح كتاب المغرب والاندلس فيما يكتب من الولايات عن الملوك ، فهم يعبرون بالظهائر مفتتحة بلفظ « هذا ظهير » ، كما تقدم عن خلفاء المغرب ، وهى على ثلاثة أضرب :

الاول ما يكتب لارباب الوظائف من أصحاب السيوف ، كما كتب ابن الخطيب :

هذا ظهير كريم منزلته في الظهائر .. ومحله من الصكوك .. محل اولى الرايات .. امر به فلان لصدر صدور أودائه .. شيخ شيوخ المجاهدين .. الشيخ الاجل .. (ابن) الشهيد المقدس المرحوم أبى عبد الله بدر الدين ابن شيخ الشيوخ .. الشيخ الكبير .. أبى عمران موسى ابن ابى زيد رحو بن محيو بن عبد الحق بن محيو .. لما قامت له البراهين الصادقة على كرم شيمه .. قابل بالرعى كرائم ذممه .. فأثقل له ميزان المكافآت .. وجعله يمين الملك الذي به يناضل .. فقدمه .. شيخ الغزاة بحضرته العلية ، وسائر بلاده النصرية .. وبتلعة دواره المرينى في خدمة مقامه النصري يقفون .. فلبيته المزية بالحق ، المستوجبة للفخر بسابقة السعادة لعبد الحق .. فهى خطة قومه .. وعلى الغزاة .. أن يعرفوا قدر هذا التعظيم .. فيكونوا من ايجاب حقه حيث حد ورسم .. بحول الله تعالى وقوته .

وفى الصفحة 9 وما بعدها ، تأتى نسخة ظهير بنيابة السلطنة ببعض الاعمال : هذا ظهير كريم .. أصدرناه للفقيه أبى فلان .. وأمرناه أن يتوجه الى جهة كذا — حاطها الله — فيجمع الناس في مساجدهم ، ويندبهم من

مشاهدتهم .. فمن نالته مظلمة فليرفعها اليه ... ويختبر ما افترض صدقة للجبل .. ليعين لبناء الحصن بجبل قارة .. وغيره مما افترض اعانـــة للمسافرين .. ويعلم الناس أن هذه المعونة .. ليست مما يلزم .. ويندب الناس الى تعليم القرآن لصبيانهم .. ومن أهم ما اسندناه اليه .. البحث .. عن أهل البدع .. ومن ينبز بفساد العقد .. والتلبس بالصوفيـة .. والذاهبين الى الاباحة .. والمؤلفين بين النساء والرجال .. ومن قصر .. أو خالف .. فلا يلومن الا نفسه .. والله المستعان .

وفى الصفحة 12 وما بعدها نجد نسخة ظهير بالامرة على الجهاد : هذا ظهير كريم .. اصدر حكمه .. عبد الله الغنى بالله محمد ابن مولانا امير المسلمين ابى الوليد بن نصر .. لوليه .. الامير ابى عبد الرحمن ابـن الامير ابى على ابن السلطان امير المسلمين ابى سعيد . لما وفد على بابه الكريم ، مؤثرا على ما كان بسبيله .. مفضلا ما عند الله على رحب أوطانه .. قابل .. وفادته بالقبول .. وجعل له الشرب المهنا .. ثم استظهر به على أعداء الله .. ثم راى الان .. أن .. يقيمه فى قود عساكره .. ونصبه للقبائل الجهادية .. وعلى الغزاة بالحضرة .. من بنى مرين وسائر القبائـل المجاهدين أن يعرفوا قدره .. ومن وقف عليه فليعرف ما لديه ، بحول الله تعـــالـــى .

وفى الصفحة 15 وما بعدها ، وردت نسخة ظهير بالتقدمة علـى المجاهديـن ، لولد السلطـان :

هذا ظهير كريم .. عقد للمعتمد به عقد التشريف .. امضى أحكامه .. امير المسلمين ، عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين ابى الوليد فرج بن نصر .. لكبير ولده .. الامير .. سمى جده .. ابى الحجاج يوسف .. ولما صرف وجهه الى ترشيحه .. وعقد له لواء الجهاد على الكتيبة الاندلسيـة من جنده .. راى أن يزيده من عنايته ضروبا واجناسا .. وكان جيـش الاسلام فى هذه البلاد الاندلسية .. كلف همته .. راى .. ان يحمد لهم اختياره .. يستنيب .. من يجري مجرى نفسه .. فقدمه على الجماعة الاولـى كبرى الكتائب ، المشتملة من الغزاة على مشيخة آل يعقوب .. وسائـر

قبائل بنى مرين .. فليتول ذلك .. والنسب العربى مفخر لطيب طبعه .. وعلى جماعتهم .. ان يطيعوه .. فمن وقف على هذا الظهير .. فليعلم مقدار ما تضمنه .. واقطعه .. جميع القرية المنسوبة الى عرب غسان . وكتب فى كذا .

وفى الصفحة 19 وما بعدها ، جاءت نسخة ظهير لمشيخة الغزاة بمالقة :

هذا ظهير كريم .. أمر به وأمضاه .. الامير عبد الله محمد ابن مولانا امير المسلمين .. ابى الحجاج .. لوليه .. الشيخ أبى العلاء ادريس ابن الشيخ ابى سعيد عثمان بن أبى العلاء .. ولما كان له القدر .. ثم خلصه الله من ملكة الكفر الخلاص الذي .. وقابله بالقبول والاقبال .. راى .. ان يستظهر بعضائد .. فقدمه .. شيخ الغزاة المجاهدين .. بمدينة مالقة .. راجعا اليه نظر القواعد الغربية رندة وركوان ؟ .. حتى يظهر على تلك الجهات .. آثار الحماية والبسالة .. وعلى من يقف عليه من الفرسان .. ان يكونوا ممتثلين .. وبحسبه يعمل بحول الله وقوته .

وفى الصفحة 21 ورد الضرب الثانى ، من ظهائر بلاد المغرب ما يكتب لارباب الوظائف الدينية من أصحاب الاقلام ، منها نسخة بقضاء الجماعة .

هذا ظهير كريم .. أمر به .. امير المسلمين ابو الحجاج .. لقاضى حضرته العلية ، وخطيب حمرائه السنية .. الشيخ .. ابى الحسن .. ابن الشيخ .. ابى محمد بن الحسن .. ولما كان له الحسب .. فلما زان الله خلافته .. كان ممن صحب ركابه وصلى به صلاة السفر والحضر .. وخطب به فى الاماكن التى بعد بذكر الله عهدها ، وخاطب عنه .. المخاطبات التي حمد قصدها .. حتى استقل ملكه فوق سريره .. ثم راى ، ان يشرك رعيته فى نفعه .. وقدمه .. قاضيا .. بحضرة غرناطة .. فليتول ذلك عادلا .. بارا بمشيخة اهل التوثيق .. سائرا من مشهور المذهب على اهدى طريق .. وأمره .. ان ينظر فى الاحباس على اختلافها .. فعلى من يقف عليه أن يعرف حق هذا الاجلال .. فى الثالث من المحرم عام اربعة وستين

وسبعمائة ، عرف الله فيه هذا المقام العلى عوارف النصر .. فهـــو المستعــان لا رب غيـــره .

وهذه نسخة اخرى : هذا ظهير كريم .. امر بـــه .. فلان ، للشيخ .. قاضى الجماعة وخطيب الحضرة ، ابى الحسن ابن الشيخ الفقيه .. ابى محمد بن الحسن .. أصدر له هذا الظهير .. مشيرا بالترفيع .. وقدمه .. خطيبا بالجامع الاعظم .. فليتول ذلك .. بحول الله وقوته .

وفى الصفحة 26 ورد الضرب الثالث ، فيما يكتب لارباب الوظائف الديوانية ، وهذه نسخة ظهير بالقلم الاعلـــى (كتابة السر) :

هذا ظهير كريم .. امر به الامير فلان لفلان .. وصل الله سعادته وجعل اقلامه جيادا لاجالة أمره العلى .. لما كان ناهض الوكر فى طلبة حضرته من البداية .. وحين رد الله عليه ملكه .. وكان ممن وسمه الوفاء .. رعى له .. هذه الوسائل .. فقصر عليه الرتبة الشماء .. وقدمه .. كاتب الســـر .. فليتول ذلك عارفا بمقداره .. مستعينا بالكتم لاسراره .. وعلى من يقف عليه .. أن يعرفوا قدر هذه العناية .. بحول الله وقوته ، وكتب فى كـــذا .

وبعد هذا نتصل بالجزء الثانى عشر فلا نجد فيه ما له علاقة خاصة بالمغرب والاندلس . فاذا اتصلنا بالجزء الثالث عشر ، فنجد بالصفحة 2 فى الفصل الاول من الباب الاول من المقالة السادسة فيما يكتب فى الوصايا الدينية ، حيث يقول فى هذا الفصل :

اعلم انه كان لقدماء الكتاب بذلك عناية عظيمة ، بحسب ما كان للملوك من اقبال على معالم الدين ، ومن أكثرهم عناية بذلك أهل المغرب ، لـــم يزالوا يكتبون بمثل ذلك الى نواحى ممالكهم ، ويقرأ على منابرهم ، ولهــم فى ذلك الباع الطويل والهمة الوافرة .. ثم يورد نموذجا من ذلك لابـــى زيد الداراري ــ كذا ولعله الفازازي ــ أحد كتاب الاندلس عن أميـــر المومنين ابن أمير المومنين المنصور ، احد خلفاء بنى امية ــ كما يقول خطأ ــ ولعله بنى عبد المومـــن بالاندلس :

الحمد لله الذي جعل الامر بالمعروف والنهى عن المنكر أصلين تتفرع عنهما مصالح الدنيا والدين .. والصلاة على سيدنا محمد الكريم المبتعث بالشريعة .. وعلى آله الكرام .. والرضا عن الايمة المظهرين للدين المتين .. وانا كتبناه لكم .. من حضرة اشبيلية .. والذي نوصيكم به تقوى الله .. وان تعلموا أنا لم نقم هذا المقام .. الا لنستوفى كل نظر يعود على الامة باستقامة أخراها وأولاها .. فعلينا لها بحكم ما تقلدناه من امامتها .. ان نتخولها بالحكمة .. ولنا عليها أن تطيع وتسمع .. وانما كان قصدنـا .. اقامة الكافة .. والى هذا — أدام الله كرامتكم — فانا لم نزل مع طول المباشرة .. نقف وقوف المتأمل على جزئيات الامور وكلياتها .. والان حين استوفى اشرافنا على البلاد قاطبة .. صرفنا أعنة الاعتناء بجوامع المصالح .. والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وظيفة تعينت اقامتها على المسلمين جميعا .. ومن أشد المنكرات بغير نكير .. الخمر التى هى اس الاثم والفجور .. وشرب الخمر لجاج فى الطبع .. ومن أشد مـا حذر منه .. كتب الفلسفة لعن الله واضعها .. وقد كان سيدنا الامام المنصور رضى الله عنه ، قـد جـد فيها بالتحريق والتمزيق ، وسـد بامضاء عزمه المسدد ورأيـه المؤيد وجوه طلابها بكل طريق .. والسلام (الغالب أنها للمامون الموحدي وقد بويع بالاندلس آنـذاك) .

واخيرا ننتهـى الى الجزء الرابع عشر ، فنجد فى الصفحة 24 ومـا بعدها نسخة هدنة من ملك مضعوف لملك قوي ، كتب بها الفقيه أبو عبد الله ابن (بياض) أحد كتاب الاندلس ، عن بعض ملوك الاندلس من المسلمين من أتباع المهدي بن تومرت القائم بدعوة الموحدين ، مع « دون فراندة » صاحب قشتالة من ملوك الفرنج ، بعقد الصلح على مرسية : هذا عقدنا بعد استخارة الله تعالى واسترشاده .. عقدناه لقشتالة ، مع فـلان النائب فى عقده معنا ، عن مرسله الينا ، الملك الاجل : الاسنى المبجـل دون فراندة » ملك قشتالة وطليطلة وقرطبة وليون وبلنسية .. حين وصلنا من قبله كتاب مختوم بطابعه المعلوم .. وعاقدناه على أن يكون السلم بيننا وبين مرسله المذكور لعامين .. أولهما شهر المحرم سنة تاريخ هذا الكتاب الموافق من الاشهر العجمية شهر كذا .. على جميع ما تحت نظرنا الان من البلاد الراجعة الى الدعوة المهدية .. من جزيرة شقر الى بيرة والمنصورة وما

يليها .. ويدخل فى الطاعة مع البلاد بعد هذا فى السلم ، كل ما يرجع الى هذه الدعوة ؟ بزيادة نسبته من المال .. والتزمنا فى هذا السلم لملك قشتالة .. مائة الف دينار واحدة وأربعين الف دينار فى كل عام .. والله الموفق .. بمنـــــه والســـــلام .

وفى الصفحة 26 ورد المذهب الثانى ، أن تفتح المهادنة قبل لفـــظ « هـــذا » ببعدية ، منها هذه النسخة بين ملكين متكافئين دون تقرير شىء منهما وقد كتبها الفقيه المحدث أبو الربيع بن سالم من كتاب الاندلس فى عقد صلح على بلنسية وغيرها من شرق الاندلـــس :

وبعد فهذا كتاب موادعة أمضى عقدها والتزمه .. فلان ، لملك أرغون وقرمط برجلونة ، وبرنسب مقت (كـــذا) بشلى حافظة ابن بطرة بـــن اذفونش بن ريموند .. جنحا منه الى ما جنح اليه من ذلك متقاضيه ، وتحريا للعمل على شاكلة الصواب والايثار لما يقتضيه .. فاجلى ذلك عن امضاء عهد السلم لملك ارغون على بلنسية وكافة جهاتها .. وكذلك شاطبــــة ودانية ، وما ينتظم معهما .. ويرجع الى حكم بلنسية .. نفتتحه بيوم الاحد الرابع والعشرين لشهر نونبر ، الموافق لعاشر ذي القعدة المؤرخ به هذا الكتاب .. من عام أحد وعشرين وستمائة .. الامن الكافل لكافة من تشتمل عليه كافة المواضع المذكورة من المسلمين ، ومن تحويه بلاد ملك أرغون .. والحدود الفاصلة .. هى أواسط المسافات .. والتزم كله عن ملك أرغون النائب عنه .. الزعيم بطرة بن فدانف بكدريش ؟ .. واشهد مع ذلـــك زعماء دولته .. تحقيقا .. وتوثيقا .. ان شاء اللـــــه .

وفى الصفحة 63 والتى بعدها نجد نسخة هدنة عقدت بين الملك الاشرف .. وبين دون حاكم الريد أرغون ، صاحب برشلونة من الاندلس 692 وتتضمن أن تكون بلاد السلطان الاشرف تحد من البر الشامى مـــن القسطنطينية والبلاد الرومية الساحلية ، وهـــي من طـرابلس الغـــرب وسواحل برقة .. الى ثغر دمياط وبحيرة تنيس وحدها من البـــر الغربى ، من تونس واقليم افريقية .. الى ثغر الاسكندرية ورشيد وبحيرة تنيس .. وعلى أن تكون بلاد الملك دون .. ارغون وأعمالها وبلادها : صقلية وجزيرتها

وبلادها واعمالها ، بربولية واعمالها وبلادها .. مالقة ، وقوصرة ، وميورقة ويابسة .. وأرسديار ! .. والله الموفق بكرمه ان شاء الله تعالى .

وفى الصفحة 263 وما بعدها وردت رسالة لابى عبد الله محمد بن أبى الخصال فى الشكر على نزول الغيث :

الحمد لله الذي لا يكشف السوء سواه .. ولما لقحت حرب الجدب عن حيال .. وقالوا لا يطمع فى الغيث وزحل فى الليث ..

« تخرصا واحاديثا ملفقة
ليست بنبع اذا عدت ولا غرب »

انشا الله العنان .. فيا ايها المومن بالكواكب انظر الى الديم السواكب .. فمثلت الازهار .. فمن نرجس ترنو الروانى بأحداقه .. ومن عرار تغنى مطالمه على عرار .. ومن اقحوان جرى على الثنايا الغر .. ومن بنفسج كاطواق الورق .. وكل ربوة اخذت زخرفها وازينت .. نشكرا لربنا شكرا ..

وبعد نهذه ملاحظات : تردد فيه ذكر الشيخ عبد الواحد فى المواقع الجغرافية ، واعتقده « سيكو » عبد الواحد المراكشى ، ولا نظنه ، لانه الف كتاب المعجب : وهو الوحيد المعروف عنه ، وعمر ابن سعيد لا يزيد على عشر سنوات كثيرا ، مع أن الشيخ عبد الواحد هذا ينقل عنه ، كما رأيناه .

ومن اخطاء الكتاب ما يلى :

انه يذكر فى الصفحة 94 من الجزء الاول أن المغرب أو الغرب والاندلس كانا بيد نواب الخلفاء .. فى خلافة عثمان ، وهذا خطأ تاريخى ، فظيع ، فالاندلس ما فتحت الا بعد وفاة عثمان بستين سنة وأواخر أيام الوليد ابن عبد الملك .

وفى الصفحة 231 من الجزء الثالث اخطأ ـ كما نبهنا ـ فى جعل مدينة سلا على ساحل الابيض المتوسط .

وفى الصفحة 101 من الجزء الخامس نقل من الادريسى أن مدينة سبيطلة ، كانت قبل الاسلام القاعدة لملك الروم الافارقة « أفريسيس » والغالب أنه مصحف عن « جرجيس » كما هو مذكور فى الصفحة 179 .

وفى الصفحة 112 من هذا الجزء نجد نهاية للجملة الثانية ، من مملكة تونس ، وبداية للجملة الرابعة بدون ذكر للجملة الثالثة ، التى سقطت من نسخ الكتاب ، ولم ينبه على ذلك فى هامشه .

وفى الصفحة 126 تردد ذكر يعقوب المنصور على أنه ابن عبد المومن فسقط ذكر ابيه أبى يعقوب يوسف ، وتكرر هذا فى الصفحة 162 و 195 .

وفى الصفحة 129 سقط كلام بعد قوله : « وكان الواثق بن المستنصر لما قتل هو وابوه ترك جارية حاملا به » .

وفى الصفحة 135 نجد هذه العبارة « وذلك ان الخلافة الاموية ودعاوي بنى عبد المومن قد زالت عنها (الاقطار) فى المغرب بغلبة بنى مرين عليهم وانتزاعهم الامر منهم » .

فذكر الخلافة الاموية قبل دعاوي بنى عبد المومن لا محل له ، اللهم الا أن يكون كلام قد سقط بعد الخلافة الاموية وقبل دعاوي بنى عبد المومن أو تكون كلمة « الاموية مصحفة عن « الموحدية » وقد وقع هذا فى الصفحة 298 الجزء التاسع ونبهنا عليه . وهذا هو الظاهر .

وفى الصفحة 157 نقل عن الروض المعطار ، أن سبتة ، بين البحر المحيط وبحر الروم . وهذا خطأ عظيم ، كما أشرنا اليه .

وفى الصفحة 181 ذكر ابن لمحمد بن ادريس هكذا « عليشا » فلعله مصحف عن « على » المعروف لنا .

وفى الصفحة 189 اختصر كلاما لابن أبى زرع فى أصل المرابطين ومن ملك الصحراء من لمتونة اولا بدون ان ينص على هذا الاختصار .

وفى الصفحة 192 ذكر ادريس ابن المنصور الموحدي ثم ذكر ابنه عبد الواحد على انه المامون وانه لقب بالرشيد مع أن المامون هو لقب ادريس ، وليس لابنه الذي ذكر انه لقب بالرشيد ، كما رأينا .

وفى الصفحة 223 ذكر أن شنترين على بحر برطانية ، وهو بحر برديل الخارج من البحر المحيط . وهذا خطأ لان المدينة ليست على البحر بالمرة وكانها التبست عليه بشنتامرية المعروفة الان باسم « فارو » .

وفى الصفحة 232 ذكرت سرقسطة على أنها فى شرقى الاندلس ، وليست كذلـك .

وفى الصفحة 87 من الجزء الثامن ، ذكر أن يوسف بن تاشفين استولى على المغرب قبل بنى مرين ، وانه اول من كتب الى الديار المصرية ، ثم أتى بنص الرسالة ، التى هى فى الواقع رسالة من ابى الحسن المرينى ، كما اشرنا الى ذلك .

وفى الصفحة 31 من الجزء العاشر نجد رسالة القائم العباسى بتوليته الاندلس يوسف بن تاشفين ، مع أن حكمه الاندلس متأخر عنه بكثير اذ كان مجيئه اليها لاول مرة عام 479 وكانت وفاة القائم قبل عام 467 أما ابن موصليا فقد ولد عام 412 فلا يعقل أن تصدر عنه هذه الرسالة التى قال عنها المؤلف انها صدرت بعد العشرين والاربع مائة .

وفى الصفحة 2 من الجزء الثالث عشر نجد رسالة جعلها صادرة عن امير المومنين ابن امير المومنين المنصور احد خلفاء بنى أمية بالاندلس .. مع أن الرسالة ـ كما يبدو ـ صادرة عن المامون الموحدي وهو لما يزل فى اشبيلية اثر بيعته . كما أشرنا الى ذلك فى محله . ومن التصحيف ذكر « الفازازي » بالداراري . وهذا من قبيل الناسخ وهى أخطاء قليلة ، بالنسبة الى غيرها ، مما تجلى فى تلك المعلومات الواسعة ، التى كانت للمؤلف عن المغرب والاندلس وملوكهما ، وخصوصا مملكتى بنى الاحمر وبنى مرين ، اللتين كان المؤلف يعاصرهما ، كما كان على اتصال بالمؤرخ ابن خلدون ، عند اقامته بالقاهرة ، واقتبس منه فى كتابه هذا ، ونص على ذلك الاستاذ عنان فىكتابه « ابن خلدون » وأحال على الاجزاء 4 و 5 و 6 من الكتاب المذكـور .

تطـوان **محمد ابن تاويت**

مأساة الحسين
في الأدب الأندلسي

د. عبد السلام الهراس

التشيع ، كما استقر على حقيقته ، اسباغ الحق الالهـي على امامة على كرم الله وجهه وتفضيله على جميع الصحابـة والدعوة لامام معصوم ، ذلك هو القاسم المشترك أو الفكـرة العامة التي يشترك فيها جميع فرق الشيعة التي تشعبت بهـا الطرق وتنازعتها المذاهب الفرعية وتطرف بعضها تطرفا خطيرا أخرجها من دائرة الاسلام وأصبح الكفر يحيط بها من الجهات الاربـع .

وقد ظهر التشيع أولا فى المشرق فى بيئة عربية صرفة ، وبرزت بوادره عند طرح مشكل الخلافة على اثر التحاق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الاعلى ، ولكن التشيع المرتبط بالنضال والدماء والذي سيتطور بعد ذلك يبدأ تاريخه فى حركة التوابين .

جوبهت الشيعة بمقاومة عنيفة واجراءات شديدة من الامويين الذين انتزعوا الحكم بطريقة غير شرعية، وحولوا الخلافة المبنية على الشورى والمبايعة الحرة الى ملك عضوض ، فاعتدوا بذلك على حق المسلمين بل واجبهم فى اختيار خليفتهم اختيارا قائما على حرية الارادة والشعور بالمسؤولية ، ولكن منطق الشيعة لم يتبن هذا المبدأ العادل ، بل حاول الاعتداء عليه من جهة أخرى ، كما اعتدى عليه بنو أمية ، وقد قدمت الشيعة كثيرا من الضحايا فى سبيل تولية الحكم لآل على ، ولم يكن نصيبهم من المآسى فى عهد بنى عمومتهم العباسيين بأقل مما نالهم على يد الامويين ، ولكن أكبر مأساة خلفت صدى قويا وحيا الى الآن فى أرجاء العالم الاسلامى هى مأساة الحسين فى كربلاء .

وجد التشيع تربة خصبة فى البيئات العربية والعجمية فى المشرق بينما كانت التربة المغربية شحيحة عليه فلم تمد بذوره بالعناصر اللازمة لنموه وان احتضنته أحيانا دون أن يخلف بعد اندثار حكمه فى تونس جماعة أو مجتمعا .

اما فى الاندلس فنجد عربها وبربرها يستقبلون عبدالرحمن الداخل الاموي وفاء للخلافة الاموية وتحديا للعباسيين ، وقد آزره أولئك بالدعوة والرجال والسلاح حتى انتزع الحكم من يد يوسف الفهري وحلفائه ، فأحيا فى أقصى المغرب ما حاول الشيعة والعباسيون اقباره فى المشرق ، وكان من الطبيعى أن يواجه الامير الاموي الجديد ، وهو أول أموي يحكم الاندلس مباشرة ، مشاكل متعددة لم يكن وراءها دوافع مذهبية أو دينية

الا بعض التمردات التى تمت من بعيد الى الشيعة أو تنتحل الدعوة اليها دون أن تكون لها بيئتها المناسبة .

ومع أن نزعة الاندلس كانت أموية ، لكن بنكهة أندلسية محلية ، فقد وجد ضمن العنصر العربى بها من كان ذا صلة ما بالشيعة ، كما أن البربر تأثروا بالتشيع ، كما تأثروا سابقا بالنزعة الخارجية .

ومن الاعمال الحربية التى قامت فى وجه الامويين ولها علاقة بالتشيع : الثورة التى قادها عبد الله بن سعد بن عمار ابن ياسر الذي كان أميرا على اليمانية من جند دمشق ، ومعنى هذا ، أنه كان قائدا أمويا دون أية شبهة تابعا لولاية يوسف الفهري آخر ولاة الامويين بالاندلس ، غير أن نزول عبد الرحمن الداخل « بالمنكب » ومطالبته بامارة هذا القطر لاحقيته به من يوسف جعل هذا يقاوم الطارىء المغامر ويحاول تأليب الناس عليه بجميع الوسائل ، من ذلك أنه كتب الى عبد الله بن سعد أن يتصدى لمحاربة عبد الرحمان الاموي مذكرا اياه بما فعل أجداده بجده عمار بن ياسر وقتلهم له بصفين على يد عسكر معاوية اذ كان عمار من جند علي . وقد فشلت ثورة عبد الله وآل الامر الى أن ضرب عبد الرحمن عنقه .. ويبدو أنه ثار فى القلعة التى تعرف بقلعة بني سعيد ، وكانت هذه الثورة قبل سنة 143 هـ ، وهى السنة التى هلك فيها يوسف الفهري (1) .

---

1) المغرب 2 /161 ، نفح الطيب 330/2

وفى سنة 146 هـ يثور العلاء بن مغيث الجذامى بلقنت «ALICANTE» ولكن لم يكن يدعو للطالبين وانما كانت دعوته للعباسيين والى طاعة أبى جعفر المنصور فنشر أعلامهم السود محاولا ان ترفرف على أنحاء الاندلس . وقد هددت هذه الثورة دعائم الحكم الاموي حيث انضم اليها كثير من الجنود وعناصر مهمة من الشعب الاندلسى المتحفز للتمرد واثارة الاضطرابات فى مثل هذه الظروف وكادت دولة عبد الرحمن أن تنصرم وخلافته أن تنخرم (2) غير ان عبد الرحمن استطاع باستماتته وشجاعته ودهائه أن يسحق هذه الثورة الخطيرة قرب قرمونة «CARMONA» بعد معارك عديدة قتل فيها العلاء مع نحو من ستة آلاف من أصحابه ، وقد أمر عبد الرحمن بجز رأس هذا الزعيم ورؤوس أعلام حزبه وكتب على كل رأس اسم صاحبه وجعلها فى أوعية وبعث بها فطرحت فى أسواق القيروان ، أما رأس قائد الثورة فوضعه فى سفط وجعل معه لواء العباسيين الاسود وطرح بباب سرادق المنصور بمكة عند زيارته لها بمناسبة الحج ، فقال المنصور عند ما رأى ذلك :

« انا لله ، عرضنا بهذا المسكين للقتل .. الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان » (3) .

والثورة العربية الثالثة هى التى تزعمها الحسين بن يحيى ابن سعد بن عبادة وذلك سنة 165 ، وكان الحسين مغامرا

---

2) البيان المغرب 2 / 52 ــ 53 ــ ذكر بلاد الاندلس .

3) وانظر ذكر بلاد الاندلس ص 134

طموحا اشترك أول الامر مع سليمان بن يقظان الاعرابـــى فى التمرد بدافع الثأر لليمانية التى سبق أن أوقع بها عبد الرحمن الداخل ، ولكن الرغبة فى الامارة عن أي طريق أتت كانت أقوى عند الحسين من ارادة الانتقام ، لذلك لم يسر مع صاحبه الـــى آخر أشواط المغامرة ، فقد خوطب من قرطبة ليتآمر علـــــى صاحبه سليمان فاغتاله طمعا فى ان يتولى لعبد الرحمن حكـــم سرقسطة ، لكن سرعان ما انقلب عليه أيضا فقاد تمردا جديدا لحسابه وحده وقد جابهه عبد الرحمن بكل حزم فأخمده سنـــة 167 هـ بعد أن حاصر سرقسطة حصارا محكما ثم اقتحمها على المتمردين وقائدهم واشتد على أهلها وأجلاهم عنها ثم أعادهم اليها ... وعلاقة هذه الثورة بالشيعة علاقة غير وثيقة اذ ليـــس ثمة منها سوى نسب القائد الذي ينتهى الى سعد بن عبادة الذي كان من أنصار على ابن أبى طالب .

ولم تكن هذه الثورات صريحة التشيع ما عدا ثورة العــلاء الذي كشف عن مقصده بصراحة على أن ثورته كانت عباسية ، فليس بينها وبين التشيع سوى تلك العلاقة الواهية !!

لكن أبرز ثورة شيعية فاطمية صريحة هى التى قادها قائد بربري فى منطقة شنتبرية «SANTAVER» وقد اختلفـــــت المصادر التى نصت على هذه الثورة فى اسم هذا الثائر ، فهو فى بعض المصادر شقيا أو سفيان بن عبد الواحد المكناسى (4) .

---

4) المعهـــد المصـــري ص 98 .

لكنه فى مصدر آخر تاشفين بن عبد الواحد الفاطمى (5) . وحسب هذا المصدر فان الثورة كانت مدبرة من الخارج كما نفهم من هذا النص .

« وفى سنة أربع وخمسين غزا الامام (يعنى عبد الرحمن) البرابر القادمين عليه مع تاشفين بن عبد الواحد الفاطمى » .

وليس ببعيد أن يكون «شقيا» محرفا عن تاشفين أو سفيان ويبدو ان ثمة غزوا فاطميا خارجيا قام به جيش بربري استطاع أن يتسلل الى المنطقة المذكورة ويتصل ببعض عملاء الشيعة هنالك حيث دبروا مؤامرة وأشعلوا فتنة بشنتبرية سنة 150 هـ تمهيدا لهذه الثورة التى كان يقودها تاشفين ، أو سفيان الذي كان شخصية قوية وقيل عنه انه كان معلم صبيان حاذقا للقرآن يطلق على نفسه « الفاطمى » لان أمه كان اسمها فاطمة وتسمى بعبد الله بن محمد وهو أندلسى من ناحية وادي الحجارة .

استمرت ثورة عبد الله بن محمد من سنة 151 الى 160 وربما كانت البداية سنة 150 هـ كما المعنا الى ذلك، وقد استطاع أن يهزم جيوش عبد الرحمن المتوالية ، كما استطاع أن يؤثر فى بعض قواد الامير ويستميله الى دعوته وهكذا صار وجيه الغسانى القائد الاموي من أهم أنصار « عبد الله بن محمد » والمؤمنين بدعوته ولم ينفع عبد الرحمن لمواجهة هذه الثورة الا الحيلة والتآمر فدس على تاشفين أو سفيان بعض أصحابه

---

5) ذكر بلاد الاندلس ص 134 .

فاغتاله لكن الثورة لم تنته باغتيال زعيمها اذ تحمل عبء الثورة القائد الاموي السابق وجيه الغسانى الذي ظل مخلصا لـدعوة الفاطمى يقاتل دونها الى أن قتل . ويبدو أن الثورة فى شنتبرية ظلت مشتعلة الى سنة 162 . ولعل بلنسية كانت مشتركة أيضا فيها ومؤازرة لها وقد تكون الصدفة فقط هى التى قرنت ثورتيهما فى تاريخ واحد ذلك أن عبد الرحمن خربهما معا فى هـذه السنـة (6) .

وواضح من النص الجديد الذي عثرنا عليه فى كتاب ذكر بلاد الاندلس أن تاشفين أوشقيا لم يكن يدعو لنفسه وانما كان عميلا للفاطميين الذين كانوا يزودونه بالرجال والعتاد ، ولم تكن الثورة بربرية خالصة بل كان ضمنها قواد عرب ، ولذلك يكون استنتاج الدكتور محمد مكى من تسمية ابن عذاري لهذا الثائر « بالداعى الفاطمى » بأنه كان يقوم بالدعوة لغيره لا لنفسه استنتاجا صحيحا (7) .

وفى سنة 237 هـ شهد شرق الأندلس تمردا تزعمه معلـم ومؤذن أيضا كان غامض الدوافع وان كنا نظن أن ثمة علاقة بينه وبين بعض الاتجاهات الشيعية الباطنية . وهو ليس أندلسيا وانما ورد عليها مـن المغرب بعد مـا فشلت دعوته ، يقـول الناصـري : 1 / 177 — 188 .

---

6) ترصيـع الاخبـار ص 18 .
7) صحيفة المعهـد المصـري ص 99 .

« وفى أيام يحيى ابن محمد صاحب الترجمة ، وذلك فى سنة سبع وثلاثين ومائتين قام رجل مؤذن بناحية تلمسان يدعى النبوة وتأول القرآن على غير وجهه فاتبعه خلق كثير من الغوغاء . وكان من بعض شرائعه أنه ينهى عن قص الشعر وتقليم الاظافر ونتف الابطين والاستمداد وأخذ الزينة ، وكان شعاره فى ذلك « لا تغيير لخلق الله » وعندما شاع أمره شارع أمير تلمسان الى القبض عليه ففر وركب البحر متجها للاندلس . وهناك افتتن الناس بدعوته وتبعه من سفهاء الناس ورعاعهم خلق كثير وقد استتيب فلم يتب فكان مصيره القتل صلبا وبينما هو يرفع على الخشبة اذ به يقول للقوم : اتقتلون رجلا ان يقول ربى الله (8) .

وعندما قرر العبيديون العمل لمذهبهم اختاروا القبائل البربرية ميدانا لبث دعوتهم وارسال دعاتهم ، وكانت قبيلة كتامة الواقعة بين مدن جيجل وسطيف وقسطنطينة محضن هذه الدعوة اذ استقر فى حصن من حصونها أبو عبد الله الصنعانى داعية العبيديين واستطاع أن يقنع أسرة مهمة من أسرها القوية مهدت له السبيل وأبدى رئيسها من الاخلاص والتضحية ما ضمن للبداية شروط النجاح . . .

وقد صادف قيام الدعوة الفاطمية بافريقيا اضطراب الاحوال بالاندلس وانتقاض كثير من الرؤساء والمتمردين على السلطة

---

8) أعمال الاعلام ص 32 .

المركزية التى كانت تعانى ضعفا كبيرا وكانت ثورة عمر بن حفصون أخطر تلك التمردات .

وكان عمر هذا ثائرا مغامرا وعنيدا ذا دوافع دفينة مــلأي بالحقد على الدولة وعلى دينها ، لذلك كان انتهازيا متلونا داهية فى ميدان الحرب والسياسة ، وقد وجد فى العبيديين وسيلة ثمينــة للاستعانة بدعوتهم على تحقيق اهدافه فاهتبل هذه الفرصة واتصل بهم فاستجابوا لرغبته وبعثوا اليه بداعيين من دعاتهم . يقول ابــن الخطيب عن هذا الاتصال :

« وخاطب ملوك الشيعة بافريقية اضداد الاموية ووجهوا اليه رجلين ممن يعتقدان مذهبهم بخلعات وخاطبوه بالحض على التزام طاعتهم واقامة دعوتهم وأقاما عنده حتى حضرا كثيرا من حروبه وصرفهما ووجه معهما هدية انتخبهاا الــى صاحبهمــا . . »

وقد سبق له أن دعا للقاسم الادريسى صاحب البصرة (9) (بصرة المغرب) ولم يكن ابن حفصون مخلصا لاي مذهب أو أمير سوى لنداء حقده الشديد على الاسلام والمسلمين لذلك كان يرتبط ــ اسما فقط ــ بأي جهة تدعم انشقاقه وتضفى على تمرده نوعا من الشرعية والصبغة الدينية (! !) فالتشيع لديه وسيلة للتضليل والتمويه سرعان ما انكشفت حقيقته اذ عندما كثر انصاره أعلن عن ارتداده الى النصرانية أصله الذي كان يضمره منذ مدة (10) .

---

9) جمهرة الانساب ص 44 ــ المجلة المصرية 101 .
10) البيـــان المغـــرب 2 / 139 .

وقد استطاع أن يموه على كثير من المسلمين ويخدعهم فانقادوا لدعوته وتابعوه فى محاربة بنى أمية . وكادت ثورته تطيح بدولة الامويين لما كان له من قوة وصمود ولضعف المواجهة الاموية وتمزق وحدتها وتفكك عراها مما أتاح لظهور نزعات شعوبية وقومية ودينية وكانت كل نزعة تبحث عن زعامة تقودها لتحقيق مطامحها وكان البربر اذ ذاك يتطلعون الى ظهور « مهدي » يملأها عدلا كما ملئت جورا (! !) وان قيام دولة شيعية فى الضفة الاخرى من المتوسط على أكتاف البربر وما كان يروجه الفاطميون فى وسط الاندلس من دعايات فاطمية لاظهار دولتهم بمظهر المنقذ المخلص وتصوير الامويين بما يشوه حاضرهم وماضيهم وما كان يسود الاندلس من اضطراب وفوضى كل ذاك كان له تأثيره فى استجابة البربر لكل دعوة تبشر بالخلاص . وقد سبق أن استغل بعض المغامرين تلك التطلعات والارهاصات ولكن الغريب أن يتزعم الدعوة المهدوية وهى من ضمن عقيدة الشيعة ـــ أمير من البيت الاموي الاندلسى وقد اختار الوسط البربري مناخا لبث دعوته فكانت جماهيره أو قاعدته الشعبية يتكون معظمها من بربر الشمال والغرب ومن أهل طليطلة وطلبيرة وكان هذا المهدي عالما وبخاصة فى ميدان التنجيم والكيميا والفلسفة مما قد يدل أنه كان له ارتباط ما بالفلسفة الباطنية السائدة بالمشرق وقد اتهم بالشعوذة التى استطاع أن يخلب بها ألباب اتباعه . ورأى أن يعلن الجهاد على النصارى فاتجه الى ما وراء الحدود وبعث الى الفونسو الثالث ملك استورياس «ASTURIAS» رسالة بليغة يدعوه فيها الى الاسلام وينذره وقومه بالصاعقة فان لم يجب فالموعد النزال

ونشبت بين الفريقين معركة قرب سمورة «ZAMORA» انتهت بمصرع المهدي وتمزيق انصاره وكان لخذلان رؤساء البربر اياه أثر فى هذه الهزيمة الساحقة (11) .. يقول الدكتور محمود مكى تعليقا على هذه الثورة : ولعل هذه الثورة التى أشرنا اليها هى آخر المحاولات المسلحة لاقامة دولة على أسس شيعية فى الاندلس وقد انقطعت هـ ذه الثورات بطبيعة تغيير الموقف السياسى الداخلى (12) .

كان عبد الرحمن الناصر شخصية فذة مد الدولة بدم جديد وقوة عظيمة انحسرت معها كل محاولة للنيل من الحكم الاموي . . وهكذا قضى على كل المتمردين وأخطرهم عمر بن حفصون وبادر الى قطع الطريق على الدعوة الفاطمية فأعلن صراحة انفصاله عن المشرق فأسند لنفسه الخلافة لكونه أحق بها .

ومن المهم أن نسجل هنا أن الصراع بين الامويين والفاطميين حمى وطيسه على عهد الناصر والمستنصر ، وكان المغرب الاقصى والاوسط ميدانا لهذا الصراع ، واستطاع كل طرف أن يستميل اليه انصارا وعملاء منهم المخلصون ومنهم المتلونون وان اجتمعوا كلهم فى غرض الحفاظ على مصالحهم واماراتهم وكان بنو خزر ثم بنو العافية من أنصار الامويين يتنافسان

---

11) المقتبس ص 133 ـ 139 ـ الحلة السيراء 368/2 ـ 339 البيان المغرب 140/2

12) المجلة ص 103 .

تنافسا حادا فى التقرب اليهم كما يبدو ذلك من خلال رسائل ابن أبى العافية الذي كان عبيدي السياسة قبل ذلك الى الناصر اذ فيها كثير من عبارات التزلف والتقرب والتخوف على زعامته والحرص على أن يكون هو الاموي الاول بالمغرب دون غيره . . . أما الادارسة فكانوا هم أيضا يتخذون المواقف حسب المصالح لذلك اتسم موقف بعضهم بالتذبذب والتقلب . وقد وصف بعض هؤلاء الادارسة داعية من الشيعة الفاطميين بالفاسق وبكلب السوء وباليهودي والخنزير والمبدل لدين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالمعلن للكفر الجاحد للتنزيل وهذه النعوت والاوصاف تعكس مدى تنصل هذا الادريسى مما قد يحوم حوله من شكوك من طرف الامويين فى حين كان بعضهم الاخر ذا ارتباط بالفاطميين معلنين الحرب على الامويين (13) .

وكان استيلاء الناصر على سبتة والحاقها بعمالة الجزيرة الخضراء سنة 319 داخلا فى نطاق مقاومة نفوذ الفاطميين وسد هذا الباب فى وجوههم وجعله حائلا بينهم وبين الاندلس وقد حاول الادارسة استرداد سبتة الا أنهم فشلوا مما اضطرهم للاعتذار للناصر والعودة الى طاعته والاعتراف بامامته (14)

استمرت الدولة الاموية فى قوة وازدهار خلال حكم المستنصر وحكم ابن ابى عامر وولده عبد الملك الى أن تفجرت الفتنة القرطبية التى دمرت السلطة المركزية بها واسرعت فى

---

13) انظر المقتبس لابن حيان ورقات 103 – 131 – 137 .
14) المرجع السابق .

خراب الاندلس وقد أتيح للحموديين التدخل فى شؤون الاندلس فاستغلوا هذه الفوضى ليندفعوا الى حلبة الميدان يسهمـون فى تأريث الفتنة يؤججون نارها وكان على بن حمود أول مـــن استطاع أن ينتزع الحكم لنفسه من الثوار الامويين مدعيا أن له كتابا من هشام المؤيد يوليه فيه عهده ويجعل له حق الطلب بدمـه . وهكذا ابتدأت دولة الادارسة الحموديين بالاندلس سنة 407 وانهارت سنة 449 ولما تمكنهم الظروف أن يحكموا حكما مستقرا وشاملا (15) . والحموديون من نسل ادريس أي سلالة البيت النبوي ولكنهم على مر الزمن والمصاهرات مع البربـر تبربروا فأصبحوا يتكلمون بلغتهم ولهجتهم العربيــة .

والحموديون على الرغم من أنهـم كانـوا « طالبـين » أو هكذا ينظر اليهم فان « شيعيتهم » كانت ضعيفة وسطحية ولهذا لم يسلكوا فى حكمهم لا هم ولا أجدادهم مسلك الفاطميين الذين تدخلوا مباشرة وبشكل سافر فى أمور دينية كانت قد استقرت فى المغرب كله على السنة والجماعة بل التزموا بما يلتزم بـــه الاندلسيون فى شؤون عقائدهم ومعاملاتهم ولم يدخلوا بمذهب مخالف أو عقيدة معادية ولذلك لم يحملوا الناس على أمر يكرهونه ولم يكن ذلك سياسة منهم بل لكونهم اندمجوا فى المجتمع المغربى المتمذهب فقهيا بمذهب الامام مالك والمتميز بعقلية طبعت حياته وسلوكه ومواقفه خلال تاريخه فى ظل الحضارة الاسلامية .

---

15) اعمال الاعلام ص 121 دولة الاسلام بالاندلس 2 / 603 .

وقديما سبق لادريس الاول وادريس الثانى رضى اللـه عنهما أن أدركا أن المغرب مناخ خاص يرفض تلك الافكار المعقدة والملتوية والمصادمة أحيانا لسماحة العقيدة الاسلامية وعدالة تشريعات الاسلام ووسطيته فى الامور كلهـا .

والحموديون هم أول أثر طالبى بالاندلس وآخر أثر من الناحية السياسية وقد ساهموا فى تمزيق الاندلس الى كيانات صغيرة أطلق على كل جزء اسم مملكة وأطلق على ملكها اسم رئيس أو الملك ثم انهارت الطوائف لاسباب داخلية أولا وتحت ضربات النصارى ثانيا وانتهى أمرهم بتدخل المرابطين وتحملهم مسؤولية صيانة الاسلام بالاندلس واستمرت تبعية الاندلس لمراكش على عهد الموحدين الـى أن ضعفت أخيرا فتمزقـت وحدتهاالثالث مرة حتى انحصر الحكم الاسلامى فى دويلة بنـى الاحمر التى كانت لها رقعة صغيرة صارت تتقلص شيئا فشيئا الى أن لفظت انفاسها فالتهمها النصارى وقضوا بذلـك علـى وجـود الاسـلام بالاندلـس . . .

فـاس : **عبد السلام الهراس**

لاتنبش القبور

أحمد عبد السلام البقالي

ـ لم أكن أعرف أنك تشرب شيئا أقوى من القهوة !

فأجاب ضابط الشرطة الشاب ، وهو يتناول كأس الكونياك، ويرشف منها رشفة قوية :

ـ هذه حالة خاصة .

فسألت مشفقا :

ـ لا بـــأس ؟

فجرع من الكأس الواسعة جرعة كبيرة ، وقطب جبينـــه ، ونفث حرارة السائل الكحولى من حلقه ، وقال :

ـ جئت لتوى من جلسة استنطاق مؤلمة .

ووضعت كتابى على المائدة ، مستعدا لسماع قصة مـن أرض الواقــع .

كان الضابط الشاب يلبس حلته المدنية . وكنا نجلــس فى مقهى الشاطىء الخالى فى تلك الساعة المتأخرة من المســـاء ، والشمس على وشك الغروب . وكنت أعرفه من أيام الدراسة ، فلم تكن بيننا كلفة .

وبدا عليه أنه حائر من أين يبدأ فقلت :

ـ ماذا حدث ؟

ـ البارحة ، قبضنا على شاب متلبسا بقتل ضابط شرطـــة متقاعــد .

ـ هنا ؟ ! فى البلــد ؟

قلتها بكل استغراب .. فبلدتنا الصغيرة الوديعة النائمة ، من قديم الزمن ، على أقدام المحيط ، لا يقتل فيها الا الشيخوخــة ، ولا يحدث فيها ما يثير .

فحرك الضابط رأسه بالايجاب :

ـ هنا ، فى البلد .. حاول قتل عبد الصمد .

ـ الضابط السمين المتقاعد ؟

ـ نعـــم ..

ـ وهــل قتلـــه ؟

ـ استطعنا استخلاصه منه فى آخر لحظة .. قبل أن يجهز عليه. طبيا ، كان ما يزال حيا .. ولكنى أشك فى أنه سيخرج من هـــذه سليما .. وخصوصا وأنه متقدم فى السن ، ومفرط فى السمنة .

ـ ولكن لماذا ؟ ومن يكون القاتل ؟

ـ القاتل برانـــى .. من ناحية الريف ؟ دخل المدينـــة منـــذ أسبـــوع ، ونـــزل بفنـــدق البحـــر ، وأخـــذ يتصـــل بعدد من سكان المزارع والبساتين بالضواحى ، ويسأل عن رجل اسمه اسعيد ، وزوجته فاطنة بنت اعمار .. هذا ما استطعنـــا معرفته من الذين اتصل بهم من الفلاحين القادمين من الريف فى نفس الفترة التى نزح فيها الزوجان الى الغرب ، أي حوالــــى سنة 1947 ، أثناء مجاعة الشمال الكبرى .. تلك المجاعة المشينة التى ذهب ضحيتها الآلاف ، دون أن تمد لهم الدولة الحامية يـــد المساعـــدة ..

وتنهد الضابط الشاب ، وعاد يحكى :

ـ وبعد أسبوع من البحث اليائس عن أحد يعرف الزوجـــين ، أو يدل عليهما ، غادر المدينة ، وعاد الى تطوان . كان يريد القيام

بمهمة مستحيلة . ففى تلك الايام تدفق على المدينة آلاف النازحين فملأوا الملجأ الخيري ، وساحات المساجد ، والزوايا ، وأضرحة الاولياء ، وبعضهم سكن المقابر والمغاور ، وكهوف البحـــر .. وكانوا يدفنون كل يوم بالعشرات أحيانا .. يموتون بمجــــرد امتلاء بطونهم بعد الجوع الطويل .. وكان من المستحيل تسجيل أسمائهم ، وأخذ هوياتهم ، واخبار أهلهم .

فقاطعتــه :

ــ أعرف ذلك .. وأذكر تلك الايام جيدا ، رغم أننى كنت مجرد طفل صغير . وما زلت أشعر بغصتها المرة فى حلقـــى ..

فتنهد الضابط الشاب ، وقال :

ــ هذا الشاب شبح جاء ليذكرنا بذلك العهد ! اسمه ميمون .. والزوجان اللذان يبحث عنهما ، هما والداه أمه وأبوه .. وهـــو وحيدهما . كانا مزارعين هناك . وحين شحت السماء ، وعم القحط والجفاف المنطقة كلها سبع سنوات متواصلة ، تركا مزرعتهما ، أو باعاها ، لا أحد يدري ، ونزلا المدينة ، فتركا الطفل الصغير لعمه الذي كان تاجرا صغيرا بدون أولاد ، وتوجها غربا طلبــــا للرزق ، على أن يعودا بعد سقوط الامطار ، الى طفلهما ومزرعتهما

.. ولم يرجعـــا أبـــدا .

.. ونشأ الطفل معتقدا أن عمه هو أبوه ، وزوجة عمه هى

أمه ، ودخل المدرسة ، ثم التحق بكلية الآداب ، وهو على وشك التخرج الآن .

.. وفى هذه الفترة الهامة من حياته ، وأثناء وجوده مع أهله لقضاء الصيف ، جاء من يخبره بأن أباه وأمه ليسا فى الحقيقة الا عمه وزوجة عمه .

وأن أبويه الحقيقين نزحا الى المنطقة الغربية أيام القحط الكبيـــــر .

.. ووقع ذلك موقعا شديدا فى نفس الشاب الذي كان شديد الحساسية ، شاعري المزاج ، فثار على عمه وزوجة عمه لعـــدم اخباره بحقيقة نسبه ، وبمصير أمه وأبيه الحقيقيين حتى يبحث عنهمـــا ..

.. وحاول عمه اقناعه بعكس ما سمع فلم يفلح .. فالجميع يعرف قصة عقم العم . وفى النهاية اضطر الى اخباره . وقال له ان والديه توفيا فى احدى قرى الغرب القريبة من هنا . كما أخبــره بذلك أحد معارفه . فلم يقتنع ميمون بذلك ، وعزم على استقصاء أخبار والديه ، ومعرفة ما اذا كانا على قيد الحياة ..

.. ونصحه عمه قائلا : لو كانا على قيد الحياة لرجعا الينا . فلا تنبش القبور !

.. ولكن قرار ميمون كان حاسما ..

.. وقبل أن يسافر ، أعطته زوجة عمه شيئا ثقيلا ملفوفا فى منديل معطر ، قائلة ، وعيناها مغرورقتان بالدموع :

ــ كنت أنتظر حدثا أسعد لاعطيك هذا .. يوم خطوبتك أو قرانك مثلا ، لتعطيه ، بدورك ، هدية لعروسك .. فقد أعطتنى اياه أمك قبل رحيلها الى الغرب ، ذكرى منها اليك ، واعترافا بجميلى .

.. وفتح ميمون المنديل بيدين مرتعشتين ، وكأنه يمس أقدس المقدسات ، فاذا سوار فضى دقيق الصنع، مرصع بالمرجان فقالت زوجة عمه :

ــ انه هدية من جدك اليها ، وهو فرد من زوج.. وقد احتفظت بالآخر فى يدها لدوائر الزمن ، كما قالت لى .. ولا أعتقد أنها فرطت فيه حتى آخر أيامها .. فهى تعرف أنه ملك للعائلة ، انحدر اليها هى من عدد من الاجداد ، وكانت تحتفظ به لك .

.. وأجهش ميمون ، وهو ينظر الى السوار ، ووضعه على وجهه ، وانخرط فى بكاء مر ، حتى بدأ جسمه يهتز بكامله ..

.. وأحاطته زوجة عمه ، الطيبة الحنون ، بذراعيها ، وأدخلته غرفته ، وجاءته بكأس ماء ، وهى تحاول كتم آلامها المبرحة .. فهى تعتبر ميمون ابنها.. ابنها بكل القوانين السماوية والارضية .. فهى التى أنشأته ، وربته ، وسهرت عليه فى مرضه، وكافحت معه أيام دراسته ومراهقته .. وها هو الآن ينسى كل ذلك ، ويندفع فى فورة عاطفية نحو المجهول ..

« وانحلت عقدة نفسها ، وزالت الغصة الحامية من حلقها حين هدأ روعه ، وعاد الى هدوئه ، فأمسك بيديها ، وقبلهما قائلا :

ـ أمي .. لا تظنى أن هذا عقوقا منى ، أو نكرانا لجميلك .. فليس لى أم سواك ، ولم أعرف غيرك .. ولكنك تفهمين .. لابد للولد أن يبحث عن والديه ..

« فضمت رأسه الى صدرها قائلة :

ـ هكذا يكون الابناء البررة والمرضيون .. والا كنت قصرت فى تربيتك .

ثم أبعدت رأسه عن صدرها ، ونظرت الى وجهه وتنهدت :

ـ ولكنى أخشى عليك من خيبة الامل .. أو مما هو أقسى !

« فنظر الى عينيها تسائلا ، فقالت :

ـ لا أدري ، يا ولدي .. فقد تجد أو تسمع ما لا يعجبك .. فتلك الايام كانت غريبة .. لا أرجعها الله .. بيوت كريمة ، وعائلات عريقة تشتتت ، وهامت على وجوهها فى أطراف الارض منهم من ساق حملانه العجاف ، وصغاره الضعاف .. وما أن وصلوا الى حقل ممرع معشب ، حتى تساقطت القطعان ميتة من

الامتلاء المفاجيء ، بعد الجوع الطويل ، ولم يكن حظ الناس بأحسن من حظ أغنامهم ..

« وقاطعها ميمون قائلا :

ـ حدثينى عن أمى وأبى .. كيف كانا ؟

فسهمت المرأة الطيبة وكأنها رحلت بروحها ، وجوارحها الى عالم آخر .. وبعد لحظة نطقت :

ـ أبوك كان نسخة طبق الاصل من عمك .. فهو توأم له .. ربعة القد ، نحيف .. أما أمك ، فكانت جميلة الصورة ، ممتلئة قليلا ، ومن بيت نعمة .

« ثم حركت رأسها آسفة ، وقالت :

ـ لا أذكر أكثر يا ولدي .. فكلنا بالاجماع حاول جاهدا نسيان ذلك العهد .. لا رده الله فليس فيه ما يذكر ..

« ثم توجهت اليه متوسلة :

ـ ألا تحاول أن تنسى .. فلو كان والداك على قيد الحياة لعادا الينا ، والى بلدهما .. لقد مرت الآن أزيد من عشرين سنـــة ..

« فوقف ميمون ، وخرج ، وقد تصلب وجهه ، وبان عليه الاصـــرار .

« وهكذا ، حمل حقيبته وجاء الى هنا .

« ورغم أنه لم يعثر على أثر ما فى أسبوعه الاول ، فقد جمع عددا هائلا من المعلومات عن تلك الفترة ، مدعيا أنه يكتب بحثا اجتماعيا .. وقدم نفسه لقسم الشرطة فأفسحنا له المجال للبحث فى ما تبقى من ملفات تلك الفترة بخزانة القسم . وكـــان كله بالاسبانية ، ولحسن حظه أنه كان يلم بتلك اللغة ، فلم يجد صعوبة كبيرة .

«ومن تلك الملفات استطاع تكوين فكرة جيدة عن الحالة فى تلك الفترة ، وعرف أسماء رجال الامن ، الاسبان ، والمغاربة، الذين كانوا يمارسون مهمة الامن حينئذ . ومنهم عبد الصمد ، والقويدري .. والاثنـــان متقاعـــدان الآن .

« واجتمع بهما ، وتحدث معهما طويلا .. ولكن تبين ، فى النهاية ، أنهما لا يذكران من تفاصيل تلك المرحلة ما يشفى غليله .. وأدرك ، من تعابيرهما العارضة ، أن الموت كان حدثا لا يهز أي مشاعر .. الحرب فى أوروبا ، والناس هناك يموتون بالملايين ، والجرائد تتنافس فى نشر صور الدمار ، والحرائق ، والجثـــث المتفحمة مبعثرة فى شوارع المدن ، والقرى وعلى الطرقـــات .. وهنا ، فى هذه المنطقة ، كان الناس يموتون جوعا ، ويدفنون فى قبور جماعية كل صباح ، مكفنين فى أسمالهم الباليـــة ، كالمجاهدين ..

وطاف ميمون بجميع بساتين الضواحى يسأل الناس دون أن يجد رأس خيط يهديه الى قصده ..

وذهب الى تطوان يبحث فى ملفات ذلك العهد ، ثم عاد بعد أسبوع كامل ، وقد بدأ اليأس والخيبة يذيبان اصراره وآماله..

وفى آخر يوم من مقامه بالمدينة حدث شىء غريب .. صدفة كالصدف التى تؤدي الى الاكتشافات والاختراعات العلمية الكبرى فقد عثر ميمون ، بالصدفة ، وهو يجوب شوارع المدينة ودروبها ، لآخر مرة، قبل العودة الى بلدته، على الحلقة المفقودة! وكانت فعلا حلقة بالمعنى الحرفى للكلمة .. عثر على سوار فضى مرصع بالمرجان فى نافذة أحد الصاغة الصغار .. وتوقف ينظر اليه ، فارتعدت فرائصه ، وأحس بفراغ فى ركبتيه .. فأغمض عينيه واتكأ على الحائط ، يستمع الى نبض قلبه السريع ..

« وحين استرجع قواه ، دخل دكان الصائغ العجوز، وطلب منه أن يريه قطع حلى أخرى ، أقراط ، وخواتم ، وأحزمة ، ثم مد يده فتناول السوار محاولا ألا يرتعش ، وسأل ، دون اهتمام ، عن ثمنه .. وحين أخبره الصائغ استكثره على الحلية البالية التى لم تعد موضة ، وخالفه الصائغ بقوله : « تلك القطعة لن تبقى هناك حين يمر السواح غدا الاحد . فهى عندهم موضة فى أوروبا » .

« وخاف ميمون أن يثير الصائغ فنقده ثمنها ، وسأله وهو يلفها له فى قطعة قطن ، وورقة :

ـ زوجتى ، هى الاخرى ، أجنبية ، فهل تعتقد أنه سيعجبها .

ـ جدا ، يا ولدي .. انهم يجنون بحلينا القديم ..

ـ ولكنهم كذلك يريدون معرفة تاريخ القطعة . فماذا يمكنك أن تقول لى عن هذه ، حتى أحكيه لزوجتى ؟

« فعاد الصائغ الى اخراج السوار من قطعة القطن ، ونظر اليه من خلال نظارته السميكة ، وقال :

ـ هذا سوار من صناعة الريف . وليس من هذه الناحية .. وهو قديم جدا حسب تآكل نقشه العميق من الاستعمال ، وصانعه ماهر للغاية .. هذا كل ما يمكن أن أقول لك عنه .

ـ قد تريد زوجتى أن تعرف مالكه السابق ..

.. فهذه حلية شخصية ومستعملة ، وأنت تعرف الاجنبيات

« وزم الصائغ شفتيه ، ونظر الى ميمون من فوق نظارته، وقـــال :

ـ ليس المفروض أن أقول لك ذلك ، فالذي يبيع حلية يطلب الستر .. أنت تفهم .. لا يحبون أن يعرف الناس عن حاجتهم .. ولكنى سأقول لك ، فأنت لست من هنا ، كما أعتقد ..

« فحرك ميمون رأسه مؤكدا فراسة الصائغ ، ليريـــح ضميـره :

ـ أنا من الرباط .. جئت فقط لقضاء ساعة هنا ، ورؤية المدينة، ثم الذهاب الى طنجـــة ..

« فارتاح الصائغ ، وقال :

ـ هذا الدملج كان فى ملك شرطى سابق هنا بالمدينة يسمـى القويـدري ..

ـ ألم يقل لـك الآخر من أين حصل عليه .. ؟

ـ لم أسأل .. عيب ..

ـ ومن أين تعتقد أنه اشتراه .

« فهز العجور كتفه ، وحرك رأسه :

ـ العلم لله .. ولكن ..

« فأرهف ميمون أذنيـه :

ـ بما أن السوار من صنع الريف ، فلابد أن الشرطى حصل عليه أثناء المجاعة الكبرى ، حيث كان النازحون من الشــرق يبيعون ممتلكاتهم بأسعار منخفضة للغاية .. هذا كل ما يمكن أن أقوله لـك ..

« ومد له الكومة القطنية قائلا :

ـ بالصحة والعافية ..

« وهنا أدخل ميمون يده فى جيبه وأخرج السوار الآخر ، وعرضه على الصائغ ، فتناوله هذا مندهشا من قوة الشبه بينه وبين الاول . ونظر اليه ، وقلبه تحت بلورة نظارته ثم قال :

ـ هذا أخ توأم للذي بعتك ، فمن أين حصلت عليه ؟

« وأجاب ميمون بسؤال :

ـ هل أنت متأكد من ذلك ؟

« فمد الرجل يده الى كومة القطن وفتحها ، وأخرج السوار ، وأخذ يقارن بينه وبين الآخر .. وهو يدمدم :

ـ لا يمكن التميز بينهما بالمرة !

« ثم نظر الى الطابع بداخل السوارين والى حافتهما ، ورفع رأسه متأكدا :

ـ هذان السواران توأمان .. أين عثرت على هذا ؟

« فتناولهما منه ميمون ، دون جواب ، وشكره وانصرف.

« وفى المقهى التى كان يجلس فيها « القويدري » بعد العصر ، تعمد ميمون الجلوس الى مائدة الشرطى المتقاعد ، ونشر خريطة وأوراقا بيضاء وأخرى مكتوبة ، وانخرط فى الكتابة بجد وانهماك .

« وفى الدقيقة المعينة بالضبط ، وقف « القويدري » على رأسه لحظة مرتبكا لوجود متطفل على مائدته .. وحين لم ينتبه ميمون لوجوده ، سحب الكرسى الثانى متعمدا جره على الارض فرفع ميمون رأسه . وما ان رآه حتى وقف مرحبا به ، ومد يده مصافحا ، وعلى وجهه ابتسامة عريضة ، وقال :

— سامحنى اذا كنت أخذت مكانك من المقهى ، فأنا غريب على البلد ، ولا أعرف العادات ..

« ثم انحنى يجمع أوراقه ، قائلا :

— سأترك لك المكان حالا ..

واندهش الشرطى العجوز لادب هذا الشاب الغريب الذي سبق أن قابله ، وتحدث اليه فى موضوع المجاعة والمهاجرين ،

فامسك بيده مقسما عليه :

— لا والله ما أنـ تـقائم !

— هل أنت متأكـد ؟

ـ أرجوك .. على المائدة متسع لكلينا ..

« فعاد ميمون الى القعود شاكرا وقال :

ـ وجدتنى أسجل المعلومات القيمة التى حصلت عليها منكم حول موضوع النازحين من المجاعة .. وسوف أثبت اسمكم فى تقريري الذي ربما أصدرته « اليونسكو » كتابا بعدة لغات ، هذا، اذا لم تروا مانعا من ذلك .

« ففوجىء الشرطى الطويل النحيف بأهمية هذا الشاب ، وبطريقة لاشعورية أخذ يسوي طربوشه، وصدر سترته ، ويتأكد من وضع ساقيه بعضهما على بعض ، وقال :

ـ لا مانع عندي بالمرة .. ولو كنت أعرف أنك مبعوث من .. من .. تلك المؤسسة التى ذكرت ، لبحثت لك عن معلومات أكثر..

ـ معلوماتك كانت قيمة للغاية . وقد أيدها عدد من الذين تحدثت اليهم فى المدينة وخارجها . وسوف أرشحك لشكر خاص من « اليونسكو » لانك ، حقيقة ، أزلت كثيرا من الغموض على كثير من الحقائق والتفاصيل الدقيقة .

« ففتح الرجل علبة سجائره السوداء ، ومدها لميمون الذي رفضها شاكرا وقال :

ـ رب صدفة خير من ألف ميعاد !

هذه فرصة للتأكد من بعض التفاصيل التى كتبت .. فهل يضايقك اذا سألتك من حين لآخر ؟

ــ لا ، أبدا .. أرجو فقط أن تسعفنى الذاكرة .

« وهم ميمون بالعودة الى الكتابة ، ولكنه وضع القلم ، وأدخل يده فى جيبه قائـــلا :

ــ كدت أنسى ! سيهمك أن تعرف اننى عثرت على قطعة أثرية للفترة التى أدرسها ..

« وأخرج السوار فوضعه أمام « القويدري » الذي تغير التعبير علـــى ملامحه لرؤيته .. وتعمد ميمون الا يلاحظ ذلك ، فظل يتكلـــم :

ــ اشتريته من صائغ عجوز بالمدينة .. وحين سألته عن مصدره قال انه لا يذكر .. عجوز ينسى عشاءه !

« وقلب السوار أمام بصر الشرطى المتقاعد قائلا بلهجـــة علمية مجـــردة :

ــ أكيد أن هذا السوار جاء من الشمال الشرقى .. وفى نفـــس فترة المجاعة . فمن جاء به ؟ وكيف تم تبادله ؟ هذا ما أود أن أثبته فى كتابى ، اتماما للمعرفة .

« وأخرج « القويدري » نظارته فلبسها بعناية ، وتناول السوار فدرسه من جوانبه ، وابتسم لميمون الذي كان ينتظر رد فعله بابتسامة وشوق :

ـ أستطيع أن أقول لك الكثير عن هذا السوار ..

ـ حقا ! ؟ أتعرفه فعلا ؟

ـ بل كان فى ملكى هذه المدة كلها ! وقد اشتريته من سيدة يبدو أنها كانت من عائلة موسرة ، جار عليها الزمان ، فاضطرت هى وزوجها ، للهجرة ..

« وحاول ميمون اخفاء الارتعاشة العصبية بجانب فمه، وعينيه فى ابتسامة اعجاب ، وقال :

ـ هل تذكر شيئا عن هذه السيدة ! شكلها ، وسنها ، وملبسها مثلا ، وزوجها ؟

« فحرك الشرطى رأسه بالنفى :

ـ ليس كثيرا .. كانا زوجين عاديين .. وكنت ترى من أمثالهما العشرات يجوبون الاسواق ، يبحثون عن العمل بالمزارع المجاورة .

ـ وهل تذكر سبب بيعها للسوار ؟ اعنى هل قالت لك ؟

ـ السبب واضح ! الحاجة الى الطعام .

ـ وأين اشتريته منها بالضبط ؟ احك لى القصة كما تذكرها ، فأنت محدث بارع ، وأحاديثك لا تشبع !

« وهنا وضع القهوجى كأس القهوة الطويل أمام « القويدري » ، فتناوله ، ورشف منه بشفتين دقيقتين ، وهو مستمرىء كلمات الثناء التى يلقيها هذا الشاب المثقف على مواهبه المجهولة ، وقال :

ـ لا أذكر تاريخ ذلك بالضبط ، ولكنى أذكر المكان .. نعم .. حدث ذلك فى قرية « جلاولة » . وهى تبعد من هنا ببضع كيلو مترات . ذهبنا نحقق فى موت مفاجىء ، أنا وعبد الصمد ، زميلى بالقسم .. أرسلنا الرئيس الاسبانى مع أحد سكان القرية جاء يعلم بموت رجل غريب ، قال انه قدم لهما ، هو وزوجته ، طعاما .. وبعد ما أكلا ، سقط الرجل ميتا .. وكانت هذه الحوادث تتكرر دائما حين يمتلىء النازح بعد جوع طويل . ولكن البدوي كان خائفا من عقوبة القانون ، فحرص على اخبار المسؤولين ، وهكذا ذهبنا معه الى القرية ، وأجرينا التحقيق فى عين المكان مع زوجة الميت التى كان يبدو أنها فقدت عالمها بأكمله .. فقد كانت صغيرة السن ، جميلة ، وغير مجربة .. وحين سألناها هل لها مال أو شىء تعيش منه ، لم تجب .. كانت فى حالة خدر كامل .. تعانى من أكبر صدمة فى حياتها . وهنا لاحظت أنا السوار فى

يدها ، فاقترحت عليها بيعه ، والصرف من ثمنه . ولما لم تكن فى حالة تسمح لها بالتفكير فى التفاصيل، فقد قدرت ثمنه، ووضعت النقود فى يدها وأخذت السوار ..

« وكافح ميمون لسحق رغبته فى الصراخ .. كان يحترق من الداخل ، ولم يكن قادرا على اطفاء اللهب بدموعه !

« وانحنى برأسه مصطنعا الانهماك فى كتابة ما يقوله الشرطى المتقاعد الذي أنهى قصته بقوله :

ــ وهذه هى قصة السوار .. تماما كما حدثت .. ما زلت أذكرها كما لو حدثت بالامس .

« فسأل ميمون دون أن يرفع رأسه عن الورق :

ــ وماذا حدث بعد ذلك ؟

ــ الاجراءات العادية . كتبنا نحن تقريرنا فبرأنا البدوي الخائف . وطلبنا من السلطة المحلية التكفل بدفن الميت وعدنا لعملنا .

ــ وماذا حدث للمرأة ؟

ــ لم نرد ازعاجها بانزالها معنا .. فقد كانت فى حالة من الانهيار جعل زوجة البدوي تشفق عليها ، وتطلب منا تركها معها حتى ترجع الى وعيها ..

ــ لا أعتقد أنك تستطيع تذكر اسم الرجل الطيب الذي أطعم النازحــين ؟

« فرشف « القويدري » من قهوته مرة أخر.. ، وقال :

ــ لا .. لا أذكر اسمه . ولكنى كنت أراه فى السوق مرارا بعد ذلك . فنتبادل التحية . وهو معروف فى القرية ، وما يزال سكان « جلاولة » يذكرون ذلك الحادث ..

« وتوقف الشرطى العجوز فجأة ، وكأن غريزة رجل الامن عاودته .. ودب فى حدسه الشك من حقيقة أهداف هذا الشاب .. ولكنه أدرك أن الامر خرج من يده .. وأن الغرور ، وحب الظهور أرجحا كفة الطيش على كفة الحكمة والحذر . فانتقل من الاجابة الى القاء الاسئلة . وجمع ميمون أوراقه ، وفى نفسه ما فيها ، وودعه وانصرف .

« وقبيل الغروب ، وقفت سيارة أجرة بجانب طريق ثانوي مهجور ، ونزل ميمون يحمل فى يده حقيبة قماشية ، فأنقــد السائق أجرته ، وأشار له هذا الى قرية قريبة قائلا :

ــ تلك هى « جلاولة » .

« وشكره ميمون ، وقصدها راجلا . وأدار السائق سيارته وعاد من حيث جاء .

« ومر بجوار المقبرة بقبورها البالية ، فوقف ، ونظر الى القبور القديمة التى كادت تتساوى مع الارض ، وتساءل : أيهـا قبـر أبيــه ؟

« وبعد بضع دقائق وجد ميمون نفسه وسط القريــة الصغيرة محاطا بالكلاب تنبح فى وجهه بشراسة .

« وخرج شاب فطارد الكلاب ، ووقف مع ميمون يسأله عن حاجته ، وأحاط بهما عدد من أطفال القرية يتأملون الرجل البرانى . كان يبدو على الشاب أنه من أبناء القرية غير المقيمين. كان يلبس بنطلونا أزرق من قماش (الجين) وقميصا مزخرفا ، وقد طال شعره ، فخمن ميمون أنه من عمال الخارج .. وشكره على تدخله لحمايته من الكلاب ، وسأله عن الجامع . فأشار له الشاب الى مبناها ، وسأله هل يبحث عن أحد بالضبط ،فقـال ميمـون :

ــ ليس بالضبط . أنا مبعوث من وزارة الثقافة لجمع بعض المعلومات التاريخية وتسجيلها . ويهمنى كل ما يمكن أن أعرفه عن هذه المنطقة من كبارها وشيوخها الذينعاصروا تلكالاحداث.

« فأشرق وجه الشاب ، وقال له :

ــ اذن عليك بعمى العياشى .. تعال ..

« وقاده الى المسجد وهو يتحدث :

ـــ عمى العياشى أكبر شيوخ القرية سنا .. ويمكن أن يجيبك على جميع اسئلتك . هو الآن فى الجامع ينتظر أذان المغرب .

« وعلى دكة بباب الجامع جلس رجل نحيف أبيض الجلباب واللحية . فسلم عليه الشاب بصوت عال يدل على الدعابة ورفع الكلفة ، وقدم له ميمون . فصافحه هذا باحترام كبير ، وأخبره الشاب بمهمته ، فاعتدل الشيخ فى مجلسه شاعرا بأهميته .

« وأخرج ميمون من حقيبته قالب سكر وقرطاس شاي ، وسأل الشاب :

ـــ أنا طالب ضيافة الله ، ولكن الشاي على .

« وخرج المؤذن والامام فانضموا للجماعة . وحين رأوا قالب السكر والشاي تهللت وجوههم ، فهذه فرصة طيبة « لتقصيرة معتبرة » .

« وبعد صلاة المغرب ، جلس ميمون وبقية الجماعة حول الشيخ العياشى ، وأحاط بهم عدد من الطلاب الشباب ، وأخذ ميمون يوجه الاسئلة للشيخ بلباقة ، ويسوق الحديث الى أيام المجاعة وأثرها على القرية ، ثم تطرق الى الاحداث والحالات الخاصة ، وكيف أن النازحين المساكين كانوا يموتون بمجرد امتلاء بطونهم بعد جوع طويل ، فلمعت عينا الشيخ ، وقال متذكرا قصة بعينها حدثت بالقرية :

ـــ أذكر ذلك جيدا .. لم يمت عندنا الكثيرون من المهاجريــن لاننا تعلمنا ألا نقدم لهم طعاما كثيرا ، منذ أن توفى رجل هنا من كثرة الاكل .. كنا نقدم لهم ما يكفى فقط لسد الرمق ، كالحليب مثلا ، حتى تعتاد بطونهم على الطعام من جديد .

فسأل ميمون مشجعــا :

ـــ وكيف كانت قصة ذلك الرجل ؟ وهل جاء القرية وحده ؟

ـــ لا ، جاء هو وزوجته .. كانت امرأة شابة ، ما تزال علــى وجهها ملامح النبل والجمال ، رغم شحوبها ونحولها من الجوع، ومشقة السفر ، والسير على الاقدام المسافات الطويلة .. ولا يدري أحد كيف اهتديا الى قريتنا « جلاولة » ، فهى خارجة عن الطريق المطروق ، ولكن يظهر أنهم كانوا ينتشرون الى الاماكن غير المطروقة ابتعادا عن بعضهم البعض ، وبحثا عن العمل . فحيث يكثرون تندر فرص العمل ، وتقل شفقة الناس عليهم . وبعضهم كانوا أغنياء .

« فسأل ميمون مستغربا :

ـــ أغنياء ؟ ! كنت أظن أن الفقراء وحدهم الذين هاجــروا ، فلماذا يهاجر الاغنياء ؟

ـــ كثير منهم وجدت معهم مبالغ مالية كبيرة للغاية .. كانوا يخفونها فى أحزمة لا يفارقونها .

ـ ولكن لماذا ؟

ـ لا أدري .. قد يكون بعضهم باع أرضه ، وهم أغلبيـــة النازحين .. وهرب من الجفاف على أمل أن يجد أرضا أخرى ، أو يعود الى بلده بعد نهاية القحط ، ويشتري أرضه ..

ـ غريب جـــدا !

فرد الشيـــخ :

ـ لا تستغرب يا ولدي .. فقد كان الغسالون يكتشفون على جثث عديد من الموتى مبالغ طائلة من البسيطات . وحين علـــم رجال الشرطة بذلك بدأوا يتسابقون ، هم الآخرون ، الى تفتيش الموتى قبل السماح بغسلهم أو دفنهم . وكان الاسبان يتركون أمر ذلك لرجال شرطتهم المغاربة ، فكان هؤلاء يعيثون فسادا .. وأغلبهم أثرى على حساب هؤلاء المساكين . ومثالا على ذلك ، الرجل الذي مات عندنا هنا فى « جلاولة » .. قام ضابط الشرطة بتفتيشه ، فوجد فى حزامه رزما من الاوراق المالية تعد بآلاف البسيطات .. وما زلت أذكر كيف فتح الحزام أمامى ، وأخذ يعد الاوراق المالية ، هنا فى هذا الجامع ، وفى ذلك الركن بالذات ، الى جانب النافذة .

وابتلع ميمون ريقه بصعوبة ، وسأل :

ـ مات هنا فى الجامع ؟

ـ نعم .. كانت العادة أن يأتى الناس بأطباق الطعام للجامع اذا حضر ضيف . فأكل المسكين بشهية كبيرة ، وحالا أحس بالالم فى معدته .. ولم ينفع فيه زعتر ، ولا « فلايو » ولا غيره من الاعشاب التى نعالج بها مثل هذا المغص . ومات تلك الليلة .

ـ وزوجته ؟

كانت فى دار الفقيه مع زوجته .

ويبدو أنها لم تأكل كثيرا . فقد وصلها خبر مرض زوجها فكفت عن الاكل وجاءت لتمريضه . وكان مرضه انقاذا لها من الموت فى الحقيقة .

ـ هل تتذكر الشرطيين الذين قاما بالتحقيق ؟

ـ نعم .. جيدا .. وهما ما يزالان على قيد الحياة .. ولا أدري كيف لم ينزل الله عليهما صاعقة تحرقهما ! وخصوصا ذلك البرميل الجهنمى ، عبد الصمد ! ولكن الله عز وجل يقول : « وأملى لهم ، ان كيدي متين » !

وتنهد ، وأضاف :

ـ كنت أظنه سيسلم الفلوس الى زوجة الرجل الميت . كانت هى هناك قاعدة الى جانب جثة زوجها ، ساهمة ، ممتقعة الوجه ، وكأنها ، هى الاخرى ، جثة هامدة .. ظلت كذلك حتى

رشها النساء بالماء ، وأخرجوها من صدمتها فبكت ، بعد ذلك ، بكاء الموت والغربـــة .

ـ وماذا فعل عبد الصمد بالفلوس ؟

ـ قال انه سيأخذها للمخزن !

وحرك الشيخ رأسه :

ـ المخزن ! بعد شهر واحد ، اشترى عبد الصمد دارا وغرسة! ولم يكتفيا بأخذ فلوس الزوج الميت ، بل بلغـت الوقاحـــة بالشرطى المساعد حينئذ ، وهو « القويدري » ، ما يزال على قيد الحياة ، أن تقدم من المرأة الارملة المسكينة فاستل من يدها سوارها الفضى دون أن تشعر ، قائلا انه من حق المخزن ، كذلك!

وغلا الدم فى رأس ميمون حتى أحس أن عروقه ستنفجر، وتصبب العرق على وجهه ، وأحس برغبة عارمة فى القتل !

وسمع أحدا يسأل الشيخ :

ـ وماذا فعل الله بالارملة المسكينة ؟

فقال الشيخ :

ـ شيء غريب حدث بعد ذلك . يبدو أن المرأة المسكينة لم تكن تعرف أن زوجها يتحزم بذلك المبلغ الكبير من المال ، حتـــى

أخبرها النساء بما حدث . فجاءت الى الجامع ، حيث كان الميت ينتظر الصباح ليدفن ، وجاءت بهراوة ، ونزلت فيه ضربا ، وهى تخاطبه باكيه من الحنق والقهر : « يا مجوعى ! ويا معريى ! ويا مبعدي عن أرضى ، وأهلى ، وأحبابى ! يا ملجئى للتسول ، وبيع ماء وجهى ! يا زوج السوء ! يا عديم الكرامة ! يا بخيل ! يا خشبة جهنم » ! وظلت كذلك تضرب وتصرخ : « الله لا يرحمك ! الله لا يرحمك ! » حتى دخل عليها نساء القرية ، ونزعن العصا من يدها ، وأخذن بخاطرها .. ويظهر أن المسكينة أصيبت فى عقلها ، فهامت على وجهها بين المداشر ، حتى عثر عليها ميتة فى أحد الخنادق .

« وقام ميمون من المجلس ، وخرج دون كلمة ، فظن الجماعة أنه ذاهب لقضاء حاجة . وانتظروه فلم يعد .

ولم يدر هو كيف قطع الطريق بين « جلاولة » والمدينة .. خرج يعدو وتبعته الكلاب ، فلم يعبأ بها وهى تمزق ملابسه بأنيابها ، وتهم بنهش لحمه ! كان يشهق بشدة حتى يكاد قلبه يتوقف ، فيقف لحظة ليأخذ أنفاسه ، ثم يستأنف العدو .. حتى دخل المدينة ، وقصد دار « عبد الصمد » ، فطرق الباب .. وخرج هذا فى قميص نومه الواسع ، فارتمى عليه ميمون ، وغرز أسنانه فى حنجرته ، والتصق به كذئب قطبى جائع ، والآخر لا يدري ما أصابه ، ولا يستطيع الصراخ ولا الاستغاثة !

« ولم تقدر زوجته ولا أولاده تخليص أبيهم من قبضة ميمون المتشنجة ، حتى سمع الجيران صياحهم فجاؤوا

لمساعدتهم عليه . وجىء بميمون الى قسم الشرطة فى حالة من الهوس والهستيريا ، وهو يصيح : « اقتلونى ! اقتلونى ! أريد أن أمــوت ! »

***

وتنهد ضابط الشرطة الشاب ، وأضاف :

ــ وبصعوبة استطعنا أن نربطه الى أحد الاسرة ، حتى جاء الممرض وحقنه بمهدىء .. وهذا الصباح فتحنا معه التحقيق .

فسألته :

ــ وماذا سيكون مصيره ؟

ــ يتوقف ذلك على عبد الصمد .. اذا مات ، فسيحاكم ميمون بجريمة القتل العمد .. واذا عاش فسيخفف ذلك من العقوبــة . وخصوصا اذا لم يتقدم بشكوى ، ولا أظنه فاعلا .. فهو من الذكاء بحيث لا ينبش قبور الماضى ، ولا يستفز الاشباح !

وعاش عبد الصمد .. وترك المستشفى بعد يومين . وحين علم بسبب هجوم ميمون عليه من الضابط الشاب ، طلب منه أن يطلق سراحه ، وينسى الموضوع .

وغادر ميمون المدينة فى صباح اليوم التالى ، وقد تقدم بــه العمــر عشر سنــوات ..

الرباط أحمد عبد السلام البقالى

صفحات من تاريخ الصويرة

الصديق ابن العربي

ان تاريخ هذه المدينة يمتد خلال ثلاثة أحقاب تتميز كل منها على الاخرى . فالاولى : تتعلق بتاريخها قبل الاسلام خلال العصرين الفينقى والرومانى وهو تاريخ الجزيرة بالخصوص ، والثانية : تاريخ الاقليم فى العصر الاسلامى ، والثالثة : تاريخ هذه المدينة الجديدة التى أنشأها المولى محمد ابن عبد الله فى العصر الحديث .

ولكى نبدأ من البداية لابد لنا من الرجوع خطوات الى الوراء فى مسار الزمن . ان أول دولة بحرية ظهرت فى التاريخ القديم هى دولة الفنيقيين التى نشأت واستقرت وازدهرت فى شواطىء لبنان ، وبالاخص فى مدينتى صور وصيدا ، فكانت قبائلها الاولى من الكنعانيين الساميين الذين اشتغلوا أولا بالصيد (ومن هذه الكلمة اشتق اسم مدينة صيدا عاصمتهم الاولى) ، وأدى اشتغالهم بهذه المهنة فى الشواطىء القريبة والبعيدة الى تمرسهم ومهارتهم فى فنون الملاحة وبناء السفن الى أن اصبحوا مع توالى القرون من اكبر التجار وأمهر الملاحين .

وكنتيجة لازدهار التجارة ومهارتهم فى صنع السفن ، أتسعت مناطق نفوذهم ما يجاورهم من البلاد الشرقية كمصر وقبرص وبلاد الاغريق ، وشيئا فشيئا أخذ نفوذهم يمتد الى سواحل البحر المتوسط وجزره ، فأنشأوا لهم مراكز تجارية فى كل مكان تصله سفنهم ، وكثر احتكاكهم نتيجة لذلك بشعوب المناطق الساحلية التى كانوا ينزلون بها ، حاملين بضائعهم من خزف وأخشاب وأبازير وعطور وخمور وغير ذلك من الادوات التى اشتهروا بصناعتها واتقانها . وكانت هذه المراكز التى كانت فى أول الامر قليلة العدد تكثر وتتعدد على توالى العصور ، كما كانت منطلقا لاكتشاف شواطىء جديدة على ساحلى البحر . وهكذا امتدت هذه المراكز التجارية شرقا وجنوبا فاسسوا اولا بتونس مدينة أوتيكا ، وبعدها مدينة قرطاجنة التى كان لها الذكر المجيد فى التاريخ ، ثم تقدموا شمالا حتى وصلوا لقادس باسبانيا ، ومنها اتجهوا جنوبا نحو شواطىء المغرب ، الى أن وصلت طلائعهم الى جزره بالبحر المتوسط ابتداء من الجزر الجعفرية قرب مليلية ، الى جزيرة النكور ، الى جزيرة بادس ، الى جزيرة المعدنوس المقابلة لسبتة ، وأخيرا الى بحر الظلمات أو المحيط الاطلنطى ، حيث مروا بجزيرة فضالة التى كانت منفصلة عن البر ، ثم وصلوا فى خاتمة المطاف الى جزيرة الصويرة .

ونظرا لكون هذه المسافات الشاسعة التى تفصل بين صور والصويرة، والتى تمتد حوالى 3 آلاف كلم ، فان السفن الفينيقية كانت مضطرة الى الوقوف بهذه المراكز التجارية الممتدة على شواطىء المتوسط للتزود بما يلزمها من مواد ولتجعل منها نقطة انطلاق لرحلات جديدة نحو اكتشاف المجهول .

وتتميما لهذه الصورة الرائعة من المغامرات البحرية لهذا الشعب الفينقى النشيط نضع أمامكم نصا كتبه الرحالة حنون القرطاجنى حيث يقول:

« خرجنا من الاعمدة وسرنا فى البحر مدة يومين وعندها أسسنا أول مركز قرب منبسط كبير من السهول والوهاد وأطلقنا عليه اسم تمياتريون وقصدنا على الاثر ناحية الغرب ، فوصلنا الى لسان من الارض اللوبية تكتنفه الاشجار يدعى بسولاييس .

وهناك أسسنا معبدا لبوزيدون الاله واتجهنا بعدئذ نحو مشـــــرق الشمس ، وبعد انقضاء يوم ، وصلنا الى بحيرة قرب البحر نبت عليها قصب طويل وحولها ترعى قبيلة جسيمة العدد وكمية جمة من الحيوانات الاخرى .

وغادرنا هذه البحيرة وسرنا يوما ، فأسسنا على جانب البحر عددا من المراكز ، وبعد مغادرتنا لهذه النواحى وصلنا الى مصب نهر اللكسوس العظيم الذي اتخذ بداية مجراه من لوبيا وعلى ضفافه ترعى سائمة أهـــل اللكسوس الرحالين ، ولقد توددنا اليهم كثيرا ومكثنا معهم زمنا ، وهناك قوم يدعون الاتوبيون ، يعيشون على مصب هذا النهر . وهم يقطنون أرضا تخترقها جبال شامخة وبها الوحوش الضارية قد اتخذت مساكنها ، وهؤلاء الاقوام شديدو اللؤم ويقال انىهر اللكسوس ينبع من أرضهم، وحوالىالنهر يسكن صنف من الناس لهم أشكال خاصة يدعون التروكلوديت ويزعـــم اللكسوسيون ان هؤلاء القوم يسبقونالخيل عدوا .

ثم سرنا يومين فى ناحية المشرق فوجدنا خليجا دائرته نحو الميلين وفى وسطه جزيرة ليست لها أهمية ثم وصلنا الى بحيرة بها ثلاثة من الجزر وبعد مسيرة يوم وصلنا الى طرف البحيرة » .

هذا ما كتبه الرحالة الفينيقى منذ عدة قرون ، ولقد أكدت الابحـــاث الجغرافية الحديثة صحة وصفه ، وأجمع الجغرافيون المحدثون علـــى أن الجزيرة المذكورة فى كتابات الرحالة الاقدمين . من هيرودوت وحنـــــون وسيلاكس وسطرابون وبلين .. لا يمكن أن تكون الا جزيرة الصويرة لان شواطىء المغرب من طنجة الى سوس خالية من الجزر الا هذه الجزيـــرة المتحدث عنهـــا .

وهناك من الباحثين من يرى أن مدينة الصويرة الحالية تقع فـــوق جزيرة كانت منفصلة عن القارة ولا تتصل بها الا بواسطة كثبان من الرمال ومجموعـــة مـــن المستنقعـــــات .

وقبل كل شىء يجب أن نصف هذه الجزيرة وصفا ماديا :

تقع هذه الجزيرة على بعد 1500 م تقريبا من الشاطىء الرملى الواقع عند مصب وادي القصب ، وهى غير مستديرة بل بها اعوجاجات ونتوءات وتبلغ مسافة دائرتها نحو 1800 م ، وعلوها يتراوح ما بين 24 الى 29 متر على سطح البحر وقد كانت فى العصور الغابرة عبارة عن جزيرة واحدة طولها نحو الف م وعرضها نحو 600 م ، ولم تنفصل الى جزيرتين الا بعد ذلك بسبب علو الامواج وتلاطمها وبفعل الرياح العاتية وتساقط الصخور . والجزيرة الشمالية هى الصغرى وتسمى جزيرة الحمام ، والاخرى اكبر ، وكانت تسمى بجزيرة فرعون وهى تسمية مغربية اطلقت على اماكن اخرى كقصر فرعون بوليلى وساقية فرعون بناحية الرباط .

اما موقعها واهميتها الدفاعية فلم تكن لتخفى على الملاحين والبحارة الاقدمين من فينيقيين ورومانيين خصوصا وان المسافة التى تفصلها عن شالة الرومانية وهى نحو 450 كلم لا توجد بها اية جزيرة على الاطلاق وهى بذلك تعد آخر نقطة غربية وصل اليها الاقدمون خلال العصر القديم .

ونبادر الى القول بأن هذه الجزر التى عرفت الفينيقيين وبعدهم الرومان لم تكن مستعمرات دائمة كما يتبادر الى الذهن وانما كانت قبل كل شىء مراكز تجارية موقتة ترتادها السفن فى فصول معينة لتبادل البضائع والمنتجات المحلية . فكان الملاحون يرسون بسفنهم المدورة وينصبون خيامهم ويقيمون بها عدة أيام أو أسابيع تتم فيها عمليات البيع والشراء ثم يقلعون بعد ذلك ليعودوا مرة اخرى ولن نطيل الكلام فى الاسم الذي اطلقه الاقدمون على هذه الجزر ، فقد اطلقت عليها أسماء مختلفة خلال التاريخ الى أن سميت اخيرا بالصويرة ويرى احد الباحثين ان كلمتى سور بالسين وصور بالصاد الساميتين تعنى صخرة أو حصن وعلى ذلك فان اطلاق كلمة الصويرة على الجزر او المدينة ربما كان قديما جدا .

بيد أن المسألة التى تثير اهتمامنا الان هى كيف توصل الباحثون الى التدليل على صحة المعلومات التاريخية الواردة عن الجزيرة بادلة لا يتطرق اليها الشك ؟

هنا نحيل الكلام على الاركيولوجيين من جغرافيـــين ومؤرخـــين واختصاصيين فى الموضوع ليجيبوا عن هذا السؤال وعن الاسئلة التى تتردد فى الاذهـــان :

ان البحث الاركيولوجى والتنقيبات والحفريات عن الآثار القديمـة فى الجزيرة لم يبتدىء الا فى أوائل هذا القرن وبالضبط من سنة 1903 الى سنة 1907 على يد الباحثين الفرنسيين .

ثم توقف التنقيب تماما لانشغال ادارة الحماية الفرنسية آنـــذاك وانصراف اهتماماتها الى التنقيب عن الآثار الرومانية بالمغرب ، بعد نجاح تنقيباتها عن هذه الآثار فى كل من الجزائر وتونس . وهناك اسباب اخرى هو قلة الاختصاصيين عن التنقيب فى الآثار الفينيقية ، ثم سهولة البحث عن الآثار الرومانية نظرا لوقوعها على السطح او على عمق قليل وتعدد مناطقهـا فى المغرب كمناطق وليلى وباناسا وتمودا الخ ...

واتجا اكثرية الباحثين الى هذا الميدان نظرا لتخصصهم فيه، والسبب الاهم جدا هو ان الآثار الفينيقية الواقعة غرب البحر المتوسط ظلت مجهولة تماما نظرا لقلتها وعدم تعدد مواقعها .

وفى سنة 1950 استأنف الباحثون اعمالهم لزيادة التنقيب عن الآثار القديمة فحصلوا على معلومات اضافية شجعتهم على مواصلة العمل فيما بعد ذلك أي بعد حصول المغرب على الاستقلال ، ثم توالت التنقيبات التى أسفرت عن اكتشاف ما خلفه الفينيقيون والرومان من آثار القت اضواء جديدة على تاريخ المغرب القديم .

ولكن كيف تمت عمليات التنقيب هذه ؟ وفى اي مكان بالضبط مـــن الجزيرة ؟

أما المكان فهو الواقع فى مواجهة شاطىء سيدي مكدول بين المسجد والمرسى والسجن بمحاذاة البرج والمطفية .

ابتدأ المنقبون أولا بحفر الارض فى أماكن متقاربة لا تبعد عن الشاطىء بمسافة كبرى واتضح لهم بعد الحفر أن الطبقات الارضية التى بلغ عمقها نحو الثلاثة أمتار ظهرت فيها خمس طبقات الواحدة فوق الاخرى . الاولى طبقة حديثة لا تتجاوز القرن التاسع عشر والثانية تحتها تضم بعض المخلفات الرومانية كالمواقد وأوانى فخارية ومسامير وأسلاك من نحاس . والثالثة تحتها طبقة من تراب عقيم يدل على عدم اهتمام بالارض ، أما الرابعة فهى التى وقع العثور فيها على بقايا المخلفات الفينيقية من قناديل أو سرج بسيطة الصنع وهى عبارة عن صحن خزفى فى حافته نتوء مقعرة تستقر فيها الفتيلة وادوات منزلية فخارية مصبوغة الجوانب ترجع الى القرن السابع ق. م. وبلغ مجموع القطع التى استخرجت لحد الآن نحو 150 قطعة مختلفة الاشكال والانواع ومن بينها عدة قطع شبيهة بالقطع التى وقع العثور عليها بلكسوس (العرائش) ، الامر الذي يدل على استفحال النشاط التجاري والبحري للفنيقيين خلال القرن السابع ق. م. ويؤكد من جديد ما قاله حنون فى رحلته التى أشرنا اليها من قبل .

ولم يكن الفينيقيون ملاحين يجوبون البحار على غير هدى ، وانما كانوا يسلكون طرقا بحرية معينة محددة اكتشفوها بأنفسهم واستخدموها استخداما تجاريا واسعا . أما هذه التجارة البحرية بين فينيقيا ومراكزها التجارية المتعددة فقد كان قوامها عدة مواد : الخشب والحنطة والزيت والخمر والادوات المعدنية والاقمشة الصوفية والقطنية بعضها مصبوغ باللون الارجوانى . وكانت شعوب حوض البحر الابيض المتوسط تترقب بلهفة وصول البضائع الفينيقية الثمينة الى مراسيها .

ولم يكن الفينيقيون يشتغلون بالملاحة فقط ، بل تعاطوا الزراعة والصناعة وظهرت مهارتهم بالاخص فى صناعة الزجاج والنسيج والصباغة بالارجوان . وكانت هذه الصناعة الاخيرة تعتمد على حيوان بحري من نوع الصدفيات شبيه بالمحارة يعرف بالمريق ومنه يستخرج السائل الارجوانى ويوجد بشواطىء البحر المتوسط ، وحرصا على هذا المورد الطبيعى وخوفا عليه من الاضمحلال والتلاشى فان الفينيقيين اكتشفوا مصادر أخرى لجلب هذه الاصداف الى بلادهم ووجدوا فى جزيرة الصويرة

مقادير كبيرة منه ، استغلها الفينيقيون كما استغلها الرومان من بعدهم وبالاخص الملك المغربى يوبا الثانى الذي انشأ بهذه الجزر معامل لاستخراج مواد الصباغة الارجوانية عند زيارته لها ربما فى طريقه الى الجزر الخالدات « كناريا » .

ولم تكن عملية استخراج هذا القليل من مادة الصبغ وتقطيره وتنقيته بالامر اليسير بل كانت عمليات شاقة وبطيئة ، ولذلك ارتفع ثمنه وتنافس فى الحصول عليه اباطرة الرومان وكبار الاغنياء . اما كيف كانوا يعالجون هذا الصباغ فيقول بلين :

« ان العملية تبدأ باستخراج السائل الملون من عرق من عروق الحيوان وهو حى ثم يضيفون اليه الملح ثم يغلى غليانا خفيفا فى قدور من الرصاص ثم يجفف ثم يغلى ثانية وبعد عمليات متتالية يكون السائل جاهزا للبيع وتتهافت الموانىء على شرائه رغما عن قلته وارتفاع ثمنه » .

هذه اذن نظرة موجزة على تاريخ هذه الجزيرة فى العصر الفينيقى، اما ما يتعلق بالمخلفات الرومانية الموجودة بالجزيرة ، فقد عثر المنقبون على نقود باسم الملك المغربى يوبا الثانى المتقدم الذكر منها قطعة فضية تحمل صورته وتاريخ 23 قبل الميلاد ، وقطع اخرى باسم زوجتهكليوباطرة سيلينى (بنت كليوباطرة المصرية التى خلدها امير الشعراء أحمد شوقى فى روايته مصرع كليوباطرة كما خلدها الموسيقار محمد عبد الوهاب فى أغنيته كليوباطرة » ..

على ان اهم اكتشاف بالجزيرة هو ما وقع سنة 1957 حيث عثر المنقبون على قصر رومانى يضم 18 حجرة به قاعات وافنية وقنوات الماء وصهاريج ودرج الخ .. والبناء فى شكله وهندسته وبمقارنته مع بناءات العصر الرومانى والتقنيات المستعملة فى تشييده ومواد بنائه وعرض الجدران والابواب والاقواس والاحواض يتخذ نفس الشكل الموجود بالقصر الصغير وليكسوس خلال العصر الرومانى فى القرن الثانى بعد الميلاد .

وزيادة على هذا البناء الضخم فقد عثر الباحثون على عدة مواد ومصنوعات من نفس العصر تتمثل فى القطع الخزفية المتنوعة الاشكال والالوان وبعضها يحمل نقوشا وكتابات لاتينية وهى فى مجموعها لا تختلف عن الاوانى الخزفية الفينيقية والرومانية الموجودة فى المراكز الاثرية المشهورة وفى متاحف الفن القديم .

ومن بين المكتشفات قطع الفسيفساء الرومانية التى كانت تزين ارضية القصر وهى فسيفساء تمثل رسوم بعض الحيوانات وبالاخص الطاووس شبيهة بمثلها مما وجد بوليلى وبزغوان بتونس ، هذا زيادة على القناديل والجرار وأدوات البرونز ومسامير النحاس ومفاتيح واقفال وزجاج وكؤوس ومزهريات وابرودبابيس ومشابك وأساوير وقطع مختلفة من فضة ورصاص وحديد وعاج وخواتم وحلقات الزينة وقرون الحيوانات واصداف الارجوان وبيض النعام الخ ...

وهنا لا يسعنا الا ابداء كامل الاسف على توقف حركة الحفر والتنقيب فى الظروف الراهنة ولاشك ان استينافها فى المستقبل من شأنه ان يزيد فى تعرفنا على ماضى الجزيرة وسيلقى الاضواء الكاشفة على حقبة من التاريخ ظلت مجهولة لحد الان .

وهكذا عرفت الجزيرة خلال اثنى عشر قرنا من القرن السابع ق. م. الى نهاية القرن الخامس ب. م. سلسلة من مظاهر الحضارات القديمة التى تركت بصماتها فى هذا الجزء الغربى من القارة الافريقية

واذا كان المغرب النافع فى العصر الرومانى هو ذلك الجزء المتمثل فى ناحية المغرب ومدنه فان المغرب النافع بشواطئه البحرية كانت بالنسبة اليهم يمتد من مصب نهر ملوية الى مصب نهر درعة بأقصى الجنوب .

ومما لاشك فيه أيضا ان جزيرة الصويرة كانت المحور الذي تدور حوله صناعة الصيد والاتجار مع الجنوب كما كانت قاعدة للملاحين ورجال

البحر سواء القادمين منهم من موانىء الشمال أو المتجهين نحو الجـــزر الخالدات التى كانت خاتمة المطاف .

بيد ان الجغرافيين والمؤرخين الذين جاؤوا بعد بلين الرومانى لـم يعطوا أهمية لهذه الجزر فيما كتبوه ، ورغما عن استمرار البحارة والملاحين والتجار من ليكسوس وسلا فى العصر الرومانى فى ارتياد هذه الجـــزر والتعامل معها فان الملاحين الشرقيين الذين طالما شدوا الرحال اليها من صيدا وصور وقريطش وقرطاجنة لم تعد بالنسبة اليهم فيما بعد ذلك من العصور سوى ذكرى من الذكريات الجميلة .

هذه بعض صفحات موجزة من تاريخ هذه الجزر حاولنا ان نقدم فيها خلاصة ما توصلنا اليه من معلومات مبثوثة فى بطون اسفار التاريخ وهى معلومات متفرقة احيانا ويشوبها نقص وبتر وثغرات فى احايين أخرى . ولا ندعى أننا أحطنا بالموضوع من جميع أطرافه ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جلـــه .



وبانتهاء العصر الرومانى لهذه الجزيرة يسدل الستار عن تاريخـــها وينسى التاريخ ذكرها خلال الف سنة كاملة ، ولا تظهر مرة أخـــرى فى صفحات التاريخ الا فى القرن الخامس عشر ، ابان الاكتشافات الجغرافية التى حولت الانظار الى المحيط الاطلسى كما سنرى ذلك فى فترة أخرى من هذا الحديث .

وسننتقل الان من الجزيرة الى الاراضى المواجهة لها أو ما يسمى الان بالاقليم لمتابعة هذا المسلسل التاريخى الوجيز :

عند الفتح الاسلامى لهذه البلاد كانت شواطىء المغرب تستقبـــل الفاتحين المسلمين الاولين وتسير فى ركابهم بعد ان اعتنقت الاسلام وأخذت تساهم فى صنع التاريخ . وكان الصحابى الجليل عقبة بن نافع الفهـــري

وصحبه الكرام ينشرون مبادىء الدين الجديد في جميع الاماكن التى مروا بها من شواطىء المتوسط الى شواطىء المحيط الاطلسى جنوبا حيث ردد التاريخ كلمته المأثورة ، وذلك فى القرن الهجري الاول ، وما كاد القرن الثانى ينصرمحتى كانت هذه الشواطىء الجنوبية تخضع للاشراف الادارسة فكانت أغمات وما والاها من نصيب الامير عبد الله بن ادريس الذي تابع خطوات أبيه وأسلافه لنشر كلمة التوحيد والتبشير بالدين الجديد .

ومن القرن الثانى الى أواسط القرن السادس كانت السواحل المغربية الممتدة من تامسنا الى حاحة تحت نفوذ البرغواطيين الخارجين عن الاسلام ، وكانت الامارات الاسلامية فى عهد الادارسة والمرابطين تخوض من حين لآخر حروبا ضارية للقضاء عليهم ولم تنته هذه الحروب الا فى أوائل العصر الموحدي . فكان من الطبيعى اذن أن تعود هذه القبائل المتساكنة بالشواطىء الى حظيرة الاسلام بعد أن بسطت الدولة الموحدية نفوذها على المغرب بأكمله وعلى سائر بلاد الشمال الافريقى والاندلس. وكان من الطبيعى أيضا أن تنشأ حركة جديدة للتبشير بالاسلام ونشر التوعية واعادة الوحدة الى صفوف المسلمين بالشواطىء الاطلسية البعيدين عن مراكز الاشعاع الثقافى فى كل من فاس ومراكش ، وهكذا نشأ أول رباط يعيد لهذه القبائل وحدتها الدينية والعقائدية ، ذلك الرباط هو رباط تيط بناحية الجديدة ، والذي أصبح مركزا لاشعاع دينى وثقافى خلال عدة قرون كما قام بنفس الدور رباط مولاي أبى شعيب بأزمور .

وحدث فى هذا القرن ، وهو القرن السادس الهجري حادث جديد وهو دخول العرب الهلاليين الى المغرب الذين استقدمهم الخليفة يعقوب المنصور الموحدي من افريقيا فقد تدفق هؤلاء الاعراب على السواحل بالشاوية ودكالة فاختلطوا بالسكان ونشروا فى هذه السواحل اللغة العربية والتقاليد والاعراف والعادات وأنماط الحياة البدوية واصبحت هذه المناطق تتعرب تدريجيا الى أن تغلبت العربية على بقية اللهجات التى كانت سائدة اذ ذاك .

ثم أخذت معالم هذا الشاطىء الصويري تتضح شيئا فشيئا فيظهر اسم أمكدول لاول مرة فى كتابه الجغرافى الاندلسى البكري الذي تكلم عن

مرسى أمكدول فى كتابه المسالك والممالك . ثم جاء بعده الجغرافى الاندلسى ابن سعيد فوصف هذه الناحية فى القرن السابع بقوله : « ومرسى أكادير فى بلاد حاحة ومنه يوسف الملح الى تلك السواحل جنوبا وشمالا . ومن هذا النهر الى مصب نهر أمكدول أربعون ميلا وهو ايضا فى بلاد حاحة . وهناك جزيرة صغيرة بينها وبين النهر ميل واحد وهناك مشتى للمراكب الخ ...

وقال عن بلاد حاحة :

« وهى مخصوصة بالعسل الابيض والثيران الكبار المـــلاح .. وفى غربها بلاد رجراجة المخصوصة بشجر أركان الذي يفضل زيته على مـــا يعصر من الزيتون ورائحته عطرة وتصنع فيها أكسية فى غاية من الرفعة والنعمة بها يلتحف نساء الحضرة . وبها نهر شيشاوة وعليه من الرمـــان الكبير الطيب وهذه البلاد متصلة بالبحر المحيط .

وهكذا نرى ان اسم أمكدول الذي عرف به هذا المكان ابتداء مـــن القرن السادس يبدد تلك الخرافة القائلة بأن امكدول تحريف لاسم ماك دول البحار البريطانى الذي حل بهذه الشواطىء فى القرن السادس عشر ، مع ان هذا الاسم عرفه الجغرافيون المسلمون قبل أن يكون لبريطانيا ذكر فى التاريـــخ !

بل ان فرقة كاملة تدعى آيت امكدول من قبائل آيت بوزيد تستقر الى الآن بين حوضى وادي العبيد وأم الربيع بالاطلس المتوسط .

وكما ظهر اسم امكدول ظهر معه اسم رجراجة حيث عين الموحدون العلامة ابن الزيات قاضيا برجراجة وذكر فى كتابه التشوف عددا من صلحاء الناحية من بينهم الشيخ اسماعيل الرجراجى وغيره .

ولا يكاد ينصرم القرن السابع حتى تأسس بهذا الشاطىء رباط جديد هو رباط ابى محمد صالح بآسفى الذي كان مجمعا للعلماء والصلحاء ومركزا دينيا وثقافيا للتربية والتوعية وتشجيع المسلمين على حج بيت الله الحرام، ولقد وصف ابن قنفد القسطنطينى الذي كان قاضيا بهذه الناحية وتجول بها

وكتب عنها وصفا مهما للتجمعات الشعبية التى كانت تقام بها كما وصف اعتناء الحاجيين فى مدارسهم العلمية بالفقه والفرائض والحساب . بعد هذه الرحلة السريعة عبر القرون أخذنا الان نقترب شيئا فشيئا من عصر جديد هو عصر الاكتشافات الجغرافية التى أدت الى تطور أحوال الدول والشعوب شرقا وغربا ، وتأثر المغرب بها تاثرا بليغا ...

كانت البرتغال ، وهى الدولة البحرية الفتية بأروبا تشق طريقها نحو التفوق والسيادة على البحار بفضل أساطيلها التجارية وملاحيها المهرة منافسة بذلك جارتها الاسبانية .

وباحتلال البرتغال لسبتة سنة 1415 ابتدأ فى المغرب عصر جديد حيث اخذت الموانىء المغربية تتساقط الواحدة تلو الاخرى خلال قرن كامل واصطبغت الشواطىء المغربية من سبتة الى أكادير بلون المقاومة الشعبية للاحتلال البرتغالى الذي أفقر المغرب اقتصاديا وتجاريا كما ساعد على نشر الاضطرابات السياسية فى ربوعه وتفكيك أواصر الوحدة فى البلاد فى أواخر العهد المرينى وخلال عصر الوطاسيين .

وعرف هذا الساحل الصويري هذه الغارات البرتغالية على شماله وجنوبه فقد احتل البرتغاليون مدينة البريجة وهى الجديدة ثم آسفى ثم اكادير ونزلوا بجزيرة الصويرة وابتنوا بالشاطىء .. الحصن الملكى .. « كاسطيلو ريال » الذي خربه المجاهدون فيما بعد واخذت سفنهم تجوب البحار وتدوس الشواطىء وتنشر فيها الرعب والفزع والخراب والدمار وكانت جيوشهم الطاغية تعيث فى الارض فسادا فتحرق الغابات وتدمر المزروعات وتطارد السكان وتأخذ الاساري لتبيعهم فى أسواق العبيد !

وعند ارتياد البرتغاليين لهذا الشاطىء وصلوا الى مرسى امكدول الذي تكلمنا عنه آنفا فحرفوا الاسم الى موكدول واشتهر هذا الاسم المحرف بين ربابنة السفن البرتغالية والاسبانية ثم حرف مرة أخرى الى موكادورو وفيما بعد أصبح موكادور وهو الاسم الذي انتشر ذكره بين البحارة الاوربيون .

وبنى البرتغاليون أثناء احتلالهم للشواطىء أسوار الجزيرة ثـــم فى المكان الذي تقوم عليه المدينة الحالية بنوا به تحصينات تدل عليها آثـــار الساقية التى كانت موجودة خارج باب مراكش كما بنوا برج الواد الواقع فى طرف ساحل امكدول ، وهو برج مربع حصين حطمه المجاهدون وأعــــاد السلطان محمد بن عبد الله بناءه من جديد ثم تحطم من جراء الفيضانـــات المهولة التى اجتاحت الصويرة فى أواخر القرن الماضى فلم يبق منه اليوم الا مجموعة صخور فى مواجهة الجزيرة الكبرى .

وكان رد الفعل من طرف المغاربة هو تكتل الشعب المغربى قاطبة بأمرائه وصلحائه وعلمائه لمقاومة العدو الدخيل فتأسست شبكات المقاومة فى الشواطىء من شفشاون الى العرائش الى المعمورة فآسفى فأكاديـــر واذكى نار هذه المقاومة العنيفة فى هذه الناحية بالذات الشيخ محمد بـــن سليمان الجزولى حيث اتخذ من افوغال مركزا لتوعية الجماهير بالخطـــر المحذق بالبلاد ، وتفانى مريدوه من الامراء السعديين ورجال ركراكة وقبائل حاحة وما جاورها حتى تحررت هذه الناحية من النير البرتغالى فى أوائل عصر السعديين .

وخلال حركة المقاومة وانبعاث الشعور الدينى فى هذه الناحية سطع نجم الركراكيين مرة أخرى كما سطع قبل ذلك خلال حرب البرغواطيـــين فسقط فى الميدان عدد كبير من الشهداء وترك جهادهم وتفانيهم

فى الدفاع عن حوزة البلاد اثرا لا يمحى فى ذاكرة تلامذتهم ومريديهم وفى نفس الجماهير الشعبية التى كانت تنظر اليهم نظرة اكبار واجـــلال . ولتجسيم هذا الاحترام اقيمت المواسم التذكارية على عادة المغاربة فى تخليد شهدائهم وعظمائهم لسبعة منهم المدفونين بجبل الحديد وزاوية أقرمود وما حولهما ابتداء من سيدي واسمين الى سيدي سعيد بن يبقى ، وبقيت ذكرى هؤلاء الرجال السبعة متبعة بركراكة الىاليوم قبل أن تعرف مراكشـــ رجالها السبعة فى القرن الحادي عشر الهجري .

ويجدر بنا هنا أن نذكر ان كلا من رجراجة وحاحة اشتهرتا فى التاريخ بما ظهر فيهما من علماء وزعماءوصلحاءنخصبالذكر منهم :

أبو عثمان سعيد الرجراجي جد الامام عبد الله بن ياسين فقيه المرابطين من رجال القرن الخامس ، والشيخ اسماعيل الرجراجي الذي ذكره صاحب التشوف ، وهو من رجال القرن السادس ، ومنهم الشيخ ابو الحسن الرجراجي صاحب كتاب مناهل التحصيل فى شرح المدونة من رجال القرن السابع ، ومنهم العالم العلامة صاحب الرحلة الحجازية الشهيرة أبو البركات العبدري دفين حاحة ، ومنهم أبو العلاء أحمد بن سليمان الشيظمى أحد كتاب المنصور الذهبى وأحد الشعراء المجيدين ، ومنهم الشيخ ابراهيم الكراتى الرجراجي القاضى فى عهد المنصور ، ومنهم الشيخ يحيى بن عبد المنعم الحاحى المنانى الداودي الذي استنجد به السلطان زيدان بن المنصور السعدي وغيرهم كثيرون .

وبعد هذه المساهمة الجماعية لكل من حاحة ورجراجة والجزوليين والسعديين فى حركة تطهير الشواطىء من البرتغاليين الدخلاء ، وتخريب التحصينات التى بناها البرتغاليون فى الصويرة القديمة عند مصب نهر تنسيفت ، اتجهت همة السعديين الى بناء الصويرة الثانية عند مصب وادي القصب قرب اربعاء بنى كرض وجعلوا منها مركزا لزراعة قصب السكر .

تلك الزراعة التى انتشرت فى عهد السعديين فى كل من حاحة وشيشاوة . ومما لاشك فيه ان هذه الصناعة كانت من أهم أسباب الازدهار الذي تمتع به المغرب فى عهد المنصور ، وأصبح السكر فى هذا العصر فى مقدمة المواد التى يصدرها المغرب الى الخارج وذلك الى غاية أوائل القرن 17 بل ان مداخيل المغرب من هذه المادة كانت تعادل ثلث ميزانية الدولة ، ولم يكن المغاربة اذ ذاك يعرفون أزمة السكر مثل ما نعرفها اليوم ! ولكن عندما ازدهرت زراعة قصب السكر بأمريكا وجزر الانتيل والبرازيل تدهورت هذه الصناعة حتى انقرضت نهائيا فى أواخر عهد السعديين .

وفى هذا العصر بالذات ، وخلال القرن السادس عشر كانت المنافسة على الاستعمار قد بلغت اشدها بين الدول البحرية الجديدة البرتغال واسبانيا وانجلترا ، وكان البحارة والملاحون الاروبيون يذرعون البحار

بحثا عن الاراضى الجديدة لاستعمارها ونهب خيراتها وكانتجزيرة الصويرة من النقط التى كانت هدفا لهؤلاء القراصنة الجدد ، « ففى صبيحة يوم عيد الميلاد من سنة 1577 وصل اليها البحار البريطانى الشهير السير فرنسيس درايك فى اسطول صغير ، يتكون من خمس سفن على متنها مئة وخمسون بحارا وضعوا ثقتهم المطلقة فيه ، فجابوا معه مجاهل البحار دون أن يعلموا شيئا عن الاتجاه الذي يسير بهم فيه ، ولم يكن احد غيره يعلم شيئا عن المخاطر التى يزج بهم فيها ، وفى 25 ديسمبر من تلك السنة ، وصل الاسطول الصغير الى الصويرة ونزل اليها الكابتن جنرال درايك ، وكان هدفه اكتشاف مناطق المغرب النائية للاستيلاء عليها ولو نجح فى مسعاه لكان من الممكن أن تصبح جزيرة الصويرة من الممتلكات البريطانية ، ولكن هذه الزيارة اقتصرت على أن تصبغ على الجزيرة شهرة عالمية ، بعد أن ألقى فى مياهها مرساته لاول مرة فى أسطوله الصغير الذي نعت فى ذلك الحين بأنه شمس أخرى تطوف حول الكرة الارضية .

وقد كانت اسبانيا عدوة لانجلترا فى تلك الايام ، ولذلك فقد كان هدف درايك أن يضربها بشدة ، وأن يستولى على خيراتها عبر البحار لمصلحته، ولمصلحة ملكته التى ودعته عند بداية الرحلة بالزهور والرياحين ، وكان أثاث سفينته فاخرا جدا وأدوات مائدتها من الفضة الخالصة ، وبها فرقة من خبراء عزف الموسيقى ، وكل ما يوجد فى بلاده من روائع الحضارة يثير بها اعجاب الناس كلما رسا فى شواطىء العالم ، كما كان معه فنانون يرسمون له هذه الشواطىء بألوانها الطبيعية .

وعندما رسا درايك فى المياه الواقعة بين المدينة والجزيرة احتفل مع بحارته أسبوعا كاملا بعيد الميلاد ، وكانت الجزيرة خالية من السكان وليس فيها غير الاعشاب والصخور . وكانت تحفل بالحمائم والطيور الكاسرة وتحفل مياهها بمختلف أنواع الاسماك ..

وقد أصبحت هذه الجزيرة مشهورة بعد ذلك بين رجال البحرية الانجليز ، وقل أن يمر اسبوع دون أن يرى العلم البريطانى يخفق فوق مياهها ، ولكن أحدا منهم لا يعرف أن درايك سبقه الى زيارة هذه المياه ، فان من حوادث التاريخ الكبرى نفسها ما يتعرض للبلى وللنسيان » .

وقبل مغادرة هذه الجريزة ، أود أن أنقل هذا الوصف الشعري الذي كتبه رحالة انجليزي آخر زار الجزيرة فى أوائل هذا القرن ، اي بعد زميله السابق بثلاثة قرون قال :

« عندما يصعد المرء الى الجزيرة يتملكه الشعور بأنه يطأ أرضا فى حالة احتضار ، حينما يقع بصره على مئذنة قصيرة ترتفع فى السماء الـــى جانب مسجد مهجور ، وعلى سجن خال يقع تحته ، وتوجد الى جانب ذلك صهاريج وأبيار فى حالة اهمال مماثل ، وهناك أيضا المدافع المغلوبة على امرها لا تزال مصوبة نحو البحر بعد أن خلت أيامها .

على أنه يطيب الاسترخاء فوق أرض الجزيرة فى الاغوار الرمليـــــة الدافئة المبثوثة بالزهور البنفسجية والصفراء للانحسار عن عالم الشهادة فى عالـــم النسيـــــــــان .

وتوجد بالجزيرة طيور غريبة تغادر كهوفها حيث يتردد صدى هدير المحيط الاطلسى الذي لا نهاية لغضبه عند شروق الشمس ، لتعود اليها عند الغروب فى سحابة من الاجنحة المتلاطمة فهى هنا تولد ، وهنا تتزوج، وهنا تربى صغارها ، وهنا تموت او تتردى بجناح كسير بين الامواج الهوجاء التى تستطيع وحدها أن تحمى هذه الطيور من هياج أكثر جنونا هو هيـــاج الانســـــــــــان !

وتصبح الجزيرة عندما يحل فصل الصيف أكثر اتصالا بالحياة حينما يؤمها الناس من الصويرة ليطوفوا بها حتى اذا ما حل فصل الشتاء خلت من كـ ـل احـــــــــد .

ويمكن ان يرى كل شيء واضحا فى النهار ، ولكن عند الغـــــروب يتحول البحر حول الجزيرة الى شعلة من اللهب المتوهج ، لتنعزل بعد ذلك عن العالم ، وتختفى فى الظلام » ونتابع مسيرتنا فنصل الى أوائل القرن

السابع عشر حيث كانت هناك محاولات تبذل للاستحواذ على الجزيرة من طرف الفرنسيين . فقد قدم آنذاك الاميرال الفرنسى رازبى الى الوزيـــــر ريشيلو مشروعا لاقامة مركز تجاري وعسكري بها الا أن أشتغال فرنسا بشؤونها الداخلية المضطربة صرفها عن ذلك .

وفى نفس الوقت قدمت سفينة على متنها بعثة ديبلوماسية فى الظاهر واستعمارية فى الواقع لدراسة أهمية الجزيرة من الناحية الدفاعية ، وكان من بين ركابها الرسام الهولاندي الشهير ما طام الذي تركلنا صورتين من أدق الرسوم اليدوية الاولى للجزيرة والثانية لمدينة مراكش .

ونصل بعد هذه الجولة الى القرن الثامن عشر وهو القرن الــــذي شاهد ظهور مدينة الصويرة « الثالثة » وهى المدينة الجديدة التى أبرزها الى الوجود الملك العبقري السلطان سيدي محمد بن عبد الله .

فكيف تم هذا الانجاز الضخم على يد هذا الملك الطمــوح ؟

يجب أن لا ننسى أن المولى محمد بن عبد الله ، اقام مدة بآسفــى واطلع على أحوالها التجارية وعلى الفوضى الضاربة أطنابها فى ميـــدان التجارة مع الخارج ، ثم استقر بمراكش كخليفة لابيه مدة طويلة انصــرف خلالها الى اعادة تعمير المدينة واصلاح مرافقها وتجديد معالمها ، وكانت تصله أخبار النواحى الجنوبية وبالاخص قضايا التجارة والتهريب بمرسى آكادير والفتن التى تعوق الحركة الاقتصادية ، لذلك فكر عندما تولى الملك ان يولى الجانب الاقتصادي مزيدا من الاهتمام حتى ينعم المغرب بنظـــام تجاري سليــم .

كان المولى محمد بن عبد الله زيادة على علمه وذكائه وخبرتـــه وتطلعاته ، مستنير الفكر متفتحا لتقبول الاصلاحات الضرورية لتطوير مملكته والنهوض بها بعد فترة الاضطرابات السائدة فى عهد أبيه ، وكان يرى أن علاج الاحوال فى مملكته لا يتم الا بازدهار الاقتصاد فاتجه تفكيره الى بناء مرسى جديدة يكون موقعها بين آسفى وآكادير غير بعيدة عن مراكـــش

عاصمة الجنوب والنواحي المجاورة لها ، وتنحصر فيها حركة الاتجار مع الخارج لتكون خاضعة للمراقبة وفي مأمن من الثورات المحلية ، وتكون في نفس الوقت نقطة الوصول والانطلاق للقوافل الصحراوية المتجهة الى السودان والقادمة من تمبكتو ، وفوق ذلك مركزا لتجميع التجار الاوربيين وممثلي الشركات والقناصل .

وفي هذا السبيل بذل هذا الملك الذكي المتبصر جهوده الكاملة لابراز مكانة المغرب بين الدول المعاصرة له ، فوجه السفارات والبعثات الى الدول الكبرى والى عاصمة الخلافة الاسلامية، وعقد المعاهدات والاتفاقيات وفتح مملكته للتيارات الفكرية وللحركات التجارية المتبادلة مع الدول بدون استثناء .

وكأنما أراد المولى محمد بن عبد الله أن يشرك في هذا المجهود جميع الطاقات والكفاءات بالبلاد ، فعهد الى مهندس فرنسي كورنو بوضع تصميم هذه المدينة التي أرادها أن تكون متميزة عن بقية المدن باستقامة شوارعها واتساع طرقها وتقابل أبوابها وتعدد مرافقها من مخازن وأهراء وأسواق ، واشرك في انجاز كل ذلك طوائف مختلفة من السكان والعملة والصناع وأصحاب الخبرات من اساري أجانب وعبيد المخزن وأصحاب الحرف من نجارين وبنائين وحدادين وزلاجين وخراطين وجباصين ونقاشين وحجارين وصباغين من فاس ومكناس وتطوان ومراكش وسوس .

وشجع هجرة السكان اليها بما بذله لهم من أراضي وتسهيلات ومنح وأدوات العمل ، حتى اذا اكتملت عمليات البناء والاسكان ، اختار لها من أبناء البلاد من يسير شؤونها ويرعى مصالحها ويتفانى في المحافظة عليها والدفاع عنها .

وهكذا عين هو ثم خلفاؤه من بعده عمالها وقوادها وقضاتها ومحتسبيها رجالا من خيرة أبناء الاقليم ومن ألمع رجال الدولة ببقية المدن الاخرى .

فرأينا من عمالها وولاتها وباشاواتها وقضاتها :

الحاج العربى الطريس التطوانى ، والحاج على بن عبد الصادق الرجراجى ، وجابر بن سعيد الشبانى ، وحميد بنانى الفاسى ، وابراهيم بن بيهى الحاحى ، ومحمد المروري الشيظمى ، ومحمد ابن الكاهية الاسفى ، وعبد الرحمان بركاش الرباطى ، ومحمد بن أحمد المراكشى ، ومحمد بن احمد الورزازي ، ومحمد بن التهامى الوزانى، وعبد السلام الفشار المكناسى وعلى بن محمد التنانى ، والحسن المزميزي ، وعبد الله الصابونجى السلاوي ، وعبد الرحمان الرودانى ، والعربى الرحمانى ، وعلال الزمرانى ، وعلى بن محمد الكاديري ، وسلام السوسى ، والحاج عمر التازي ، ومحمد بن عمر السرغينى الخ .

وهكذا اشترك ابناء المغرب قاطبة فى تحقيق هذه الرغبة الملكية التى اتت بكل خير على هذا الجزء من الوطن العزيز .

وتم للسلطان تنفيذ ما خططه لهذه المدينة ، وحقق بجهوده المتواصلة ما ينشده لها من اعمار واستقرار وازدهار ، خصوصا بعد أن حرر الجديدة من الاحتلال البرتغالى سنة 1769 وأعاد بناءها من جديد ، وسماها الجديدة بدلا من اسمائها القديمة : مازغان ، البريجة ، المهدومة .

وبعدما أصدر اوامره بمنع الاتجار مع الخارج بموانىء اكادير وفضالة والعرائش أصبحت الحياة الاقتصادية والتجارية فى هذه المدينة تتقدم وتتطور الى الامام واخذت السفن تؤمها من مختلف الاصقاع ، وبعد مرور 15 سنة انشئت بها 12 من الدور التجارية الاجنبية واستقر بها نجو الالف من التجار الاروبيين من انجليز وفرنسيين وهولانديين واسبانيين وهكذا تمركزت حركة الوسق بميناء واحد وقضى بذلك على التهريب واضطراب الاثمان وفوضى التوزيع .

ولم يكد ينتهى القرن الثامن عشر حتى كانت الصويرة تستقطب 40 ٪ من الحركة التجارية ، بينما اتت بعدها : الرباط وسلا وتطوان وطنجة والعرائش ، اما انفا الدار البيضاء التى فتحت للتجارة سنة 1782 فكانت تحتل المرتبة الاخيرة بنسبة 10 ٪ فقط . ولا داعى الى القول بأن المواد

المصدرة كانت المواد الخام من حبوب وصوف وجلود وأبازير وريش النعام والابقار والاغنام وغير ذلك من المواد الاساسية ، بينما كان المغـــــرب يستورد المنتوجات القطنية والحريرية والادوات المصنوعة والســـــلاح والبارود وغير ذلك من الادوات ...

ولنلتفت الان التفاتة اخرى الى الجزيرة لنرى ماذا شاهدت مـــــن احداث خلال العصر الحديث . لقد ادرك المولى محمد بن عبد الله من أول وهلة مركز هذه الجزيرة الدفاعى الذي تمتاز به فوجه عنايته اليهــــــا بتحصينها بالابراج والحصون الدفاعية المشحونة بالمدافع الكبــــــرى والصغرى ثم شيد برجا صغيرا فوق صخرة بداخل البحر أمام المرســـى الجديد بحيث أصبحت السفن المتجهة الى المرسى تحت حماية رمـــى المدافع من هذا البرج وابراج الجزيرة .

وشيد بها خلفاؤه من بعده المسجد والصومعة ودار الغنم والسجن ومطافى المياه ومقبرة للمجاهدين ، ووظف بها الحراس من رجال الجيش كما عين مشرفا عسكريا على شؤونها الدفاعية . ولعله كان يريد أن يجعلها مركزا للسفن الجهادية التى كانت ترسو بالعرائش وسلا فعاجلته المنية قبل تحقيق ذلك .

وقد استعمل الملوك من بعده هذه الجزيرة خلال القرن 19 لنفـــى المتمردين على الدولة وسجنهم بها . واول من سجن بها محمد بن الغازي الزموري الذي تمرد بزايان على الدولة فى أيام المولى سليمان فنفى اليهـــا ومـــــات بهـــــــا .

وفى عهد المولى الحسن الاول سجن بها المولى أحمد الريسونــــى ومكث بها مدة حتى تمكن من الفرار والرجوع الى بلاد الريف .

على ان أهم حدث عسكري وقع بها هو هجوم الاسطول الفرنســـى عليها بقيادة الاميرال جوانفيل عقب معركة ايسلى الشهيرة بين المغاربة والفرنسيين سنة 1844 وذلك للضغط على المغرب وتحطيم اقتصادياته .

وفى أواخر القرن صور ظهير مخزنى يجعل جزيرة الصويرة محجرا صحيا للحجاج العائدين من الديار المقدسة حرصا على سلامتهم وسلامة السكان . وبقيت تقوم بهذا الدور الى أوائل القرن الحالى .

⁂

لقد كانت رغبة مؤسس هذه المدينة أن يجعل منها مركزا تجاريـــا واقتصاديا يستقطب التجارة والاقتصاد فى هذا الجزء من الوطن . وتحققت هذه الرغبة بجهوده وجهود خلفائه فأصبحت هذه المدينة ذات اشعـــاع اقتصادي وتجاري داخل المغرب وخارجه خلال فترة طويلة من الزمن .

وها نحن اليوم فى عهد الاستقلال نطمح الى مواصلة تحقيق رغبـــة مؤسسها الاول فلنعمل فى هذا السبيل ، وفى جميع الميادين ، وعلى ضوء التخطيطات التى يضعها أولو الامر وبمساعدة العاملين من رجال السلطة لكى تسترد هذه المدينة مكانتها المرموقة التى بنيت من اجلها منذ اليـــوم الاول ، خصوصا وقد حباها الله بثلاث مميزات قلما اجتمعت فى غيرها :

فموقعها الجغرافى والبحري الممتاز ومناخها البليل العليل الذي لا يتغير طول السنة ، وشاطئها الجميل الهادىء ذو الرمال الناعمة تكتنفـــه الغابات والاحراج على امتداده ، واتساع شوارعها ، ونظافة مرافقها ، كل ذلك يجعل منها مدينة سياحية جديرة بجلب الزوار من سائر الافاق .

وقد حباها الله فوق ذلك بثروة سمكية لا يستهان بها هى مصدر رزق وعمل لطوائف كثيرة من سكانها النشيطين ، وعامل من عوامل تطور ملاحة الصيد التى تزحف سنة بعد أخرى .

وفوق ذلك فان الابحاث الجارية والتنقيبات المستمرة عن فوسفاط مسكالة سيجعل منها فيما يستقبل من الايام بحول الله ، مصدرا جديـــدا للثروة ، ونواة أولى للتصنيع حتى تصبح المدينة مركزا لنشاط اقتصادي وملاحي كبير يحقق رغبة مؤسسها الاعظم ويلبى حاجات سكانها العاملين

فى مختلف حقول العلم والصناعة ، ليجعلوا منها ومن النواحى المحيطة بها منطقة ترفل فى حلل الرفاهية والازدهار .

ومن يدري ؟ فلربما تهيأ لهذه المدينة بفضل يقظة ابنائها ، وتبصر عمالها وولاتها وحكمة المشرفين على شؤونها ، ما يساعدها على منافسة بقية المدن المغربية المتطلعة الى مستقبل أفضل . وسوف نرى بها فى المستقبل القريب بحول الله قيام الصناعات المختلفة من معامل للتصبير واوراش التعليب والتغليف ومحطات التبريد ومراكز الرصد الجوي والبحري ومدارس السماكة ووسائل الصيد الحديث وما يتبع ذلك من صناعات كصناعة المراكب والزوارق والشباك والخيوط والحبال والصباغة وأدوات النيلون زيادة على مدارس للتعليم التقنى للبحارة واشغال الكهرباء واللاسلكى والرادار ، وغير ذلك .

وسيواكب ذلك تجهيز سياحى وتجاري واقتصادي يجعل من شاطئها البديع محورا للرياضات البحرية المختلفة كالانزلاق على الماء ومسابقة الزوارق ووسائل الصيد تحت الماء . وليس ببعيد أن نرى فى يوم من الايام هذه الجزيرة العريقة فى القدم وقد جهزت بالطرق والمخيمات والنوادي وتناولتها أعمال الترصيف والتشجير والانارة وجر المياه وغير ذلك من الاشغال التى تجعل من هذه المدينة وجزيرتها بحول الله جوهرة تتلألأ فى جيد وطننا العزيز تحت الرعاية السامية لجلالة الحسن الثانى نصره الله .

الصويرة **الصديق ابن العربى**

الوضع المالى لولاة مصر
من 1517 إلى 1798 م
وتأثيراته الاقتصادية على الطبقات الشعبية

د. فؤاد محمد الماوي

بعد رحيله عن استانبول يوم الخميس 22 يناير سنة 1517 م بثلاثة شهور ، على راس جيشه ، فى حملته ضد مصر ، استطاع تاسع سلاطين آل عثمان ، السلطان سليم الاول (1512 — 1520) ، المشهور (بياوز) ان يحطم بقية امبراطورية المماليك بمصر ، وهى التى حكمت الشرق العربى أكثر من ثلاثة قرون ، وأن يؤسس مكانها سيادة عثمانية اقطاعية من نوع خاص ، ظلت تعيش فى مصر حتى الحرب العالمية الاولى (1) . وقد وضع السلطان سليم الهيكل الاساسى لنظام الحكم والادارة لمصر ، ثم جاء من بعده السلطان سليمان الاول (1520 — 1566) الملقب (بالقانونى)

---

1) اورد المؤرخ المعاصر لاحداث (الفتح) العثمانى ، أحمد بن اياس ، تفاصيل وقائعه كاملة فى الجزء الخامس من كتابه (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) فتناول فيه الاحداث من 922 الى 928 هـ — 1516 — 1522 م . ونشره فى ليبزج واستانبول محمد مصطفى وباول كاله فى سلسلة (Bibliotheca Islamica, Die Chronik 5 c) سنة 1932 م . وسجلها احمد بن زنبل كمعاصر لها أيضا فى كتابه (تاريخ السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان مع قانصوه الغورى سلطان مصر واعمالها) وهو مخطوط بالمتحف البريطاني ، 129 ورقة ، رقم (26 A 14559) .

فاكمل اللمسات الاخيرة للنظام (2) . وكان تنظيمهما يهدف الى ابقاء البلاد على ما كانت عليه قبل (الفتح) العثمانى (3) . ولهذا اتسمت تلك النظم بالمحافظة ، كما كانت تهدف الى ضمان مورد مالى للخزينة السلطانية باستانبول ، وذلك عن طريق دفع مبلغ سنوي محدد يسمى (ارسال الخزينة) (4) ، ولهذا اطلق على مصر المصطلح العثمانى (سااليانة) (5).

2) راجع مقال :

— Combe, Etienne, L'Egypte Ottomané (Précis de l'histoire d'Egypte par divers historiens et archéologues), Tome III, Cairo, 1933, pp. 58-59.

وراجع ايضا مقال :

— Marcel, J.J., L'Egypte, depuis la Conquête des Arabes jusqu'à la domination française (L'Univers. Histoire et Description de tous les peuples : Egypte, Paris, 1848, pp. 192-5.

3) راجع جب وبوون ، المجتمع الاسلامى والغرب ، ترجمة عبد الرحيم مصطفى ومراجعة احمد عزت عبد الكريم ، ج 2 ، ص 5 ، القاهرة ، 1971 .

وراجع ما اصدره السلطان سليمان من مراسيم خاصة بمصر ، جمعت فى قانون نامه مصر) لسنة 931 هـ — 1524 — 25 م ، ومنها عدة نسخ مخطوطة فى مكتبات متفرقة أقدمها (ق 11 هـ — 17 م) مخطوط بمكتبة طوب قابى سراى ، استانبول ، 80 ورقة ، 17 سطر ، رقم (2063) . ومنها مخطوط مكتبة السليمانية باستانبول ، مجموعة أسد افندى ، 40 ورقة ، 21 سطر ، رقم (1 — 1827) وقد نشره عمر لطفى بركن ، استانبول ، 1943 م فراجع

(XV, XVI inci asirlarda Osmanli Imparatorlugunda Zirai Ekonominin Hukuki ve malî esaslari), Istanbul, 1943, pp. 355-87.

4) كانت مصادر الدخل من الحبوب تتجمع فى (العنبر الشريف) أو (العنبر السلطانى) ، كما كانت مصادر الدخل النقدى تتجمع فى الخزينة المصرية (الخزينة العامرة) وكانت ابواب الصرف والانفاق هى استيفاء الالتزامات السلطانية بمصر ، وبالمدن المقدسة (مكة والمدينة) ، وشراء وشحن المؤن والسلع التى تنتج فى مصر ويرغب الباب العالى فى استخدامها . وكانت محددة بمقادير معينة ، بحيث تسمح بتوفير مبالغ للامداد السنوى من الدخل الحكومى الذى يرحل الى (الباب العالى) ويسمى (بارسال الخزينة) . وكان الولاة يرسلونها للوفاء بما يستحق عليهم فى مقابل ولايتهم على مصر . اما الخزينة نفسها ، فهى برج مكون من طباق بناه ابراهيم باشا سنة 931 هـ — 1524 — 25 م فى مركز القلعة بالقاهرة . لمزيد من التفاصيل راجع ابن اياس ، سابق ذكره ، ج 4 ، ص ص 184 ، 186 ، 204 ، 5 — 226 ، 276 ، 396 ، 398 ، 405 ، 461 ، 480 ، 483 ، وراجع الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ، 4 أجزاء، القاهرة ، 1888 — 1894 ، ج 1 ص ص 23 — 24 ، 26 ، 35 ، 48 ، 50 ، 54 ، 55 ، 58 ، 60 ، 62 ، 148 ، 153 ، 169 . ج 2 ، ص ص 79 ، 121 — 123 ، 124 ، وراجع ايضا :

— Pococke, Richard, Description of the East and some countries, 2 vol., London, 1743 - 5, vol. 1, p. 165.

— Gibb, H.A.R. and Harold Bowen, Islamic Society ant the west, 2 vol., London, 1950-1957, vol. 1, part 1, pp. 201-203.

5) من الكلمة الفارسية (سال) بمعنى سنة ، وساليانة بمعنى سنوية ، راجع جب وبوون ، السابق ، ج 1 ص 209 من الترجمة العربية .

ويرتكز هذا التنظيملسياسة الحكم فى مصر علىخلاصه الفلسفةالفارسية والتركية التقليدية ، وهى مبنية على الشك والخوف من موظفى الدولة(6). ومن هنا تشكلت السلطة العثمانية من هيئات متوازية فى سلطتها من ناحية ، وتحد كل منها اختصاصات الاخرى من ناحية ثانية ، لكى يخلق فيما بينها نزاعامستمرا ، فيضمن ولاءها جميعا فى النهاية للباب العالى (7) . وتمتلىء الحوليات المصرية المعاصرة باحداث النزاعات بين تلك الهيئات التى تشكلت من الولاة الذين كان وجودهم فى مصر عابرا (8) ، ومن المماليك وهم العناصر المحلية التى لم يستأصلها النظام لخطة سياسية اثبتت نجاحها حينما كان الولاة اقوياء ، ومن الفرق العسكرية (آلاوجاقات) العثمانية الموجودة بمصر وكان عددها سبع فرق (9) .

---

6) راجع جب وبوون ، سابق ذكره ، ج 2 ، ص 6 من الترجمة العربية .

7) مرتالمصطلحات التى أطلقت على رئيس الوزراء فى الدولة العثمانية بالعديد من الاختلافات التى منها مصطلح (بروانة) وهى كلمة فارسية تعنى (القائد) أو (المفتش) او (براءة أو شهادة ملكية) وأحيانا تضاف لها اللاحقة التركية (جى) وهى اذا أضيفت للاسم تفيد المهنة . ومصطلح (وكيلى مطلق) أى الممثل المطلق للسلطان ، ومصطلح (أولى وزير) أى الوزير الاول ، و (صدر اعظم) و (باشا قابسى) و (باب عالى) . ويرى هامر انه من الممكن أن يكون اسم (باب عالى) مستعملا من قبل للاشارة الى قصر السلطان ، ثم أصبح يستعمل للاشارة الى مقر الصدر الاعظم ، بالاضافة الى السلطة الفعلية . لمزيد من التفاصيل راجع جب وبوون ، سابق ذكره ، ج 1 ، ص ص 156 — 167 من الترجمة العربية . وراجع أيضا Encycl. of Islam, art. Wazar.

8) ربما تلخص كلمات محمد باشا النشنجى الذى كان صدرا أعظم ، ثم عين واليا على مصر فى 17 رمضانسنة 1133 هـ موقف الولاة وموقف الصناجق (حكام الولايات) حينما قال للصناجق الذين كانوا فى استقباله حين قدومه الى مصر فى التاريخ المذكور ، (انتم أمنا (كذا) السلطان فى أرضه والبلاد ، واما نحن (أى الولاة) فاننا ناس ضيوف عندكم وبلاد السلطان لا يسأل عنها الا منكم) . راجع أحمد جلبى عبد الغنى ، مخطوط، 267 ورقة ، 25 سطر ، محفوظ بمكتبة جامعة ييل بالولايات المتحدة ، رقم (landberg 3) ص 98 ! ، وعنوان المخطوط « أوضح الاشارات فيمن ولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات » وقد قمت بنشره والتحقيق والتعليق عليه ، فراجع كتابنا أوضح الاشارات فيمن ولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، القاهرة ، دار الانصار ، 1977 ص 355.

9) فى الواقع ان الفرق العثمانية كانت ست أوجاقات هى : عزبان ، جاويشان ، تنكجيان ، مستحفظانمتفرقة، جمليان، ثم أضافاليها السلطان سليمان أوجاق الجراكسة.راجعمقال حسن عثمان ، المجمل فى التاريخ المصرى ، القاهرة ، 1942 ، ص — 255 — 58. وراجع مقال :

— Holt, P.M. The pattern of Egyptian political history from 1517-1798 (Political and Social Change in modern Egypt), London, 1968, pp. 80-81
— Shaw, Stanford J., The financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt 1517-1798, Princeton, 1962, pp. 191-196.

ويعتبر الولاة الذين تتناول هذه الدراسة أوضاعهم المالية (10) أحد الدعائم الاساسية التى يرتكز عليها النظام ، والممثلين الرئيسيين للسلطان العثماني فى مصر . فالوالى هو المشرف على استغلال البلاد لمصلحة الباب العالى ، والمتربع (نظريا) على قمة الجهاز الاداري والمالى ، ومن واجباته أن يشرف على الموظفين ويراقبهم ليتأكد من تنفيذهم لاوامر الباب العالى ، ومن طاعتهم للحكومة (11) . وكان يحمل لقب باشا ويعين من بين مجموعة حاملى لقب وزير (12) التى يحتل أفرادها أعلى المناصب فى مختلف انحاء الامبراطورية وكانت مدة الوالى تتراوح فى العادة بين سنة وثلاث سنوات مع استثناءات قليلة (13) . وكان يصل الى القاهرة عن طريق سورية برا أو عن طريق رشيد حتى بولاق بحرا ، ويستقبله زعماء المماليك والعلماء ورجال الحامية والاعيان . ويصل الى مقر سلطته بالقلعة فى احتفال فخم (14) وحينما كان الوالى يعزل من قبل الباب العالى أو يخلعه

10) تقتضى الامانة العلمية أن أنوه وأعترف بفضل ستانفورد ج . شو (استاذ التاريخ العثمانى والتركى بجامعة هارفرد بالولايات المتحدة » الذى استفدت بالكثير من المعلومات والارقام المذكورة فى مؤلفه المشار اليه ، فى كتابه هذا المقال ، وهو يعتبر أول عمل خصص لدراسة احوال مصر المالية (1517 — 1798) بالرجوع لمصادر لم تدرس حتى الآن ، هى وثائق المالية العثمانية المحفوظة بمصر وتركيا . فراجع
Shaw, op. cit., pp. 318-340.
ويحفل كتاب أوضح الاشرات فيمن ولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، بالمعلومات المالية ، فراجعها فى مواضيع متفرقة سيرد ذكرها بالمقال ، وراجع دراستنا للكتاب المذكور ، ص 124 .

11) راجع Shaw, op. cit., p. 1 وحسن عثمان ، سابق ، ص 248 . وتنعت الوثائق العثمانية الوالى بعدة القاب أوردها حسن عثمان .

12) كلمة وزير من (وجير) البهلوية بمعنى قاض . وليست من (وزر) العربية . وتحويرها يرجع الى ما قبل الاسلام ، اذ أن الاصطلاح فى القرآن (سورة طه : الاية 30 وما بعدها) قد اطلق على هارون : (واجعل لى وزيرا من اهلى ، هارون اخى) . راجع جب وبوون ، سابق ، ج 1 ، ص 155 من الترجمة العربية .

13) راجع على سبيل المثال ، أحمد جلبى ، سابق ، ورقة : 4 أ ، 15 أ ، 6 أ ب ، 7 أب

14) راجع حسن عثمان ، سابق ذكره ، ص 249 ، أحمد ، سابق ذكره ، ورقة 36 أ ، 38 أ ، 42 أ ، 44 أ ، 213 أ ، 226 أ . ويعتقد جب وبوون أن الوالى لم يكن يستطيع مغادرة القاهرة ، وفى الواقع قيدت اقامته فى القلعة طبقا لقانون نامة . راجع Gibb and Bowen, Op. cit., vol. 1, part 1, p. 202, n° 4 غير أن هولت ناقش هذا القول فذهب الى أنه بالرغم من أن الحقيقة الجوهرية هى أن الولاة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت اقامتهم مقيدة فى القلعة الا أن ذلك لم يكن قبل ، ولم يكن بأى حال من الاحوال أمرا اداريا . فقانون نامة دلل فقط على أن تكون القلعة مكانا للاقامة المعتادة للولاة . راجع Holt, P.M., The beylicate in Ottoman Egypt during the seventeenth Century, B S O A S, vol. XXIV, part. 2, 1961, p. 217, n° 1.

الجند والبكوات ، كان الوالى المعزول او المخلوع يحبس فى بيت او قصر حتى يدفع كل ما عليه أو يفرج عنه بفرمان من الباب العالى (15) . وكانت سلطة الولاة على كل حال من الناحية السياسية مؤقتة بمدة محـــدودة ، وعابرة بطبيعتها ، وتعتمد على المقدرة الشخصية ، والصفات الفردية لكل والى . اما من الناحية المالية المكرس لدراستها هذا المقال ، فقد استفاد ولاة مصر بنوعين من الريع (16) ، هما الريع الخاص (السلطـــانـــى) ، والمصدر الثانى هو ما عينه لهم الديوان والخزينة المصرية . ومصـــــادر الريع الخاص (السلطانى) تأتى من منبعين ، أولهما ضرائب الارض التى خصصت للولاة ، وتسمى (قرى الكشوفية) (17) ، وثانيها ياتى من المبالغ التى يدفعها اشخاص محددين فى مقابل تعيينهم فى مناصب محدده ايضا ، وتسمى (الكشوفية الصغيرة) .

15) التاريخ السياسى لمصر منذ 1517 الى 1798 مر بأربع فترات متباينة ، فى اولـــها (1517 — 1525) حدث تمرد مسلح قاده اثنان من الكشاف هما اينال وجانم السيفى، كما حدث عصيان الوالى أحمد باشا (الخاين) الذى سحقه المماليك . والفترة الثانية (1525 — 1586) اتسمت بالهدوء وبلغت خلالها النظم العثمانية التقليدية الذروة ، فكان السلاطين هم الذين يعزلون الولاة ، أما الفترة الثالثـة (1586 — 1711) فتتســم بالمنازعــات الداخليــة واضمحــلال النظــم العثمــانيــة ، وخلالهـــاتقــوم القوات المسلحـة والبكوات امــا بعــزل الــولاة ، أو باستسلام هــؤلاء الولاة لمطالبهم . فعلى سبيل المثال : التمرد ضد أويس باشا (تولى فى آخر جمادى الاخرة 994 — مات فى جمادى الاخر 999) انتهى بتسليمه بمطالبهم . اما ابراهيم باشا (تولى 14 ذى الحجة 1013 — قتل 13 ربيع آخر 1013) فقد حاصرته السباهية خارج القاهرة ناحية شبرا وقتلوه وعلقوا رأسه على باب زويلة . فى الفترة الاخيرة (1711 — 1798) برزت فيها القوى المحلية (المماليك) وتجددت محاولات احياء الولاية المملوكية المرتكزة علـى حكم الجراكسة ، راجع احمد جلبى ، سابق ، ورقة 8 أ ، ب ، 10 ب ، 36 أ ، 43 ب ، راجع قطب الدين النهروالى ، البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، نشــره حمد الجاسر ، الرياض ، 1967 ، ص 98 — 99 ، 105 — 106 ، 117 — 120 ، وراجـــــع :

— Halil Inalçık, Ottoman methoods of Conquest, (Studia Islamica), vol. 2, 1954, pp. 103-131.

— Holt, P.M. The pattern of Egyptian... etc. op. cit., pp. 79-90

16) بالرغم من أن ما كان يحصل عليه الولاة من هذا المصدر كان نقدا ، الا أنه كان يأتـى أصلا من انتاج الارض ولهذا استخدمت كملة (ريع) .

17) من المفيد التذكير بانه قد يقع خلط بين (قرى كشوفية الولاة) وبين الكشوفيات الاخرى. فكشوفية الولاة كانت ايراداتها نقدية كليتا ، وتعطى لهم كأموال خاصة بهم ، فى حين أن الكشوفيات الاخرى كانت ايراداتها عينية وتذهب الى الخزينة المصرية . ويجب أيضا الا يقع خلط بين الاراضى التى أعطيت كالتزام للقبائل العربية فى معظم الصعيد ، وتنتمى (خلال) ويشرف عليها حاكم الاقليم (كاشف) وقراها تسمى (كشوفية) ، ولكن لا علاقة لها هى الاخرى بقرى كشوفية الولاة . راجع : Shaw, op. cit., pp. 58, n° 78.

قرى كشوفية الولاة : تحولت قرى كشوفية الولاة فى كل اقليم الى (مقاطعة) فى (التزام) يدخل تحت رعاية حكام تلك الاقاليم ، الذين اسندوا بدورهم أمر الاشراف على تلك المقاطعات لوكلاء عنهم يتقاضون منهم مرتبات ، ويطلق عليهم (كشاف) . وكان على هؤلاء الحكام أن يدفعوا سنويا للولاة مقدارا محددا من المال يسمى (مال الكشوفية) أو ضريبة الكشوفية ، وهى مقدار يساوي المبلغ الذي كان المفروض يدفع (مال خراج) فيما لو استمرت هذه القرى تخضع (لنظام الخزينة) . أما الفائدة التى تعود على حكام الاقاليم فكانت هى (الفائض) بعد التزاماتهم للولاة (18) وهذا النظام يشبه (نظام الامانات) (19) الذي كان يطبق فى حكم الاقاليم فى القرن العاشر الهجري ، السادس عشر الميلادي ، والذي حصل الولاة فى ظله ربع كشوفاتهم بالكامل من المشرفين على تلك الكشوفيات ، وهم الذين كانوا يتقاضون اجورهم من الخزينة . وعندما انتقل حكم الاقاليم من

---

18) راجع :

— Pakalin, Mehmed Zeki, Osmanli Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlügü, 3 vol., Istanbul, 1946-1956, pp. 577-580.

— Uzunçarsili, Ismail Hakki, Osmanli Devletinin Saray Taskilâti, (Türk Tarih Kurumu Yayinlari), VIII, n° 15, Ankara, 1945, pp. 178, 203, 208.

19) يقوم نظام الامانات على أساس أن كل قرية أو مجموعة قرى متجاورة تشكل فيما بينها وحدة ادارية ومالية تسمى مقاطعة أو أمانة ، مسؤول عنها لدى (الروزنامة) ، وهى (قسم من فروع الخزينة مختص بفرض الضرائب وتسجيل الدخل الى والمنصرف من الخزينة) موظف يتقاضى أجرا ، وعليه تقع أعباء مسؤولية الضرائب الرسمية (مال الميرى) ويسمى عامل . ولكل مقاطعة (أمين) مسؤول عن تحديد ما على الاراضى القابلة للزراعة من ضرائب ، وعن (تخضير) الارض بمعنى عدم تركها بلا زراعة . ونص قانون نامة سليمان على تحديد ضرائب كل مقاطعة واثباتها فى (تذاكر) موقعة ومختومة بخاتم الوالى وناظر الاموال ، مبين فيها مقدار رسوم (الشياخة) او الكشوفية ، وأموال الرزق والاوقاف والاملاك والاموال السلطانية ، ويحتفظ أهالى كل قرية بتذكرة قريتهم حتى لا يدفعون أكثر مما هو مثبت فى تذكرة قريتهم . وقد اثبت هذا النظام فى التطبيق عدم كفاءته ، فادخل عليه مقصود باشا (1052 — 1053 هـ/ 1652 — 43 م) تعديلات من أهمها مسؤولية الموظفين (المباشرة) أمام ديوان الروزنامة . ورغم هذا لم ينجح هذا التطوير ، فبدأت الدولة منذ 1069 هـ / 1658 م فى تطبيق نظام الالتزام .راجع روبير مونتريان ، العلاقات بين القاهرة واستانبول أثناء الحكم العثمانى لمصر من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر ، ترجمة زهير الشايب ، مجلة المجلة ، عدد 158 ، فبراير ، 1970 ، عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر(رسالة دكتوراه اشراف أحمد عزت عبد الكريم) ، القاهرة ، 1974 ، ص ص 71 — 74 ، وراجع

— Hammer J. Histoire de l'Empire Ottoman, Tome 18, Paris, 1837, Tome 10, p. 31.

نظام الامانات الى (نظام الالتزام) اصبح حكام الاقاليم يقومون بالالتزام عن قرى كشوفية الولاة ، وفى هذه الحالة كان عليهم أن يتعهدوا بتسليم مبلغ ثابت من مال الكشوفية للولاة ، وفى مقابل ذلك صار من حقهم الاحتفاظ لانفسهم بالفائض (20) وخلال قرون استمر عدد القرى المخصصة فى كل اقليم ككشوفية للولاة ثابتا ، الا أن هذا العدد كان يزداد بصورة مؤقتة حينما تضاف أراضى قرى كانت من قبل أراضى (خراج) أو أراضى (وقف)،

---

20) طبقت الدولة العثمانية نظام الالتزام فى مصر حيث أثبت كفاءته فى بعض البلاد التى خضعت لها فى الاناضول والروملى وشمال العراق ، وهو لا يخضع لنظام الموظفين التابعين للحكومة ، بل يتعهد أى شخص سواء كان أمير أو شيخ عرب أو ذو منصب عسكرى فى الاوجاقات (الفرق) أو غيرهم ، بالالتزام للحكومة عن طريق ديوان الروزنامة ، بأن يحصل ضرائب ما التزم به لاراضى قرية أو أقل أو أكثر عن مدة معينة، وذلك بأن يدفع مقدما فى مزاد علنى للروزنامة مبلغا هو (حلوان) التزامه ، ويعادل ضريبة سنة . وبناءا عليه يعطى سندات هى ورقة (التقسيط) و (التيمقة) وجميعها يسمى (أوراق الملتزم) التى يوقع عليها الوالى والدفتردار وفيها كل البيانات المتعلقة باوصاف وحدود مقاطعة التزامه ، وبموجبها يصبح على الفلاحين والمشايخ والجهات الادارية اطاعته فيما يتعلق بشؤون الارض وجمع الاموال المقررة عليها ، باعتبار أنه أصبح ممثلا للحكومة . وكان الالتزام فى بداية تطبيقه يمنح لمدة سنة أو أكثر، ثم شاع توريثه فى القرن الثامن عشر ، الا فى حالات الاخلال بتسديد الالتزامات أو المصادرة ، مثلما حدث لامراء المماليك حينما صادرت الادارة الفرنسية حصص التزاماتهم وكانت أراض الالتزام نوعين أولهما : أرض الفلاحة وتسمى فى الوجه البحرى (أرض أثر الفلاحين) لعدم تأثرها بالفيضانات ، ولبقائها فى حيازة الفلاحين ما داموا يؤدون ما عليها من التزامات ، وفى الوجه القبلى سميت (أرض المساحة) لتأثرها بالفيضانات مما يستوجب مسحها كل عام بعد الفيضان واعادة توزيعها على الفلاحين . وثانيهما : هو (أرض الاوسية) وهى التى خصصتها الحكومة للملتزم وأعفتها من الضرائب ، مقابل صيانته للمرافق الواقعة فى حصة التزامه ، ويزرعها له الفلاحين بلا مقابل (سخرة) اذا كان مقيما بناحية التزامه ، اما اذا لم يكن مقيما بالناحية فيؤجرها ويحصل ريعها لنفسه . وتكون أراضى الالتزام بنوعيها ما يعرف بالارض الخراجية أو أرض مال الخراج ، راجع جب وبوون ، سابق ذكره ، ج 2 ، ص ص 53 ، 90 ، 93 من الترجمة العربية ، يعقوب أرتين، الاحكام المرعية فى شأن الاراضى المصرية ، ترجمة سعيد عمون ، القاهرة ، 1888 ، ص 45 ، هيلين آن ريفلين ، الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ، ترجمة عبد الرحيم مصطفى ، القاهرة ، 1968 ، ص 41 ، عبد الرحيم عبدالرحمن ، سابق ذكره ، ص 74 — 78 . وتوجد تفصيلات سجلها العلماء الذين رافقوا الحملة الفرنسية على مصر ، ونشرت فى كتاب (Description de l'Egypte) نراجع منها

— Lancret, M.A., Mémoire sur le système d'imposition territoriale et sur l'administration des Mamlouks, (Description de l'Egypte, Etat Moderne), Tome I, 1, Paris 1809 p. 471.

وايضا راجع : — Shaw, op. cit., pp. 40, 41, 318.

ثم اصابها التخريب والبوار ، فالحقت أما بكشوفيات الولاة أو بكشوفيات الالتزام الخاصة بحكام الاقاليم ، وبناءا عليه يصبح على هؤلاء الكشـــاف الملتزمين ان يدفعوا للخزينة ما كان على هذه القرى من خراج . ومن هنا كانت المكاسب الدائمة من خصوبة القرى كانت تدفع للخزينة وليس للولاة او حكام الاقاليم . وقد ازدادت ضرائب اراضى مال الكشوفية عن طريـــق المضاف ، بنفس الطريقة الدورية التى ازدادت بها ضرائـــب (اراضـــى مـــال الخـــراج) (21) ، وان كانـــت قـــد خضعـــت لعـــدة تنزيـــلات سببها النقل للاراضى الاكثر خصوبة الى اراضى تدفع مال خراج ، وتغيير

---

21) كان توزيع انتاج الارض فى مصر فى العصر العثمانى يخضع للمصطلحات التاليـــة (أ) كانت تلك الحصة من الاراضى المثمرة التى لا تعطى لزارعيها وانما تمنـــع لاخرين فى مقابل تعهدات تلزمهم بدفع العشر من حقهم فى الثمار ، تسمى المال الحر ، اى اراضى الضرائب المحضة . (ب) وذلك القسم من اراضى المال الحر الذى وزع على هؤلاء الذين كانوا متصرفين فى حقوق المقاطعات ، فى كل أو فى جزء من انتاجها ، سمى بمال خراج الارض — اى ضريبة الاراضى . (ج) وتلك الحصص التى تكون المشـاركـة فى الاستفادة بثمارها راجعة للاوقاف وللرزق سميت على التوالى بمال خراج الوقف ومال خراج الرزق (د) وكشوفيات القرى التى ينتفع بثمار أراضيها الوالى ، كانت تسمى بمال خراج الكشوفية . هـ) أما تلك التى كانت تدار لحساب الخزينة المصرية ، فكانت تسمى بمال خراج السلطان . ومحليا كانت تلك الحصص أو الانصبة فى مال خراج الاراضـــى تعرف على التوالى بمال الاوقاف ، ومال الرزق ، ومال الكشوفية ، ومال الميـــرى . (و) أما ذلك القسم من المتحصلات التى يحتفظ بها محليا وتوزع على السلطـــات المركزية والمحلية كمدفوعات على شكل مصروفات محلية أو على شكل مرتبات ، او تكاليف جمع المتحصلات وغيرها من الالتزامات ، كانت تسمى مخرجات أو مقتطعات . (ز) واذا حدث أن حصة من تلك المقاطعات التى ثمارها من حقوق المتصرف ثم تحولت تلك الحقوق الى ملتزم فى مقابل أن يؤدى هذا الاخير الخدمات الخاصة باستثمار مصدر لثـروة وتحصيـل ريعهـا ، وحصـة الملتـزم فى المال الحـر ، تعـرف فـى تلك الحالة بالفائض ، راجع الجبرتى ، سابق ذكره ، ج 1 ، ص 26

Shaw, op. cit., p. 64
— Estève, M.R.X. Mémoire sur les finances de l'Egypte, I. 1, p. 54, -
— Lancret, Mémoire, op. cit., p. 468.

اراضى الخراج الاقل خصوبة ، والتى لا تستطيع ان تدفع نفس مقـــدار الضريبة الى اراضى للولاة ، وخصوصا فى اواخر القرن 12 هـ / 18 م ، وهذا النقل الذي تم دون تعويض ، لشدة حاجة الخزينة الى قسم كبير مـــن ريع قرى الكشوفية تضمن أيضا اقليم المنزلة فى سنة 1160 هـ / 1747 م. وكنتيجة لهذا فانه بالرغم من ان (المضاف) (22) طبق فى اصلاحات سنة 1107 هـ / 1695 وفى سنة 1155 هـ / 1742 م ، وفى سنـــة 1174 هـ / 1760 — 61 م ، فزادت من ريع كشوفية الوالى بمقـــدار 440 و 861 بارة (23) ، فان مجموع الريع من قرى الكشوفية هبط من 032ر309ر7 بارة فى سنة 1086 هـ / 1675 — 76 م الى 909 ر949ر4 بارة من سنة 1212هـ 1797 — 98 م ، وكان النقص هو مبلغ 073ر309ر2 بارة ، اي بنسبة 33 ٪ (24) .

الكشوفيـــة الصغيرة : كان من الشروط الملزمة لبعض موظفـــى الديوان والخزينة المصرية خلال القرنين 10 هـ / 16 م و 11 هـ / 17 م ان ان يدفعوا للولاة كشوفية سنوية تسمى (مصروفات) ، فى مقابل تعيينهم فى مناصبهم ، وتمتعهم بدخل مصدره تلك المناصب . وكان مورد الولاة من هذا الدخل يفوق عشرة ملايين بارة فى السنة . ومن اجل حاجة الخزينة السلطانية لمورد جديد للريع ، فقد حول اليها مجمل الريع الآتى من هذا المصـــدر ،

(22) المضاف هو زيادة فى الضرائب على الموارد الموجودة فعلا لتحسين دخل الخزينة ، وتفرض على المقاطعات بصورة مستقلة تماما عن اى تغيير فى خصوبة الارض ومحصولها. وقد فرضها ولاة لهم صلاحيات خاصة للعمل على زيادة ريع الخزينة كمضاف سنة 1107 هـ 1695 م الذى فرضه حسن أفندى الروزنامجى بناء على مشورة من الديوان العالـــى لتغطية عجز الخزينة . وكان المضاف يلغى بزوال ظروف فرضه مثل مضاف 1079 هـ / 1668 م ، او ثابتا مثل مضاف سنة 155 هـ / 1742 — 43 م ومضاف سنة 1174 هـ 1760 — 61 م راجع احمد كتخدا عزبان ، الدورة المصانة فى اخبار الكنانة ، مخطوط فى جزئين ، صفحاته 589 ، محفوظ بالمتحف البريطانى ، رقم or 1073 ج 1 ، ص 37 — 38 .

(23) راجع (الملحق) فى نهاية هذا المقال حيث خصصت (دراسة للعملة المصرية فى العصر العثمانـــى)

(24) Shaw, op. cit., p. 353.

طبقا لاصلاحات عام 1082 هـ / 1671 — 72 م ، وسمى بريع (الكشوفية الكبيرة) . ولتعويض الولاة جزئيا ، لما اصابهم من خسارة فى دخلهم نتيجة لهذا التحويل ، فقد فرضت ضريبة جديدة لصالحهم تسمى (الكشوفية الصغيرة) على العديد من هؤلاء الموظفين الخاضعين للكشوفية الكبيرة ، ولكن مبالغ تلك الضريبة كانت اقل . وخلال القرن 12 هـ / 18 م كان متوسط ريع الولاة من هذا المصدر يبلغ تقريبا اربعة ملايين بارة فى السنة ، اي أقل بما قيمته 30 ٪ من المبالغ التى كانوا يحصلون عليها من تلك الكشوفية فى القرون الماضية . وكانت موارد تلك الكشوفية تتجمع من عدة موارد ، اولها ما كان يدفعه الموظفين وغيرهم من ذوي المناصب الهامة عند تعيينهم فى مناصبهم ، وهؤلاء هم (كشاف) (25) أقاليم البهنساوية، والبحيرة ، وقليوب والمنوفية ، والغربية ، بالاضافة الى أمناء المناصب التالية : البحرين (26)

---

25) كان مصطلح كاشف يعنى فى الادارة المملوكية عدة مهام قضائية وعسكرية وادارية ، واستخدم فى العصر العثمانى للدلالة على من يديرون أكثر من مقاطعة ريفية فى نفس المنطقة ، وعلى الذين عينوا حكاما للاقاليم ، وبعد بداية القرن 11 هـ 17 م حل الملتزمون محل الكشاف فى ادارة المقاطعات الخاصة بالممتلكات السلطانية ، وفيما بعد استخدم الاصطلاح ليدل على الكشاف الذين تحملوا مسؤولية قرى الكشوفية الخاصة بالولاة وشيوخ العرب ، وفى الربع الاول من القرن 11 هـ / 17 م اصبح من يشغل حكم الاقليم يسمى كاشف أو ملتزم ، وخلال القرنين 11 هـ / 17 م و 12 هـ / 18 م كان حكام الاقاليم على درجتين هما : (حاكم) وتطلق على حكام الاقاليم الهامة مثل جرجا والمنوفية والغربية والشرقية وأحيانا البحيرة ، و (كاشف) وتطلق على حكام المقاطعات الاقل اهمية . وكان (الحاكم يختار من بين بكوات مصر الاصليين ، وبطريقة التناوب ، أما (الكاشف فكان يعين من بين جند المماليك الذين ارتقوا لرتبة أمير او بك . راجع حسن عثمان ، سبق ذكره ، ص 46 — 47 . Shaw, op. cit., pp. 60-63 —
— Lusignan, S. L. A history of the Revolt of Ali Bey against the Ottoman Porte, London, 1783, pp. 2-3, Quatremère, E. tr. histoire des Sultans Mamlouks de l'Egypte, 2 tomes, Paris, 1837-1844, tome 1, p. 179, n° 61.

26) البحرين هما مدخلى القاهرة البحريين من ناحية بولاق ومصر القديمة ، وكان القائم على هذين الميناءين يعرف بأمين البحرين ، واصبح منذ سنة 972 هـ / 1564 — 65 م يشرف على ضريبة الابحار فى النيل عن طريق (مقاطعة تعريف المراكب) . وفى سنة 997 هـ / 70 م أصبح من حقه الاشراف على نشاط سماسرة شنون بذور القرطام وغيره ، ومكيال القمح الذى يأتى الى وكالة القمح ببولاق التى كانت مقاطعة تسمى (مقاطعة كيل غلال بولاق) ، لمزيد من التفاصيل راجع الجبرتى ، سابق ذكره ، ج 1 ، ص 54 ، 116 ، 119 ، 135 ، 175 ، ج 2 ص 21 ، 92 ، 93 ، ج 3 ، ص 12 ، 165 ، وراجع على مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، 20 جزء ، القاهرة ، 1306 هـ / 1888 — 89 م ، ج 3 ، ص 111.

27) أنشئت مقاطعة (المشاق) وأصبحت تابعة لامانة خلال القرن 10 هـ / 16 م لكى يرسل أمينها الحبال للباب العالى لسد حاجات الاسطول العثمانى . وكان من حق أمين المشاق أن يفرض ضرائب على قرى الوجه البحرى كجزء من التزاماتهم (للمخرجات) ، وتبدأ من عشرين بارة الى مائة بارة فى السنة ، وذلك لكى يتمكن من صنع الحبال فى مصنعه ببولاق ، للايفاء بالمقدار المطلوب منه للباب العالى . وكان يبلغ حوالى 2000 قنطار من الجبال . وكان ملزم بتسليم أى مبالغ تتبقى طرفه من التى جمعها ، بعد صنع الحبال المطلوب ارسالها ، وكذلك تسليم أى فوائد أخرى تعود عليه من بيع الحبـــال فـــى السوق الحـــرة

28) تأسست مقاطعة (الخردة) فى سنة 935 هـ / 1528 — 29 م كحق فى ادارة وجمـــع ضرائب كل المناظر والمشاهد فى القاهرة وأقاليم الوجه البحرى . وفى سنوات مختلفة الحقت بها تنظيمات وطوائف الطبالين والسمكرية وتجار الحديد وتجار الحشيش ومقاطعة السكر الاميرية ، وحقوق جمع الضرائب من الاسواق التى لا تدخل فى اختصاص المحتســب (مقاطعة باقى السوق) ، وكان يتولاها أمين الخردة ولكن تولاها فيما بعد ضابط من فرقة العزبان وفى هذا يكمن السر فى امتداد نفوذ هذه الفرقة ليشمل القاهرة والوجه البحرى . وكان لامين الخردة الحق فى فرض ضرائب على الراقصين من النساء والرجـــــال ، والقرادتية ، ونساء الشوارع ، والطبالين ، والمشعوذين ، والفتوات ، والبهلوانات ، وتجار الحشيش ، والمضحكين ، وعلى أضرحة الاولياء ، وتجار الدخان فى سمنـــود المحلة الكبرى وسوق المواشى ومصانع النشادر والسكر والخل ... الخ لمزيد من التفاصيـــل راجع جـــب وبـــوون ، سابق ، ج 2 ، ص 114 ، حاشيـــة 2 ، الجبرتـــى ، سابق ، ج 3 ، ص 229 .
— Estéve, op. cit., I, I, p. 360, Shaw, op. cit., pp. 120-123

29) فرضت جزية على أهل الذمة بعد الفتح العربى لمصر سميت (الجوالى) ، وفى عصر المماليك عرفت (بمال الجوالى) ، وفى العهد العثمانى أصبحت الجزية بمثابة اقطاع تابع لامانه يرأسها رجل عقيدة يسمى (بأمين الجوالى) . وكانت تصرف متحصلات هـــذه الضريبة على الجوالى ، وهم كما حددهم أحمد جلبى ، العلماء ، والفقراء ، والايتام ، والارامل . وقد أحدث ابراهيم باشا الشهير بالاسكندرلى (تولى لمدة سبعة شهـــور) وجاتا للجوالى ، وحدد قواعد صرف متحصلات هذه الضريبة . وفى القرن 11 هـ / 17 م أصبحت مقاطعة الجوالى التزاما لامراء مصر كمعظم المقاطعات الريفية والدينية . وفى الواقع أصبح أمين الجوالى ملتزما وان كان جمع الضريبة فى الريف يقع على حاكـــم الاقليم نظير مبلغ محدد يدفعه له أمين الجوالى . وفى سنة 1106 هـ / 1694 م أدخل اصلاح نقلت بمقتضاه اختصاصات ملتزمى الجزية فى الولايات العثمانية الى ادارة مركزية مختصة فى مدينة ادرنه ، وأصبح أمين الجوالى يتقاضى راتبا سنويا محددا فى مقابـــل ارساله أكبر قدر من تلك الضريبة الى الادارة المركزية المختصة ، لمزيد من التفاصيل راجع أحمد جلبى ، سابق ، ص ، 4 ب ، الجبرتى ، سابـــق ، ج 1 ، ص 146 — 147 ، راجع Shaw, op. cit., pp. 151-165
Gibb and Bowen, op. cit., vol. 1, part 2, pp. 253-4

30) هى دار سك العملة الفضية والذهبية ولها امناء منهم أمين الدمغة ، وهو ضابط مختص بالاشراف على تنقية الفضة ونسب خلطها والشهادة على قيمة كل قطع النقود ، ويرأس الامناءموظف (ناظرى ضربخانة) . وبعد منتصف القـــرن 11 هـ / 17 م استقـــرت

وغيرهم . واغوات (31) الفرق العسكرية التالية : الجونليان ، والتفكجيان، والجراكسة ، ومستحفظان ، وكل من كاتب فرقة العزبان ، وكاتب فرقة المتفرقة ، وسر المتفرقة . ومن أفندية (32) الغربية والشرقية والاراضى الجليلة ، علاوة على باشا القافلة ، وشيخ الدلالين (33) . ومقدار المبالغ المتجمعة من هؤلاء هى 251 و 998 بارة .

اما المبالغ التى كان يحصل عليها الولاة من موظفين أقل مركزا فى مقابل تقلدهم (الباسية) مناصبهم ، فكانت يدفعها حاكم جرجا ، وكشاف كل من المنوفية والبحيرة والفيوم والبهنساوية وقليون والمنفلوطية والغربية والشرقية والجيزة والمنصورة ، وبلغ مقدار المتحصل من هؤلاء جميعا مبلغ 1.150.000 بارة (*) فى حين ان المبالغ المتحصلة من موظفين أقل مركزا من هؤلاء ، فى مقابل تعيينهم أيضا ، وهم أغوات الرسالة (34) لولايات كل من جرجا ، والمنفلوطية ، والاشمونين ، والبهسناوية ، ومن اغوات حوالة

الضربخانة السلطانية بالقاهرة فى ثكنات (باب) فرقة الانكشارية واحتفظت الانكشارية بمعظم مناصبها الرئيسية وتلاعبوا فى العملة ونسب خلطها مما ترتب عليه انخفاض قيمتها . راجع Shaw, op. cit., pp. 107, 128, 140

(31) راجع مادة اغا بدائرة المعارف الاسلامية ، وكذلك مادة الانكشارية ، والاغا هو رئيس الفرقة .

(32) كلمة تركية عثمانية استعيرت من الاغريقية البيزنطية الذى استعارتها بدورها من اليونانية القديمة . وكان يطلق هذا اللقب على كتاب الروزنامة . راجع دائرة المعارف مادة افندى .

(33) هو كبير أو رئيس سماسرة أسواق القاهرة .

(34) كانت الضرائب النوعية المفروضة على الاراضى تجمع وتشحن على ظهر مراكب من صعيد مصر الى موانيها لتودع فى عنبر الغلال (العنبر السلطانى) بمصر القديمة ، وكان الموظف الذى يذهب الى المناطق المختلفة بصعيد مصر يسمى (أغا الرسالة) ومهمته العمل على جمع تلك الحبوب ، وتوزيعها على المراكب المعدة للشحن ، وكان يتسلم من قائد المركب (تذكرة) أو ايصالا بالكمية المحددة والنوعية المعدة للشحن من الحبوب ، ثم بعد الشحن يعطيه ايصالا أو (تذكرة) مبين فيها استلام قائد المركب لهذه الكمية وتلك النوعية . راجع أوليا جلبى ، سياحة نامة ، مخطوط بارشيف طوب قابى سراى ، مكتبة كوتشك بغداد ، استانبول ، 10 مجلدات 1898 — 1938 ، المجلد 10 ، 1938 ، ص 759 ، 783 ، 778 ، 786 ، 797 ، 800 ، 805 . وتوجد بهذا المجلد تفاصيل عن مصر فى نهاية القرن 11 هـ / 17 م .

(*) بالاضافة الى تلك المبالغ المحددة كان الوالى يتلقى ايضا مبلغ 50.000 بارة عن تعيين كل أمير طبلخانة جديد ، و 100.000 بارة من تعيين كل بك جديد ، فى الفترة ما بعد سنة 1765 — 6 م

كل من دمياط ورشيد ، وكذلك من رئيس الجالية اليونانية ، ورئيس طائفة المسيحيين (النصارى) ورئيس طائفة اليهود بمصر ، ورئيس الاقباط ، كانت تبلغ فى مجموعها 250ر545 بارة . وكانت تسمى المبالغ المجموعة من هؤلاء باسم (خالية) . اما ضريبة (كشف الجسور) فكانت تدفع سنويا بعد عام 1155 هـ / 1742 — 43 م من كشاف البحيرة والغربية والفيوم ، وبلغ مقدار الدخل منها مبلغ 873ر789 بارة (35) . وعلى هذا يكون مجموع المبالغ المتحصلة من تلك المصادر الاربع السابق ذكرها هو 374ر483ر4 بارة ، غير ان هذا المبلغ قد نقص بمقدار 50.000 بارة بعد سنة 1179 هـ/ 1765 — 6 بسبب انقاص المبلغ الذي يدفعه حاكم جرجا مقابل (الالباسية) وعلى هذا يصير دخل الولاة منذ ذلك العام (36) وحتى عام 1212 هـ / 1797 — 8 م هو 374ر283ر4 بارة تاتى من الكشوفية الصغيرة بمنابعها الاربع السابق ذكرها .

هذا بالاضافة الى دار سك النقود (الضربخانة) بالقاهرة التى منحها الباب العالى لولاة مصر كجزء من الريع الخاص بهم . وكانوا يحصلون على مبلغ تقريبى يقدر بحوالى 000ر135ر1 بارة فى السنة ، منها حوالى000ر300 بارة تاتى من مال الكشوفية ، يدفعها أمين الضربخانة الذي كان يعين لادارة دار الضرب . (37) .

هذا بالاضافة ايضا الى مبالغ أخرى كانت تدفع لخزينة الوالى الخاصة من شخصيات مسؤولة فى الضربخانة ، فمثلا ملتزم مقاطعة (قالخان) (38) وملتزم مقاطعة (منقار) (39) كان يدفع كل منهما للوالى مبلغ 000ر150 بارة فى السنة ، اما امين (مقاطعة الدمغة) (40) فكان يدفع للوالى مبلغ

---

35) هذه الارقام من السجلات الموجودة بالقاهرة ، والتى رجع اليها شو ، راجع Shaw, op. cit., pp. 321-2

36) راجع اوليا جلبى ، سابق ذكره ، ج 10 ص 455 ، 461 ، 461 ، 1025 .

37) راجع Shaw, p. cit., pp. 322-323

38) ملتزم هذه المقاطعة هو المسؤول عن معمل صهر المعادن مثل الذهب والفضة والمعادن المخلوطة التى تحضر الى دار سك النقود .

39) ملتزم هذه المقاطعة هو المسؤول عن جمع برادة وقطع المعادن النفيسة المتبقية بعد عمليات ضرب النقود .

40) أمين هذه المقاطعة كان من واجبه وضع شهادة رسمية يقرر فيها أن نوعية الخلط والتكوين لكل المواد من الفضة المصنوعة فى مصر .

250ر000 بارة فى السنة ، فى حين أن ملتزم مقاطعة (جمرك سن الفيل) (41) كان يدفع للوالى حوالى 60ر000 بارة فى السنة. وكانت باقىالنقود المفروض ان يحصل عليها الولاة ، يدفعها لهم أمين الضربخانة من مكاسب دار الضرب (*) .

لم يكن هذا (الريع الخاص) او (خاص الولاة) ــ كما كان يدعى فى المصطلح العثمانى ــ هو فقط كل ما يحصل منه الولاة على دخل ، بل كانت تصلهم مبالغ أخرى تتجمع فى اوعية مالية مختلفة ، منها الدخل السنوي من مرتباتهم التى كانت تسمى (ساليانة) ، ومنها المصادر الاضافية من ريع الخزينة (كالمقاطعات) و (حلوان القرى) ، وكانوا ملزمين فى مقابل الحصول على هذه المبالغ بدفع ضرائب ، والقيام بالخدمات التى تلزمهم بها واجبات الوظيفة ، مثلهم فى ذلك مثل بقية أصحاب المناصب الذين يتقاضون مرتبات من ريع الخزينة المصرية . فالوالى كان يتلقى (الساليانة) السنوية التى كان متوسطها فى السنة خلال القرن 11 هـ / 17 م مبلغ 1ر500ر000 بارة ، لكن هذا المقدار اقتطع منه جزء كبير حتى اصبح اكثر بقليل من الف بارة فى السنة ، وذلك فى اصلاحات عام 1107 هـ / 1695 ــ 96 م . وكان مخصص للولاة (جراية) سنوية تبلغ اربعة عشر ألف اردب من القمح ، بالاضافة الى (مدفوعات) سنوية من القمح تبلغ عشرون الف أردب من ريع (وفر كيل غلال الخزينة) (42) ، فيكون مجموع ما يحصل عليه الوالى من القمح

(*) وصلت مبالغ (الريع الخاص) للولاة قمتها فى بداية القرن 12 هـ / 18 م فبلغت (13) مليون بارة فى السنة ، ثم هبطت تدريجيا الى (9) مليون بارة فى السنة مع نهاية القرن نفسه .

41) ملتزم تلك المقاطعة مسؤول عن جمع جمارك على سن الفيل المصدر لمصر .

42) وفر كيل الغلال هو الفرق بين الكيل الحقيقى للقمح والكيل المورد فعلا للخزينة . فكل 12 كيلة (أردب) كان فيه كيلة واحدة (وفر) تذهب للخزينة ، وارتفعت تلك النسبة لتصبح كيلة وفر فى كل ثمان كيلات ، وكانت تحصل عليه الخزينة لكى يحل محل القمح الذى يفقد فى حالات غرق السفن المحملة بالغلال للعنبر الشريف . وخلال القرن 12/ 18 م كان ريع وفر الغلال حوالى ستة وثلاثون ألف أردب من القمح فى السنة يحصل منها الوالى على عشرون الف اردب . وقد وفر الكيل فى سنة 1200 هـ / 1786 ــ 7 م حوالى خمسة واربعون الف أردب ، نال منها الوالى ما يقرب من عشرون الف اردب فى السنة . راجع نظام نامه مصر ، مخطوط ، 27 ورقة ، 17 سطر ، مكتبة متحف طوبا قابى سراى ، استانبول ، رقم (288) ، ورقة 20 ب ، وراجع
Estéve, op. clt., p. 112

حوالى اربعة وثلاثون الف أردب فى السنة . وعلاوة على هذا فقد كانت (الخزينة) تمنح الوالى ما يساوي ثمانية الاف أردب ، تقدر بمبلغ مائتى بارة للاردب ، أي ما يساوي 1.600.000 بارة فى السنة (43) هذا بالاضافة الى 5.400.000 بارة كانت تدخل للوالى من بيع القمح المتبقى فى الاسواق الحرة ، بعد سد حاجاته هو واتباعه (44) فاذا أضفنا مبلغ 740.541 بارة، وهو المبلغ الذي كان مخصص للوالى واتباعه من الخزينة من اجل العلف والجرايات طبقا لحسابات نهاية القرن الثامن عشر ، فيكون ما يحصل عليه الوالى فى السنة وقت وصول الحملة الفرنسية على مصر هو مبلغ 7.741.000 بارة (45)

اما عن مصدر دخل الولاة من المقاطعات غير الزراعية فياتي من دور الجمارك التى كانت تعطى لولاة مصر كاقطاع يدفعون عنه للخزينة مال الخراج و (مال الكشوفية الكبيرة) (46) ، ويحتفظون لانفسهم بباقى الدخل . غير انه حدث فى القرن 12 هـ / 18 م أن أصبحت جميع مقاطعات الجمارك ما عدامقاطعة السويس التزامات تحت أيدي ضباط فرقة الانكشارية ، الذين التزموا بدفع الضرائب المفروضة على تلك المقاطعات ودفع مبلغ سنوي محدد للولاة ، والاحتفاظ لانفسهم بفائض المتحصل . وقد وصلت المدفوعات بعد عام 1107 هـ / 1695 — 6 م الى مبلغ 2.089.000 بارة فى السنة عن مقاطعات جمارك الاسكندرية ورشيد ودمياط والبرلس وبولاق ومصر القديمة ، هذا بالاضافة الى مبلغ

---

43) راجع Shaw, op. cit., p. 324

44) راجع نظام نامه مصر ، سابق ، ورقة 21 أ

45) راجع Shaw, op. cit., p. 324

46) عندما استقرت الادارة العثمانية بمصر فى منتصف القرن 10 هـ / 16 م فرضت ضريبة على أرباب المناصب فى الديوان المصرى مقابل اكتسابهم للريع الذى يحصلونه ، وللريع الذى يحصلون عليه من ثروة مصر . وكانت تلك الضريبة تسمى الكشوفية الكبيرة وهى خاضعة للزيادة والتنزيل . ويجب الا نخلط بين ريع الكشوفية القديمة والجديدة الخاصين بأقليم حكام الاقاليم ، وبين ريع الكشوفية الصغيرة الخاصة بريع الولاة ، الداخل فيها ريع قرى الكشوفية ، وبين ريع الكشوفية الكبيرة التى يذهب ريعها للخزينة السلطانية بمصر والتى كانت تجبى من أصحاب المناصب بالديوان فى مقابل مراكزهم وما يحصلون عليه من ثروة مصر . راجع Estéve, op. cit., pp. 59, 60, 65 — Lancret, op. cit., pp. 493-494, 73, 77, 80

350.000 بارة تدفع سنويا كفوائد لتلك الجمارك (لشهر حوالة) (47) وهو الموظف المسؤول عن حمولات الولاة . وقد استخدم الانكشارية (المعلمين) من القبط واليهود لادارة تلك الجمارك ، وكان هؤلاء المعلمين يدفعون للوالى مبالغ ضئيلة ، فى مقابل تثبيتهم فى تلك الوظائف. وخلال القرن 12 هـ / 18 م ازدادت ارباح الجمارك ، فاصبحت مدفوعات الانكشارية للولاة قليلة بالقياس الى تلك الارباح الطائلة المتزايدة . وقد حاول الباب العالى أن يستفيد من هذه الزيادة باعادة الجمارك الى الولاة ، ولكن دون جدوى ، وفى نفس الوقت عمدت الانكشارية الى زيادة المخصصات التى تعطى للولاة لكى يحتفظوا لانفسهم بالتزامات الجمارك، وبهذا افشلوا خطة الباب العالى . وقد قدر الباب العالى فى سنة 1173 هـ/ 1760 م دخل الولاة من هذا المصدر بمبلغ تراوح ما بين 1.250.000 بارة فى السنة 2.500.000 بارة فى السنة . وبحلول عام 1200 هـ / 1785 م قدر ما حصل عليه الولاة من نفس المصدر بمبلغ متوسطه ستة مليون بارة فى السنة (48) غير انه لاضمحلال الجمارك ، ونتيجة لتزايد طغيان مراد بك وابراهيم بك فى العقد التالى ، فقد أصبح ريع الولاة من الجمارك فى السنة أكثر بقليل من مليون بارة بحلول عام 1210 هـ / 1795 — 96 م . (49)

---

47) كانت ثروة مصر تأتى من مصدرين هما الارض الزراعية والمصادر المدنية التى تنقسم الى (1) التجارة والصناعة ، (ب) التجارة الخارجية ، وكانت المصادر المدنية تعتبر ملكا للسلطان (خاص همايون) وقد وزعها على خمس جهات تنقسم الى مقاطعات وتنقسم المقاطعات الى أمانات أو التزامات ، تفرض عليها أموال تدفع للخزينة عن طريق (قلم شهر) . وكان الوالى يشرف على هذا من خلال عدد من الافراد من حاشيته الشخصية يسمون (شهر حوالة) الذى كان عليه ان يحصل للوالى المبالغ المستحقة على الجمارك مقابل مبلغ محدد من المال ويعاونه (أغا الحوالة) الذى يعيش فى القاهرة ويذهب الى السويس حين دخول البواخر الى الميناء ، لتقدير الجمارك بمعرفته هو و (قاضى البهار) وهو قاضى مقيم بالسويس ، ويأتيه ريع من مقاطعة (قاضى الافرنج) . عن مزيد من التفاصيل راجع الجبرتى ، سابق ذكره ، ج 1 ، ص 309 ، قانون نامة مصر ، سابق ذكره ، ورقة 45 ب ، 46 أ ، نظام نامة مصر ، سابق ذكره ، ورقة 48 ب ، أوليا جلبى ، سابق ذكره ، ج 10 ، ص 46 .

48) راجع Shaw, op. cit., p. 325

49) راجع محمد يوسف الخلاق ، تاريخى مصر ، مخطوط بالمكتبة القومية ، استانبول ، 169 ورقة ، 17 سطر ، رقم 705) راجع ورقة 108 أ وبالمخطوط تفصيلات عن تاريخ مصر من 1517 — 1716 — ، راجع سجل دار المحفوظات العمومية بالقاهرة ، رقم (2262)

وبالاضافة الى هذا كان الولاة اثناء معظم سنوات القرن 12 هـ / 18 م قادرين على الاحتفاظ بأغنى التزام وهو جمرك السويس ، وذلك قبل ان يفلت فى نهاية القرن هو الآخر الى أيدي المماليك الذين أصبحوا حكام مصر الفعليين . غير انه حتى ذلك الوقت كان معظم ما يحصل عليه الولاة من حصص تأتى من هذا المصدر ، فقد وصلت المبالغ التى حصل عليها الولاة فى سنة 110 هـ / 1698 — 99 م الى مبلغ قدره هو 4.543.196 بارة (50) واما فى سنة 1173 هـ / 1759 — 60 م فقد وصل الى مبلغ 6.500.000 بارة فى السنة ، طبقا لتقديرات الوالى (51). غير ان الباب العالى قدر المبلغ السابق ذكره بمقدار 8.750.000 بارة سنويا (52) . وفى سنة 1200 هـ / 1785 — 86 م قدر نظام نامة مصر الريع السنوي منجمرك السويس الذي يحصل عليه الولاة بمبلغ 8 750.000 بارة (53) . وعلى كل حال فقد احتفظ مراد بك وابراهيم بك بمجمل ريع هذا المصدر لانفسهم بعد ما عادا الى السلطة فى سنة 1205هـ 1761 م ، ودفعا للوالى مقابل سنتى 1209 هـ / 1794 — 95 م وسنة 1210 هـ / 1795 — 96 م مبلغا اجماليا مقداره هو6.585.000 بارة (54) وفى نهاية القرن 12 هـ / 18 م كان ريع الولاة من مقاطعة الجمارك لا يزيد متوسطه عن 7.500.000 بارة فى السنة .

يظل هناك مصدر آخر لدخل الولاة يسمى (حلوان القرى) وهو المدفوعات التى يؤديها للوالى من يرسوا عليه (حق الانتفاع) بالمقاطعات الخالية من اصحابها الذين ماتوا طبيعيا او فى المعارك والمنازعات او تعرضوا للمصادرة او استقالوا ، ولم يكن الولاة حتى عام 1082 هـ / 1671 — 72 م ملزمين بدفع أي مبالغ للخزينة المصرية فى مقابل تمتعهم بدخل حلوان القرى ، اذ كانوا يعتبرونه جزءا من ريعهم الخاص (55) .

---

(50) راجع سجل دار المحفوظات العمومية بالقاهرة ، رقم (5293)
(51) راجع Shaw, op. cit., p. 326
(52) راجع Shaw, op. cit., p. 326
(53) راجع نظام نامه مصر ، ورقة P 15
(54) راجع سجل دار المحفوظات العمومية بالقاهرة ، رقم (2263)
(55) راجع الخلاق ، سابق ذكره ، ورقة 17 أ ، وراجع Shaw, op. cit., p. 36

لكن منذ العام السابق ذكره خضع ذلك المورد لضريبة تدفع للخزينة ، حيث اعتبر حلوان القرى جزء من أموال الخزينة المحولة للولاة ، أكثر من كونه منحة سلطانية لولاة مصر . وما كان يتبقى للولاة يختلف مقداره من سنة لاخرى ، فمتوسطه خلال القرن 12 هـ / 18 م بلغ حوالى خمسة عشر مليون بارة في السنة ، وان كان قد ارتفع فى بعض السنوات الى خمسة وعشرين أو ثلاثين مليون بارة (56) ، ولكن بعد سنة 1193 هـ/ 1779 م انتزع حلوان القرى من الولاة ، ووقع فى أيدي مراد بك وابراهيم بك كالتزام يدفع فى مقابله للولاة مبلغ متوسطه السنوي مليون وخمسمائة الف بارة (57) .

ان المراجع المهتمة بريع ولاة مصر العثمانيين محدودة للغاية من ناحية ، ومبعثرة فى أرشيفات ودفاتر غير منظمة فى دور المحفوظات التركية والمصرية من ناحية أخرى ، الا أن ما فيها من معلومات يمكن أن يقبل كنوع من التقديرات . وما يصل اليه الدارس لريع الولاة من كل أوعية الدخل السابق ذكرها ، وفقا لما تمدنا به هذه المراجع من معلومات ، يصل فى مجمله الى مبلغ 47.741.000 بارة فى السنة عند بداية القرن 12 هـ / 18 م (58) . ومفردات هذا المبلغ هى 13.000.000 بارة تأتى من الريع الخاص ، و 7741.000 بارة هى المرتب السنوي (ساليانة) و 12.000.000 بارة مصدرها المقاطعات، و 15.000.000 بارة مصدرها من الحلوان . غير أن هذا المبلغ الاجمالى لريع الولاة هبط فى أثناء العقد الاخير من القرن 12 هـ / 18 م قبل وصول الحملة الفرنسية بمقدار 45 ٪ فوصل مجمله الى 25.741.00 بارة فى السنة (59) .

---

56) راجع سجل المحفوظات العمومية بالقاهرة ، رقم (5293)

57) راجع سجلات دار المحفوظات العمومية بالقاهرة ارقام (2262) ، (2263) ولم يشر نظام نامة مصر الى الحلوان كمصدر لريع الولاة فراجع على سبيل المثال ورقة 115 أ 21 ، وراجع Shaw, op. cit., p. 327 وراجع Girard, P.S., Mémoire sur l'Agriculture, l'Industrie et le Commerce de l'Egypte, (Description de l'Egypte), Tome XVII, pp. 379-380.
الطبعة الثانية

58) فعلى سبيل المثال راجع سجلات دار المحفوظات العمومية بالقاهرة ، أرقام (2262) لسنة 1209 هـ ، ورقم (5935) لسنة 1211 هـ ، ورقم (2263) لسنة 1110 هـ .

59) راجع Shaw, op. cit., p. 327

يخرج الدارس لاوضاع الولاة المالية فى مصر ــ كما رأينــا ــ بانطباعة هى أن تلك البلاد تعرضت لعلمية نهب من قبل العناصر العثمانية المملوكية الممثلة للنظام الاقطاعى العثمانى ، بسماته الخاصة ، والمتربع على قمته ، نظريا ، الولاة العثمانيين الذين تعرضوا هم أيضا (كموظفين) لدى (النظام) لعلمية استغلالية لهم كما سنرى . فالريع (الرسمى) للولاة فيما عدا مكاسبهم من المصادر (غير الرسمية) كان يخصص جزء منه للوفاء بديونهم المطلوبة رسميا (للخزينة السلطانية) بمصر ، وعرف هذا الدين فى القرن 12 هـ / 18 م بمصطلح (دين الديوان) ، كما كان يخصص جزء آخر للوفاء بدينهم للسلطان ، وهو الدين الذي عرف بمصطلح (جــائــزي همايونى) او الجائزة السلطانية .

وكان دين الديوان يدفعه الولاة للخزينة كخراج يسمى (خراج الوالى) كما كانوا ملزمين بدفع (كشوفية كبيرة) مقابل توليتهم لمناصبهم ، هذا فضلا عن جملة اعباء اضافية يضطرون لتحملها ، كأن يتهرب احد الامراء الحاكمين من القيام بالتزاماته تجاه الخزينة . ومن اعباء دين الديوان مــا عرف (بمال الكشوفية ومال الخراج) وهى ضرائب كان الولاة مدينين بها للخزينة ، مقابل مقاطعات الجمارك . ففى خلال القرن 12 هـ / 18 م كانت مديونية الولاة عن مقاطعة جمرك السويس قد ارتفعت من 4.063.196 بارة الى مبلغ 6.071.055 بارة فى السنة (60) ومنذ ان انتزع الانكشارية من الوالى مقاطعات الجمارك الاخرى ، فقد تولوا فى المقابل القيام بتسديد الالتزامات الضرائبية عنها للخزينة ، وعلى هذا فبعد سنــة 1126 هـ / 1714 م اجبر الانكشارية الولاة على أن يدفعوا مديونيات الكشوفية الكبيرة التى ترجع الى مقاطعة جمارك الاسكندرية ورشيد ، وظلت هذه المديونيات تقدر بمبلغ 1.331.249 بارة فى السنة حتى بقية هذا القرن .

وهناك ديون اخرى كان على الولاة دفعها للخزينة ، منها ما حدث اثناء القرن 12 هـ / 18 م من اقتطاع حكام الاقاليم لمبلغ سنوي معين من مجموع الضرائب المستحقة للخزينة عن اقاليمهم ، واجبر الولاة تحت ضغط

(60 راجع Shaw, op. cit., pp. 108 - 329

(61 راجــع Estéve, op. cit., p. 117 ; Shaw, op. cit., p. 110

هؤلاء الحكام بالموافقة على تنزيل او طرح هذا المبلغ المقتطع المستحق للخزينة ريع اقاليم هؤلاء الحكام ، وقيام الولاة أنفسهم بدفع مبلغ يساوي ما نزل للخزينة من دخلهم الخاص. ولكن تلك الموافقة كانت ظاهرية، اذ عمد الولاة فى حقيقة الامر الى تعويض تلك المبالغ التى دفعوها للخزينة عن طريق مدفوعات (الالباس) و (والكشوفية الصغيرة) وهى مبالغ تدفع للولاة عند تولى حكام الاقاليم لمناصبهم . لكن حكام الاقاليم اعتبروا أن ما يدفع للالباسيـــــة والكشوفية يعود مباشرة الى مقدار الضريبة التى تدفع للولاة عن (قرى كشوفيات الولاة) الواقعة داخل اقاليم هؤلاء الحكام . وعلى هذا قام حكام الاقاليم بحجز مقدار آخر من النقود المستحقة للولاة عن قرى كشوفياتهم ، وسمى هذا الاقتطاع الجديد (بتنزيل الكشاف) وهو مبلغ يتساوى مقداره فى الواقع مع ما كان يدفعه حكام الاقاليم عن قرى كشوفيات الولاة الواقعة داخـــل اقاليمهم (62) .

وفى الحقيقة يعنى هذا ان كشاف الاقاليم اصبحوا يحصلون على مال الكشوفية ، وعلى فائض قرى الكشوفية ، وفى نفس الوقت تجنبوا اعادة تلك للقرى للمنتفعين بها المستحق عليهم مال الخراج الخزينة . وجوهـــر القضية هو أن (تنزيل الكشاف) سمح لحكام الاقاليم بأن ينتفعوا بقـــرى الكشوفية عمليا كأملاك خاصة بهم ، دون أن يدفعوا عنها ضرائب لا للخزينة ولا للولاة ، فى حين اصبحت مبالغ تنزيل الكشاف يدفعها الولاة سنويــــا للخزينة . وعلى هذا ظلت تلك المبالغ دون تغيير خلال القرن 12 هـ / 18 م وبلغ مقدارها الاجمالى 3،475،000 بارة يدفعها الولاة للخزينة سنويا (63).

اما ثالث انواع الضرائب التى كان يدفعها الولاة للخزينة كدين للديوان فكانت تعرف (بمال الحلوان) (64) وتدفع مقابل تمتع الولاة بريع الحلوان. وقد ارتفعت تلك الضريبة من مليون بارة فى السنة عندما انشئت لاول مرة

---

(62) راجـــع Shaw, op. cit., p. 330

(63) راجـــع Shaw, op. cit., p. 330

(64) (الحلوان) هو ضريبة كان يدفعها الملتزم الجديد للباشا ، وديوان الروزنامة نظير التصديق على نقل الالتزام اليه ، وكانت فى بدء الامر تقدر بمقدار ضريبة سنة مـــن الاموال الاميرية المقررة على الحصة ثم أصبحت تقدر بمقدار ثلاث سنوات من فائـــض الحصة الذى اصبح يفوق ، مقدار المال الميرى . راجع عبد الرحيم عبد الرحمن ، سابق ذكره ، ص 256 ، 257 .

فى سنة 1082 هـ / 1671 — 72 م ، الى مبلغ 2.113.000 بارة فى السنة بعد عام 1174هـ / 1760 — 61 م (65) .

اما ضريبة تبديل الكشوفية الكبيرة عن (الكتخديان) فكانت ضرائب يدفعها الوالى عند تغيير وكلاء (كتخديان) فرق الجونليان والتفكجيان والجراكسة ، وبلغت ستة آلاف بارة ، بواقع ألفى بارة عن كل وكيل فرقة من الفرق الثلاث المذكورة (66) .

كذلك كان الوالى يدفع ضريبة عن تبديل الكشوفية الكبيرة من اجل (زعماء) (67) القاهرة وبولاق ومصر القديمة ، كان مجموعها مبلغ 46.392 بارة ، بواقع 15.464 بارة عن كل زعيم من الثلاثة (68) .

كان على الولاة التزامات بمبالغ أخرى تسمى (معتادات) يدفعونها للكتبة بالخزينة ، مقابل مسؤوليتهم عن العمل المتعلق بحسابات الاموال المدفوعة لمقاطعات الوالى . فكان (أفندي الروزنامة) يتلقى من الوالى مبلغ 39.000 بارة عن حساباته لمقاطعة جمرك السويس ، ومبلغ 20.000 عن حساباته لمقاطعة جمرك الاسكندرية . اما المعتادات التى يتلقاها

---

(65) Shaw, op. cit., pp. 168, 330

(66) Shaw, op. cit., pp. 201, 330

(67) كان اغا الانكشارية هو المسؤول الرئيسى عن الامن بالقاهرة . وكانت نقاط الامن متمركزة فى الاماكن الرئيسية بالقاهرة وضواحيها ، ويعمل بها رجال من الانكشارية . وقد وزعت اختصاصات بوليس القاهرة وبولاق ومصر القديمة على ثلاث زعماء هم زعيم القاهرة ويسمى زعيم مصر ، وزعيم بولاق ، وزعيم مصر القديمة . وكان من واجباتهم تنفيذ أحكام الاعدام ، وفرض العقوبات ، وتحصيل الغرامات عن بعض الجرائم المحددة. كما كان لهم الحق فى جباية الضرائب من هؤلاء الذين يستفيدون بخدماتهم . هذا بالاضافة الى فرضهم ضريبة كانت تسمى (مال الحماية) على الهيئات المدنية والمشرفين على المقاطعات المدنية (الغير زراعية) الذين يعتمدون على خدماتهم فى تأكيد سلطتهم . وكان أهم هؤلاء الزعماء هو زعيم مصر الذى كان من واجباته أيضا جرف وتطهير جميع قنوات القاهرة ، واطفاء الحرائق اينما شبت النار . وكان الزعيم فى اللغة العامية المصرية يطلق عليه (والى) ويطلق عليه (زعيم) او (صوباشى) فى الوثائق الرسمية العثمانية . راجع الجبرتى ، سابق ذكره ، ج 1 ، ص 55 ، 57 ، ج 2 ، ص 10 ، 22 ، 25 ، 14 ، 54 ، 36 ، 73 ، 82 ، 107 .. الخ وراجع : Gibb and Bowen, op. cit., 1 : 1, p. 279

(68) راجع Shaw, op. cit., pp. 148, 331

(امين الشهر) فكانت مقابل قيامه بحسابات ضرائب مقاطعتى جمركــى السويس والاسكندرية ، ومجموعها يبلغ 61.528 بارة .. وكان رئيس قلم المحاسبة بالخزينة (أفندي المحاسبة) يدفع له الولاة سنويا ستة آلاف بارة ، فيكون مجموع المعتادات التى يلتزم الوالى بدفعها هى مبلغ 126.528 بــارة (69) .

وبجانب ما سبق كان على الولاة تعهدات تسمى (خلع القفاطين على عرب الدشايش) ، وهم أولئك الذين يكلفون بمسؤولية توصيل غلال أوقاف (الدشايش) (70) من القاهرة الى السويس ، لكى يتم شحنها الى المدن المقدسة (مكة والمدينة) . وكانت تلك (الخلع) تكلف الولاة سنويا مبلغ 19.800 بارة (71) .

هذا بالاضافة الى ضريبة أخرى تسمى (تبديل مقاطعة الاحتساب)، ويقوم الولاة بدفعها ، وهى قسم من مال الخراج المدين به (المحتســب)

---

(69) راجــع Shaw, op. cit., p. 340 Estéve, op. cit., p. 240

(70) كان هناك نوعين من الوقف للدشيشة (أى الحبوب المطحونة) أولهما الدشيشة الكبرى، وهى جميع الاوقاف التى ورثها العثمانيين فى مصر ، والتى كان سلاطيين المماليك أوقفوها لصالح المدن المقدسة (مكة والمدينة) . وقد أضيف لها موارد جديدة سنة 991 هـ / 1583 م بلغ ريعها عشرة آلاف أردب حبوب أرسلت الى المدن المقدسة . وفى هــذه السنة أيضا أضاف السلطان مراد أوقافا قدمت دخلا اضافيا بلغ ست الاف أردب حبوب، وريع نقدى لا يستهان به . وبحلول سنة 1105 هـ / 1693 ــ 94 كان يرسل كل عــام الى المدن المقدسة 17.100 أردب من الحبوب . وخلال القرن 12 هـ / 18 م منــح أمراء مصر وولاتها منحا هائلة ، فأصبح فى فترة مجىء الحملة الفرنسية الى مصر من المكن ارسال ثلث 33.333 أردب من الحبوب ، ومبلغ 1.907.765 بارة نقدا الى مكة والمدينة ، اما الدشيشة الصغرى فقد أضيفت الى الاوقاف المذكورة سنة 991 هـ/ 1583 م على يد السلطان مراد الثالث ــ 1574 ــ 1595 ــ ، وكان يسمى بوقــف
1583 م على يد السلطان مراد الثالث ــ 1574 ــ 1595 ــ ، وكان يسمى بوقــف
المرادية وبلغ ريعه النقدى المرسل الى المدن المذكورة مبلغ 125 الف بارة والفين أردب من الحبوب . وقد أصبح من المستطاع فى الفترة التى وصلت فيها الحملة الفرنسية أن يرسل من وقف المرادية (الدشيشة الصغرى) مبلغ 969.857 بارة فى السنة ، علاوة على 4.840 أردب من الحبوب . راجع أوليا جلبى ، سابق ذكره ، ج 10 ، ص 129. وراجــع Estéve, op. cit., p. 106

(71) راجــع Shaw, op. cit., p. 269

المختص باسواق المأكولات والاطعمة في القاهرة (72) . وقد ارتفعت تلك الضريبة من 36.453 بارة في سنة 1133 هـ / 1720 – 21 م الى 136.453 بارة في السنة ، خلال العقد الاخير قبل وصول الحملة الفرنسية (73) .

ما زالت هناك مبالغ أخرى يدفعها الولاة ، منها (تعيينات اشراف مكة المكرمة) ومقدارها السنوي هو 200.000 بارة ، ويدفعها ولاة مصر من أجل (المؤن الاضافية) المرسلة الى اشراف مكة مع الخزينة (74) .

ومنها أيضا المبالغ التى كانت تدفع للتغييرات الخاصة بمرتبات رجال حامية العريش ، التى حدثت بعد الغاء اقليم قطيا في سنة 1118 هـ/ 1706م وترحيل التزامات حاكم هذا الاقليم الخاصة بمرتبات رجال حامية العريش الى الولاة . فبلغ ما كان يدفعه الولاة لهذا الغرض خلال معظم هذا القرن 38.500 بارة في السنة (75) .

ان ما أسلفنا ذكره هو الجزء المحدد من (دين الديوان) المستحق على الولاة أن يدفعوه الى الخزينة ، وقد بلغ مقداره في بداية القرن 12هـ/ 18 م ما يقرب من تسعة ونصف مليون بارة في السنة ، ووصل الى 12 مليون بارة في السنة عند مجيء الحملة الفرنسية على مصر . لكن هذه الديون (المحددة) على الولاة لم تكن هى كل الدين المستحق عليهم للخزينة، من خلال التزاماتهم بالدين الديوانى ، اذ كان عليهم التزامات (غير محددة) مرتبطة بالظروف الاقتصادية للبلاد ، وبدخل الخزينة ، فاذا نقصت أموال الخزينة بسبب عدم وفاء النيل ، أو لظروف طبيعية أو اجتماعية أو سياسية أخرى ، كان على الولاة أن يضمنوا استمرار صرف المرتبات ،

---

(72) راجع Esteve, op. cit., p. 110 ويوجد سجلان بالمحكمة الشرعية بالقاهرة (بدون أرقام) بهما تفاصيل كاملة عن المواد الغذائية والمأكولات ،وريع المحتسب ، والقائمين على مقاطعة الاحتساب ، والسجلات بهما مواد تؤرخ من سنة 1155 هـ / 1742 – 43 م ولسنة 1174 هـ / 1760 – 61 م . راجع Shaw, op. cit., p. 120

(73) راجع Shaw, op. cit., p. 331

(74) راجع Shaw, op. cit., p. 269

(75) راجع Shaw, op. cit., p. 258

وتغطية النفقات المطلوبة . وكان عليهم ان يتصرفوا كبنوك بأن يوفـــروا النقود للخزينة لكي تقابل المصاريف الجارية ، على أمل توقع تعويضات من دخل الخزينة المقبل ، وبهذا أصبح دخل الوالى يعنى فى الواقع ضمان مقدرة الخزينة على مواجهة التزاماتها الجارية . ففى السنوات التى يحدث فيها نقص فى مدفوعات (ارسال الخزينة) المستحقة الباب العالى ، فان هذا النقص يصبح جزءا من ديون الولاة فى مصر للباب العالى ، ويظل كذلك حتى بعد رحيلهم عن البلاد ، حيث يجري تعيينهم فى مناصب أخــرى ، فى اقاليم يمكنهم ريعهم من مناصبهم فيها أن يستهلكوا مديونيتهم للبـــاب العالى (76) وبهذا الاسلوب كان ريع الولاة فى مصر بمثابة صمام أمان لكلا من الخزينة المصرية والباب العالى اذ كان يساعد الخزينة على الوفـــاء بالتزاماتها ، ، حتى فى الحالات المتعسر فيها جمع الريع المستحق لها ، وفى نفس الوقت كان يمثل ضمان تعويضات للباب العالى من مصادر خارجة عن مدفوعات ارسال الخزينة المصرية . وعلى هذا كان ريع الولاة فى مصر يحل فى الواقع الهزات المالية التى تتعرض لها البلاد على المستـــوى المحلى ، واحيانا يحل الهزات المالية على مستوى الامبراطورية .

فصلنا الحديث عن دين الديوان وهو ــ كما رأينا ــ خاص بالتزامات الولاة للخزينة المصرية ، ويظل للحديث بقية تتعلق بدين آخر عـــرف بالجائزة السلطانية (جائزي همايون) ويدفعها الولاة كل سنة ، نقدا وعينيا فى مقابل حظوتهم بالتعيين فى منصب الولاية على مصر ، مما يترتب عليه ان يتمتعوا بريع وراتب (ساليانة) وامتيازات المنصب الاخرى . وتقابل الجائزة السلطانية فى طبيعتها ، مدفوعات الكشوفية الكبيرة التى يؤديهـــا للخزينة المصرية ذوي المناصب فى مقابل مراكزهم وما يترتب عليها مـــن دخل (77) . وكانت الجائزة السلطانية تدفع لمناصب محددة عند التعيين فيها ، وكان ذلك تأمينا لريع المنصب مقدما ، ولهذا كان من يختار لشغل منصب الولاية على مصر ، وليس لديه ثروة تكفى لتغطية الانفاق على تلك الجائزة ، كان عادة يرسل كتخداه (وكيله) الى مصر قبل وصوله ، لكي يقوم بعدة اجراءات من أهمها اعلان تعينه كوالى ، ثم اقتراض المبلـــغ

76) راجع أوليا جلبى ، سابق ذكره ، ج 10 ، ص 407 .

77) راجع Uzunçarsili, op. cit., pp. 195-210

المطلوب تقديمه كجائزة من التجار والامراء المحليين ، واخيرا تعيين قائم مقام يمثله لحين وصوله الى مصر (78) وكان المبلغ المطلوب دفعه كل سنة كجائزة مبلغا ثابتا، سواء عين الوالى للمرة الاولى ، او جدد تعيينه اثناء وجوده الفعلى بالقاهرة بعد انتهاء مدته الاولى . غير ان هذا المبلغ الثابت كانت تضاف اليه احيانا مبالغ أخرى تطلب من الولاة فى السنوات التى تقوم فيها الامبراطورية العثمانية بحروب ، أو سفريات سلطانية (79) وكانت تسمى (امدادات السفر) ، كما كانت تطلب فى ايام الاحتفالات والاعياد كهدايا تقدم للسلطان ولاعضاء بلاطه (80) .

وكانت الجائزة توزع على أعضاء البلاط فى (دار السعادة) (81) حيث يوجد السلطان ، ووالدة السلطان ، والامراء ، واغا دار السعادة ، وصراف خزينة السلطان الخاصة ، وغيرهم ، كما كانت توزع على اعضاء بلاط الصدر الاعظم وعلى أمين الخزينة السلطانية . ففى بداية القرن 12 هـ 18 م وصلت المبالغ المستحقة على الولاة كجائزة الى مبلغ سبعة مليون وخمسمائة واربعة وخمسون ألف بارة فى السنة . وفى سنة 1117 هـ / 1705 — 06 م انخفضت الى 4.390.030 بارة وذلك للتخفيف من ضغط الاعباء التى تتحلمها التزامات الولاة على مصر (82) .

اما هدايا الاعياد المطلوبة سنويا للسلطان ، ووالدة السلطان ، والامراء والصدر الاعظم ، فكان متوسطها فى السنة مائتى الف بارة ،

---

(78) راجع Uzunçarslli, op. cit., pp. 198-200

(79) راجع Shaw, op. cit., pp. 333-337

(80) هى مراجع حاشية (79) ، وراجع احمد جلبى ، سابق ذكره ، ص 83 أ .

(81) كان يطلق هذا الاسم على دار الحكم عند الجراكسة والعثمانيين ، واطلق على مدينة اسلام بول (مدينة الاسلام) باعتبارها العاصمة القديمة للدولة العثمانية فى اوربا فعرفت بدار السعادة لانها مقرا للحكم العثمانى ، وتطلق دار السعادة ايضا على الحكومة التى يقيم بها السلطان ، كما اطلقت على الحريم عند العثمانيين ، وكان اغا دار السعادة او اغا البنات (قيزلر اغاسى) يعتبر الموظف الرئيسى فى القصر السلطانى . وفى منتصف القرن 11 هـ / تكونت جماعة عسكرية تسمى جماعة قاصدى ديوان مهمتها مراقبة الضباط العثمانيين الذين يخدمون فى مصر وغيرها من ولايات الامبراطورية ، فكان يطلق عليهم احيانا اغوات دار السعادة ، وكان جزء من الجزية المفروضة على مصر يذهب الى اغوات دار السعادة . راجع Estéve, op. cit., p. 116

(82) اورد فى قائمة مفصلة المدفوعات ، وتوزيعها ، ونصيب كل فرد منها ، ومنصبه ، فراجع Shaw, op. cit., p. 402

وبلغت (امدادات السفر) التى تدفع فقط للسلطان ورئيس الوزراء فى بعض السنوات التى خرجت فيها التجريدات وحدثت فيها حروب مبلغ 4.455.000 بارة فى سنة 1107 هـ / 1695 — 96 م ، وانخفضت الى ثلاثة ملايين بارة فى سنة 1117 هـ / 1705 — 06 م ، ثم الى 2.460.000 بارة فى سنة 1139 هـ (83) . أما الهدايا العينية التى يرسلها الوالى فتوزع على الرؤساء ، والضباط الاقل مرتبة ، والمستخدمين فى بلاط السلطان ، وديوان الصدر الاعظم ، والخزينة العثمانية ، وكانت محددة بكميات مقدارها 7990 أقه بن ، و 7256 أقة سكر ، و 5735 كيلة أرز (84) هذا بالاضافة الى ارسال الولاة بين وقت وآخر لبضائع من الهند وايران واليمن ، وعبيد من الحبشة والسودان ، كهدايا ورشوة للسلطان ولرؤساء الضباط فى الباب العالي (85) . وفى بعض السنوات التى لا يتمكن فيها الولاة من ارسال الجائزة أو الهدايا العينية كاملة ، كانت فى هذه الحالات تضاف الى دينهم الثابت للباب العالى مبالغ تساوي فى مقدارها العجز فى الجائزة والهدايا .

وفى السنوات التى أعقبت عام 1148 هـ / 1735 — 36 م كان المتبقى من ريع الولاة قد أخذ فى الانكماش ، وتبعا لذلك خفضت قيمة الجائزة السلطانية . وفى سنة 1162 هـ / 1748 — 49 م كان مجموع ما هو مطلوب للجائزة ، وهدايا العيد ، وامدادات السفر (تدفع نقدا) قد انخفض الى اربعة ملايين بارة فى السنة (86) وبعد عام 1183 هـ / 1769 — 70 م كان من الممكن دفع جزء من التزامات الجائزة ، على أمل أن تسديد الباقى كان يمكن أن يتأتى من مكاسب مهام أخرى تضاف للولاة . وقد توقفت قيمة الجائزة وهدايا العيد فى سنة 1201 هـ / 1787 — 88 م عند المستوى الذي كانت عليه فى سنة 1148 هـ / 1735 — 36 م . ولكن بعد رحيل حسن باشا (الحجة 1201 هـ / اكتوبر 1787 م) تمكن الولاة عن طريق مكاسبهم فى مصر من الوفاء بجزء بسيط من التزاماتهم ، حيث ان الجزء الاكبر

---

(83) راجع Shaw, op. cit., p. 403

(84) راجع اوليا جبلى ، سابق ذكره ، ج 10 ، ص 1025 ، وراجع Uzunçarslli, op. cit., pp. 199-203

(85) راجع اوليا جلبى ، سابق ذكره ، ج 10 ، ص 417 .

(86) راجع Shaw, op., cit., p. 335

من الريع ذهب لتسديد دين الديوان . واخيرا اعيد التنظيم العام للادارة العثمانية والمالية فى نهاية شعبان 1206 هـ / ابريل 1792 م فاصلح نظام الجائزة السلطانية ، وهدايا العيد ، والرشوة المطلوبة للباب العالى من المصالح الرسمية على مستوى الامبراطورية فخفضت الالتزامات النقدية ، والغيت تماما التزاماتهم العينية (87) ، وظل هذا الالتزام دون تغيير حتى مجىء الحملة الفرنسية على مصر. وبالاضافة الى تكاليف الجائزة السلطانية ، والمدفوعات الاخرى ، كان على الولاة أن يرسلوا مبالغ نقدية سنويا قدرها ثلاثون الف بارة لرئيس حجرة المؤن الامبراطورية بقصر السلطان ، واربعون الف بارة لرئيس النحاسين بالقصر ، وكلاهما من الضباط المعينين فى الباب العالى ، وعليهما تقع مسؤولية استلام شحنات البواخر المحملة بالالتزامات العينية المرسلة من مصر للباب العالى (88)

وعندما كانت تنتهى مدة الوالى كان (يعمل حسابه) وكلاء عن الباب العالى و (أعضاء الديوان) فى مصر ، فاذا كان قد استوفى دفع كل ما عليه من ديون للديوان، ففى هذه الحالة يمكنه الرحيل دون أن يتعرض له احد من الامراء فى مصر ، وان كان ما زالت عليه التزامات لم يسددها ، يسجن فى احد القصور او البيوت ، الى ان تصادر ممتلكاته وتباع لتحصيل ما عليه من دين ، فاذا بيعت كل ممتلكاته ومع هذا ظلت عليه بعض الديون المستحقة (لارسال الخزينة) او للجائزة ، فلا يمكنه الرحيل الا بعد التوقيع على (حجة شرعية) يعترف فيها بهذه الديون ليقوم بتسديدها من ريعه اللاحق (89) .

(87 راجع Shaw, op. cit., p. 335

(88 راجع Shaw, op. cit., p. 335 Uzunçarsılı, op. cit., p. 460

(89 راجع Fouad M. el-Mawl, The histories of Ottoman in Egypt..., (Athesis presented to the University of St. Andrews in application for the Degree of Doctor of philosophy (Ph. D), June, 1970), pp. 64, 70, 82, 191, 105, 75.
وراجع ابن ابى السرور البكرى ، الروضة الزهية فى ولاة مصر والقاهرة المعزية مخطوط بمكتبة الفاتيكان رقم (7344) ، ص 90 ، 94 ، 98 ، 99 . وراجع أحمد جلبى ، سابق ذكره ، ص 43 ب ، 241 ب ، 242 أ . وراجع الجبرتى ، سابق ذكره، ج 1 ، ص 27 ، 48 ، 55 – 56 ، ج 2 ، ص 192 .
Marcel, op. cit., pp. 201, 210, 216

توضح دراسة الوضع المالى لولاة مصر من خلال الارقام التى امدتنا بها السجلات المالية ، مصرية كانت أو عثمانية ، أن الدخل الذي كان يحصل عليه الولاة من كل أنواع الريع السابق ذكره ، اذا قورنت بأرقام حساب الفائض بعد تأدية المصروفات الرسمية المطلوبة من الوالى ، من الصعب ان يكون (العائد المالى) لهذا المنصب مربحا ، مما ترتب عليه وقوع الولاة — طبقا للارقام الرسمية — فى الدين للباب العالى خصوصا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر (90) ، فهل هذا يعنى أن المنصب كان يضفى على شاغله مركزا اجتماعيا مرموقا ، دون أن يدر عليه دخلا يغطى متطلباته الرسمية ، وأن الولاة كانوا يتطلعون فقط لهذا المركز الاجتماعى حتى لو كلفهم ما يفوق مقدرتهم المالية ؟ . أم أن الولاة كانوا (يكلفون) من قبل السلاطين لشغل هذا المنصب لفترات ، فلا يستطيعون التملص من تأدية هذا (الواجب) المفروض عليهم لفترة محددة . ومن يعلم ربما يشك الدارس فى تلك الارقام فلا يأخذ ما تقدمه له من دلالة مأخذ الجد ، وبالتالى يرفض النتائج التى تترتب عليها . هذه افتراضات ثلاث وبقى افتراض أخير يثير سؤال هو : هل كان هناك دخلا يأتى الولاة من طريق أو مصدر آخر، ولا تظهر لهارقام فى السجلات ، لانه دخلا (غير رسمى) لا يسمح به (القانون) ، كما انه (غير محدد) ، فلا تستطيع السجلات المذكورة أن (تفقط) مقادير ارقامه فى اوراقها الرسمية .

الحق ان واقع الفرد فى المجتمع العثمانى كانت قيمته تتحدد بمركزه الاجتماعى ، ودخله المادي ، من خلال انتمائه لفئة او طبقة أو طائفة . وفى ظل النظام الاداري ذو السمات الاقطاعية العسكرية الخاصة ، ارتبط المركز الاجتماعى بالدخل المادي ، فكان لكل منصب ريع يأتى عن طريق (اقطاعية) او اكثر ، او عن طريق راتب (ساليانه) يدفع سنويا ، ليغطى تكاليف المنصب او الوظيفة ، وفى نفس الوقت يعود جزء من دخله لمنفعة (الخزينة السلطانية) ، ولمنفعة من لهم صلة مباشرة بتلك الوظيفة أو المنصب ؟ فالولاة العثمانيون على مصر كان مركزهم الاجتماعى محددا

---

(90) اوربشو (7 — 336 (Shaw, op. cit., pp. بعد دراسته لارشيف القاهرة واستانبول قائمة بديون ولاة مصر للباب العالى عن سنوات مختارة من 1041 هـ / 1631 — 32 م الى 1208 هـ / 1793 — 94 م ، نراجع الصفحات المذكورة .

سلفا قبل اعتلائهم للولاية ، اذ كانوا من بين فئة الباشات الذين يحملون لقب وزير (91) . ولهذا فالمنصب لم يكن يضفى عليهم مركزا اجتماعيا خاصا بين أفراد تلك الفئة ، فيصبح بالتالى افتراض ان ما كان يغريهم بالتربع (نظريا) على قمة الاجهزة العثمانية لولاية مصر ، كان دافعه لديهم الترفع فى سلم المراكز الاجتماعية ، يصبح افتراضا وتصورا لا يستند الى حقائق تاريخ العثمانيين فى مصر .

فـــاس (يتبـــــع) د. : فؤاد محمد الماوي

---

91) لمزيد من التفاصيل راجع دائرة المعارف الاسلامية المواد التالية : (باشا) و (توغ) و (وزير) و (سنجق) وراجع جب وبوون ، ج 1 ، ص 163 — 4 ، 208 — 9 ، ج 2 ، ص 5 — 16 من الترجمة العربية .

حول رباط

عبد الله بن يس(1)

عصمت دندش

دخل عبد الله بن يسن (1) بلاد صنهاجة في صحبة زعيمها الامير يحيى بن ابراهيم الجدالى ، بعد عودة الاخير من رحلته الحج، ليرشد صنهاجة الى تعاليم الاسلام السليمة ، وكان عبد الله بن يسن من الفقهاء النابهين ، المتاثرين بمبادىء فقهاء المالكية . وقد وصفه ابن ابى رزع بانه كان من اهل الفطنة والدين ، والتقى والورع والعفة والادب والسياسة، مشاركا فى العلوم (2) .

كرس عبد الله بن يسن نفسه لهداية الملثمين الى اصول الاسلام ، وتفقيههم فى امور دينهم ، واخذ يرسم لنفسه النهج الذي يحقق الاهداف التي حالف الامير يحيى بن ابراهيم عليها ، وهى تاليف قلوب الملثمين ،

---

1) هو عبد الله بن يس بن مكول بن علي صاحب دعوة المرابطين ــ ذكر بعض المؤرخين انه ينتسب الى قبيلة جزولة الضاربة فى اقصى المغرب قرب جبال درن ، ولد فى قرية تياماناوت فى طرف صحراء مدينة غانة ، اى فى احواز مدينة أودغشت ــ ويرجع الدكتور حسن محمود نسبته الى قبيلة جدالة التى تضرب قرب منطقة السنغال وتوغل جنوبا حتى منحنى النيجر ، وان من السهل ان يحرف الرواة اسم الجدالى الى الجذالى او الجزولى .
البكرى : المغرب ص 165 ، القاضى عياض : ترتيب المدارك ج 4 ص 180 ، ابن خلدون: العبر ج6 ص 314 ، حسن محمود (د.) قيام دولة المرابطين ص 113 .

2) ابن ابى زرع : روض القرطاس ص 124 .

وجمع شمل القبائل المتنافرة على اسس من الدين الصحيح ، والخلق الكريم حتى لا يكتب لها أن تتفرق ، واستطاع بفضل معرفته اللهجات البربرية ، ومقدرته الخطابية ، وقدرته على التأثير أن يجتذب اليه الطلبة من كل فج ، فكانوا يشدون الرحال اليه ليستمعوا الى دروسه (3) .

ويبدو أن عبد الله بن يسن اخذ الكثير من افكار معلمه الشيخ وجاج ومدرسته كأساس لتعليمه ، فضلا عن أفكاره التى اكتسبها اثناء اقامته القصيرة فى الاندلس ، وقد اضطرته ظروف الصحراء وعادات أهلها البدو الى تعديل هذه الاسس لكى تلائم هذا المجتمع (5) . فكان يتدرج بهم من فهم الاسلام من البسيط الى المعقد ، الى ان نزل الى مستــوى افهامهــم ، ليلقنهم المبادىء الصحيحة للدين ، حتى اذا تمكن من نفوسهم ، واقبلوا عليه بعقولهم ، اخذ يفسر لهم القرآن ، ويروي لهم الحديث (6) ، واستطاع بفضل ذكائه وخبرته أن ينفذ الى قلوب العامة ، فاقبلوا عليه ، وحفظوا فتاويه واجوبته ، وهناك احتمال كبير أن هذه الاحكام سواء كانت شفاهية او مكتوبة ، كانت باللغة البربرية وليست بالعربية (7) .

غير عبد الله بن يسن كثيرا من العادات السيئة التى كانت سائدة فى المنطقة ، فاحيا الروح الدينية ، واقام حدود الاسلام ، وعمل على نشر لواء المساواة بين الناس . وتعرضت دعوة عبد الله بن يسن للمقاومة من اهل الشر والفساد ، وحمل لواء هذه المقاومة احد الفقهاء ، وهو الجوهر ابن سكم مع رجلين من كبرائهم يقال لاحدهم ايار والآخر اينتكوا ، فعزلوه

---

3) الحلــل الموشيـــــة : ص 9

4) وجاج بن زللو اللمطى فقيه المالكية فى السوس الاقصى ، من تلاميذ الشيخ أبو عمــران الفاسى شيخ المذهب المالكى فى القيروان فى ذلك الوقت ، وقد رحل وجاج الى القيروان واخذ العلم عنه ، ثم عاد الى السوس فبنى دارا سماها دار المرابطين لطلبة العلــم وقراء القرآن ، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه .
التادلي : التشوف الى رجال التصوف ص 66

5) Norris, H.T. Newevidence on the Life of Abdellah B Yassin, P. 263

6) الحلل الموشيــة ص 9

7) Norris, H.T, op. cit, P. 299

عن الراي والمشورة ، واستعادوا منه بيت مالهم ، وطردوه وهدموا داره، وانتهبوا ما فيها من أثاث (8) .

اختلف المؤرخون فى تحديد وقت هذه الفتنة ، فالبعض يرى انـــها حدثت أيام الامير يحيى بن ابراهيم الجدالى ، عندما شدد عبد الله بن يسن على الملثمين فى ترك المنكرات (9)

ويشير ابن الاثير الى أن سبب الثورة لم تكن لشدة عبد الله بن يسن فقط ، بل لانه افتى بقتل الامير يحيى بن ابراهيم نفسه (10) . بينما اشار فريق آخر من المؤرخين الى أن هذه الثورة كانت فى عهد الامير يحيى بن عمر اللمتونى ، الذي اختاره عبد الله بن يسن ، خليفة للامير يحيى بن ابراهيم الجدلى بعد وفاته (11) . ومما يرجح هذا الراي أن عبد الله بن يسن نزل اول ما نزل فى جدالة مع زعيمها ، فهو علاوة على أنه رجل الدين الذي يتبرك به الناس فهو ضيف زعيمهم ، وعادة قبائل الصحراء ان يكون الضيف فى حمى ورعاية المضيف ، وعلى ذلك فانه بالرغم من تذمر بعض الناس من قسوة تعاليم عبد الله بن يسن الا انهم كانوا يحسبون حساب زعامة يحيى بن ابراهيم ، وحمايته له ، فلما مات يحيى بـــن ابراهيـــم ، اصبح عبد الله بن يسن بلا سند ، وفقد الحماية التى كان يبسطها عليه زعيم جدالة ، ورئيس الحلف الصنهاجى ، واصبح مكروها خاصة انه اختار يحيى ابن عمر اللمتونى، خلفا ليحيى بن ابراهيم الجدالى ، فقد نقل بذلك الزعامة من جدالة الى لمتونة ، اذ كان عبد الله بن يسن مقتنعا بأن المستقبل لدعوته سيكون مع لمتونة لموقعها الجغـــرافـــى المتـــاز فى موريتانيـــا ادرار ، ولشجاعتهم الحربيـــة ، ولخضوع يحيى ابن عمـــر وعائلتـــه لاوامـــره وتعاليمه (12)

---

8) البكـــرى : المصدر السابق ص ص 165 ، 166

9) ابن ابى زرع : المصدر السابق ص 124 ، جامع تواريخ فاس ص 28 ، الناصـــرى : الاستقصا ج 2 ص 8 ، حسن محمود « د. » المرجع السابق ص 122

10) ابن الاثير : الكامل ج 8 ص 15 .

11) البكرى : المصدر السابق ص 165 ، ابن عذارى : البيان المغرب ج 4 ص 9 ، ابن خلدون : المصدر السابق ص 314 ، القلقشندى : صبح الاعشى ج 5 ص 189
Bovill, E, W,The golden Trade of The Moors, P. 71

12) الحلـــل الموشيـــة ، ص 10 . Norris, H. T, op. cit, P 261

وتختلف الآراء أيضا فى الاتجاه الذي اتخذه عبد الله بن يسن بعد طرده اذ يرى بعض المؤرخين أنه عاد الى استاذه فقيه السوس وجاج (13)

وقيل أنه كتب اليه ولم يتوجه بنفسه ، فاعلم الشيخ بما جرى فى جدالة وبين له امره معهم ، فكتب الشيخ وجاج رسالة الى بعض شيوخ جدالة « يعاتبهم على ما صدر منهم ، وما بلغه من فعل المشفبين عليه ، وهو مقيم بينهم ، وعاتبهم عتبابا شديدا ، لكونهم انقادوا اليه ، ثم انتقدوا ما شيعه عدوه عليه منهم » (14) . ولما وصل الشيخ وجاج جواب رسالته هذه من اشياخ جدالة يعتذرون عن تقصيرهم فى حق عبد الله بن يسن ، امره بالرجوع الى تلك القبائل الصحراوية ، وكتب الى شيوخهم يعلمهم ان من خالف عبد الله بن يسن فقد خالف الجماعة ، وان دمه هدر (15) .

رباطعبد الله بن يسن :

رأى عبد الله بن يسن ان يرحل الى بلاد السودان، ولكن الامير يحيى ابن عمر تمسك به ، واشار عليه بمكان بعيد ، حيث يمكنه اعتزال المشغبين والتعبد فيه ، فوافقه على ذلك الشيخ الفقيه ، خاصة ان هذا الراي وجد صدى فى نفسه الميالة الى حياة الربط وتعوده الحياة فيها (16)، اذ أنه أخذ العلم وتفقه فى الدين فى رباط وجاج بن زللو اللمطى، وقد لعب هذا الرباط دورا هاما فى حياة عبد الله بن يسن ، فرحب بما عرضه عليه الامير يحيى بن عمر مناتخاذ مكان بعيد للعبادة .

اختلف المؤرخون فى تحديد الموضع الذي لجأ اليه ابن يسن واقام فيه رباطه ، فيرى فريق منهم أنه جزيرة فى البحر ، يسهل الخوض فى الماء للوصول اليها اذا كان الجزر ، وتركب اليها الزوارق اذا كان المد ، وبعضهم

---

13) البكرى : المصدر السابق ص 166 ، ابن عذارى : المصدر السابق ص 9
14) ابن عذارى : المصدر السابق ، نفس الصفحة
15) البكرى : المصدر السابق ، نفس الصفحة ، ابن عذارى : نفس الصفحة .
16) ابن ابى زرع : المصدر السابق ص 124 ، الناصرى : المرجع السابق ص 8 .

يذكر كلمة البحر الغربـــى (المحيط الاطلنطى) والبعض الآخر يذكر كلمـــة ((البحر)) فقط ، كما يذكرون ان الامير يحيى بن عمر اللمتونـــى هو الذي اشار على ابن يسن بمكان هذه الجزيرة (17) .

وليس من المعقول ان الامير يحيـــى بن عمر ، وهو من قبيلة لمتونة يختار جزيرة فى البحر المحيط فى مضارب قبيلة جدالة التى كانت تشغل المنطقة المطلة على ساحل المحيط ، فضلا عن أنها هى آلتى قامت بالثورة على ابن يسن وحاولت الفتك به .

ويرى الدكتور حسين مؤنس ان رباط ابن يسن كان على حدود الصحراء فيما يلى تارودانت الى الجنوب (18) . معتمدآ علىما ذكره كل من البكرى ، وصاحب الاستبصار ، من انه يوجد على مصب وادي ماسة رباط مشهور ومقصود (19) .

الا اننا نستبعد هذا الراي ، لانه يتنافى مع ما ذكره المؤرخون من ان عبد الله بن يسن اتجـــه الى السودان ولم يذهب الى الشمال ، كما ان البكري وهو معاصر للفترة الاولى من عصر المرابطين لا يمكن ان تفوته الاشارة الى رباط ماسة على انه رباط ابن يسن .

بينما اشار نورس Norris الى ان رباط ابن يسن ربما يكون فى ارتننى واقترح مكانا لهذه المدينة بين مدينة تشيت ومدينة والاتا فى منخفض حيث يوجد الماء ، وتنمو الادغال، ولكن عاد واستبعد هذا الراي على اساس ان ارتننى هى المدينة التى انشاها عبد الله بن يسن اول نزوله فى ارض جدالة ، وعلى هذا عاد واشار الى انها ربما تكون مكان متحرك فى الصحراء، وانفصلت الى جزيرة ساحلية (20).

---

17) ابن ابى زرع : المصدر السابق ص 124 ، ابن الخطيب : القسم الثالث من اعمـــال الاعـــلام ص 277 ، الناصرى : المصدر السابق ص 8

De La chapelle, Moors " Ency of Islam" Vo, .13 P 501

18) حسين مؤنس (د.) مقدمة رياض النفوس ص 26 م

19) البكرى : المصدر السابق ، صاحب الاستبصار ص 212

20) Norris, H. T, op. cit, P.258

واشار ابن خلدون الى موضع الرباط على ربوة يحيط بها النيل من جهلتها (ضحضاحا فى الصيف ، وغمرا فى الشتاء ، فتعود جزرا متقطعة » (21) .

وفسر فريق من المؤرخين ما قصده ابن خلدون من « النيل » انه نهر السنغال ، وأن هذه الربوة او الجزيرة فى مصب السينغال الادنى (22).
وعزز الدكتور حسن محمود هذا الرأي على أساس ان الرباط لا يبنى عادة الا فى المناطق التى تتعرض للغزو ، ويتطلب حشد القوى للجهاد ، ولذلك لا يوجد ثمة خطر يتهددهم من البحر ، بينما ممالك الزنوج الواقعة فى جنوب السنغال هى التى كانت تهددهم ، فاختار مصب السنغال مكانا لمرابطته من اجل الجهاد ونشر الاسلام ، والحيلولة بينهم ، وبين الاغارة على مضارب الملثمين ، كما ان الحياة فى الجزيرة الواقعة فى المحيط والتى اشار اليها بعض المؤرخين تكاد تكون شاقة لقلة موارد الماء ، وضيق رقعتها فلا يمكنها استيعاب اعداد المرابطين التى تضخمت ، وبلغت اكثر من الف مرابط ، بينما الحياة فى الجزر الواقعة فى مصب السنغال ميسرة ، لوفرة المياه والنبات ، علاوة على ان الاطراف الجنوبية لديار جدالة كانت تمتد حتى تدرك حوض السنغال ، وبذلك يكون ظهر العصبة المرابطة فى حماية هذه القبيلة اذا ما فكر الزنوج فى مهاجمتها (23).

ولكن عندما خرج عبد الله بن يسن ، واختار موضع رباطه ، لم يزد صحبه عن تسعة اشخاص ، فكيف له ان يجازف وهو فى هذا العدد الصغير وان يقيم فى حوض السنغال الذي كانت تسيطر عليه ممالك السودان ، وقبيلة جدالة الثائرة عليه ؟ كما أن عبد الله بن يسن عندما فكر فى العزلة ، وانشاء الرباط لم يكن فى ذهنه فى ذلك الوقت فكرة الحرب ، أو أن عدد مريديه سوف يتكاثر حتى يبلغ الالف مرابط ، بدليل انه لم يفكر فى الخروج

---

21) ابن خلدون : المصدر السابق ص 374
G.lvin, Lucien, Notre sur le Mot Ribat, P. 95

22) حسن محمود (د.) المرجع السابق ص 126
De La fossé, M, Senegal, " Ency of Islam " Vol. IV, P. 225
Cornevin, Robert, Histoire de l'Afrique, P. III

23) حسن محمود (د.) المرجع السابق ص 126

بدعوته من الرباط الا بعد ان كثر مريدوه وتأكد من طاعتهم له ، وحسن اسلامهم . فكان كل همه فى أول الامر ، هو اختيار مكان يتعبد فيه هو وصحبه ، ويرجح محمد عبد الله عنان ان رباط ابن يسن فى جزيرة فى منحنى نهر النيجر على مقربة من تمبكت (34) .

وارى ان الآراء التي رجحت ان المقصود بـ « النيل » ربما يكون السنغال أو نهر النيجر بعيدة عما قصده ابن خلدون ، اذ انه ذكر أن هذا النيل « ضحضاحا فى الصيف ، وغمرا فى الشتاء » (25) . وهذا لا يتفق مع مائية نهري السنغال والنيجر ، اذ ان هذه الانهار تفيض فى الصيف .

ولذا فانه من الارجح ان رباط عبد الله بن يسن ، كان فى أحد الاودية على حافة الصحراء الجنوبية من مضارب لمتونة ، اذ المعروف ان هذه الاودية تغمرها المياه شتاء ، وينتشر بها الجفاف صيفا ، وهو ما يتفق مع ابن خلدون « ضحضاحا فى الصيف وغمرا فى الشتاء » وان كان من الصعب تحديد أي هذه الاودية أقيم به رباط بن يسن .

الحياة فى رباط ابن يسن

كان المؤسسون للرباط تسعة أشخاص عاشرهم عبد الله بن يسن، اثنان من لمتونة هما الامير يحيى بن عمر ، وأخوه أبو بكر بن عمر (26) ، وسبعة من جدالة (27) . وقد احتذى عبد الله بن يسن حين بنى رباطه حذو ربط المغرب وافريقية فى طريقة بناء الرباط ، وفى نمط الحياة فيه .

وضع عبد الله بن يسن نظاما خاصا للقبول فى رباطه ، ووضع قواعد تطبق داخل الرباط ، يسير عليها الجميع ، فكان القبول معلقا على امتحان، وفترة مراقبة للتاكد من استعداد الراغب فى الانخراط فى سلك الرباط لقبول نظامه ، فاذا توفر له الاستعداد قبل عضوا فى الرباط ، فيسلم اسلاما

---

24) محمد عبد الله عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ص 302
25) ابن خلدون : المصدر السابق ص 274
26) ابن خلدون : نفس المصدر ـ نفس الصفحة
27) ابن أبى زرع : المصدر السابق ص 125 ، ابن الخطيب : المصدر السابق ص 227 .

جديدا ، وتقام عليه حدود الذنوب التى ارتكبها قبل دخول الرباط (28) ، لتحريره من فكرة الذنب .

واعتمد رجال الرباط على انفسهم فى الحصول على كل ما يحتاجونه، عن طريق صيد ما يحتاجون اليه من البر ، والبحر ، كما كانوا يعدون طعامهم بانفسهم ، مع الاكتفاء فى الطعام بأقل القليل ، وبالخشن من الثياب، فقد كانت حياتهم بسيطة متواضعة خشنة ، فهم لا يبتغون غير الدار الآخرة.

اما العبادة فقد كانت مقصورة على صلاة الجماعــة فى الصلوات الخمس ، وعلى صلاة القضاء الاجبارية ، لتحرير النفــوس من فكــرة التقصير ، وقد وضعت للرباط عقوبات على مخالفة ذلك ، فمن فاتته ركعة ضرب خمسا ، ومن تخلف ضرب عشرين ، وكان الخشــوع الصامــت الزاميا ، فمن رفع صوته فى المسجد ضرب على قدر ما يراه الضارب لــه صلاحا (30) .

وكان عبد الله بن يسن هو الذي « يعلمهم الكتاب والسنة ، والوضوء والصلاة ، والزكاة ، وما فرض الله عليهم من ذلك (31) .

ويبدو ان عبد الله بن يسن كان يعلمهم ذلك باللغة البربرية (32)، ومن الطبيعى ان يكون تصريف شئون الرباط طبقا لاحكام المذهب المالكى الذي كان يتبعه عبد الله بن يسن .

ولم تمض غير ثلاثة اشهر ، حتى تسامع الناس بأخبار ابن يسن ، واخبار أهل الرباط ، فتوافدوا عليه ، فاخذ ابن يسن يقرئهم القرآن ،

---

28) كان يضرب حد الزانى مائة سوط ، وحد المفترى ثمانين سوطا ، وحد الشارب مثلها ، وربما زيد على ذلك
البكرى : المصدر السابق ص 169

29) حسن محمود : المرجع السابق ص 143 ، محمد عبد الهادى شعيرة (د.) المرابطون تاريخهم السياســـى ص 37

30) البكرى : المصدر السابق ص 169 ، محمد عبد الهادى شعيرة : المرجع السابـق ص ص 37 ، 38

31) القاضي عياض : المصدر السابق ص 781 ـ ابن أبي زرع : المصدر السابق ص 125

32) Norris, H.T, op. cit, P. 264

ويفقههم فى الدين ، ويرغبهم فى ثواب الله تعالى ، حتى تمكن حبه من قلوبهم (33) .

كذلك ارسل عبد الله بن يسن البعوث الى القبائل ، لترغيب الناس فى مذهب اهل الرباط ، حتى اجتمع له من تلاميذه ، نحو الف رجل من أشراف صنهاجة (34) .

فلما كثر مريدوه على هذا النحو ، راى ابن يسن ان يخرج بدعوته الى خارج الرباط ، فبعد ان أعد انصاره ، اعدادا خاصا وتأكد من استعدادهم لحمل مسئولية الجهاد ، امرهم بجهاد من خالفهم من قبائلهم ، ودعوة هذه القبائل للاسلام .

ذهب هؤلاء الدعاة المجاهدين كل الى اهله وعشيرته ، يعظهم وينذرهم ، فلما لم ينتهوا عما هم فيه من ضلال ، خرج عبد الله بن يسن على راسهم مجاهدا ، وبدا بقبيلة جدالة عام 434 هـ (1042 م) (35) فغزاهم فى ثلاثة آلاف رجل من المجاهدين وهزمهم ، وقتل منهم عددا كبيرا واسلم الباقون اسلاما جديدا ، وادوا جميع فروض الله عليهم .

كان لهذا النصر صدى كبيرا بين القبائل فى الصحراء ، فسارعت بقية لمتونة الى الدخول فى الدعوة الجديدة ، كما سارعت قبائل مسوفة ولمطة الى الانضمام للنظام الجديد . فقد تجاوز الامر حدود الشخصية القبلية ، واصبح دعوة دينية ، ونداء الى عوة الحق ، والى نظام سياسى يقوم به الدين على نمط غير الانماط القبلية ، وبذلك انطلقت من هذا الرباط دعوة المرابطين لتكون فيما بعد دولة اسلامية قوية ، توحد ما بين المغرب والاندلس .

فــــاس عصمت عبد اللطيف دندش

---

33) ابن ابي زرع ، المصدر السابق 125 .

34) Trimingham, J. S, A History of Islam in West Africa, P. 23

35) ذكر ابن ابى زرع (ص 125) انها وقعت عام 434 هـ واتفق معه ترمنجهام فى كتابه A History of Islam in West Africa, P 24
بينما يذكر ابن الخطيب (ص 228) انها عام 446 هـ (1054 م) .

المصادر والمراجع العربية

1 ــ ابن الاثير « ابى الحسن على بن ابى الــكــرم عبد الــواحد الشيبانى يـ ت 630ــ1232 م الكامل فى التاريخ

ط. بولاق ، مصر 1303 هـ

2 ــ ابن الخطيب « ابو عبد الله محمد بن سعيد الخطيب » الملقب بلسان الدين 766 هـ ــ 1314 م

أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام

تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب ، بالرمو 1910

3 ــ ابن خلدون « عبد الرحمن بن خلدون المغربى ــ ت 808 ــ 1405 م ».

العبر وديوان المبتدا والخبر ــ بيروت 1956

4 ــ ابن ابى زرع « ابو الحسن على بن عبد الله ت 726 ــ 1325 م.
الانيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ــ الرباط 1973

5 ــ ابن عذارى المراكشــــى « ابو العباس احمد »
البيان المغرب فى اخبار الاندلس والمغرب ص 4.
نشر الدكتور احسان عباس ــ بيروت 1967 .

6 ــ البكرى « ابو عبد الله بن عبد العزيز البكري ت 487 هـ ــ 1094 م

المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمــغرب

مكتبة المثنى ــ بغداد 1966 .

7 ــ التادلى « ابو يعقوب يوسف بن عبد الرحمن الزيات ــ ت 627 هـ ــ 1229 م »
التشوف الى رجال التصوف
الــربــاط 1958

8 ــ القاضى عياض « ابو الفضل عياض بن موسى بــن عياض اليحصبى السبتى ت 544 هـ ــ 1149 م »
ترتيب المدارك وتقريب المسالك فى معرفة اعلام مذهب مالك
تحقيق د. احمد بكير محمود ، بيروت 1967

9 ــ القلقشندي « ابو العباس أحمد بــن على ت 821 هـ ــ 1418 م »
صبح الاعشــى فى صناعــة الانشا
القاهــرة 1963

10 ــ المالكى « ابو عبد الله بن أبى عبد الله ــ القرن الخامس الهجري ــ 11 م ».
رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية
نشره وعلق عليه الدكتور حسين مؤنس ــ القاهرة 1951

11 ــ مجهول (مؤلف مراكشن من كتاب القرن السادس الهجري 12 م ».
الاستبصار فى عجائب الامصار

12 ــ مجهول « انتهى من كتابته فى 872 هـ ــ 1467 م ».
الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية .
تونس 1913 .

13 ــ الناصري « ابو العباس الناصري السلاوي ت 1315 هـ ــ 1897 م »

الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصـــى
نشر ولدي المؤلف جعفر ومحمد الناصري ـ الدار البيضاء 1954
14 ـ حسن احمد محمود (دكتور)
قيام دولة المرابطين ـ القاهرة 1957
15 ـ محمد عبد الله عغنان :
دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى
16 ـ محمد عغبد الهادي شعيرة (دكتور)
المرابطون ، تاريخهم اتسياســـى 430 : 539 هـ ـ القاهرة 1969

المراجـــع الاجنبيـــة

1 Bovill, E. W.,
The Golden Trade of the Moors, Oxford Univ. Press, London, 1960.

2 Cornevin, Robert,
Histoire de l'Afrique des Origines à nos jours, Paris, 1956.

3 De La Chapelle, F.,
Moors, « Ency, of Islam », Vol. III, 1970.

4 Delafossé, M.
Senegal, « Ency. of Islam », Vol. IV, 1970.

5 Solvin, Lucien,
Note sur le Mot Ribat, « Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée », Numéro 6, 1er et2e Semestres, 1969.

6 Norris, H. T.,
New evidence on the life of Abdalla b. Yassin and the Origins of the Almoravid Movement, « The Journal of African History, xII, 27 Great Britaine, 1971.

7 Trimingham, J. S.,
Islam in West Africa, Oxford Univ. London, 1959.

I.D.

المرابطون بالأندلس
من خلال ديوان الأعمى التطيلي

حسن الطريبق

تمهيـــــد :

لا شك ان الباحث فى فترة حكم المرابطين بالاندلس ، يشعر بالحيرة وبالتردد ان هو حاول الاهتداء فى استخلاص آرائه واستنتاجاته ، بهـذه الآراء والاحكام التى يطلقها بعض المؤرخين القدامى وبعض المستشرقين والدارسين الشرقيين بهذا الشأن ، حيث يذهب الكثير منهم الى رمـــى المرابطين باتهامات مختلفة تنقص من كمالاتهم الذاتية والموضوعيـــة ، وتصورهم وكأنهم جفاة بداة لا ينزعون الى الحضارة والفكر ، ولا يستهويهم الشعر والادب . وتزداد الحيرة والتردد عندما تتعدد لديه الاطروحـــات والنظريات والتوصيفات التى يوغل بعضها فى البعد الزمنى ويقف عنــــد عصر المرابطين بالذات ، أو عند عصر خصومهم من موحدين وغيرهم ، مع ما يتمخض عن ذلك من اختلاف وتضاد وتفاوت فى الآراء والاحكام ، وبهذا يستغلق عقل الباحث ويصبح موزع الحضور بينها ، لا يدري الراي الذي ينبغى أن يستأنس به منها ، ويجد نفسه غير قادر على التسليم النهائـــى بوجاهة رأي من الآراء، سواء تلك التى جاء بها ((الشقدي)) او ((المراكشي))

((وابن القطان)) ، وابن الكردبوس)) ، و ((المقري)) و ((ابن بسام))، او تلك التى تنافس فى طرحها المستشرقون ((دوزي) ، (وايميليو غرسيا غوميس)) ((وليفى بروفنسال))، ((وفرنسيسكو كوديرا)). و (خوليان رفبيرا)، ومن اليهم من مشايعين وغير مشايعين ، من الدارسين الشرقيين .

أمام هذه الحالة لا يجد الباحث بدا من التساؤل :

— ما الذي يجب ان افعله حتى أخرج بنتيجة ايجابية تكون أكثر التصاقا بالواقع المرابطى فى كل مظاهره وعناصره وألوانه ؟ ويتوصل الى ان اجدى سبيل لديه ، هى ان يعود الى النصوص الشعرية والنثرية التى ولدت فى ذلك العصر ليفحصها فحصا طويلا متأنيا رصينا يستهدف استقراءها واستنطاقها للكشف عن الخلفيات النفسية والاجتماعية والسياسية والتاريخية والحضارية لتلك الفترة، على اعتبار ان تلك النصوص تجسد بحق ، اكبر شاهد على عصرها يقع الاهتداء به الى معرفة الحقيقة أو الطريق الى معرفتها على الاقل ، وان النصوص كثيرة وأسماء أصحابها كثيرة لم تعد محجبة بين المعميات بعد أن اكتشفت مع آثارها ونصوصها ، ويكفى أن نفحص ما حقق للاعمى التطيلى ، وابن خفاجة ، وابن حمديس ، وابن بقى ، وابن الزقاق ، وابن وهبون ، او ما تناثر من اشعار ابن سوار وابن غسال ، وابن البنى وأبى القاسم بن الجد المعروف بالاحدب، أو ما عرف من نثر وشعر ابن أبى الخصال ، وابن عبدون وابن القصيرة ، وابن صارة الخ ، وبهذا لا ينفلت القيد من اليد ولا يبقى السطح خاضعا للتخلخل والارتجاج ، مما يؤدي بالتأكيد ، الى تغيرات جيولوجية من نوع آخر تتأذى بها الحقائق والاصول وتتشوه بها الملامح الفكرية والحضارية .

الاسلوب العلمى ، يقتضى اعتماد النصوص فى مثل هذه الحالات قبل غيرها ، لماذا ؟ لان هناك عوامل عديدة كانت قد تداخلت فى موضوع المرابطين بالاندلس ولونت وجودهم بكثير من الالوان المختلفة ، فكان هناك عامل الدس والعداء السياسى والدينى ، والجنسى ، والفكري ، والشخصى

او الاحساس بمخزاة المفاضلة الاعتباطية او الاحساس بالتفوق وبالاستاذية والوصاية ، مما تنتج عنه اجتهادات شخصية مغموزة او خاطئة ، او جاهلة بالتاريخ وبالواقع ، وهذا ما يمكن ادراكه من التوقف لدى بعض الجزئيات التى ركز عليها بعض الدارسين الذين يبتسرون الاحكام ابتسارا عجيبا ومثيرا ، فهذا دارس شرقى مثلا ، نجده يتبنى ، بالتسليم والاقتناع المتحمس ما اثبته الشقدي فى رسالته عن يوسف بن تاشفين والشعراء ، ويضيف الى ذلك ما يضيف ...

فهل يمكن التسليم بانه ((لما استولى البربر على الاندلس على عهد ابن تاشفين ، كان لابد للشعر أن ينتكس بصورة أو بأخرى ، حتى يسهل فهمه على هذا الفريق من العوام)) (1) ؟ وهل يمكن التسليم بتلك المفارقة العجيبة التى نجدها فى تلك الحكاية التى تقول ان ملك ملوك الشعر المعتمد ابن عباد كان قد دعا الشعراء ليمدحوا يوسف ، فلما انتهوا من الانشاد ، قال المعتمد لابن تاشفين ؟. ايعلم أمير المسلمين ما قالوه ؟ قال لا أعلم ، ولكنهم يطلبون الخبز ، ولما انصرف الى حاضرة ملكه ، كتب له المعتمد رسالة تضمنت بيتين من نونية ابن زيدون هما :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنـــا
شوقـــا اليكم ولا جفت مآقينـــا

حالت لفقـــدكمـــو ايامنا فغـــدت
ســـودا وكانت بكم بيضا ليالينا

فلما قرىء البيتان على ابن تاشفين قال للقارىء ، يطلب منا جواري سودا وبيضا ، فاجابه القاريء لا يا مولانا ما اراد الا ان ليله كان بقرب امير المسلمين نهارا ، لان ليالى السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليـــلا ، لان ليالى الحزن ليال سود ، فقال : والله جيد ، اكتب له فى جوابه : ان دموعنا تجرى عليه ، ورؤوسنا توجعنا من بعده)) (2) ؟

كيف يمكن ان نتصور امكانية آقدام المعتمد على استفســـار ابـــن تاشفين بهذه الصيغة الجافة وأمام الشعراء ورجال الدولة ؟ ان ابن تاشفين

كان فى مركز القوة والهيبة بحيث يمكن أن يغضى حياء من مهابته ، ثم إنه جاء الى الاندلس بعد استجارة واستنجاد ، أما المعتمد ، فقد كان فى مركز الضعف ، وهذا ما كان يحتم عليه أن يصطنع أسلوبا لينا يكون فى مستوى مركزه ، ثم ان مقتضيات الضيافة تدعو الى التلطف والاحترام . والحكاية السابقة ، خالية تماما من مراعاة أي شيء من هذا ، بالاضافة الى انها تحمل مفارقة وتناقضا ، فـ (يوسف) يقر بأنه لا يعلم الشعر فى جوابه يبادر المعتمد بكتابة رسالة اليه متضمنة بيتين رقيقين لابن زيدون .. فكيف اذن يمكن ان نوفق بين الضدين ؟ وهنا لا ينبغى أن يفهم اننا نريد أن نضع يوسف فى مكان ثقافى ممتاز ، بل فقط ، نود الكشف عما تنطوي عليه الحكاية من تحامل ولمز ، والا فبالامكان أن يكون أمير المسلمين على مستوى ثقافى لا يهيئه لفهم الشعر وادراكه ، نعم ، كان هناك ضمور قد اصاب الشعر الاندلسى فى بداية عصر المرابطين بالاندلس ، وهذا شيء طبيعى ، لان الانتقال من عصر الى عصر آخر ، لابد ان يصاحبه فتور وتقلص ، ومن غير الصواب ان نرد المسؤولية فى ذلك على المرابطين وحدهم بل ان المسؤولية الاولى تقع على ملوك الطوائف الذين — وان ظهر أن الشعر قد ازدهر فى أيامهم ازدهارا مدهشا — وضعوا اصبع الديناميت تحت الارجل وفجروا الحياة السياسية وتسببوا فى تشتيت الشمل وفى احداث هزة فى المجتمع الاندلسى كانت ستفضى ، ليس الى اسكات الشعر والشعراء ، فيما بعد ، فحسب ، بل الى القضاء على دولة الاندلس ، فهم الذين اتزروا بالوزر الكبير ، ومنسوء حظ المرابطين انهم ظهروا فى الاندلس فى الوقت الذي فاضت فيه الكأس ، بل الكؤوس ، فحصل عندئذ ان وقع ربط ظاهرة الضمور بهم وبعصرهم

كان قدوم المرابطين ينذر ببداية عصر جديد فى مفاهيمه واتجاهه وسياسته ، وكانت حالة التردي التى وصلت اليها الاندلس تفرض عليهم التطرف فى سلوكهم والصرامة فى سياستهم ، فهم مجاهدون جاؤوا لينافحوا عن الاسلام ويردوا الظلامة عن المسلمين ، فلم يكونوا من شاكلة أولئك الملوك الذين يغتالون القيم الدينية والانسانية بايثارهم المستمر للمجون والمروق وباغترافهم المتواصل من مهل الذنوب والآثام ليس فيما يتعلق بمسؤوليتهم الدينية ازاء انفسهم ، ولكن فيما يتعلق بمستقبل الاسلام

والمسلمين فى هذه العدوة الغالية ، لذلك لا نجد أي غرابة أو تحرج عندما نسمع الاعمى التطيلى الذي كان يناصب الاتجاه الفقهى بعض العداء يقول :

أيا رحمتا للشعر اقوت ربوعـــه
على أنها للمكرمـات مناســك

وللشعراء اليوم ثلت عروشهـــم
فلا الفكر مختال ولا العـز تامـك

اذا ابتدر الناس الحظوظ واشرقت
مطالب قوم وهى سود حوالـك

رايتهم لـو كان عندك مدفـــع
كما كسدت خلف الرئال الترائـك

فيا دولة الضيم اجملى أو تجاملى
فقد أصبحت تلك العرى والعرائك

ويا (قام زيد) أعرضى أو تعارضى
فقد حال من دون المنى (قال مالك)

نعم ، لقد اقوت ديار الشعر الذي كان يتردد مصورا للنزوات والخطـــرات وافتعال المواقف والمدائح للكسب من خلالها كسبا مغريا مشجعا علىالتساق للمدح والتبريك ، وجاء دور آخر ، دور حاسم أعطيت الاسبقية فيه للجهاد ، وللعلوم الدينية والفقهية على اعتبار انها موازية للجهاد ملازمة له، لانهاعامل تحريض فعال ينفذ الى الدواخل ويؤرث فيها حرارة الايمان ، فيفزع الجميع الى الساحة ، ويصدق عليه قول القائل :

لا ييأسون من الدنيا اذا قتلـــوا
يستعذبون الردى حتى كانهمـــو

انهم اذن نهجوا نهجا جديدا كان له مردوده المفيد فى صياغة متغيرات اخرى كانت الحاجة الماسة تدعو اليها ، ويمكن اجمال طبيعة هذا العصر، واستنادا الى ديوان التطيلى ، فى عدة خصائص هى :

1 ــ الجهاد .. وقد اصبح خصيصة متفردة عند المرابطين ، لانهم عملوا على مضاعفة الضغط الاسلامى لمواجهة شراسة المسيحية التـــى كان يمثل راس حربتها ((الاذفونش)) ملك قشتالة .

2 ـ سيادة الفقهاء ، وغلبة تيارهم الفقهى الدينى على التيار الشعري والادبى بل وتألق بعض الفقهاء والقضاة والاسر مثل اسرة (بنى عشرة) (وآل حمدين) ولكن ، هل استرسل عهد المرابطين على هذه الصورة فيما بعد موت ابن تاشفين ؟ نعم ، استرسل عليها ، ولكنه اضاف اليها خصائص أخرى ساعدت على خلق موازنة عادلة بين التيار الفقهى والدينى، وبين التيار الشعري والادبى فحصل أن ازدهر الادب وعادت سوقه رائجة ، وظهرت أغراض شعرية جديدة فى بعديها التعبيري والفكري ، وهكذا ظهرت الموشحات ، والزجل ، وظهر شعر الطبيعة فى صورة تكاد تكون عديمة المثال على يد ابن خفاجة ... ويكفى أن نستعرض أسماء الشعراء والادباء الذين نبهوا فى كنف المرابطين أو يكفى أن نستعرض بعضهم من أمثال الاعمى التطيلى ، وابن خفاجة ، وابن بقى ، وابن قزمان، وابن أبى الخصال ، وابن صارة ، وابن القصيرة ، وابن عبدون ، وابن سوار ، وعبد الجبار ، وابن حمديس ، وابن وهبون ، وابن الجد الخ .. ومن الاغراض الجديدة التي يمكن اعتبارها ذات تفرد واقتصار على هذا العصر، مكانة المرأة وما كان لها من جلال ما صوره التطيلى فى ديوانه، لانه ديوان دسم ، ثر المعين ، سيساعد على تشخيص الصورة أو جانب من الصورة الحقيقية للعصر فى شتى المظاهر والاشكال .

— 2 —

فمن هو هذا الشاعر ؟ هو ابو جعفر أحمد بن عبد الله بن أبى هريرة ينتسب الى قبيلة قيس ، واصله من تطيلة ، حاضرة صغيرة تقوم على نهر ((كالش)) وتقع بجانب وشقة قرب سرقسطة فنشأ هناك ثم انتقل الى اشبيلية حيث اتخذها مسكنا ، وقد ذهب بعض المؤرخين الى أن نسبه لطليطلة (3) ، وكان أعمى ، فغلب عليه لقب الاعمى ، وكان يستعين فى تنقلاته بشخص يعرف بأبى القاسم ويلقب بـ عصا الضرير)) لانه كان مشهورا بكونه يقوم بأعباء الضرائر المستقلين .. هذا ، ولا يعرف تاريخ ولادته بالضبط ، وقد رجح الدكتور احسان عباس فى تحقيقه لديوانه أنه قد يكون قريبا من 485 هـ . والاجماع حاصل على انه مات فى ميعة شبابه سنة 520 هـ .

فالاعمى التطيلى ، كما نرى ، نشأ فى بقعة يرفدها الشعر من كل جانب وكانت تموج بالشعر والشعراء والادباء ، فاشبيلية من عواصم الشعر والادب ، فلا عجب اذا وجدنا شاعرنا يستقى عناصر شاعريته من اصولها ، ولا يهم بعد ذلك ان نرى هذه السوداوية التى تصطبغ بها كثير من قصائده ، لان الاهم ، هو المصدر الذي اخذ منه عناصر تكوينه وأهله ليمتلك ناصية القريض .

حقيقة انه كان شديد التبرم بنفسه وبالناس وبموطنه وبمسكنه ، وكان لا يفتر عن التظلم والبكاء واجترار شعوره بالتمزق والضياع ، حتى كانه مرجل يغلى بالتوتر والشجن ، وان اقل ما تنطوي عليه جوانحه ، يؤدي ثقله الى تصدع جبل (رضوى) :

وبين ضلوعى ما لوان أقلــــــه   بأكناف رضوى أوشكت تتصــدع

هل كان لعاهته دخل فى تكثيف ضباب حياته ؟ وهل كان يعتبرها لعنة تلاحقه وتضغط عليه بقسوة ؟ وهل لها تأثير بالغ فى تكوين شخصيته وفى أصباغها بالنقمة والسخط والتشاؤم ؟

يظهر لى أنه كان يقاسى من عاهته كثيرا ، وان لم يلمح الى ذلــك الا قليلا ، كما فىقوله :

ولى مقلة افضت بها لحظاتهـــا   الى عبرات جمة وكــرى نـــزر
وكان حراما أن تجود بدمعـــــة   وقد تركتها الحادثات بلا شفــر

الشـــاعــر كان ينطوي على حزن عميق الشجن ، تصطفق اجنحته السوداء بين حنايا صدره باستمرار والى الحد الذي اصبح معه ليـــس عارفا للحزن فحسب ، وانما مستشعرا وحاملا ، ومن هنا ينبغى ان نفهم الفرق بين معرفة الحزن وبين الاحساس به ، والتطيلى الذي يجمع بــين الامرين ، ويستجمع خيوطهما من عاهته ، لم يكن بحاجة ليردد فقدان النظر،

كل مرة ، على نفس النغمة ، بل كان يوحى ، ويلمح ، بما يجسد ماساته وقوة حزنه بهذه الافة ومن جملة ما يصور ما قلته ، هذا البيت :

الهو بمسك شذاها لا احاول مـــا وراء ذاك ، ولو حاولت لم اطــق

ان ، البيت ، كما نرى ، يحمل معنى بديعا عميق الاسى والحـــزن ويكاد يبوح بالعجز ، وهو يذكرنا بقول بشار فى معنى آخر يوازي هــذا المعنى ، بالنظر الى التوحد فى العاهة ، رغم الفرق الذي سنلحظه بـــين المعنييـــن طبعا :

اميمة قـــد وصفــت لنـــا بحسن فانـــا لا نـــراك فالمسينـــــا

وهكذا تكون حالة ضياعه فى شعره ، ناشئة عن امر يرتبط بعاهته وبتكوينه الشخصى والشيكولوجى كما سنوضح ذلك فيما بعد .

— 3 —

قلنا ان ادراك الحقيقة التاريخية والاجتماعية والنفسية والحضارية والسياسية للمرابطين فى الاندلس ، لا يمكن تشخيصها او تشخيص جانب منها ، الا باستقراء النصوص التى قيلت فى اثناء ذلك العصر ، وقلنا ايضا، اننا سنحاول الكشف عن ذلك من خلال ديوان الاعمى التطيلى ، والان . فما الذي يمكن ان نستخرجه من شعره بهذا الخصوص ؟ وما الذي سنبدا به ؟ سنستخرج عدة اشياء طبعا ، وسنبدا ببعض المظاهر الاساسيـــة للمرابطين ، وهذا سليزمنا بمراعاة التسلسل المنطقى لهذه المظاهر حتى يتسنى ابراز كل خصيصة على حدة ، من غير ان نتتبع تنظيم القصائـــد وترتيبها فى الديوان ، ما دام اليقين حاصلا بان هذا الترتيب لا يخضع ولا يصور اي تسلسل زمنى حقيقى لولادة قصائد الشاعر ، لهذا سنبدا بالبحث عن الخصيصة الاولى التى هى الجهاد ، والمجادلة فى الذود عن حياض الاندلس ، فكيف كان جهاد هذه الدولة ؟

اذا اخذنا القصيدة التى مدح بها التطيلى على بن يوسف بن تاشفين والتى يستهلها بقوله :

بين سمـر القـا وبيض النصال   طـرق المهتديـن والضـلال

سنجد صفة المرابطين التى تجمع بين الشجاعة والامانة واقتحام غمرات الاوجال والاجال بين حنايا السيوف حيث يستقر بذلك نظام الملك ويتعفى الضلال ويزول صفة المرابطين ، انهم سيوف الابطال تنطق بما فعلت فى الهامات والذوائب ، فتصدأ صفحات السيوف من دم القتلى الكثيرين وهى ما زالت فى أول عهدها بالصقل والمسح ، فمتونها تحمل أكرع النمل من الحدة والمضاء ، أما حدودها ، فتحمل قلوب الرجال ..

فالى الامن والامانـة أوفـى   غمـرات الاوجـال والآجـال

ومـع السعـد والسعادة أو بـيـن حنايـا السيوف والاغلال

أصبح الملك فى ضمـان علـى   آمـن السرب ، ضافى السربـال

فى ظلال القا وقد زالـت الهضـ   ـب بمـا فوقهـا زوال الضـلال

وسيوف الابطال ترعـد ممـا   فعلت فى جماجـم الابطـال

وهكذا يسترسل الشاعر فى انتزاع لقطاته الشعرية من خلال طبيعة هؤلاء الكماة ، فيذكر لنا أن كل كمى منهم يخلع السيف من غمده ليجعلـه يرتدي الاشلاء والاوصـال :

يخلع الغمد والحمائـل معتـا   ضا بلبس الاشلاء والاوصـال

صدئت صفحتاه من مهج القتـ   ـل على قرب عهده بالصقـال

علقت فوق متنه اكـرع النمـ   ـل وفى حـده قلوب الـرجال

هم مجاهدون اذن ، وجهادهم حقيقى ، يقوم على تقوى من اللـه وايمان وممارسة ، ويقوم على تبتل وعبادة يصبحون بها اطلاح سهر وانضاء

تهجد وصلاة ، وفى ذات الوقت ، يكون هزالهم هذا ، قائما على اســـاس المواجهة المستمرة لاعداء الاسلام والمسلمين : فكيف كان رائدهم ؟ كان هكذا:

شاحب ليس من هزال ولكـــــن بالعـــدى منـــه فـــوق كل هـــزال

ويسترسل فى تعداد المناقب والمزايا ، ويشير الى بعضها الذي يعــود الى الاستمامة فى النضال الصابر الفذ ويعود الى اريحيتهم وسخائهم فى العطاء ويقـــــول :

لا يمل الندى وقد تخلف الانـــــــــ ــــواء حتى تكـــون مثـــــل الآل

ذاك يعطى قبل السؤال ولا فخـــ ـــر فماذا يعيد للســــــــؤال

ضاق ذرع المحصى ووسع المسامى ويد المجتــدي وبيت المـــــــال

هم قوم لا يستكينون الى الدعة ، ولا ياخذ بتلابيبهم البخل والتقتيـــــر ، لانهم جعلوا الدنيا وراء ظهرانهم ، واعرضوا عن مغريات الدهر عملا بقـــول القائـــــــل :

هل الدهر الا ما عرفنـــا وادركنـــا فجائعـــه تبقـــى ولذاتـــه تفنـــــى

هم قوم يعشقون آجالهم بدنف وكلف ويصرون على ارساء امـــــرة المسلمين ، وتصير يسيرة المنال لديهم :

امرة المسلمين أيسر شانيـــــــــ ــك اذا خطت ثنت عطـــف والى

ومحل السماك ادنـــى مكـــانيـــــــــك وان كان عاليا كـــل عالـــى

لقد عضوا بالنواجد على الجهاد واصبح هوية لهم اصيلة وصميمة :

وجهاد العـــدو اولـــى زمـــانيـ ــك بطيـــب الغـــدو والآصـــال

اوجسوا منك خيفة، وتهاب الـــنبـ ل قبل استـــدادهـــا بالنـــضال

باهر فى اللثام ، والطرف لا يـــ ـــهر حتى يجول ملقـى الجـلال

يا على العلاء فى كـــل يـــوم والمغالى بــه على كـل حـــال

يا ربيع البلاد يا غيمة العالـــــ ـــم من بين مؤثـل ومـــوال

يا قريـــع الايـــام عن كل مجـــد يــا سليـل الاذواء والاقـيـال

لك من تاشفين أو من أبى يعقـــ ـــوب ذكـرى مكـارم وفعـال

نسب زاد رفعـــة وجــــلالا فى مـدى كـل رفعة وجـــلال

واضح كالصباح متســق كالنجـــ ـــم ممـر كـالعارض الهطـال

صفات محمودة تزدحم فى ثنايا هذه القصيدة الطويلة وتكاد لا تطيق حملها ، وهى حقيقة تؤكد ها تصرفاتهم ولا يزيد التطيلى على تسجيلهـا فى شعره وسردها علينا .

وقد يتبادر الى الذهن أن الصفات التى ذكرها الشاعر . لا تخرج عن نطاق ما تعارف عليه الشعراء المداحون من ذكر السماحة والندى والشجاعة والاقدام وما الى هذا ، الا أن احداثا تاريخية بعينها مرت فى عصرالمرابطين وأظهروا فيها هذه الصفات بصدق ومعانقة . فالشجاعة مثلا تأكدت لديهم فى عدة مواقف حاسمة وكبيرة ، وللدلالة على هذا ، سننتقل الى قصيدة التطيلى التى مدح فيها نفس على بن يوسف بن تاشفين والتى يقول فى مطلعها :

طليعة جيشك الـــروح الامــــين وظــل لوائـــك الفتــح المبـــين

انها نابضة بالحقيقة التى تنطوي على تواجد فى ساحة الجهاد وتسابق اليها فالقصيدة على ما يبدو قيلت بعد جواز على بن تاشفين الاندلس وخوضه لاكبر المعارك (وفى سنة ثلاث وخمسمائة جاء الامير على بن يوسف الـــى الاندلس برسم الجهاد) (4)، فالجيش المرابطى كان موجودا ، وطليعتــه المناضلة ، موجودة أيضا ، والانتصار قد تحقق له فى أكثر من مرة ، ولهذا،

فان التطيلى لم يكن يقول شيئا غير موجود ، بل كان يسرد حاصلا ويقـــرر موجودا .

ان الغاية التى كان يتوخاها على بن يوسف ويهز رمحه لاجلها ، هى الظفر والفوز ، فكان مظهره حقا ونصرا مبينا ، وكان رضاه غضارة عيش وحلاوة دنيا ، وايضا ، كان لا يأشر ولا يبطر ، بل يشكر الله نصرا لدينـه وتحقيقا للآمال ، ولاجل هذا ، جلب الخيل المسومة الضامرة ، فانطلقـت عتاقها كالعقبان وسبحت بمن يمتطيها من فرسان وشجعان فى الهبـــوات والغمرات مقتحمة سفى النقع ، ولم يعد أحد يدري أهى خيول أم سفن :

وهزة رمحك الظفر المواتـــــى ورونق سيفك الفتـــح المبـــين
وبعض رضاك للآجال دنيـــــا وشكر نداك للآمـــال ديـــــــن
جلبـــت الخيل مشرفة الهـــوادي تعـــز على قيادك أو تهــــون
كآرام الصريمـــة أو مهاهـــــا وليس سوى الرماح لها قـــرون
سوابـــح من غمـــار فى حديــــد فما تـــدري أخيل أم سفـــــين
يلقيهـــا الطعـــان ولا يبالـــــى مشيـــج ما يبـــل لـــه طعـــين

ان المرابطين لا يعتنقون الجهاد اعتباطا ولا يؤمنون به عن طـــريق العواطف ، وانما عن طريق الفكرة والعقيدة والسلوك ، وهذا ما جعلهـــم لا يندفعون اليه فى غوغائية وحماسة مرتجلة ، فوطنوا النفوس ، ودبروا الامور وقلبوها من جميع وجوهها فى ذكاء وخبرة وتوجيه ، ووفق خطـــة عسكرية دفعتهم الى اقامة الحصون والى وزن كل شىء وقياسه قبل أي تدبيـــر أو مبادهـــة ، فتأتى لهم بذلك دحر الاذفنوس (ابن ردمير) وهدم حصونـــه ومعاقله :

فتى يزن البلاد ومـــا عليهـــــا وان كانت خلائقـــه تزيـــــن

سل الانفونش أين الحرب منـــــه وربتمـــا أجاب المستعيـــن (5)
اعد لها الحصـــون مشيـــدات ومـــا تغنـــى المعاقل والحصون

فلم يستطع احد رد جيوش المرابطين ، لان العزم اذا صدق فى النفوس فان كل شىء يعود حصنا حصينا :

ولا رد الجيـــوش ولا كفاهــــــا كسيف لا يحـــاور او يخـــــون
اذا صدق الحســـام ومنتضيـــــه فـــكل قـــرارة حصـــن حصيـــن
وما اسد العريـــن بـــذي امتناع اذا لـــم يـــحمـــه الا العريـــن

ويسمى المعاقل باسمائها المعروفة بعد سقوطها :

وقارع دونها الحدثـــان ملـــك سما عـــن كـــل فـــوق ، فهو دون
تسائل عنه ((عزية)) اين تسري سراياه فتخبرها ((أريـــــــن))

طبعا لا يبقى الا الانتشاء والفرح ، فالاسلام ذاتـــه ، سيشكر علـــى ابن تاشفين على حسن صنيعه ومنافحتـــــه :

سيشكر سيفك الاسلام عنهـــــا وان أبـــت الفلاصـــم والشـــؤون
فان يمن الصليب وناصبـــــــوه فان غرار سيفـــك لا يميـــــــن

وتتكرر لدى التطيلى هذه الاوصاف فى قصائد اخرى قيلت فى غير يوسف وفى غير على ، ويصير السيف من اكثر ما يتردد فى قصائده ، بحيث نجده عندما يذكره ، يطيل فى وصفه وتشخيص حالاته وهذا امر له دلالته . نعـــم انـــه يمدح نماذج اخرى من الناس فى عصر المرابطين ، يمدح الامير ابا يحيى بنونيته التى يظهر أنه متاثر فيها كثيرا برائية ابن دراج المشهورة :

الم تعلمى ان التواء هـــو التوى وان بيـــوت العاجزين قبـــــــور

والنونية المذكورة تبدأ بقول التطليـــي :

نقــول وهزتنـــي اليك أريحـــة   كما مال غصن او ترنح نشوان

وفيها يركز على ابراز تعاسته وتعاسة بيته ، ويصف طفله الوحيــد الذي ما زال مبغوم الصوت لا يطيق تحركا ، ويسلك هذه الطريقة القديمة لاستثارة ممدوحه وفي هذه القصيدة ، يظهر حسن تعامل المرابطين مـــــع الشعراء وحدبهم عليهم ، وتظهر اريحيتهم الى جانب جهادهم ونضالهم .

ولم يكن تعامله الشعري مقتصرا على الملوك والامراء ، ولكنه كـــان يتعامل مع غيرهم من رجال الدولة والقضاء ، بل ومن غير هؤلاء ، حيــث نجده يمدح بعض العلماء ويمدح النساء ، وهذا أبرز ما يمكن اعتباره طفرة يمتاز بها عصر المرابطين أكثر ما يمتاز بها غيره من العصور .

فأبو القاسم بن حمدين قاضي قرطبة يحظى بمدائح التطيلي ، ويجيد الشاعر في ذكر مناقبه وشجاياه ، ففي احدى هذه المدائح يقول التطيلي :

درب بالاحسان مثر من الحسنـــى   اقام العلا على كـــل ســـــاق

وكفيل بالعدل والجود مشـــدود الاواخـــــــي مـــمـــزق الامـــلاق

— 4 —

ماذا يعني مدح التطيلي لابن حمدين ولباقي الفقهاء الذين مدحهم ؟ يعني ذلك ، سيطرة هؤلاء ونباهتهم وقوة تاثيرهم على المحيط العام . لقد كـــان القضاء حرا بكل معنى الكلمة ، وكان كامل الاستقلال عن السلطة التنفيذية، وهذا ما ضمن العدل والامن وسما بخطة القضاء سموا لا مزيد من بعده، حيث اصبحت تزهو الخطة المذكورة بقضاتها زهو حمام الغصون بالاطواق :

زهيــت خطــة القضاء بــه زهـــــــو حمام الــغــصـــون بالاطواق

واقامت دار الامانة من نعمـــــاه في صوب العارض الغيـــداق

واستظلت من بـــره في ظـــلال لـــم يعبهـــا منافق بنفــــــاق

واستجارت من عدله بحبـــــال غير منكوثـــة ولا أخـــــلاق

واحاطت بالمجرمين غواديـــــــه (احاطات) العقد بالاعناق

كان القاضي بين المرابطين ، يحمل نفسا وكأنها خلقت من مكـــارم الاخلاق ، ويصون حقوق الناس صيانة عادلة مستقيمة :

لابي القاسم بن حمدين نفـــس خلقـــت من مكـــارم الاخـــلاق

هذه المروءة تجعل التطيلي يتحمس لممدوحه ، فيناديه :

يا ابا قاسم دعاء امرئ وافـــا ك سبقا في اول السبـــــاق

بك قام القسطاس وانتعش الحـــق وصينت مذالـــة الاعنـــاق

فالعدل قائم ، ثابت الاركان ، يتفيأ به المسلمون ، ويتظللون تحـت ظلاله الوارفة في اطمئنان كامل ، ولعل العدل من المظاهر الكبيرة التي تميز بها عهد المرابطين لانه كان عدلا حقيقيا يقوم على فهم الاسلام فهما واعيـا عميق التفاعل والتاثير ، ومعنى هذا ، أن فقهاء المرابطين ، لم يكونوا من تلك الفئة التي تتستر وراء الدين لتعبث وتضل بل كانوا على سعة معرفة ورحابة ثقافة فقهيـة وفكرية ، وكانوا على سلوك قويم سليم ، فهذا التطيلي أيضا يلتفت الـى الـقاضي ابي العباس بن قاسم الذي ينحدر اصله من سلا بالمغرب ، ويمدحه قائلا :

لعمري لقد ضاقت على المسالك حـــدود ملض أو فراق مواشك

وفي هذه القصيدة نحس بالتطيلي وهو يصطخب بانفعالاته اصطخابا متواليا وخاصة عندما يشير الى الشعراء الذين ثلت عروشهم وتـواروا

عنه ولم يجد احدا يصبغ عليه النعم والعطايا، ومهما يكن من سبب فان غموض تلك الظروف التاريخية يجعل من الصعب تفسير كل الدوافع التي جعلته ينفعل الى الحد الذي يقول معه :

فيا دولة الضيم اجملي او تجاملي   فقد اصحبت تلك العرى والعرائك

و (يا قام زيد) اعرضي او تعارضي   فقد حال من دون المنى (قال مالك)

ان اي تفسير للسبب ، ينبغي ربطه بطبيعة تلك المرحلة وبالحساسيات الخاصة التى ميزتها ، هذا مع ضرورة الغوص فى العمق لدراسة الناحية الاجتماعية والتاريخية باستقراء ومقارنة . وان اول ما يبدو واضحا هو ان الحكم المرابطى كان حكما شعبيا ياخذ بالشورى ويعتمدها فى التسيير والتدبير ، ومعنى هذا ، ان الشعب الاندلسى كان قد أخذ يحس بوجوده ، على عكس ما كان عليه فى عصر الطوائف حيث كان الملوك يعيشون فى ابراجهم وقصورهم وكان الشعر يتردد فى مجالسهم ويكاد يقتصر على خدمتهم وتصوير نزواتهم وخطراتهم واهدافهم ، سيما اذا عرفنا ان اغلب هؤلاء الملوك ، كان شاعرا يدلى بدلوه فى القريض ويبز غيره ، فالشعر اذن كان فى منأى عن الحياة العامة وعن الشعب . وان شعرا هذه طبيعته ، ما كان ليرضى المرابطين فى سلوكهم الجديد وفى سياستهم الجديدة. وربما كان التطيلى ما زال يستهويه الجو الشعري السابق ولم يتهيأ بعد — فى هذه القصيدة — ليتكيف مع المفهوم الجديد ، فصدرت عنه هذه الابيات فى لحظة من لحظات يقظة شعوره وانفعاله ، لذا يجب عدم البناء على هذه الابيات فى اتخاذ الاحكام ، لانها تصور حالة عابرة وخاصة ، على اننا — كما قلنا فى السابق — لا ننكر ضمور الشعر فى بداية عصر المرابطين لكونهم جاؤوا للجهاد اولا ولكون حكمهم كان حكما شعبيا ثانيا ، ولكى يحسن لدينا التصور ينبغى ان نوضح ان التطيلى فى هذه القصيدة بالذات ، يحسن التخلص الى مدح القاضى الفقيه ابى العباس برحابة الفكر ، والكفاءة والاقتدار والمكرمات:

سمعت بأبى العباس تلك وهذه   الى حيث لا تسمو النجوم السوامك

رحيب مجال الفكر والامر ضيق   صليب قناة الصبر ، والامر ناهك

ومشترك الاكفاء فى السخط والرضى   وليس له فى المكرمات مشارك

ان الشيء الذي ينبغي التأكيد عليه هو ان التطيلي لم يكن يمدح القضاة والفقهاء بدافع الخوف والوجل ، أو بدافع المداجاة والرياء والرغبة فى الكسب كيفما اتفق ، بل كان يمدحهم عن طواعية وحرية واختيار ، وعن استقـلال كامل واعتبار مرموق ، فلم يكن مسلوب الارادة لا يرفع بنت شفة ، بل كان يعرب عن معارضته وعن تعريضه ببعض القضاة والفقهاء الذين لا يمنحونه مقابلا على مدائحه او الذين ينقصهم الكرم والجود ، وكمثال على ما أوضحته، اشير الى ما قاله فى أبى القاسم ابن منظور قاضى اشبيلية حيث نعته بالبخل وعدم الاستجابة :

من مبلغ عنى الفتيـان مالكـة ... ولست انطق عن افـك وعن خطل

انى تركت ابن منظور لـوارده ... لمع السراب ودعيه ابنـة الجبل

فلست أحنو بمراه على صنـم ... ولا اعـرج من مغنـاه فى طلل

ولا الوذ به ملآن مـن صلـف ... يخاتـل المجد بين الجبن والبخل

انه هنا يتكىء على حسابه وحده ، ويستقطر شعره من تصنيفاتـه للناس ، وان المقياس الوحيد لديه ، هو المردود الذي يتحقق له من مدائحه فهو اذن انانى ، شديد الحساسية بنفسه ، يصب جام غضبه ونقمته على غيره ، وان فى طى هذه الحرية ، كما نراها فى الابيات الاخيرة ، لحقيقـة تنبىء بحقيقة احترام الفرد واحترام حريته فى الافصاح عن افكاره ومواقفـه وتقديراته وتصنيفاته للآخرين ...

واذا تصفحنا قصائد أخرى سنجد ممن مدحهم الطبيب الفقيه والمثقف المعروف ابو العلاء بن زهر الذي كان طبيبا مرموقا ، فيصفه بسراج الدين الذي تتحدد بضوئه المسالك والدروب :

اضىء يا سراج الدين وابن سراجه ... اذا اشتبهت تلك المسالك والسبل

ويسترسل فى مدح رجال الدين والدولة ، مركزا على الجود والندى، محاولا التأثير عليهم ليضاعفوا من عطائهم له ، على نفس الطريقة القديمة ، الامر الذي يدل على اجترار لاذيال خلقـة رثة فى الاغلب الاعم ..

الا ان شيئا آخر يستوقفنا لدى التطيلي ، ونعنى به مدحه لبعض النساء من ذوات النباهة والسلطان ، ويمكن اعتبار هذه المدائح لديه، طفرة تجديدية تدل على استحداث غرض جديد فى الشعر الاندلسى وآن بعض هذه المدائح يحمل الى جانب ذلك ، توليدات معنوية بعيدة الاثر بحيث لا نجده فى توليدها يسعى الى اجترار المبتذل من الكلم والفكر او الى ابراز الجمال المـــادي والرشاقة والاناقة بل كان يصوغ صفاتها ومزاياها ونباهة عقلها وذكائها وما الى هذا ، دون اية مبالغة او تهويم فى عالم الشطحات الفكرية والخياليـة المضببة والمكثفة بالشقشقة اللفظية والتغريب الذي يراد لذاته فقط ، ففى مدحه للحرة حواء ، يبدا قصيدته بالمقدمة التقليدية ، ويحسن التخلص الـى ممدوحته التى تكثر من الجود والندى وترتمى عطاياها فى شكل غمرة يتالف عبابها من اللجين والعسجد ، فهى مليكة لا يضاهى قدرها ملك آخر ، انها كالشمس تصفر امامها النجوم :

اما رايت ندى حواء كيف دنـــا ... بالغيث اذ كاد ياتى دونـه العطب
رد غمـرة ترتمى من كـل ناحية ... عبابها الفضة البيضاء والسحـب
مليكـة لا يـوازي قدرها ملـك ... كالشمس تصفر عن مقدارها الشهب

انها انثى حقا ، ولكن باسمها يعلو النادي ومن فيه، فكم من ذكر يدعى ويكون اسمه من كثرة لؤمه ، لقبا له ... انها انثى تنتمى الى قوم ثبتوا الدين ووسعوا محجته البيضاء بالانفس والارواح التى صيغ منها الديـن والحسـب :

هم ثبتوا الدين اذ ضاقت مذاهبه ... بانفس صيغ منها الدين والحسب

الا نرى فى هذا البيت توليدا معنويا ؟ فرغم انه اخذ من صميم واقـع المرابطين ، فانه مولد ويدل على معانقة للواقع والحقيقة .

انها سيادة المرأة التى اصبح نفوذها يمتد فى مسارين يجمعان بـين الناحية السياسية والناحية الاجتماعية ، ويفصح ذلك عن دورها فى صياغة واقع آخر يعطى للمرأة ، ما يعطيها من جلال ووقار وقيمة ، ولم يظهر هذا الوجه لدى التطيلى فى مدحه للحرة حواء ، بل وأيضا فى العديد من مراثيـه لمجموعة من النساء كما فى قصيدته التى يستهلها بقوله :

اهلى بالبكـــاء وبالنحيــــب   فقـد نزح المحب عن الحبيـب

ففى هذه القصيدة يتالق وهج عاطفة الشاعر صادق الامتداد ، متدفق الشعور فى تعبير جميل ، بحيث يصور لنا موت مرثيته بانه ماساة تضيق لها الصدور عن القلوب ، لانها اختطفت محصنة مبرأة من العيوب ، فهـى ربيبة العز الاثيل تقوم مقام الشمس فى الاشراق وتخالفها فى كونها لا تغرب مثلهـا :

وقد وسع الحـوادث يـوم رزء   تضيق لـه الصدور عن القلـوب
وآذنت المكـارم والمعالـى   بخطب عاث حتى فى الخطـوب
ايا لهف العـلاء على حصـان   مبراة العيون مـن العيـوب
ربيبة عـزة قعسـاء نابـت   مناب الشمس الا فى الغـروب

ويستمر الشاعر فى تصعيد ربطه وتفكيره فى بناء القصيدة شكلا ومضمونا، فيكشف عن حال زوجها بعد أن تخطفها الموت منه واصبح يحمل وجدانا لا يحيد عن معايشة ذكراها ، انه يحدث نفسه بالغيب عنها :

تخلصها الردى من خدر ليـث   تداريـه الاسـود عن الوثـوب
غـدا منها بوجـدان بعيـد   علـى عهد بلقياها قريـب
يحدث نفسه بالغيب عنهـا   بظن مخطـئ وضنـى مصيـب

ان هذا المركز المرموق الذي تحتله المرأة في المجتمع الاندلسي غداة حكم المرابطين ، يدل على حقيقة كبيرة جدا ، وهي كفالة حقوق المـــرأة واحقاق انسانيتها وتمكين حضورها على مستوى رفيع من الاجلال والاكبار ، ومن غير شك ، فان ما يندرج في طي هذا من مظهر حضاري بارز الصـــورة والملمح ، ينم عن خلفية غذة تزيد في تدعيم هذا المظهر الحضاري البارز ، وفي اخصابه بما يتوجبه الامـــر .

فلو كان هناك تخلف حضاري وخلقي وفكري ، لما تمتعت المـــرأة الاندلسية بهذه المكانة الممتازة ، ولكانت مجرد حثالة ترمى أو مجرد همل يطمع فيه من يراه بشهوانية ممعنة في القسوة والضراوة ، فالمرأة لم تكن، وقتها ، سهلة الاكناف ، بل كانت ركيزة اجتماعية وانسانيةتتمثل فيها الشهامة والعراقة والطهر ، يقول التطيلي في احدى نساء المرابطين :

انثى ولكن اذا عدت فضائلهـــا	لا يدعى الفضل من انثى ولا ذكــر
تتلو الكتاب وتتلو من مآثرهـــا	آيا كآي فلم تظلم ولــم تجــر
قوامة الليل تتلــوه وتقفتـــه	على اختلافيه من طول ومن قصر
حتى اذا الصبح جلى ليلها فزعت	الى صيام ، بمرضاة الاله حــري

ان هذه الصفات العظيمة التي كانت تتميز بها المرأة المرابطيـــة ، مدعاة للتتبع والدراسة لانها صفات تسمو بها الى اعلى المنازل الخلقية ، وتعصمها من كل ما يمكن أن يصمها او ان ينال من شرفها ووقارها . ولذلك فهي على عكس ماأراد أن يصورها به ((الموحدون)) الذين هم خصـــوم سياسيون للمرابطين .

ان المرأة المرابطية كانت تتلو القرآن ، وتتجهد ، وتصوم ، وتصون عفتها من الزلل والسقوط ، فهي مرآة صافية طاهرة لسلامة السلوك وشرف المنبع والمقصد .

— 6 —

واذا تتبعنا قصائد الديوان ، فسنجد الوانا اخرى تساعدنا علـــى استكمال الصورة العامة لباقى المظاهر الاخرى التى سادت فى ذلك العصر ، فهناك الغزل الرقيق الذي لا يحمل الا الشفوف والعذوبة والصدق ، وهناك الوصف للمطر ، وهو غزير الهتون فى الاندلس ، وهناك المراثى المتعددة التى تستغرق اغلب صفحات الديوان ، وهناك بالخصوص رثاء التطيلى لزوجته.

والمراثى عند التطيلى تحتاج الى دراسة خاصة بها ، لان التطيلى كان يجد فيها مبتغاه ، فيفصح عن نقمته وضيقه بهذه الحياة الدنيا ، ويكثر مـــن تصوير حزنه والمـــه .

وهناك الموشحات التى قالها فى مناسبات متفرقة ، وهى ايضا ذات قيمة كبيرة وتحتاج الى دراسة خاصة بها ، لانها جاءت لتؤكد ان المرابطـــين كانوا يؤثرون تشجيع اصحابها ويساعدون على شيوعها لتعمل على تغذية الوجدان الجماعى . ولتحقق انطلاقا جديدا يتأكد به حضور فنى آخر للادب الاندلسى ، واذا كانت الموشحات قد ظهرت قبل المرابطين على يد عبـــادة ابن ما السماء ، وتألقت بصورة مشرقة لدى ابن سهل اليهودي الاشبيلى ، ودخلت الى مجالس الغناء والطرب ، لخفتها وانسجامها مع الاداء الموسيقى المطلوب ، واذا كانت قد اتسمت بايقاعيتها وشبه قواعدها من خرجة وبيت، وسمط ، ومذهب ، أو مطلع ، ودور وقفل ، وغصن ، فان الموشحات ، قبل المرابطين ، بقيت نخبوية الحضور لا تتغلغل فى المحيط الاجتماعى تغلغـــلا فاعلا ومتجاوبا مع الراي العام الادبى الا فى حدود معينة .

اما فى عهد المرابطين ، فانها اتخذت ملمحا آخر ، فيه جدة وحركة وتأثير، وفيه تفاعل مع البيئة الاجتماعية، بحيثلم يعد التوشيح متوقفا على موضوع دون سواه ، بل دخل ليشمل اغراضا متنوعة واوزانا اخرى جديدة من اقرع وتام وما اليهما .

وان شاعرنا قد اشتهر اكثر ، بموشحه الذي يقول فيه :

ضاحك عن جمان سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان وحواه صدر

ان موشحات الاعمى التطيلى تدعو الى دراسة مستقلة ، رغم ان ما جمع منها قليل لا يتجاوز ثلاث وعشرين موشحة ، وان كان الدكتور احسان عباس قد ذهب الى ان المعروف منها هو اثنان وعشرين فقط ، ومع هذه القلة ، نجد التطيلى اشتهر بالموشحات اكثر مما اشتهر بالقصائد الشعرية حتى قيل انه من بين اربعة زادوا فى اقامة مناد الموشحات وتقويم سنادها بناء وتعبيرا وتماسكا فنيا ، وهم التطيلى ، وابن بقى ، وابن باجة ، والابيض لقد فتح هؤلاء ، وضمنهم شاعرنا التطيلى ، الباب للمشوحات كى تحلق فى آفاق واسعة مرتبطة بصميم حياة الناس فى كل الاغراض ، وهكذا لم تعد الموشحات وحيدة الغرض بل تعددت اغراضها كالمدح والرثاء ووصف الطبيعة والتامل الخفيف الدال على ارهاصات فلسفية بسيطة . وذلك ما جعلها تتحرك وتتفاعل مع البيئة تفاعلا واضحا مستقبلى الرؤيا .

— 7 —

هذا وان شعر التطيلي يتوفر على خصائص فنية متميزة من حيث قوة التعبير ، ورصانة الاسلوب الشيء الذي ينبىء بأن الشاعر كان سيال الطبع منقاد القريحة ، يعتمد على ثقافة شعرية واسعة ، مصدرها ، شعراء العربية الكبار من امثال ابى تمام ، والمتنبى ، والمعري ، والشريف الرضى، ونراه يحاول ، فى اكثر من قصيدة، ان يستغل هذه الثقافةالشعرية استغلالا مسترسلا ولكنه استغلال لا يفقد معه كل مواقعه وملامحه ، الا انه لا يطيق بلورة صورته المستقلة معه ، الا فى نطاق خافت الضوء ، واحيانا ، فى نطاق قوي الجموح والاستقلال ، وبخاصة عندما يعود الى ذاتيته وضياعه فى مثل بكاء حظه بحمص وتبرمه الشديد باهلها وفى ما يندرج تحت ذلك .

ان التطيلى فى شعره الوصفى لا يحلق بعيدا ، وذلك بحكم عاهته التى كانت تمنعه من استغلال الصور الحسية واخضاعها لرؤياه الفنية اخضاعا

ابداعيا جميلا ، على انه بفحصه الشديد للشعر العربى ، استطاع ان يدرك ماهية كثير من المحسوسات وكثير من التشخيصات ، وهذا ما ساعده على صنع بعض الصور المجازية الموفقة والمعبرة عن الغرض ، وعندي ان هذه النقطة ما زالت تتطلب المزيد من الدراسة المشفوعة بالتحليل النفسي ، حتى يتاتى سبر غور نفس الرجل وادراك سكناتها وتدعيم كل ذلك بما ينطـوي عليه شعره من ايحاءات وارهاصات دالـــة .

بخصوص قاموسه اللغوي ، فانه ــ كما قلنا ــ متاثر ببعض الشعراء الشرقيين ، ومتأثر كذلك بالتراكيب التى كانت سائدة فى عصره، ولذلك فان مفردته التى يستعملها ، ليست ذاتية المنبع ، وليست مفصحة عن تفرد وتميز كبيرين ، فهو كاي شاعر اندلسى آخر ، اذا امتاز عن سواه ، فان امتيازه يكون فى حسن تجاور الفاظه وحسن ايقاعه وامتداد تعبيره ، والا فاننا نجد لديه شبه استلاب فى البعد التعبيري ، واذا تساءل احد عن هذا الاستيلاب وتجاه من ؟ نجيبه بانه استلاب تجاه من سبقه من الشعراء ــ كما قلنا ــ اي تجاه الماضى ، وايضا تجاه ما يموج به المحيط الاندلسى فى وقته مـــن معارك ومن استعداد للمعارك ، حتى الفيناه يدخل لغة الحرب فى غزلـــه وتشببه كما فى هذا البيت :

ولحظك الغنج السحار ام قـــدر ام ذو الفقار مضى فى يوم صفين؟

ان المعنى جميل ، ولكن ما معنى أن يورد الشاعر على بن ابى طالب، ومعركة صفين ؟ أنه استلاب مزدوج التاثير كما اشرنا آنفـــا .

وبعد ، فهذا هو عصر المرابطين كما يظهر من خلال ديوان التطيلى بهذا التحليل الموجز ، وهو عصر لم يكن مفتقرا الى اسس النهضة الادبيـــة والفكرية ، بل كان متوفرا عليها بقدر لا يختلف قليلا او كثيرا عن سواه من العصور الزاهية ، ادباوفكرا وحضارة ، وان الامر ليتطلب المزيد من الدراسة لهم ، من خلال النصوص الشعرية والادبية لشعراء هذا العصر حتى تتكشف الصورة اكثر ، بكل ملامحها وقسماتها ، وذلك ما اعتزم القيام به استقبالا ان شاء اللـــه .

العرائش حسن الطريبـــق

هـــــاومـــــش

1) الدارس الذي نعنيه هو الدكتور مصطفى الشكعة فى كتابـــه « الادب الاندلسى ، موضوعاته وفنونه » (ط دار العلم للملايين . ص 225)

2) نفس الكاتب ، ونفس الكتاب ، حيث نلاحظ أنه فى ايـــراده للقضيـــة يتحمس ويعتبر ما يطرحه الشقندي « نقدا أصيلا وصادقا وممتازا ».

2) هناك من ينسبه الى طليطلة ، وقد عرف شاعران ضريران ينتسبـــان الى تطيلـــــــة .

4) ديوان الاعمى التطلى . ط بيروت ص 11 .

5) المستعين أحد الامراء الذين تعاونوا مع الاذفونش وحاولوا الوقوف فى وجه المرابطين بتلاعبـــــه .

ح. ط.

الإعلام الثقافي

الثقافة في مجلس النواب (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة السيد الرئيس . حضرات السادة النواب المحترمين .

جرت عادة الوزراء أن يقدموا من هذا المنبر فى أعقاب السنة المالية دفاعا عن الاعتمادات المخولة لوزاراتهم بمقتضى مشروع القانون المالى للسنة التالية ، ويناشدوا السادة النواب المحترمين المصادقة على هذه الاعتمادات حتى اذا أقروها تيسر للوزراء أن ينصرفوا الى الانجاز والتحقيق .

ولو كانت الاعتمادات المرصودة لوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية اعتمادات ضخمة طولا وعرضا لتجشمت الدفاع عنها ما وسعنى الدفاع ولالحت على الحاجة الى بسط المبررات والمسوغات ولحاولت أن تفضى جهودي الى الاقتناع والتسليم ،

---

*) العرض القيم الذي القاه السيد الحاج محمد أبا حنيني ، وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية فى مجلس النواب ، بمناسبة دراسة هذا الاخير لميزانية 1978 .

ولكنها اعتمادات من الضئالة والهزال بحيث لا تفتقر الى دفـــاع يلتمس شد أزرها ويهيب بالموافقة عليها دون مس بتعديـــل او اضعاف بنقصان ، وما مثلها وهي ما هى عليه من نحافة ونحول الا كمثل ذلك الشاعر المتيم العميد الذي يشكو الوهن والضمور ويصف حاله بقوله :

ولو ان ما أبقيت منى معلــق   بعود ثمام ما تأود عودها

لقد وقفت ـ حضرات السادة ـ لجنة مجلسكم الخاصـــــة بالشؤون الثقافية على مبلغ الاعتمادات المخولة وتبينت انها هزيلة واهية لا تسد الخلة ولا تكفى لمواجهة المتطلبات الكثيرة التـــى تتولد من طموح مشروع ، وانى لاهتبل الفرصة المتاحة لى من جديد ، لاسداء الشكر الجزيل الى السادة النواب المحترمين أعضاء اللجنة الذين أبدوا اهتمامهم الكبير بالثقافة وشؤونها وأفادونى بالقيم والوجيه من الملاحظات والاقتراحات ، وأغتنم هـــــذه الفرصة من جهة أخرى للثناء على ما لاحظته اليوم من عناية بما هو موكول الى من شؤون وللاعراب للسادة النواب الذيـــــن سبقونى الى هذا المنبر عن وافر شكري لهذه العناية ولمـــا يكمن فى تضاعيفها من رغبة صريحة فى ان تضطلع الثقافة فى وطننـــــا بالدور الفعال الذي تلتقى حوله مشيئة السادة نواب الامة ومشيئة حكومة صاحب الجلالة أيده الله ونصره .

وعلى كل ما تتصف به الاعتمادات المالية المرصودة للعمـــل الثقافى من نزارة وقلة بالقياس الى ما نريده جميعا ونتوخاه من مقاصد وغايات فانى ألتمس منكم أن تقروها اقرارا يبقى على العزيمة والصريمة ويحث الخطى على ان تتلاحق متسارعـــة ،

ويمهد للمراحل المرقوبة المطلوبة الطريق لتحقيقها فى أحسن الظروف والاحوال .

وبعد فما هو هذا الشأن الذي نسميه ثقافة ونبذل الاموال لنموه وازدهاره كما نبذلها لنمو الاقتصاد وسلامته وازدهاره ؟ وماذا أفدنا من الثقافة منذ سنوات ، وهل هناك أمل فى أن نفيد منها شيئا ذا غناء فى مستقبل الايام، هذه أسئلةقد تتوافد وتتوارد بيد انى لا أرى ان فى الاغضاء عليها خيرا لى ولكم بل أظن ان التوضيح والتبيين أقوم السبل الى معرفة ما يتجه اليه القصد وادراك ما يستحث الجهود وتترامى اليه المساعى .

حضرة السيد الرئيس حضرات السادة النواب المحترمين

كثر الحديث فى عصرنا هذا عن الثقافة حتى انها أصبحت فصلا من الفصول التى يتولاها التفكير المستمر والكلام المتواصل والتأليف الغزير تعريفا وتحليلا وتاريخا ، ولقد ادى هذا الاهتمام الى وضع عدد كبير من التعاريف تنتسب الى مشارب شتى ومدارس متباينة ، واذا كانت هذه التعاريف لا تتفق على مفهوم واحد للثقافة يجمع عليه العلماء الاثنوغرافيون ، وعلماء الاجتماع ، وغيرهم ممن يعنى بهذا المجال ، عناية عابرة أو غير عابرة ، فان عدد التعاريف التى أحصاها المتخصصون لا يقل عن 161 تعريفا ، الا ان الشقة بين المختلفين أخذت أبعادها منذ حين تتدانى وتتقارب وأصبح المفهوم اللاتينى لا يكاد يبتعد عن المفهوم الانجلوساكسونى ، وليس قصدي أن أضيف تعريفا جديدا الى التعاريف الموضوعة المحددة ولا أن أطيل عليكم بالمقارنة بين اتجاه واتجاه والموازنة بين مفهوم

ومفهوم ، وحسبي أن أخلص الى المنطلق الذي انطلقنا منه لممارسة العمل الثقافي او للسهر عليه والرعاية لشؤونه ؟

وهذا المنطلق يستمد أصوله من لغتنا كما يستمدها مما تواضعت عليه الكثرة الكاثرة من الناس شرقا وغربا فى أيامنا هذه .

تعلمون ولا شك أيها السادة ان تعريفنا العربي للتثقيف والثقافة ينطوي على معاني الفطنه والحذاقة وتقويم الاعوجاج والتهذيب ، مصداق ذلك مثالان اثنان احدهما قول أم حكيم بنت عبد المطلب :

« انى حصان غما اكلم وثقاف فما اعلم » ؟ والآخر قول الشاعر :

ألا انما يكفى الفتى عند زيغه
من الاود البادي ثقاف المقوم

ولئن كان العمل الثقافي استنادا الى هذه المعاني عملا مشاعا بين جملة من الوزارات فان المجال الخاص بوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية مجال رحب يتسع لكثير من المزاولات والممارسات ، وقد اوضح هذه الاختصاصات الخطاب الملكى الذي ألقاه صاحب الجلالة حفظه الله بعيد احداث الوزارة، وفصلها ظهير شريف صدر منذ عامين ، وأكدها تصريح سيادة الوزير الاول فى مجلسكم الموقر هذا يوم عرض عليكم برنامج الحكومة .

فنحن مطالبون اعتمادا على هذا كله فى نطاق وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، بان نحافظ ونرعى ما تقوم عليه

اصالتنا وبأن نسهر بالصيانة على تراثنا ونبحث عن جذور تاريخنا الممتد فى بطون الارض ونشيع القراءة ونبث المتاحف فى كل جهة ونبذل للمسرح والموسيقى والرسم وغير ذلك من الفنون ألوانا من المساندة والتشجيع ونتخذ من التنقيب والصيانة والقراءة وممارسة الفنون وسائل لبروز شخصيتنا فى كل مجال ، ولاثراء الفرد والجماعات بالمعرفة الواسعة والدراية النافعة ، ونحن مطالبون بأن نحضر بجميع خصائصنا ومواهبنا وملكاتنا فى كل مكان يتعين علينا ان يتجلى فيه المغرب بقيمه الفكرية والفنية ، ثم اننا مطالبون الى هذا وذاك بأن تقتعد صلاتنا بأشقائنا وأصدقائنا حيثما كانوا من قارتنا أو غير قارتنا مقعد الصلات القائمة على التعارف والتعاون والاخذ والعطاء .

ولبلوغ هذه المطالب ابتدأنا باعداد طائفة من النصوص التشريعيةوالتنظيمية التىأحسسنا بالحاجةالماسة اليها، فقدمناها للحكومة بقصد الموافقة عليها ، فمنها ما صدر ومنها ما هو رهن بالدرس وأملنا وطيد أن يصادق عليها لتتوافر لدينا الاسباب الكفيلة بمنح عملنا الثقافى ذلك العمق وذلك الاتساع اللذين هما مناط الآمال .

الا ان تأخر صدور بعض النصوص وان فت فى ساعدنا بعض الشىء فانه لم يقف حاجزا بيننا وبين الانطلاق ، وانطلقنا بالفعل داخل البلاد وخارجها معرفين بالثقافة المغربية أصالتها وطرافتها ، مشاركين فى كثير من اللقاءات العربية وغير العربية، مستقبلين لمؤتمرات متنوعة الاهداف والمرامى ، مرحبين بالاسابيع الثقافية ومنظمين لاسابيع ثقافية فى الاقطار الشقيقة

والصديقة ، مشجعين للادباء والكتاب والجمعيات الثقافيـــة ، مصدرين لمجلات متخصصة وغير متخصصة ، محافظين عــلى التراث ، منقبين عن الآثار ، مهتمين بالقراءة وترغيب الشباب ومن تجاوز طور الشباب فى المطالعة واقتناء العرفان ، مولين كل ما يمكن من عناية لمعاهدنا الموسيقية المفتقرة الى المستوى العالى المطلوب من التلقين والتعليم ، حافزين للرسم والمسرح والمعارض الفنية ، جادين فى اغناء متاحفنا بالاعمال الفنية على اختلاف اصنافها وأشكالهــا .

وهكذا عبرنا الاجواء بفنوننا الاصيلة وفنوننا الشعبية الى ألمانيا والاتحاد السوفييتى والسينغال وتونس وموريتـــانيــا ونيجيريا وفرنسا وسلطنة عمان فضـــلا عـــن رحلات وفـــودنا للمشاركة فى لقاءات تمت فى القاهرة وبغداد وابـــى ظبى وعمان وروما ونواكشوط وغيرها من المدن والعواصم .

وهكذا عبرت الاجواء الى بلادنا مجموعـــات من الاتحـــاد السوفييتى وكوريا وتونس وفلسطين والمملكة العربية السعودية وموريتانيا والصين الشعبية ، قمنا بهذه الجهود وتلقينا هـــذه المجموعات على قلة من أطر وضآلة من امكانات مالية .

ومهما يكن من شىء فقد استطعنا ان نبـــوىء المغرب مقاما محمودا بين الاشقاء والاصدقاء ونظهر هؤلاء على ما يتسم بـــه المغرب من جد وفاعلية وعلى ما تزخر به بلادنا من آثار لمواهب وعبقريات قديمة وحديثة ، وندلهم على اننا فى كثير من الامـــور راكبون للنهج القويم طامحون الطموح الشامخ حيثما اتجـــه العزم واشرأبت المطالب .

وسنظل دائبين على التعريف بثقافتنا والتصدى لاكتناه ثقافة الشعوب التى تشجنا بها وشائج قرابة وصداقة تاريخية كما سنظل راعين لالوان الحضارة المتأصلة وألوان الحضارة المتمثلة فى العمل الفنى المتجدد بتجدد الحقب والتيارات ، شديدي الحرص على أن تتوالى ثقافتنا مترعة ثرية متسمة أبدا بالديناميكية والحركة موصوفة ابدا بأنها متاع مشاع لجميع افراد الشعب غير موقوف على طائفة محظوظة او فئة مخصوصة، وسواء تعلق الامر بالابداع ام تعلق بالاستفادة والاستمتاع فان وكدنا سيصل مصروفا الى خلق الظروف الصالحة والفرص الراضية لفائدة كل احساس وكل موهبة وكل ادراك لا فرق بين فنان وفنان ولا ايثار لجمهور على جمهور .

معذرة اليكم سيدي الرئيس ، حضرات السادة النواب المحترمين ، فقد أطلت حتى خشيت الاملال وبلغت من اصغائكم أحسن ما ترومه الآمال ، وأعدكم بأن آخذ بعين الاعتبار الاقتراحات المعبر عنها فى هذا المجلس وذلك بقدر الامكان .

والسلام عليكم ورحمة الله

محمد اباصنيني

مجلة " اليمامة " تجري استجوابا مع الأستاذ السيد
الحاج محمد اباصنيني
وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية

اجرت مجلة « اليمامة » التي تصدر بالرياض ، استجوابا أدبيا مع

الاستاذ الكبير السيد الحاج محمد أبا حنيني ، وزيـــر الدولة المكلـــف بالشؤون الثقافية ، صدر بعنوان « أبا حنيني يجدد شكوى ابن بسام فى الذخيرة » فى عددها 452 المؤرخ ب 27 ماي 1977 ، من جملة ما جـــاء فيه ، حديث معاليه باسهاب عن الحالات الموروثة التي جعلت الثقافة فى المشرق أكثر حيوية فى عصر النهضة ، كما اهتم بالحديث عن اختصاصات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية وتشجيعها للادباء والفنانيـــن ، وتنظيم الوزارة لجائزتي « الحسن الثانـــي للمخطوطـــات والوثائـــق » و « جائزة المغرب » ، بالاضافة الى تزويد الوزارة بعض المكتبـــات فى الخارج بالكتب لفائدة الجاليات المغربية . كما أشار السيد الوزير فى هذا الاستجواب الى المشاكل التي تعترض المؤلف المغربي والصعوبات التي يواجهها من حيث النشر والتوزيع .

ومن جهة اخرى تحدث الاستاذ الوزير فى هذا الاستجواب عـــن احتفاظ المغاربة بكيانهم وبروحهم وبدينهم وبلغتهم وبأصالتهم ، اذ لا حرج فى أن يكون لكل بلد عربي ثقافته الخاصة ولكن لا بد أن يكـــون الجامـــع المشترك هو الثقافة العربية الاسلامية .

بلاغ من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية حول المشاركة في جائزة المغرب لسنة 1977

ان جائزة المغرب لسنة 1977 ستمنح فى نهاية السنة الحاليـــة . وستعين الوزارة لجنة التحكيم من بين الاساتذة المختصين ، وذلك بناء على محتويات الكتب المرشحة لنيل الجائزة .

وسيقفل باب الترشيحات فى الساعة الثانية عشرة زوالا من يوم السبت 19 نوفمبر 1977 .

وعلـــى من يرغب فى الاطلاع على الشروط المطلوبة قانونا أن يعود الى القـــرار الوزاري رقم 75474 المـــؤرخ ب 17 شعبـــان 1394 (5 شتنبر 1974) والصادر بالجريدة الرسمية عدد 3230 ، او ان يتصـــل بمصلحة الانتاج الثقافـــي والمكتبات التابعة لوزارة الدولـــة المكلـــفـــة بالشؤون الثقافية ـــ شارع غاندي ـــ الرباط .

بلاغ من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية حول نتيجة جائزة المغرب لسنة 1977

بناء على البلاغ الصادر عن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، حول الاجتماع الاول — لاعضاء اللجنة العامة الموكول اليهـا اختيار المستحقين لجائزة المغرب لهذه السنة — الذي انعقد برئاسة السيد الحاج محمد أبا حنيني ، وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، والذي تم فيه تصنيف الكتب المرشحة حسب محتوياتها ، وأصناف الجائزة الثلاثة ، كما تم فيه تكوين اللجن ، وتوزيع الكتب المرشحة على أعضائها حسب اختصاصاتهم .

بناء على ذلك ، عاد اعضاء اللجنة العامة للاجتماع من جديد بقاعة وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، فى مساء يوم الاثنين 8 محرم 1398 — الموافق 19 دجنبر 1977 بعد أن انقسمت الى ثلاثة لجن :

1) لجنة العلوم الانسانية والاجتماعية .
2) لجنة العلوم والرياضيات ؛
3) لجنة الفنون والآداب .

واختلت كل لجنة من هذه اللجن فى قاعة خاصة ، وبعد مناقشات ومداولات استغرقت ثلاث ساعات استقر الراي على ما يلي :

— تمنح جائزة المغرب للعلوم الانسانية والاجتماعية لهذه السنة للسيدة نعيمة هراج التوزاني ، الاستاذة بكلية الآداب بجامعة محمد الخامس، تقديرا لكتابها « الامناء بالمغرب فى عهد السلطان مولاي الحسن . »

— تمنح جائزة المغرب للعلوم والرياضيات لهذه السنة للدكتور عبد اللطيف ابن شقرون الاستاذ بكلية الطب بجامعة محمد الخامس ، تقديرا لكتابه « دور المثانة المكونة من الاعور فى حصر البول » .

— تمنح جائزة المغرب للاداب والفنون لهذه السنة للسيد عبد العلى الودغيري الاستاذ بكلية الآداب بجامعة محمد بن عبد الله ، تقديرا لكتابه المسمى « ابو على القالى واثره فى الدراسات اللغوية والادبية بالاندلس»

وكانت لجنة التحكيم تتالف فى هذه السنة من السادة :

الدكتور عبد اللطيف بربيش ، الدكتور عبد القادر التونسى ، الدكتور ادريس بن يحيى ، الدكتور محمد ابن شريفة ، الكتور عباس الجراري ، الدكتور تمام حسان ، الدكتور عبد الهادي التازي ، الدكتور عبد الكريم الابيض ، الدكتور محمد ابن شقرون ، الدكتور محمد بنونة ، الاستاذ محمد القبلى ، الاستاذ محمد المنونى ، الاستاذ محمد ميكو ، الاستاذ عبد الكريم غلاب ، الاستاذ عبد الرحمن الفاسى ، الاستاذ محمد ابن تاويت ، الاستاذ الامين الدمناتى ، الاستاذ مراد بن مبارك .

بلاغ من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية حول جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق لسنة 1978

فى اطار التعريف بالتراث التاريخى والحضاري بالمغرب ، وجريا على العادة المالوفة التى سلكتها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، فى تنظيم جائزة الحسن الثانى للمخطوطات والوثائق ، يسرها ان تعلن للجمهور المغربى الكريم فى هذه السنة عن الجائزة العاشرة للمخطوطات والوثائق التى خصصت لها مكافآت مالية تتصاعد حسب اهمية المخطوط او الوثيقة التى توجد فى الملكية الخاصة .

ومن المعلوم أن جل ما هو مخطوط يعتبر ذخيرة كان مكتوبا على الورق، او الرق أو الالواح ولهذا فان الجوائز ستخصص لما يلى :

اولا : للاهم من الكتب المخطوطة ، مؤلفات ، تقاييد وكناشات علمية ، ومذكرات شخصية وخطوط العلماء ، وكنانيش ونسخ الملحون ، ومجموعات الفتاوي او الرسائل ودواوين الاشعار والمجموعات الموسيقية وكل ما هو مخطوط ولو كان على ورقة أو ورقات معدودة .

ثانيا : للوثائق ايا كان عصرها وموضوعها ، ظهائر ورسائل رسمية او شخصية ورسوم عدلية ومحاسبات واجازات علمية وشهادات الانساب وغير ذلك .

هذا وستشرف لجنة برئاسة معالى السيد وزير الدولة المكلف

بالشؤون الثقافية على فحص هذه المخطوطات وتقييمها ، واصدار بلاغات حول نتائج الجائزة ؟

وتؤكد الوزارة انها اتخذت كل الاحتياطات لضمان ارجاع المخطوطات الى أصحابها كاملة غير منقوصة ، بدون ابطاء ولا تاخير ، فور انتهاء المعرض واشغال اللجنة المختصة .

والجدير بالذكر ان قيمة المخطوط او الوثيقة انما تتجلى فى مدى ما قد يستفيد منها تاريخ الامة وحضارتها ، وان ضياع وثيقة مهمة نتيجة آفة من الآفات تعد خسارة فى ثروتها الفكرية . لهذه الاعتبارات كلها ، قررت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، تصوير المخطوطات والوثائق النفيسة لتحفظ فى المكتبة العامة بالرباط ، للاستفادة منها ، وخشية مما قد يعتريها من ضياع ، كما ان تصويرها لا يمكن ان يصيب المخطوط او الوثيقة باي ضرر ، ولا يفقد ايا منهما ما له من قيمة كمستند خطي .

ورغبة من الوزارة فى الحصول على مخطوطات جديدة تؤكد للسادة المساهمين فى هذه الجائزة ان المخطوطات والوثائق التى سبق عرضها وتقديمها لن تقبل فى المسابقة الحالية .

فعلى من يتوفر على شيء من هذه الذخائر ان يتقدم بها من الآن وحتى العشرين من شهر فبراير 1978 الى احد المراكز التالية :

العمالة او الاقليم	اسم المركز وعنوانه
عمالة الرباط وسلا	وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية – مصلحة الانتاج الثقافي والمكتبات ، شارع غاندي – الرباط –
عمالة الدار البيضاء عمالة اقليم سطات عمالة اقليم خريبكة عمالة اقليم الجديدة عمالة اقليم ابن سليمان	النيابة الاقليمية للشؤون الثقافية شارع الزيراوي رقم 133 – الدار البيضاء

العمالــة او الاقليــم	اسم المركز وعنوانــه
عمالة اقليم فاس عمالة اقليم تازة عمالة اقليم بولمان	خزانة البطحاء « بطحاء الاستقلال » فــاس
عمالة اقليم مكناس عمالة اقليم خنيفرة عمالة اقليم قصر السوق	خزانة الجامع الكبير زنقة العــدول مكنــاس
عمالة اقليم القنيطرة عمالة اقليم الخميسات	خزانة القنيطرة طريق عيــن السبع القنيطــرة
عمالة اقليم مراكش عمالة اقليم بنى ملال عمالة اقليم قلعة السراغنة عمالة اقليم ازيلال عمالة اقليم ورزازات	خزانة ابن يوسف العمومية مراكــش
عمالة اقليم اكادير عمالة اقليم تزنيت عمالة اقليم طرفاية عمالة اقليم طنطان	خزانة المجلس البلدي ــ اكاديــر
عمالة اقليم اجادير ــ زاكورة ارفود ــ تارودانت	خزانة الامــام على تارودانــت
عمالة اقليم وجدة عمالة اقليم فكيك عمالة اقليم الناضور	خزانة الشريف الادريسى ساحة القصبة ــ وجدة
عمالة اقليم تطوان عمالة اقليم الشاون عمالة اقليم الحسيمة	الخزانة العامة للكتب والمخطوطات شارع محمد الخامس ــ تطــوان

العمالة او الاقليم	اسم المركز وعنوانه
عمالة اقليم تطوان ـ العرائش ـ القصر الكبير ـ عرباوة	خزانة البلدية ـ القصر الكبير
عمالة اقليم طنجة	الخزانة العامة ـ شارع الحرية 71 ـ طنجة
عمالة اقليم آسفى عمالة اقليم الصويرة	خزانة المجلس البلدي ـ آسفى
الصحراء المغربية	مراكز السلطة المغربية بالصحراء المغربية ـ العيون ـ بوجدور ـ اسمارة

في المناهل (*)

العدد التاسع

من هناك ، من المكان البعيد ، ومن المستقر القريب ، من الاطلالة على المحيط ، ومن النبض الصادق لقلب العرب ، من هناك تطل علينا بين الحين والحين تلك « النسمات » التى تتجمع فى شكل « باقة » تقول لنا كل شيء عن الاعزاء الذين يسكنون اقصى المغرب العربى ، ويتعاملون مع « اللغة » وفنونها تعامل العشاق .

تأتى « المناهل » ليقول « محمد العربى الخطابى » تحت عنوان :

(*) يسر « المناهل » أن تنقل لقرائها هذه الكلمة الطيبة الصادرة فى مجلة « روز اليوسف » (26 دجنبر 1977) عدد 2585 موجهة شكرها الى الاستاذ عبد الفتاح رزق على عواطفه نحو هذه المجلة .

« الاندلس راح ، وقيثارة ، وعواطف » :

« الاندلس فى قلوب الشعراء قصيدة تتالف من كلمات ! عيون تسود تؤلقها البسمات وتطهرها الدموع ، وحب يذكيه الصد والغيرة ، وشموخ يطبع هامات الرجال ، وملاحة تذوب فى رشاقة النساء » .

ونطالع بحثا للاديب المغربى الكبير « محمد الفاسى » عن اللغة السواحلية واثر العربية فيها ؟.. كما نقرأ بحثا فريدا للدكتور « عباس الجراري » عن « المولد النبوي فى الادب المغربى » .. وهو يعتمد فى هذا البحث على كتاب « الدر المنظم فى مولد النبي المعظم » — لابي العباس السبتى — ويقول فى البداية : « فى القرن السابع الهجري نلتقى فى المشرق — مصر خاصة — مع تيار ادبى متأثر بالفكر الصوفى الذي حمله فى هذه الفترة ، وقبلها بقليل ، متصوفة مغاربة واندلسيون كمحيى الدين بن عربى ، وابى الحسن الشاذلى ، وابى العباس المرسى ، واحمد البدوي ».

وفى « المناهل » نلتقى بقصة مترجمة عن الانجليزية بقلم الكاتب الكبير « عبد المجيد ابن جلون » ، كما نلتقى بمجموعة فريدة من قصائد الشعراء :

« عمر بهاء الدين » ، و « علي الصقلي » و « حسن الطريبق » ، ثم بالقصة المتميزة التي اختار لها مؤلفها « أحمد عبد السلام البقالي » بعنوان: « الليلة الثانية بعد الالف » ؛ والقصة تنسج على منوال حكايات « الف ليلة وليلة » ولكنها تستخدم الاسلوب العصري مهما كان من غرابة أسماء الابطال وغرابة تصرفاتهم ، فمهما يكن فى الامر فان « شهرزاد » ستظل تتنفس الحياة ، ومهما انتهت الليالى فانه لا بد وان يأتى « الصباح لتسكت — مؤقتا — عن الكلام المباح ! »

ويثير « محمد اليعقوبى البدراوي » قضية تاريخية هامة : «احراق كتاب الاحياء فى الغرب الاسلامي » ويقول :

« واذا اتفق الفقهاء — فى المغرب الاسلامى وفى عهد المرابطين — على قرار الاحراق ونفذوه فى كتاب « الاحياء » فلان الظروف التى الــف

فيها هذا الكتاب فى المشرق لا تتفق والظروف التى كانت تحيط بالمغاربة . فالدين عند المرابطين دين عمل وجهاد ، أما « ابو حامد الغزالى » فقد الف كتابه فى مرحلة العزلة من حياته ساخطا على مجتمعه ، وخلط دراسته الفقهية بالفلسفة والتصوف ، وبهذا جاء مفهومه للفقيه مخالفا للرسالة التى كان يتحملها الفقيه فى الاندلس » .

و .. لا نعتقد ان هذه « العجالة » يمكن ان تفى كل تلك الدراسات التى تزدحم بها « المناهل » ، ولكن يجب تحية ذلك الجهد الكبير وراء اصدار هذه المجلة ، ففى الوقت الذي تتفاخر فيه بعض دول المغرب العربى بحرصها على العروربة لا نجد عندها مجلة جادة .. بينما تقدم « المغرب » هذه المجلة بانتظام ، وباحتضان لكل الاتجاهات والاشكال الادبية ، الامر الذي يستدعى ان تتواجد هنا فى مصر .

وهذا ما تحرص عليه « المناهل » !

« روز اليوسف » **عبد الفتاح رزق**

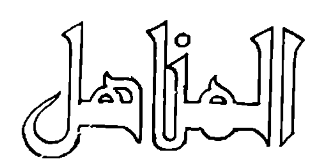
ذيل وتعليق
حول قضية المعتمد بن عباد

وصلنا القسم العاشر من هذا البحث للاستاذ عبد الرحمن الفاسي ، وهذا العدد تحت الطبع ، فأرجانا نشره الى العدد القادم ان شاء الله .

مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب
من نشأتها إلى مؤتمر مدريد (1880)

صدر مؤخرا للاستاذ عبد الوهاب ابن منصور كتاب جديد بعنوان « مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب من نشأتها الى مؤتمر مدريد سنة 1880 » . وسنوافي القراء فى العدد القادم بعرض عنه .



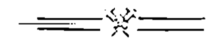


تصــدرهـــــا :

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافيـــة

زنقة غاندي ــ الرباط ــ المغــرب

التليفون : 91-318 / 92 / 93



AL - MANAHIL

Publication du
MINISTERE D'ETAT CHARGE DES AFFAIRES CULTURELLES

Rue Ghandi - Rabat (Maroc)
Tél. : 318-91/92/93

مطبعة فضالة ــ المحمدية (المغرب)